نور الدين فارح

@ketab_n
Follow Me
ketab.me
Best Books
12.11.2012

أســـرار

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

نور الدين فارح

أسرار

رواية

ترجمة

خالد الجبيلي

منشورات الجمل

ketab.me
Best Books
Twitter: @ketab_n

نور الدين فارح: أســـرار

Twitter: @ketab_n

ولد نور الدين فارح عام ١٩٤٥ في بايدوه/ الصومال. درس في الصومال، انكلترا والهند (الآداب والفلسفة). درّس في جامعة مقاديشو لسنوات قبل أن تجبره الأحوال على اختيار المنفى. حيث يعيش متنقلاً بين جامعات العالم. فارح مؤلف العديد من الروايات والقصص والمسرحيات، يقيم اليوم في جنوب افريقيا. صدر له عن منشورات الجمل: خرائط، رواية.

نور الدين فارح: أسرار، رواية، ترجمة: خالد الجبيلي

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) ـ بغداد ٢٠٠٧

Nuruddin Farah: *Secrets*

Copyright 1998 by Nuruddin Farah

© *Al-Kamel Verlag 2006*

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany

Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763

E-Mail: KAlmaaly@aol.com

Twitter: @ketab_n

إلى مينا، بكلٍّ حب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

استهلال

جثة واحدة، وثلاثة أسرار!

يستدعي اسمي كالامان ذكريات افتتاني بفتاة تكبرني بأربع سنوات ونصف السنة عندما كنت طفلاً، ذكريات تترى وتتلاحق الواحدة تلو الأخرى. وكرّد بسيط على ما يبدو أنه لغز عصي على الفهم، يستحضر اسمي أجوبة يدهش لها الكثيرون، وخاصة عندما يسمعونه لأول مرة. إذ كان البعض يتساءلون بصوت عال، لكي لا يبدو أنهم جاهلون، «لكن أي نوع من الاسماء هذا؟» أعطهم فكرة أو تلميحاً، كما أنحو لأن أفعل، ادفعهم في الاتجاه الصحيح، وستلاحظ على الفور أن ابتسامة عريضة خجولة مثل عصفور يغطّ رأسه في صفحة النهر قد بدأت ترتسم على وجوههم ببطء مثل باب سري يُفتح، ثم يقول لي محاوري: «لكن لماذا لم يخطر ببالنا هذا الأمر بحق السماء؟».

خطر لي ذات يوم أن أغيّر اسمي كله. ففي ذلك الحين، كنت قد وقعت في غرام شولونغو، التي كانت قواها الحيوانية تفوق قواي بكثير. وكان قد اعتراني شعور بالامتعاض من سلوكي المثير للاشمئزاز، لا لأننا كنا مختلفين من الناحية الجنسية فحسب، بل لأن أمّي كانت تكره الفتاة أيضاً. وكان يبدو أن نونو، جدي لأبي، يذهب أحياناً شأواً بعيداً ويشجعني على مصادقتها، بذريعة أنه من المفيد أن ألتقي بامرأة تكون نداً لي. لكنه سرعان ما يغيّر الموضوع، ويلفت انتباهي إلى النجوم، وفي

Twitter: @ketab_n

غمرة التعليقات الجانبية التي لا صلة لها بالموضوع، يشير إلى درب التبّانة، ويحدثني عن الأسطورة التي تكمن وراءه، ثم يشير إلى المنازل العشرين ونيّف المنتشرة على مسار القمر، ويشرح لي كيف تؤثر منزلة كلّ منها على الطقس وعلى مصير الإنسان.

وكانت شولونغو مستبدّة في سلوكها إلى درجة أني لم أكن أستطيع أن أذكر اسمي في حضورها دون أن أتلعثم. إذ كان فمي يُفتح قليلاً، ويندفع لساني من تلقاء نفسه إلى داخل حلقي، وكنت أخفق تماماً في لفظ حرف الكاف، أو لا أتمكن من الوصول إلى حرف اللام قبل أن أبلغ مرحلة الخرس التام. وعندما أعجز عن فكّ عقدة لساني، كان يعتريني شعور باليأس والغضب الداخلي.

ومرّت شهور قبل أن أسأل نونو عن سبب عدم تمكني من مواجهة قوة شولونغو الغامضة، أو عدم تمكني من أن أنفض سحر تعويذاتها عن كاهلي، كما ينفض الغراب قطرات الماء من على ظهره المبلل.

فأجاب قائلاً: «أظن أن أمّ شولونغو كانت قد ولدتها عندما كانت النجوم في منزلة من الشؤم الشديد. وكانت قد ولدت «دوغان»، أي طفلة يجب وأدها. وهذا ما حاولت أمّها أن تفعله: فقد حملت الطفلة إلى الأدغال ورمتها هناك. لكن شولونغو نجت، وعاشت لتعشش في عقول القرويين، وخاصة عقل أمّها».

عندما توقّف، ربما ليلتقط أنفاسه، سرحت بعيداً وأصبح بإمكاني أن أتذكر روايات أخرى غذّتها ذكريات أخرى.

ومضى يقول: «لا أستطيع أن أثبت صحة هذا الأمر، لكن الرواية التي سمعتها تفيد بأن لبوة تبنّتها وربتها مع أشبالها، ثم تركتها عند تقاطع أحد الطرق، حيث عثر عليها بعض المسافرين، فاصطحبوها إلى أقرب قرية، صادف أنها كانت قرية أمّها. قد تظن أن هذا أمراً بعيد الاحتمال، لكن من هذه الأشياء تُصنع بلايا بعض الناس، فيض من الأساطير».

Twitter: @ketab_n

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«وبدلاً من أن تعترف بأي من هذا، انتحرت أمّ شولونغو حسب الرواية التي سمعتها. ويعد الانتحار من أشنع الجرائم التي يرتكبها المرء وفق الشريعة الإسلامية، لذلك أُنزل بالأمّ أشد العقاب بدون رحمة. فقد تُركت جثتها في العراء تحت أشعة الشمس الحارقة حتى تفسخت وتعفنت. وذكر الذين كانوا في القرية أن حتى العقبان لم تجرؤ على الاقتراب من جثتها».

صُدمت، ولزمت الصمت.

وتابع نونو قائلاً: «ثم ظهر والد الفتاة. بحّار في إجازة. ومع أن الأمر بدا غريباً، لم يخبره القرويون الحقيقة بكاملها. فذبح عدة عنزات كجزء من احتفال قرباني بمناسبة عودته سالماً، لكن أحداً لم يخبره عن الانتحار. ولم يكترث أحد بأن يخبره بأن ابنته كانت قد ولدت «دوغان». وتذكّر أنه كان مسافراً في البحر عندما جاءت إلى هذا العالم».

«وماذا حدث بعد أن ذبح العنزات؟»

قال جدّي: «غادر القرية بعد ذلك بفترة وجيزة، واصطحب ابنته إلى إحدى البلدات، حيث تزوّج مرة أخرى، وأنجبت له زوجته الجديدة ابناً اسمه تيمير. وفجأة، ولأسباب غير معروفة، فقدت زوجته الشابة عقلها بعد ذلك. وأخذ أقرباء المرأة، الذين تناهت إلى مسامعهم الإشاعات عن فتاة دوغان، والذين يؤمنون بالخرافات، يشيرون بإصبع الاتهام إلى شولونغو. فاستشار الأب كاهناً، فوصف له بيض نعامة علاجاً».

سألته: «وكيف عرفت كلّ هذه الأشياء؟»

برقت عيناه بشيء من الخبث، وقال: «لقد جمعت كلّ هذه الأشياء من آذان عدد كبير من الأسرار».

أخذت رشفة من الماء البارد الممزوج بشيء من التمر هندي، وهي ذات الخلطة التي تشكل ذلك الشراب السري المدهش الذي رطبّ به

Twitter: @ketab_n

نونو شفتيّ عندما ولدت. انفكت عقدة حنجرتي، وكذلك حلقي، ووثبت حبالي الصوتية لتعمل بنشاط، ودبّت الحياة في تفاحة آدم لديّ، وراحت تعمل بسلاسة محرّك زُيّت حديثاً. ورحت أغني الأغاني التي علّمتني إياها شولونغو.

«هل تعرف لماذا تجعلك تتلعثم؟»

أجبته متردداً بلغة طفل لا يتجاوز عمره ثماني سنوات بأنه يخيّل إليّ أنه كانت تعتريني نوبات بين الحين والآخر. ثم قارنت تلعثمي بالفواق الذي كان يشبهني بخصلة واحدة على الأقل: وهي استجابتي للماء البارد الممزوج بقليل من عصير التمر هندي.

فقال وكأنه أعجب بذلك: «ممتاز».

وذات يوم، وبعد جدال جرى بيني وبين شولونغو حول اسمي، نشب شجار حاد بيننا. وكالعادة، ذُكر اسم نونو في حديثنا، فراحت شولونغو، التي قد تصبح أحياناً في غاية الدناءة، تطعن بأسلافي وتقذفهم بأشنع الشتائم. فقد وصفت جدّي بأقذع العبارات وأشدها حقارة، ونعتته بعبارة «مثقف المرحاض».

ومع أني لم أكن أعرف ماذا كانت تعنيه هذه العبارة، فقد أحسست بالإهانة وانصرفت حانقاً وسافرت إلى أفغوي، حيث يقع منزل نونو، وقد عزمت على أن أسأله عن معنى عبارة «مثقف المرحاض». وفي أثناء ذلك، استطارت بي الحمية، وحثثته على أن يحدثني عن السبب الذي جعله يسميني كالامان.

جلسنا أنا ونونو تحت شجرة مانغو نستظل بها، ونتناول بأصابعنا سلطة الفواكه من الزبدية الخشبية ذاتها، التي أعدها بنفسه من ثمار بستانه. وتبادلنا الحديث بقدر محسوب، وأولى أحدنا الآخر اهتماماً شديداً. كان رجلاً ضخماً جداً يتمتع بشخصية غير اعتيادية، شخصية لطيفة وقوية تمكنت من سحر نساء كثيرات في المنطقة التي يعتقد أن

Twitter: @ketab_n

بعض النساء فيها قاسيات ويصعب إغوائهن. ورغم حداثة سني، فقد لاحظت أن الكثير من النساء لم يكن يمانعن من الانقياد إلى غرفة نومه وهن يتضاحكن وقد حُلَّت نصف أربطة أرديتهن الكنتينو. وكان أكثر شيء أحبّه فيه انغماسه في الملذات أحياناً بسذاجة طفل. وكنت أحبّه كذلك لابتسامته العريضة الخبيثة التي غالباً ما كانت ترتسم على وجهه.

واعتراني شيء من الشكّ بأني كنت أرتكب خيانة فاضحة بسبب إصراري على أن يحدثني نونو عن السبب الذي جعله يسميني كالامان، وكنت من الناحية الأخرى مثقلاً بحيرة فضولية لأني لم أتمكن من أن أسأله عن السبب الذي جعل شولونغو تنعته «بمثقف المرحاض». كم كنت أحبّ رفقته، وكم كنت شغوفاً بحكمة فترات صمته، إذ كان يجلس مهيباً، وتزدحم في فمه أصوات لا ينطق بها. حصاد ما يقارب ثلاث سنوات من الذكريات التي كان حارساً أميناً لها. وأخيراً قال: «لقد أسميتك كالامان لأنه اسم مغلق».

لم أفهم قصده وقلت له ذلك.

وقعنا تحت سحر صمت كان يشي بشيء من الفحيح، صوت لا يختلف كثيراً عن صوت أفعى تزحف فوق عشب ندي. ويعلم الله كم بقيت أحدّق في طير صغير ينتفض بارتعاشات عصبية، ويصدر صفيراً حاداً، وله بطن بيضاء وصدر رمادي. طير ملكني بسحره حتى طار متبعداً واختفى في الفجوة الكامنة وراء الرابية. وكنت أحاول أن أقرر إن كنت قد رأيت الطير من قبل، أو ما يكون أسمه البهي حين تداخل صوته بأفكاري. قال: «تحتاج الأسماء العادية إلى سند يدعمها» وصمت. قلت لنفسي ربما لأنه كان يجد صعوبة أيضاً في معرفة نوع الطير. ثم تابع قائلاً: «يجب أن تذكر الأسماء العادية مع اسم الأب أو الجدّ. أو في أحسن الأحوال، يجب أن يلحق بنهايتها لقب. وإلا فلن تبدو سليمة بعض الشيء، وكأن شيئا يعوزها، أطلق اسم محمد على طفل ما

Twitter: @ketab_n

وسيسأل الجميع «محمد من؟» لبث صامتاً، ثم تململ في كرسيه، ثم أضاف بعد قليل: «لقد دفعني بعد نظري إلى أن أطلق عليك اسم كالامان لأني كنت أعرف أنه سيكون كافياً بحد ذاته، ولا يحتاج إلى ذكر أسم أبيك أو أسمي».

مستعيراً بضعاً من كلماته المعقدة التي لم أفهمها حق الفهم وداعماً إياها ببضع من كلماتي، رحت أتساءل بصوت عالٍ ما الذي دفعه ليطلق عليّ اسماً كهذا. هل كان هنالك شيء يخجل منه ويخفيه عني؟ لم أقصد أن أكون عديم الاحترام، لكنني ربما كنت كذلك. إذ يصعب الحكم على بعض هذه الأشياء، وخاصة وأنك لا تتجاوز التاسعة من عمرك والفتاة التي تحبها لا تكّف عن توجيه أسئلتها الحادة إليك. ولا تنسى أن عدداً من الناس من بينهم أمّي، وكذلك شولونغو، كانوا يرون أن نونو يحتفظ بسر. وكانت لإحدى صديقات أمّي عادة خرقاء، وهي أن تلمح إلى صغر أو ضخامة أعضاء الذكورة، وحسب ما قالته، فقد كان قضيبا نونو وأبي كبيرين ويزنان طناً. فلماذا لم يكن قضيبي كذلك؟ هل أنا حقاً من صلبهما أم لا، أبن أبي، وحفيد جدي؟

«ما لم. . . .» قلت ولذت بالصمت.

حافظ نونو على صمته الرزين، ورفض أن يجيب. وكنت قد تدربت على هذا المشهد في الحافلة وأنا في طريقي إليه، وفي السيناريو الذي تخيّلته كان قد سألني «ما لم ماذا؟» وكنت قد هيأت رداً مؤقتاً. إلا أن جدّي، الذي كان يلتزم بالأولويات التي يحددها، كان يعرف كيف يقود حوارنا إلى شاطئ الأمان. وبوسعك أن تعرف من الطريقة التي يتحدث فيها أنه كان يعرف جيداً الهدف الذي يقصده. فقال (اللعنة). وكانت هذه إحدى عباراته المفضلة، ويستخدمها عندما يكون منزعجاً. ويعلم الله أنه كان يمتلك كماً وافراً من هذه العبارات والكلمات التي تدل على حالته العصبية أو المبتهجة، وكرر القول «اللعنة».

Twitter: @ketab_n

قلت «كما تعرف يا نونو، فقد تجاوزت الثامنة من عمري، وأصبحت صبياً كبيراً يجعلني أعرف أنه توجد لدى الكبار أسرار لا يسمح لطفل في عمري أن يطلع عليها، إنني أفهم ذلك».

وعرفت من قسمات وجهه أنه سيغيّر الموضوع. وأخذ نفساً طويلاً من سيكارته المطفأة وحين أدرك ما فعله، هز رأسه، ثم قال: «إذا أردت الحق» وراح يتكلم بسرعة وكأنه يخشى أن أقاطعه «إن مخاوف أمّك تنتقل بالعدوى، وأنا بالتأكيد لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن لا تلوثني، ولكن قل لي هل أخذتك شولونغو إلى مكمن أنوثتها؟»

بدرت مني ملاحظة تحطّ من قدر أمّي.

«ليس من اللائق أن تقول هذا عن أمّك التي تحبّك»، قال ينصحني، ثم أضاف، «إنها قلقه، قد يكون لها أسبابها الخاصة بأن لا تثق بشولونغو».

عدت إلى الحديث الذي كنت قد سجلته في مخيلتي عندما كنت مسافراً بالحافلة إلى أفغوي. قلت له، وقد فوجئت بنفسي أني فعلت ذلك، إني أشك كثيراً إن كانت شولونغو لا تكّن احتراماً لأمي. لماذا؟ لأنها كانت قد اقترحت أن أسقط أسم أبي وأحمل أسم أمّي كما هو الحال في بلدان كثيرة.

أشعل سيكارته وسحب منها نفساً طويلاً بشراهة، مالئاً صدره بالدخان، ولم ينفث سوى خيوط رفيعة من الدخان من منخريه، وبعد نوبة من السعال كان صدره يئز مثل قط غص بحسك سمكة، وقال: «إن الفتاة تسخر منك، ألا ترى ذلك؟»

أصريّت على أن شولونغو لم تكن تقصد سوءاً. وفي فترة الصمت التي أعقبت ذلك، رحنا أنا ونونو نصغي إلى سرب من طيور الزرازير تناجي بعضها بعضاً وتشدو بصوت شجي. ولأبرئ حبي الصبياني من اللوم، قلت موضحاً بما أنه لا توجد لاسم نونو واسم أبي واسمي

Twitter: @ketab_n

نهايات، فما الضير في إضافة اسم أمّي إلى هذا الخليط العجيب؟ وأن هذا ليس إنصافاً للمرأة التي حملتني تسعة أشهر فحسب، بل وبأكثر من معنى، فهو أمر جريء أيضاً في بلد لم يفكر أحد بأن يقدم على مثل هذه الخطوة. وطرحت هذا وكأنها كانت فكرتي لا فكرة شولونغو.

قال بنبرة جازمة: «هذا شيء متهور ولا يتسم بالحكمة».

«لماذا؟»

«لأنك ستتلقى تعليقات خسيسة يجدر بك أن تتحاشاها، وإني واثق من أني لست بحاجة لأن أذكرك بأن الأطفال الذين لا يعرف من هم آباؤهم، في هذه البقاع من العالم، يشار إليهم «بالمنكودين». وغالباً ما ينوءون بألقاب تقترن بأمهاتهم. وأنت تعرف الاستثناء الوحيد لهذا، وهي البادئة الصومالية «باه» التي تشير إلى اسم أمّ يعرف من خلاله أسلاف المرأة، لتمييز الأخوة من البيت نفسه في حالة تعدد الزوجات. وهذا لا ينطبق عليك، فأنت طفل من زواج من امرأة واحدة. والمؤكد أنك لا تريد أن يقول عنك أحد بأنك طفل غير شرعي».

هنا أمسك الشخص البالغ زمام الأمور متمسكاً على نحو غير مسبوق بالشكليات حينما رددت بأن مجتمعنا لا ينصف المرأة، وهو رأي غالباً ما سمعت نونو يقوله وبهذه الفصاحة والبلاغة. وتابعت قولي: «يا لهذا الظلم. تصوّر أنك لا تستطيع أن تحمل اسم أمك».

هز نونو رأسه لكنه لم يقل شيئاً. وكان يستمد متعة كبيرة من التغيرات التي تطرأ على مزاجي، وتقدير عادتي في التخلي عن طبيعتي الطفولية واتخاذ شخصية رجل راشد، ليس في سجل لغتي واختيار كلماتي فقط، بل كذلك في حركاتي وتعابيري الجسدية أيضاً. وذلك لأني كنت أجيد التمثيل بالإيماء، وكنت حاذقاً في أن أتلبس شخصيات أخرى إن أردت.

قال: «إن هذا الشيء سيحزن أمك كثيراً».

Twitter: @ketab_n

لم تكن تلك المواجهة المتهورة الوحيدة لي حول طبيعة الأبوة. فلم أكد أبلغ السابعة من عمري عندما أصرّيت على أني حبّلت امرأة، ولم يفلح أحد في إقناعي بأني لم أفعل ذلك. وعندما كنت في الرابعة من العمر، أذكر أني رأيت لوحة عن الشمس كان قد رسمها أبي بألوان براقة جداً، وكنت أنسب لأبي قوى هائلة تتجاوز قدرات البشر. فقد كنت أعتقد في تلك الأيام أن الفتيات يصبحن إناثاً على شكل أمهاتهن اللاتي بوسعهن إنجاب بناتهن دون مساعدة من الرجل، وأن الصبية يصبحون فتياناً بسبب قضبان آبائهم.

قال نونو: «إن كنت تريد أن تدخل السرور إلى قلب أمك، فيجب أن لا تفكّر كثيراً ببداياتك».

كان عقلي يجول في مكان آخر، مركّزاً على الحركات الغريبة التي كان يقوم بها طير صائد الذباب الذي كان جاثماً فوق غصن يابس على شجرة قريبة، طير متردد إن كان عليه أن يلاحق فريسته الحشرة، المضطربة والخائفة، ضحية طائرة.

ودون أن ينبس أحدنا بكلمة، جلسنا أنا ونونو نتناول سلطة الفواكه بعد ظهر ذلك اليوم، تحت أشعة الشمس والظلال التي جعلتها في شكل متقاطع. وكنت أراقب الطيور وهي تطير فراداً وأزواجاً وزرافات. وكادت نظرات جدي تتركز طوال الوقت على طير وحيد كان يحرك رأسه سبع حركات متتالية.

سألني «ما الذي يميّز شولونغو؟»

شرعت بقول شيء، لكني توقفت في الوقت المناسب.

لم أجرؤ على خيانة شولونغو، شريكة أسراري التي لم تكن تكّف عن إدهاشي بأسلوبها المتهور، والتي كانت تنسلّ إلى فراشي في العتمة، بعد أن كان أخوها غير الشقيق يبدأ بالشخير في فراشه في الغرفة نفسها. ولم أجرؤ على أن أتحدث عن مدى استثارتي وحماسي، عندما كنت أفكر

Twitter: @ketab_n

بالطبيعة الشيطانية التي سنقدم عليها، وأنا في تلك الحالة من الإثارة إلى درجة أني كنت قادراً على الاستجابة لتحدياتها بإظهار الشجاعة على نحو موازٍ. حيث أكد لي تبجح الفتيان الآخرين إدراكهم الواضح للذكورة. ومعها كان تكتمنا يخلصنا من الخطيئة، أو هكذا خيّل إليّ. وأشك في أني كنت أستمتع بالجانب الجنسي من علاقتنا، باعتبار أن عضوي الجنسي لم ينكسر. لكن في ذلك الحين، لم يكن حتى صوتي منطلقاً.

لقد تذوقتها للمرة الأولى حين تجرأت وتسللت إلى فراشها فيما بدا عناقاً جميلاً. وببراءة أم، كان فيضها يجري ورائي، وراحت تلمس ما بين فخذيّ فاشتد انتصابي. ولا بد أني أعرف ما كنت أفعل، إذ أمسكت قضيبي بين إبهامي وسبابتي وسألتها إن كان بوسعها أن تجد تجويفاً له يغمس رأسه فيه. فضحكت ضحكة خافتة بازدراء، وتكلمت بصوت مرتفع حتى أني خشيت أن يستيقظ تيمير، لكنه لم يستيقظ، وقالت: «ما هذا، ما هذا»، وهي تضغط على قضيبي الذي بدأ يؤلمني: «إن عضوك ليس أكبر من السرة. هل أنت متأكد من أنك ابن أبيك؟» لأنه يتدلى مثل المشحذة الجلدية.

(عندما أرجع بذاكرتي، أشعر بالحرج عندما أتذكر كيف كان يجرح كبريائي برجولتي كلما كانت النساء اللاتي كنت أشتهيهن يؤكدن بدون تحفظ على صغر عضوي. وذات مرة، عندما أحسست بالإهانة والانزعاج دعوت إحداهن بالعاهرة، لكن ذلك حدث بعد عدة سنوات).

قال نونو: «ما الذي يميّز شولونغو».

فقلت: «إني أحبها لغرابة أطوارها. إنها مفعمة بالبهجة».

ربما ليخفي شعوره بالضيق، حافظ نونو على هدوئه ثم أخذ يراوغ، وتحدث أخيراً كرجل كبير يوجه بعض النصائح إلى شخص يصغره سناً، فقال: «رغم وضوح الأمر إن كان نعمة أم نقمة، فإنك ولدت، كما أظن، لكي تصلح أساليب أسلافك المتعجرفة. وقد قمت بعمل رائع».

Twitter: @ketab_n

ربما أحسّ بأني فهمت قصده، لأنه تكلم بإسهاب وكأنه يتحدث في مجلس لكبار القوم، ببلاغة خطابية، يستشهد ببعض الأمثال، ويعيد صياغة قصائد شعرية، ويدعم وجهة نظره بأسطورة هنا وأخرى هناك، يعيد صياغتها بطريقة ركيكة. كان خطيباً مفوهاً، يثير الإعجاب. وإن كنت قد أبديت بعض الاهتمام بما كان يقول، فذلك لأني كنت أرى أنه كان يتحدث إلى نفسه لا إليّ. وكنت أدعه يتحدث، لكني كنت قد بدأت أتحدث إلى نفسي أيضاً، فقلت وكأني أخاطب نفسي «إن شولونغو رائعة، إنها ممتعة إلى درجة كبيرة».

في البداية أصبحت قسمات وجهه داكنة. وما هي إلا لحظات حتى رفرفت على وجهه ابتسامة عريضة، ابتسامة تعني التهيؤ للقيام بمهمة محددة قد تستحيل إلى تجهم.

قال: «انتبه لنفسك».

وكان هذا أسلوبه ليطلب منى أن أغادر، فاستويت واقفاً.

ثم سمعنا دوياً هائلاً قادماً من جهة النهر، إلى اليمين قليلاً من الغابة المحيطة ببيته. ولم يكد يتاح لنا الوقت الكافي لنفكّر في الأمر، حتى وصل خادم نونو ليعلن أن تمساحاً قد اختطف أحد عماله وسحبه إلى النهر. وهرع رجال آخرون، وقال أحدهم إنه يظن أن صوت الطلقة التي سمعناها قد انطلقت من بندقية فيدو، خادم نونو. فهرع نونو إلى الكوخ وعاد وهو يحمل بندقية وانطلق مع عدد من الفلاحين الآخرين يلوحون بالرماح والهراوات والفؤوس. وشعرت بأنه قرر أن ينقذ الرجل من فكيّ التمساح، أو أن يقتل التمساح. وكان من المعروف أن هذا التمساح بالذات، كان وحشاً بغيضاً شرهاً، وقد تذوق طعم دم الإنسان، إذ كان قد التهم مؤخراً فتاتين صغيرتين وأمهما، وكان الجميع يعرفون أنه سيعود مرة أخرى. وفي تلك الأيام كان الناس في قرية جديّ يشكون بأن التمساح اختطف أشخاصاً آخرين كثيرين وفي وضح النهار.

Twitter: @ketab_n

ظل نونو خارج الإثارة الناجمة عن التهديد الذي بات يشكله التمساح النهم. وتكلّم بصوت هادئ، وبنبرة تنم عن أن الرجل قد لا يعود قريباً. وقال لي «أقترح أن تذهب إلى البيت وأن تأخذ معك قارورة العسل وأن تتوخى الحذر».

وعندما أصبحت وحدي، أحسست بخفة في رأسي وفي قلبي أيضاً، وكنت متلهفا لأن أكون الآن في صحبة شولونغو، حبيبتي في مراهقتي، التي سأطعمها العسل الذي جمعه فيدو وقدمه لي نونو. وكان السؤال المطروح هو هل ستدعني أدخلها؟

برقت الآن ومضة شيطانية أخرى في عين شولونغو اليسرى وهي تسحبني بعيداً عن المكان الذي كانت فيه إحدى الجارات منشغلة في مداعبات عديمة المعنى مع أخيها غير الشقيق تيمير. ثرثرة، فقد كانت بارني تتحدث عن ابن الجيران الذي كان أبواه قد زوجاه ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره من ابنة عمه، ورفيقة طفولته الأولى. وكنت أعرف أن المرأة كانت عاقراً، ومطلقة ثلاث مرات، وكنت أعرف أنها كانت تكبر أمي في العمر، وكان من المعروف أنها تعيش في بيت واسع مفروش يبعد قليلاً. ولم يكن لبارني عمل محدد مثل الكثيرات من النساء في المدن الصومالية، ولم يكن لديها وسيلة واضحة تعيلها.

وقالت لي شولونغو إن بارني ترغب في أن توثق علاقتها معها ومع تيمير أخيها غير الشقيق، بسبب اهتمامها بأبيهما مادوبي. ولا أستطيع أن أتذكر من قال لي إن مادوبي كان قد سحر سروال بارني الداخلي. وكان مادوبي، الذي كان ذات يوم بحاراً، يكسب رزقه من ترويض الخيول البرية التي كان يصدّرها إلى الشرق الأوسط، والتي كوّن منها كما يشاع، ثروة كبيرة. والأهم من ذلك، كان يشاع بأنه أول صومالي تمكن من جعل نعامة تحرس خيوله وحميره الوحشية وترعاها، مما جعله ذائع الصيت.

Twitter: @ketab_n

«استمع إليها» قالت شولونغو وهي تختلس النظر باتجاه بارني «لللا. . . لللا. . .» يا إلهي إنها لا تصمت، ولا تعطي أبي مجالاً لكي يرد».

استشهدت بحكمة أمّي التي تقول إن الحب يجعل المرء ذليلاً. ولا يمكن لأحد أن يفسر ما رأته بارني في مادوبي الذي كان مزاجه يعلو وينخفض مع زيادة أو نقصان أمواله، والذي يغلف اختفاؤه الغموض، إذ كان يغيب شهراً، ويعود في الشهر التالي، ولم يكن يسمح لأحد أن يسأله عما كان يفعله في فترة غيابه تلك. وكنت أعرف أن مادوبي كان نائماً في تلك الساعة، وأن بارني ستبقى طوال اليوم صابرة، تنتظر رؤية معبودها ولو للحظة واحدة.

لكننا بعد أن أصبحنا الآن بعيدين عن مسمع بارني وتيمير، أصبح بإمكاني أن أخمّن أن شولونغو كانت على وشك أن تفعل شيئاً. فقد وضعت تحت أنفي مباشرة قطعة من الورق كان قد رسم عليها أحدهم بقلم الرصاص شيئاً تبينت فيها شفتين بارزتين وإبهاماً ناتئاً من إحدى الزوايا. ولم أكن أعرف ماذا أفعل بها، نظرت إلى ابتسامتها العريضة. وبدت لي وكأن وجهها قد اكتسى بقسمات قرصان تمكن من العثور على كنز.

قالت بلهجة آمرة: «قل لي ماذا ترى».

نخرت كالخنزير ببضع كلمات، لأني لم أكن أرغب في أن أعترف بهزيمتي، أو في أن لا أتصرف بطريقة ملائمة. وفي محاولتي الثانية لأفهم معنى الرسم في الورقة، رأيت شخصاً جالساً في إحدى وضعيات اليوغا لقديس هندوسي ذي رجل مبتورة. وما كدت أستجمع أفكاري، حتى أدركت أني كنت أمسك في الواقع الرسم بالمقلوب. ولكي أداري حرجي قلت: «ماذا يظنِ تيمير، هل أريتها له؟» فقالت: «إن أخي نصف الشقيق يرى يدي طبيب بيطري يسحب ساقيَ عجل الأماميتين ليخرجه من بطن أمه وهي تلده».

Twitter: @ketab_n

رحت أركّز صامتاً محدقاً في ذقنها، حنكها الذي تدلت فوقه شعرة طويلة وحيدة، جميلة لمداعبتها. ثم، وإزاء إصرارها، قلت لها ما أراه، بعد أن أمسكت بالرسم بالوضع الصحيح. ولأفعل ذلك، مددت إصبعي الوسطى وأبقيت جميع الأصابع الأخرى تقريباً مضمومة، وزممت شفتيّ وكأني أمص إصبعاً نصف محني. وأخيراً رحت أفرك سبابتي على شفتي السفلى.

قالت: «أصابع، أفواه، شفاه، وسدادة فلين».

أحسست بالدم الحار يتدفق إلى وجنتيّ وباتجاه عينيّ. ولوهلة، لم أستطع أن أرى شيئاً، ولم أتمكن من أن أسمع شيئاً ولا حتى أنفاسي. وفي غضون ذلك، فاجأتني شولونغو، التي كانت لها أساليب ذكيه عديدة في أن تدّس يدها بين فخذيّ، وراحت تداعبني حتى انتصبت. همست في أذني قائلة إني أنا السدادة وهي القنينة، فيما كانت إصبعها تداعب فتحة بنطالي، وبتعبيرها كانت تقول إنها الثقب في الناي وأنا الإصبع. وبعد ذلك بفترة طويلة، طويلة بعد أن جفّ الدم الفاتر، دم الشبق من أذنيّ، سمعت صوت بارني. لم أكن متأكداً مما قالته، لكنه بدا أشبه بشيء «عندما لا تتاح لك فرصة الامتطاء». أذكر آنذاك أني كنت أستطيع أن أتذوق حظي في لعابي، نهر من الدم، مقادير من أجود الأنواع، أصابع شولونغو، لعق أصابعها بلذة وشهية.

حين سمعت خيط حديث بارني مع تيمير بعد ذلك، كانت المرأة تعتقد أن قلب مادوبي «قاس كقساوة الدمان الذي يتشكل على لسان الجمل. وهزّ تيمير رأسه، لا موافقة على ما قالته، بل لرغبته في أن يبتعد عنها.

من ناحيتي، كنت مستعداً لملاحقة شولونغو إلى أقاصي الأرض، بأمل أن تكون في مزاج سخي تجعلني ألجها. «إبهام في الفم، أسنان تطبق على الظفر». وحينما فعلت، سمعت صرخة «آخ، إنك تؤلمني، برفق، أرجوك».

Twitter: @ketab_n

أحسست منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينا أمّي على شولونغو بأنها لن تقبل بها. فما أن ابتعدت الفتاة عن مدى السمع حتى قالت: «احذر، إنها خطرة بخطورة سلك تسري فيه الكهرباء؟» ونصيحتها؟ «لو كنت مكانك لعاملتها بحذر، ولما لمستها بيدي العاريتين حتى لو كانت تسري فيها كهرباء ساكنة».

في تلك الأيام كنت أبدي اهتماماً بأصول الأشياء، كيف تشكلت الأنهار، ولماذا تجري والى أين. طرحت قدراً كبيراً من الأسئلة على نونو، عن المكان الذي يتكوّن فيه الأطفال، وكيف يتم ذلك. وإلى أين يذهب الموتى في نهاية الأمر، وان كان الأموات بعد دفنهم، يستيقظون في عتمة قبورهم ويُبعثون في الحال، وإذا كان الأمر كذلك، فبأيّ شكل، في شكل طفل أم شكل بالغ آخر، أم أنهم يظلون مكورين على أنفسهم، مثل صغار الأفاعي التي تفقد الحركة عندما تُضرب على رأسها؟ كنت أتساءل كثيراً، وكان رأسي يضطرم بأزيز لا يتوقف من المخاوف كأزيز النحل الهائج. ربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أرغب في أن أغيّر اسمي، لأن أصوله لم تكن تعني لي شيئاً؟ كنت أتأمل، إذا كان لكل اسم توتراته، ولكل اسم مكتسب وخزات الولادة، فلماذا كانت كل صداقة جديدة تفعل ذلك. وبالتأكيد لم تكن الصداقة التي تجمع بيني وبين شولونغو استثناء؟

وكانت أمّي تنزعج عندما تسمعني أتحدث بمودة عن أي شخص لا ينتمي إلى عائلتي. (فقد كانت تقول «لايوجد شيء يشبه رابطة الدم»، وكان ولاؤها لأسرتها مليء بالقناعة، بحيث كنت انتظر حتى أبتعد عن عينيها قبل أن ترتسم ابتسامة متكلفة على وجهي. ثم أني كنت أعرف أنواعاً مختلفة من الدم، دم شولونغو الذي تقاسمته معها كطقس سري لم تكن تعرف عنه أمي شيئاً).

وحسب علمي، لم أكن طفلاً تعيساً، لكن أمّي كانت لديها أسبابها

Twitter: @ketab_n

لتعتقد أني ينبغي أن أكون كذلك. ربما لم يكن بإمكانها أن لا تفعل ذلك، لأني كنت مصدراً للمتاعب، أفور وأغلي وأتفجر بطاقة مائية. وعندما كانت تراني مع شولونغو، وخاصة في الأيام التي تكون فيها متوعكة، كان ينطلق من أمّي سيل جارف من الكلمات، ودفق شديد من العواطف، وتغرورق زوايا عينيها بالدموع وهي تناقش وتعظ. وبعد أن يحلّ الظلام، وبعد أن تنام يصبح خدا أمي مبللين. أيمكن أن يكون هذا لأنها بكت وهي تحلم؟ وعند طلوع النهار، كانت تتشكل سحابة حول عينيها، ندية كندى الصباح.

كان الشك يعتري أمي في أن الآخرين يريدون أن تخفف من سطوتها عليّ، أنا ابنها الوحيد. وكانت تفتخر بقواها الفطرية التي كانت تزعم أنها تحذرها في الوقت المناسب من وجود الأشكال المتداخلة الطويلة الأجل التي ترسم فيها شولونغو قدري. وكان نونو يتدخل بين الحين والآخر. ولم تكن تدخلاته أو محاولاته الرامية إلى تهدئة مخاوفها غير المبررة ذات جدوى. فقد سمعته ذات مرة حين كنت استرق السمع إليهما يقول بنبرة أب يحاول إسكات طفل يجهش بالبكاء: «مهلاً مهلاً، إن الولد لم يبلغ العاشرة من عمره بعد، بحق الله، ولم تتجاوز شولونغو الرابعة عشرة».

ولم تكن أمي تعتبر تيمير سوقياً أو خطراً. فقد كان بالنسبة لها قديساً في بيت يضم شياطين. ولم تنذرها حواسها الفطرية أبداً بتأثيره السيئ عليّ. فقد قالت أمي ذات مرة: «في أحلامي أرى شولونغو ذات أظافر طويلة، وقد وهبت رأساً قوياً، وأسناناً ناتئة، وساقين قصيرتين مشوهتين، وأذنين مستديرتين تشبهان أذنا الراتل (آكل العسل) وهي لا تتوقف عن الحفر إلى الأبد، ولا تتوقف لحظة واحدة».

وقد باءت جميع محاولات إقناعها بأنه لا توجد لدى شولونغو مخططات بشأني بالفشل، والحق أن جدي وأبي لم يكلا من المحاولة.

Twitter: @ketab_n

وحين كانت أمي تحاصر وتفتش عن سبب، كان لونها يشحب من الغضب، وتعيد رواية واحداً من كوابيسها المتكررة: عن غرير العسل وهو يشق طريقه في أحشائي. وكان أبي يوبخها بلطف، يطلب منها أن تسترخي. ويشير عليها نونو أن تضبط أعصابها، مذكراً إياها بأنها قد تُتهم بالتحامل غير المبرر. وكان يجادلها، «ليس ذنب الفتاة المسكينة أنها تُركت ترضع من اللبوة»، ويضيف، «وماهو دليلنا بأنها تمتلك القدرة على تحويل طبيعتها الإنسانية إلى حيوانية؟»

كان لعابي يصبح سميكاً مثل خميرة عجين، وأنا أوضح لأمي بأنها هي التي طلبت مني أن أتعرف على شولونغو وعلى أخيها وأبيها أيضاً. وأذكّرها بأن أبي هو الذي وصفهم حين التقاهم لأول مرة بأنهم «ثلاثة من الأشخاص الأصليين» المتميزين، وأن التعرف عليهم شيء رائع، مهرجون في تمثيلية تراجيدية هزلية جنسية».

كانت أمي وهي تميل برأسها قليلاً كما يفعل شخص ثقيل السمع وهي تصغي بانتباه شديد لكل نبرة في كل عبارة. وتسجل لحظات توقفي وتراقب تموجات صوتي حين أنطق كلماتي، وربما كانت تصغي لتسمع دليلاً بأني كنت مسحوراً. ثم كانت تصيح بحماس كبير، «إني أرقد في ظلمة نومي المسكونة بالأشباح، منفصلة كما أنا عن أبيك برؤاي الليلية المرعبة. وقلما تمر عليّ ليلة لا أرى فيها زخماً من الأحلام المشؤومة، التي يمزق فيها الراتل أحشائي، وتصبح الفيلة مسعورة، وقد شنفت آذانها الضخمة غضباً، رؤى ليلية يسحق فيها وحيد القرن سياج نومي الرقيق المهلهل، حيث توجد قبور تنتهك، وجثث تنبش، ثم تدفن ثانية، ليس في التراب بل في الأشجار، في أعشاش بنيت لطيور بحجم البوم. وفي ومضة عين، تأخذ أكمات من أرض محفورة للتو شكل قرى النمل، بفتحات كثيرة منسوجة كُشبكات العنكبوت. كان خوفي عميق، وكنت أتمنى أن أتخلص منه لكني لم أستطع».

Twitter: @ketab_n

سألت نونو عن رأيه. لماذا غذى وجود الفتاة لاوعي أمي بعلف من الأحلام المرعبة؟ وفي ردّه، لفت نونو انتباهي إلى «فكرة» الراتل آكل العسل، الذي قال إنه كان «يتحيز لعذراوات حشرات العسل البري، الحيوانات الليلية المعتادة على حفر جحور عميقة في الأرض». وتابع قائلاً: «كانت هناك صلة خفية بين غذاء آكل العسل على الجيفة، واعتقاد أمي بقدرات شولونغو الحيوانية، قوى تحويل طبيعتها الإنسانية إلى حيوانية باختيارها.

أما تيمير، أخوها غير الشقيق.

فقد كان قد وصل. كان جلده متقشراً كالصحراء القاحلة التي أتى منها، عاصمة إقليمية في داخل البلاد حيث يتمتع أهلها بمناعة من العطش مثل الجمال. وقد فتنت بأخته ولم يكن لديّ أصدقاء كثيرون في تلك الأيام. ولأن أبي كان قد أحب تيمير، فقد رضخت أمي لاقتراحه بأن أقيم معه صداقة. كان أبي موجوداً في اليوم الذي التقينا فيه لأول مرة، وقد ألقى علي موعظة اقترح فيها أن أعلّم تيمير أساليب المدينة، وأن أتعلّم منه ثقافة الرعاة الذين يشكلون الأغلبية في بلدنا.

كيف لي أن أنسى الاهتمام الشديد الذي أولي لاتخاذ جميع الترتيبات للتأكيد بأن لقائي بها سيتوّج بنجاح فوري. قد يكون زواجاً، ويتحمل أبي مسؤولية إتمامه. كانت هناك فترة من الغزل تحت المراقبة استمرت حوالي الشهر، وكان أبي حاضراً بدوره كمشرف، كمستشار. وفي الوقت نفسه، كانت عائلة كلّ منا تقيم في بيت الأخرى مثل أيادي اللصوص في جيوب الآخرين. وقد أقنعت أمي نونو أن يقرض مادوبي، أبيهما، نصف المبلغ ا لذي كان يحتاجه لتمويل عمله في ترويض الخيول.

أما الحقيقة المتعلقة بالصبي فكانت أكثر تعقيداً على نحو محزن، لا لأنه لم يساعدني إلا قليلاً، ولا لأنه لم يعلّمني شيئاً عن ثقافة البدو، بل

Twitter: @ketab_n

لأنه كان أكثر اهتماماً بما كان يصفه بأنه «هياج جنسي» من تبرعم نسيج أفكاري حول أصول الأشياء. وكنا أنا وشولونغو نتقاسم على الأقل حماسة الروح، اهتماماً حقيقياً ببدايات الأشياء. وقد كشفت لي ألغازاً وعلّمتني أساسيات اعتبرت أنها وثيقة الصلة بالطريقة الصوفية، وقدمت لي أوضح تفسير أنثوي حتى الآن عن أسطورة كاراويلو، الملكة التي ربما يعود حكمها إلى الفترة التي بدأ فيها حكم الرجال للمجتمع الصومالي القديم يحل محل تقليد الحكم الأمومي، حيث تتهم النساء بخيانة رؤى المجتمع وبالفشل في الحكم بطريقة عادلة.

كانت الفوائد التي اكتسبتها من صداقتي بتيمير مشكوكاً بقيمتها. ومع ذلك، فقد ساعدت مداخلاته الجميلة في الحيلولة دون أن تقحم شولونغو نفسها في لاوعي أمي. لكن آنذاك، عندما كان أبواي في ذروة فترة هدوئهما، نصح نونو بان يتوخى الحذر «لأن البراكين، رغم همودها، فهي لا تكون خامدة تماماً. إذ تنفجر وتتحول إلى بحيرات مميتة من الحمم».

وكانت لتيمير قذفاته. لم أر أبداً شخصاً يبدو منشرحاً راضياً عن نفسه كما كان في اللحظة التي يصل فيها إلى مرحلة القذف. فقد كان يعتبر قذفه شيئاً هاماً بنفس الأهمية التي كان يوليها أبوه عندما يدخن البايب، طقوس تؤكد حيويتهما المتزايدة. وكان يمارسها بيده حين يكون مكتئباً، وكان يمارسها بنفسه بسرعة عندما يكون متوتراً. وقد اعترف أنه فعلها مع فتية آخرين قبل ذلك، وأنه ضاجع نساء مسنات، بعضهن مومسات. لكنه قال إنه لا توجد متعة تعادل متعة قذفك بيدك باستخدام حفنة صغيرة من أوراق الشجر. وفي مرة واحدة فقط شاركته في مضغ حفنة من أوراق الشجر، ومع أننا قذفنا معاً، لم يكن قذفي في الواقع مرضياً ومشبعاً كما كنت أفعل في مغامرتي مع شولونغو. ورغم أني لم

Twitter: @ketab_n

أجرؤ على سؤال أي منهما، كنت أتساءل إن كان هو وشولونغو قد فعلاها معاً أيضاً.

ولأتبين ذلك أمضيت ليلة في بيتهما.

بقيت متيقظاً طوال الليل وأنا في حالة من التوتر، ولم يغمض لي جفن إلا قبيل الفجر. وبما أن نومي كان خفيفاً، أذكر أني كنت أتقلب في حالتي نصف المتيقظة، وأنتصب جالساً عندما كان يمر أحدهم بالقرب من سريري. لم يكن الفجر قد طلع بعد، ولم أسمع صوت المؤذن وهو يدعو المسلمين المؤمنين إلى الصلاة. خرج مادوبي، أبوهما، من الغرفة. كانت حركاته هادئة هدوء الليل. أظن انه دار حول الكوخ ليشرب الماء.

لم أستطع أن أحتوي فضولي المتزايد، لأني لم أسمع صوتاً يصدر منه لفترة طويلة. غادرت السرير، وخرجت من الغرفة، ورحت أبحث بقلق عن أي تغيير في الشكل العام المحيط بي. كنت متشنجاً بفعل تركيزي، وتوتري البادي، لم أشعر بالراحة إلا عندما رأيت مادوبي واقفاً، شديد السمرة على مسافة قريبة. كان عارياً تماماً. وكان يمسك بيده شيئاً يشبه القضيب يفرك به ظهره إلى الأعلى والى الأسفل.

ولكي أرى بوضوح أكبر، اقتربت، نصف زاحف على وركيّ. لكني أثرت خوف إحدى البقرات، التي أحست بشيء يتهددها بسبب الوضعية التي كنت أتخذها، فأخذت تدق بحوافرها على الأرض مهددة، وقرناها في حالة استعداد، وأذناها متصلبتان من الخوف، كأذني فيل مسعور. ولبثت واقفاً لا أتحرك، وبقيت في وضعي نصف المحني قليلاً قبل أن أنهض لأريها بأني أنتمي إلى الكائنات التي تنتصب في وقفتها، ووقفت على قدميّ. عندها لم تعد البقرة تكترث وأدارت لي ظهرها.

Twitter: @ketab_n

وأين كان مادوبي؟ ماذا كان يفعل؟

غطس القضيب في سطل معدني خيّل إليّ أنه كان مليئاً بالماء، وكما كان يفعل في السابق، راح يفرك العصا بين لوحتي كتفيه. وكرر العملية ذاتها عدة مرات ثم ابتعد عن السطل. وأصبح عريه بارزاً الآن وهو منتصب. وبعد لحظة، كان يقف خلف عجل يغمغم شيئاً. كان صوته هادئاً. وكلما اقتربت منه ومن العجل، ازداد صوته وضوحاً، لكنني لم أستطع أن أتبين كلماته، ربما لأنه كان يكلم البقرة بلغة مشفّرة، تشبه تمتمات الأطفال.

هل كان يهدئ من غرائز البقرة الحيوانية بالتحدث إليها بلغة سرية؟

بعد ذلك بقليل وبعد تضرعات مطوله، أولج قضيبه المنتصب في العجل، وهو لايزال يتكلم، ولكنه كان يتنفس بصعوبة أيضاً. لعلي كنت أستمع إلى رجل وامرأة يمارسان الجنس، لأن البقرة كانت تهمهم شيئاً أيضاً. وعندما قذف في نهاية الأمر، رجع مادوبي إلى حيث ترك السطل المعدني ليغتسل، وكان لا يزال يتلفظ بصوت مرتفع كلمات مبهمة.

وبعد ذلك بأيام قليلة، طرحت الموضوع بحذر شديد. لم أتوقع اعترافاً بهذا الشكل، وقد فوجئت عندما قيل لي بأني قد أسيء فهم طبيعة الطقس الرمزية التي كان مادوبي يمارسه والذي اعتبرته أنا عجلاً. فمع كل هذا، لم تكن البقرة بقرة.

لا؟

«كانت بقرة» قالت شولونغو، «التي قرر أبي أن يدجنّها، أي بمعنى، أن يتخذها زوجة له».

وبعد ذلك بيومين، أحضر مادوبي إلى البيت عروساً صغيرة.

.

حين ألححت في طلب تفسير أكثر قبولاً عن كيف يمكن فهم البقرة

Twitter: @ketab_n

مجازاً بأنها امرأة، وكيف تتحول المرأة إلى بقرة، لجأت شولونغو إلى المراوغة. لكني لم أترك الأمر يفلت من يدي، وأصريت على أن تخبرني المزيد. ولتثنيني عن متابعة الموضوع، حكت لي حكاية فولكلورية كان أبوها قد سمعها من بحار نيجيري.

وفي الحكاية تتعثر قدم صياد بجمجمة أثناء إحدى مطاردته لفريسة، ويتساءل، «كيف وصلت الجمجمة إلى هنا». ولدهشته، تكلمت الجمجمة وقالت: «احذر من إفشاء السرّ، فهذا ما أوصلني إلى ما أنا عليه الآن، ميتاً».

مضطرباً، عاد الصياد إلى قريته لينقل مخاوفه إلى زوجته وأصدقائه. وأخيراً، سمع الملك قصة الصياد، وطلب أن يؤخذ إلى حيث الجمجمة الناطقة. لكن الجمجمة لم ترد لا على أسئلة الملك، ولا على توسلات الصياد.

فأمر الملك، بعد أن غضب مما حصل، بقطع رأس الصياد في المكان عينه، وأن يترك هناك في العراء دون أن يدفن. وعندما غادر الملك ورجاله. سألت الجمجمة الصياد، من هو الميت الآن، وما الذي جاء به إلى هنا؟ فرد الرأس غير المدفون «إفشاء السرّ هو الذي طرحني هنا، ميتاً».

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

ما أن فتحت باب شقتي، حتى اعتراني شعور بأن ثمة شيئاً غريباً يجري، شيئاً يتعلق برائحة غريبة. ولم أكد أعبر عتبة الباب، حتى غمرت حواسي دفقة من الروائح العطرة، روائح تذكّرني برائحة البيرة الأثيوبية، تاج. كما فاجأني وجود ذبابة في الشقة التي زادني طنينها، الذي يشبه أزيز طائرة الهليوكوبتر، توتراً.

وما هي إلا لحظات حتى رأيت تعابير الذعر ترتسم على وجه خادمتي المسنّة، التي ما أن رأتني في الجزء المعتم من البهو نصف المضاء، حتى وضعت سبابتها على شفتيها كي لا أصدر أي صوت. لكنها لماذا فعلت ذلك؟ فقد كنت رجلاً عزباً، أعيش وحدي، ولم يكن لديّ أطفال، وحسب معرفتي، لم يكن لديّ ضيوف. لا تسألني عن السبب، لكن الشيء الذي خطر لي عندما نظرت إلى لامبار هو أن أمشّط شعري المشعث، وشككت في أن يكون لتفسير هذا الطلب بإلحاح علاقة بالطبيعة الوجدانية لبعض الأمور. وهمست خادمتي لامبار وهي تقترب مني: «لماذا لم تخبرني بأن ضيفاً سيأتي؟» وكان في صوتها نبرة عتاب.

انقضت فترة قبل أن أعرف ما سأقوله لها. وفي غضون ذلك، سمعت رنين الهاتف، الذي يشبه صوت هديل الحمام، الذي امتد لفترة طويلة كحمامة زاجلة تناجي رفيقاتها. وبشيء من التردد، أسرعت من جانب خادمتي لأردّ على الهاتف، فارتطمت بكرسيين مقلوبين. وكانت

Twitter: @ketab_n

هذه هي المرة الأولى، منذ أن بدأت لامبار تعمل في خدمتي منذ سنوات طويلة، التي لم تنجز فيها عملها جيداً بعد عودتي إلى البيت. وكان يبدو أنها لم تكن قد أنهت عملها في تنظيف البيت. وراح عقلي يفتح أقواساً تضم فرضية ونقيضها، وعندما وصلت إلى الهاتف الذي كان قد بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة، أجبت لاهثاً «ألو؟» وانتظرت، عندها اقتنعت بأني وصلت متأخراً.

في قائمة الأصوات التي أخزّنها في ذاكرتي، لم أتمكن طوال حياتي من تخزين صوت أمي، وهو أمر شديد الغرابة في حد ذاته. إلا أن ثمة خشونة كانت تشي صوتها، ولم يكن هذا ما أذكره عن صوتها. «هل أنت بخير يا كالامان؟»

وقبل أن أنتبه، رحت أسبح في عالم آخر، ولم يكن ثمة رجعة: ولم تكن طلباتها وتوسلاتها وتوصياتها وتحذيراتها الكثيرة بتوقع تفشي العنف تتوقف. كما تنبأت بأن القبائل التي كان إحداها تهاجم الأخرى، ستعقد تحالفات فيما بينها. وقد حددت اليوم الذي ستندلع فيه الصراعات الأهلية في الصومال. كانت الساعة الثانية بعد الظهر في وسط مقديشو. كانت تقود شاحنتها الصغيرة، وكانت قد أغلقت نوافذ السيارة بسبب شدة الحرّ أثناء النهار. وعندما توقفت عند إشارة المرور بانتظار الضوء الأخضر بعد الأصفر، صعد مسلحان بثياب مدنية إلى الجزء الخلفي من الشاحنة بسرعة كبيرة، وطلب منها أحدهما وهو يلوح مهدداً بالمسدس، أن تطفئ المحرك وأن تغادر السيارة وتسلمه المفاتيح. لكنها لم تفعل ذلك، بل انطلقت بسيارتها إلى الأمام، وأخذت تزيد من سرعتها، وكانت واثقة من أن أحدهما سيصاب بالدوار، ويتوسل إليها بأن تتركهما وشأنهما. وقد تمكنت بهذه الطريقة من إنقاذ سيارتها وحياتها. وعندما سئلت كيف خطر لها أن تفعل ما فعلته، أجابت ببساطة: «استنتجت من

Twitter: @ketab_n

لهجة الرجل أنه لم يكن يعرف شيئاً عن السيارات، وكيف تعمل، وعرفت أن السرعة ستثير فزعه».

وكانت قد بدأت تظهر آنذاك بوادر اندلاع حرب أهلية، وانهيار المجتمع المدني، وتفشي فوضى مستحكمة. وفي الوقت الذي خيّل فيه للكثيرين منا أن الوقت لم يحن لاندلاعها بعد، كانت أمي ترى أننا بلغنا حافة الانهيار، وخاصة وأن الإشاعات كانت قد بدأت تتردد عن وجود مسلحين من اللجان الأهلية يجوبون ضواحي مقديشو. كان ذلك وكأن أحدهم قد باع فكرة القدر، فاشترتها كما هي بالجملة. وبدأت تشتري جميع أنواع الأسلحة، وراحت تعدّ نفسها وأسرتها للأسوأ. ولم تكن أمي تريد أن تؤخذ عائلتها على حين غرة، بعد قتل الأشخاص وتدمير الممتلكات في المناطق الشمالية بوحشية متناهية. فقد قامت قوات نظام سياد ثاني بقصف أكبر مدينة في البلاد، وارتكبت مجزرة بحق سكانها، وسوّيت جميع مبانيها تقريباً بالأرض. ومنذ اليوم الذي وصلتنا فيه أنباء المذبحة، ظلت أمي في حالة من اليقظة والتوتر، أعدت حقائبها، وكانت على أهبة الاستعداد للرحيل عند أدنى إشارة. وكانت تتصل بي بين الخين والآخر، وتسألني عن مدى استعدادي لمواجهة الانهيار الوشيك. إذن ماذا تريدين مني اليوم؟

قالت: «لماذا لا ترّد على مكالماتي؟»

قلت كاذباً: «كنت على وشك أن آتي لزيارتك».

هل صرت أعرج كما يقول المثل: لأن للكذبة في الأقوال الصومالية المأثورة رجلاً عرجاء، وللصدق رجل سليمة. وكنت أول من يعترف بأن صوتي كان ضعيفاً ومضطرباً يشبه العرج في مشية المرء.. سألتني: «لماذا تكذب على أمك؟»

فقلت: «أين أنتِ؟»

فأجابت: «يجب أن تخجل من نفسك يا كذاب». اعتراني شعور

Twitter: @ketab_n

بالارتياح عندما تذكرت مَثَل القِذر الأسود الذي بسبب وجود لسان إضافي في فوهته، بطلق على الإبريق الآخر كل أنواع الأسماء الخسيسة. فقلت: «لا داعي لاتهامي يا أمي. فعندما اتصلتي بي في المكتب ثلاث أو أربع مرات في وقت مبكر من اليوم، كنت منشغلاً مع بعض الزبائن. كنت أضع اللمسات الأخيرة على عقد بقيمة مالية كبيرة للشركة».

«أما زلت تزمع أن تأخذ إجازة لمدة أسبوع؟»

إن كانت قد وافقت أمي على سفري إلى نيروبي، فلأنها كانت تأمل في أني، إن خرجت من البلد، قد أقرر عدم العودة إلى مقديشو. وكانت قد ألحّت عليّ كثيراً بأن أغادر، لأن الشكوك تعتريها بأن حرباً أهلية قد تندلع في أي يوم. وظللت أؤجل موعد مغادرتي، متعللاً بأعباء عملي في مجال الكومبيوتر.

قلت: «إني أزمع الذهاب، لكني لم أحدد موعداً بعد».

فسألت: «وهل سيرافقك أحد؟»

لم أدرك مغزى السؤال جيداً، فأجبت: «لم أقرر بعد. لماذا؟»

تبينت نبرة من الألم في صوتها حين قالت: «هكذا إذن، يا بني، يا كالامان، يا من بلغت الثالثة والثلاثين عاماً من العمر. لكن رغم بلوغك هذا العمر، لم تكف عن الكذب من بين فرجات أسنانك».

نقول باللغة الصومالية أنه يجب ألا تطلب من أحد تعرفه أن يحدّثك عن نفسه. فأنا أعرف أمي جيداً. فعندما تنعتني بالكذاب، ربما كانت تأمل في أن تحشرني في زاوية محرجة، فأخبرها بكل ما تريد أن أخبرها به، دون أن أحتفظ بأي سر. وكنت أعرف ما ستفعله، إذا لم يسفر أسلوبها عن أي نتيجة مقنعة، تناشد شعوري بالولاء البنوي.

قالت: «أعرف أنك لن تذهب وحدك».

فقلت: «أرجوك لا تستفزيني».

Twitter: @ketab_n

الآن وبعد أن نسيت تماماً كلّ شيء عن رائحة العطر الغريبة التي غمرت حواسي لدى دخولي إلى شقتي، وركنت مؤقتاً مخاوف خادمتي، حاولت أن أسترخي بقدر ما بوسعي في هذه الظروف. غير أن لامبار دخلت مجال رؤيتي، وبدأت أرى نفسي ضحية للنزاعات النسائية، ورغبتهن بالعناية بي أكثر مما أعتني بنفسي.

«مع من ستذهب؟» قالت أمي.

«ألا تملين أبداً يا أمي؟»

«كيف يمكنني أن أملّ من التفكير بك؟»

كانت خادمتي تدور حولي أيضاً، تريد أن تخبرني شيئاً. تساءلت إن كان لما ستقوله أي تأثير على حديثي مع أمي.

«لا أريد أن أسمع أخبارك من شخص ثالث». كانت لأمي طريقة في التشهير بنسائي، اللاتي حولتهّن إلى موضوع يستحق الشهرة في القصائد اللمريكية. لا لأنها كانت امرأة متدينة، بل لأنها لم تكن ترغب في أن تراني مع امرأة لا أنوي الزواج منها شرعاً، وهو دليل كاف على أني لا أنوي أن أنجب لها حفيدا؛ وعندما كانت ترغب في أن يصبح لها حفيد، كان يتملكها شعور بالجذل الشديد. وكانت عبارة «امنحني طفلاً» قد بدأت تلازمني. فقد تذكرت أني عندما كنت طفلاً، كنت ألحف في الطلب من أبويّ أن ينجبا لي أخاً أو أختاً. قد تكون قد تغيّرت الكلمات، وربما تغيّر المتكلمون أيضاً. لم أعد أنا من يتوسل «أجلبي لي» بل أصبحت أمي الآن، التي لم تجلب لي أخاً أو أختاً على الإطلاق. خيّم صمت ظننت معه أن أمي قد أنهت المكالمة.

«أماه، هل أنت هناك؟»

«أنا هنا، رهن إشارتك الأمومية»، قالتها بترنيمة.

كنت قد سألت نونو إن كان يعرف السبب الذي يجعل أمي حيوية ومتحمسة، فقال: «إن الأشخاص الذين يحتفظون بأسرار يتمتعون بحيوية

Twitter: @ketab_n

كبيرة، ويتعين عليهم أن يجدوا متنفساً لها. وأظن أن أمك تظل تتكلم لتخفي مخاوفها. أما صمت أبيك فهو نفق يجد فيه السلوان».

وفجأة فغمت أنفي رائحة عطر جميلة تشبه رائحة عطر قارورة العسل الذي يمكنك أن تشتريه من جميع المحلات. وفي أثناء ذلك، تابعت أمي كلامها. وانتشر ظل لامبار أمامي وراحت تحوم حولي كما يحوم النسر فوق منطقة قريبة من مسلخ للحوم.

«إنك لن تتزوج يا كالامان، أليس كذلك يا حبيبي؟»

«لا أعرف شيئاً عن هذا. ما الذي يجعلك تسألين هذا السؤال؟»

«حلمت منذ عدة ليالي أنك تزوجت. وددت أن أسالك فقط».

قلت: «إنك تسمعين عن الحرب الشعواء الدائرة بين جيش الدكتاتور والميليشيات التي تريد إسقاط نظامه، وترين أحلاماً تتعلق بالكارثة الوشيكة. وإني أظن أن سبب هذه الكوابيس رد فعل شخص لا يدرك وجود أزمة كبيرة قد تدمّر حياة المجتمع بكامله».

لكن أمي تابعت بقولها: «في أحد أحلامي، رأيتك طفلاً صغيراً في كل شيء، إذ تدعونا إلى حفل زفافك، لكن زوجتك تمنعك من ذلك. وفي حلم ليلة البارحة، رأيتك تقطع وريد إصبعك الوسطى لتقيم عهداً مع شريكتك، امرأة يشبه وجهها كزوزنا إلى حد بعيد، القرد المخملي الذي كان ذات يوم حيوانك المدلل». توقفت برهة ثم أضافت، «لا بد أنك تذكر القرد إكسوسنا، أليس كذلك؟»

«كيف لي أن أنساه؟»

لكن أكثر الأشياء غرابة هو أن اسم شولونغو يتردد على لسان كل من كلمتهم في تلك الأحلام، أتعرف أين هي وماذا تفعل؟»

قلت: «لا»، ورأيت ظلاً قصيراً يتحرك بهدوء بعد ظهر ذلك اليوم، قدرت أنه ظلّ لامبار فلجأت إلى أسلوب التهدئة، فقلت: «سأعود وأراك قريباً، لأني يجب أن أذهب الآن».

Twitter: @ketab_n

أمسكت السماعة الهامدة بيدي، ولم أكن واثقاً إن كنت أنا من أغلق الخط أولاً. على أية حال، كانت عيناي غائمتين نتيجة اكتئاب روحي. وأملت في أن أخابرها ثانية لأقدم لها اعتذاري، عندما أخذ عالمي كله يفوح بالروائح: اجتياحات عفنة من عطور وحشية، روائح غريبة في كل مكان في الشقة، وكأن قطة جلبت فأراً وتركته يتفسخ ويتعفن تحت الأريكة، أو تحت حوض المطبخ.

كنت آمل أن تفسر لي لامبار سبب انبعاث هذه الرائحة.

وجدت لامبار تجلس القرفصاء أمام مائدة الطعام في المطبخ وعلى وجهها علائم الحزن. استوت واقفة عندما دخلت. كان ظلها كثيفاً مثل قبضة رجل خسيس. قلت: «آسف» لكن هل ذكرتِ شيئاً عن ضيفة لم أخطرك بقدومها؟»

كنت أقيم في شقة مؤلفة من غرفتين في الطابق الأول في منطقة سكنية راقية في مقديشو، وقلما وجهت الدعوة إلى أحد من أقارب عائلتيّ والديّ الكبيرتين، رجال ونساء القبيلة الذين تتراوح طلباتهم من الإقامة والطعام لمدة شهر، إلى دفع فواتير علاجهم، ورسوم مدارس أطفالهم. فلم يكن لديّ وقت أمضيه معهم، ولم أتردد في أن أغلق الباب في وجههم. كنت أذكّرهم بأني لا أنتمي إلى قبيلة، وبأني رجل مهني. ولم أكن أدعو أياً منهم لزيارتي والإقامة في بيتي كضيف، خشية أن تلتقط أصابعهم الرشيقة ما يمكنها أن تلتقطه خلال فترة ذهابهم إلى الحمّام وخروجهم منه. فقد كانوا سارقين يأتون لا يحملون شيئاً في جعبتهم، ويغادرون وقد امتلأت بكل شيء. وكانت حيلتهم الوحيدة الابتزاز الاجتماعي.

«لا أعرف كيف أفسّر ذلك». قالت لامبار الآن. كانت في بدايات الخمسينات، وكانت قد عملت في خدمة أبويّ سنوات عديدة قبل أن

Twitter: @ketab_n

تأتي وتعمل في شقتي. وهي تعرفني منذ بدايات مراهقتي، وكنت معجباً دائماً بترتيبها، وحرصها، واعتزازها بنفسها. وكانت من قرية نهر الشعب، التي تبعد مسافة قريتين عن بيت نونو، وكان زوجها طريح الفراش، وظل وضعه الصحي هكذا حتى مات منذ بضع سنوات. ورغم حصولها على راتب كامل، فقد كانت تعمل عندي نصف يوم لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع، تكنس الأرض مرة في الأسبوع، وتغسل ثيابي أيضاً، وتطهو أطباقاً تقليدية في المطبخ القائم في زاوية في حديقة البيت الخلفية. كنا أنا ولامبار متوافقين ومنسجمين، وكنت أحب الأطباق التي كانت تطهوها، وإن كانت تكثر قليلاً في استخدام الزيت، وتفرط في سلق الخضروات حتى لا يعود فيها شيء حيّ.

عندما لم تنبسِ بكلمة، سألتها إن كان ضيفي ذكراً أم أنثى؟

تحركت شفتاها. إن كانتا قد أصدرتا أي صوت، فإني لم أسمع شيئاً مما قالته. فالصعوبة التي تكتنف قراءة الشفاه، هي ذات الصعوبة التي تكتنف تفسير إشارات يد تلوح في الهواء، ولم أكن أجيد أياً منهما. طلبت منها أن تعيد ما قالته. واستغرق الأمر بعض الوقت كي أعرف أن ضيفي امرأة، وهي ليست تالادو، صديقتي الحالية، التي كانت لامبار تعرفها جيداً. والأهم من ذلك، بدا أن ضيفتي دخلت إلى البيت مستخدمة مفتاحها الخاص.

وما زاد من حدة توتري، أن لامبار كانت تجد صعوبة في لفظ كلماتها. كنت أريد أن أعرف، وسرعان ما عرفت سبب هذا الارتباك الشديد. فقد اقتربت مني كثيراً الآن، وفيما كنت أصغي لأنفاسها اللاهثة، كأنفاس شخص مصاب بالربو، خيّل إليّ أني كنت أستنشق مزيجاً غريباً يبعث مادة الهيستامين في الدم. وبدأ منخراي يتسعان شيئاً فشيئاً، وتتحول رئتاي إلى منفاخيّ كير تمتد منه ألسنة النار. وقفت كالصخرة، ورأسي مائل إلى الخلف، أقاوم عطسة، فيما عطست لامبار.

Twitter: @ketab_n

وقد ألهمني هذا بإحساس غريب. قلت لها «رحمك الله». ومرت لحظة، ثم أخرى. ثم انسلت رائحة الشخص الغريب ثانية، وبدأت تتداخل مع أفكاري.

«أين هي ضيفتي إذن؟»

لم تفه بكلمة واحدة. ملأت ظلمة ليلة استوائية عينيّ بعتمة قاتمة. كانت عيناها مفتوحتين على وسعهما، لكنهما لم تكونا تريان. وللحظة أمسكت الجزء الأسفل من مرفقها العظمي، مثل غريق يتمسك برغوة زلقة، لكنها تملصت من قبضتي بفظاظة، كان كلّ ذلك لأني لم أتمكن من معرفة معنى الرائحة، أو إن كان لضيفتي علاقة بها. صرنا الآن في الجزء الذي تتسلل إليه أشعة الشمس من الشقة (لا أعرف كيف وصلنا إلى هناك). كان نور شمس بعد الظهر قد بدأ يشع في الداخل، وأخذت حساسيتي المعدية إزاء القلق تخّف شيئاً فشيئاً.

«هل رأيتها تدخل؟» سألتها.

«لم أدعها للدخول ولم أرها تدخل أيضاً، أقسم بذلك». وبهت لون عينيها البني، وكأنها رأت كائناً أثيرياً.

«لابد أنك كنت خارج الشقة عندما دخلت؟»

قالت: «كنت موجودة عندما جاءت، وكنت أعمل».

وبعد أن نفذ صبري، ابتعدت عنها متجهاً إلى الغرفة الجانبية، حيث ظننت أن ضيفتي تمكث فيها، وقلت إنها لا بد أن تكون امرأة مسكينة من إحدى القبائل في منطقة اجتاحتها المجاعة، وتريد أن تطلب مني شيئاً. ولئن كنت قد أبطأت قليلاً في خطواتي، فلأني رحت أفكر بوجود احتمالات أخرى، كأن لا تكون المرأة إحدى قريباتي، بل عشيقة سابقة جاءت لتشعل شمعة رومانسية كانت قد أطفئت.

خفضّت لامبار صوتها إلى درجة الهمس تقريباً وهي تقترب مني وقالت: «ظننت أنك أعطيتها المفتاح. وأكرر قولي بأني لم أسمح لها

Twitter: @ketab_n

بالدخول، ولكن على أي حال»، ورفعت كتفيها بطريقة لا معنى لها. وكنت أعرف من تجربة سابقة بأنها لم تكن تجيد الكذب وإخفاء مخاوفها.

«إنك متأكدة من أنك كنت هنا طوال الوقت؟»

«كنت مشغولة في مسح الأرض وأعمال أخرى وإذ بها هنا». وكأني لم أفهم قصدها، صحّحت نفسها بأن نظرت نحو الغرفة الجانبية، وكررت: «أو أنها وجدت هناك بين لحظة وأخرى»، وقد أعطت عدة دلالات لكلمة «هناك» من تداعيات مترابطة في الفراغ والزمان والمكان أيضاً. وبذراعيها المشرعين في تلك اللحظة بالذات، كان سيخيّل إليك بأنها أوجدت الكون في تلك اللحظة بالذات، وكانت تكتنفها مشاعر من الغموض والأحاجي.

كان بؤبؤا عيني لامبار مثل ثقبي إبرة، وكأن أشعة الشمس حجبتهما بخيوط خيالي السوداء، يغوران ويخرجان بسرعة طائر ينقّض فوق بركة ماء، وقد وقف في وسط قوسين مفتوحين، في زمن لا يوجد فيه ماض أو حاضر أو مستقبل. ثم أحسست بشيء يهيّج حساسيتي أنفي مما جعلني أحكّه بقوة، وعطست بقوة إلى حد أن العالم حولي قد اهتز. كان المخاط يسيل من أنفي، وكانت شفتاي مبللتين باللعاب، وراحتا يدي مبللتين بالعرق. قلت لنفسي أي اضطراب هذا الذي أحدثه الهيستامين في دمي.

قالت: «ربما كنت أهلوس».

وبينما رحت أجفف يديّ وفمي وأنفي بمنديل، ارتعشت شفتاها. وذكّرني هذا في الحال بطير أصيب بالذعر وهو نائم. وبعد برهة، طرفت عينا لامبار ببطء ممض مثل فرخ صغير لا يملك جناحين، لكنه كان يحاول الطيران. ثم خفضت جسدها مقرفصة، وأدخلت رأسها الآن بين القوسين اللذين شكلتهما بيديها. هل كانت تخشى أن أضربها؟ تراجعت خطوة عنها.

Twitter: @ketab_n

قالت لامبار: «انتظر يا كالامان، انتظر».

عندما استدرت، طرفت عينا لامبار كعينيّ حيوان استشعر قدوم خطر وشيك، وقالت محذرة: «انتبه جيداً».

امرأة خطرة؟ امرأة مسلحة من قبيلة أخرى - من قبيلة معادية؟ كم أنت غبي؟ - مستعدة لتجعلني أنفذ أوامرها، مستعدة لأن تضع مسدساً على جبهتي، في شقتي، وفي وضح النهار، لتأمرني بأن أفرغ في جعبتها مدخراتي المصرفية، لتجعلني أوقّع على خط الدم المتقطع، بحجة أن قبيلتي سلبت قبيلتها منذ قرون عديدة؟ (كانت أمي ستقول لي: «لقد قلت لك ذلك» مشيرة إلى حيوانية أولئك الناس. من المؤكد أنها لا تنتمي إلى إحدى جماعات الميليشيا التي تستخدم النساء في التسلل إلى قلعة الدكتاتور الفاسدة؟ إن كان الأمر كذلك، فلماذا أنا؟

لم أدرك أن ثمة تغيراً قد بدأ يطرأ عليّ فحسب، بل إن شعوراً بالخوف كان قد بدأ يتلاعب بقدرتي على الإدراك بشتى الأشكال. كنت أرى بقرة في شكل امرأة، وكنت أرى امرأة برقة أثيرية لشبح تسلل إلى شقتي في وضح النهار، دون أن تسمعني لامبار أو تراني أو تشك فيّ. وفجأة عرفت من هي ضيفتي.

وعندما عرضت الأمر على لامبار، بدا أنها تؤيد شكوكي، فقالت: «يبدو أن لضيفتك مظهراً هادئاً وواثقاً بنفسه. كأنها اختارت أن تكون امرأة اليوم، لكنها ربما كانت رجلاً في حياة أخرى أو شبحاً أو عنزة».

لم تكن نظراتها تستقر كما تفعل فتيلة مشتعلة بعد إطفاء لهبها حتى أضافت: «عندما دخلت في المرة الأخيرة، كانت تجلس بهدوء، ورأسها مائل فوق ورقة ترسم أشياء قبيحة».

لم يعد هناك داع للهمس: أطل وجه ضيفتي المركّب على وعيي في تدفقات ضوئية كألسنة البرق في نوبات مخيفة، كصرير الأبواب وهي تفتح في العتمة في أحد أفلام هيتشكوك المرعبة. «أرجو أن تطلبي منها

Twitter: @ketab_n

أن تنضم إليّ على الغداء»، قلت للامبار، التي تحركت لتفعل ذلك ولكن بتردد، وكأن الخوف قد تملكها. تابعت قولي «وبعدها يمكنك أن تتركينا وحدنا. يمكننا أن نرتب المائدة ونخدم أنفسنا».

حدّقت خادمتي فيّ غير مصدقة.

قلت: «لن أحتاج إلى خدماتك لعدة أسابيع، لذلك أقترح أن تري مساعدتي في المكتب وتقبضي راتبك. فلديها تعليمات بأن تصرف لك راتب شهر كامل فضلاً عن علاوة».

ولأول مرة منذ أن بدأت تعمل عندي، بدا أن لامبار على وشك أن تعصي أمري. رأيت أن هذا السلوك نذير شؤم، فكدت أسحب كلّ ما قلته لها.

توسلت لي قائلة: دعني أبقى هنا أرجوك». فقلت لها بلهجة آمرة: «إفعلي ما أقوله لك».

«دعني أطعمها بيدي».

فقلت بحزم: «أرجوك اذهبي».

كانت تفوح من شولونغو رائحة عشب مقصوص حديثاً، عطر الربيع. وكانت تشبه بقرة ملطخة ببرازها الذي يكون أخضر اللون عندما يكون الفصل ماطراً. أحدث ذلك قشعريرة من الحساسية في منخري، وعادت إليّ حمى العشب. أحسست بأني بائس جداً. انقطعت أنفاسي ولم أتمكن من إطلاق العطسة. وكلما فتشت عن شيء أقوله، ازداد لقاح اضطرابي، وازداد معه شعوري بانزعاجي التام.

أخذت أحدّق يائساً، وأنا أفكر بأن شولونغو، بعكس أظافر الموتى، لم يزدد طولها ولا بوصة واحدة خلال العشرين سنة ونيف الأخيرة، منذ أن رأيتها آخر مرة. أما صدرها فقد ازداد كبراً، وأصبح مثل صدر امرأة

Twitter: @ketab_n

حملت أطفالاً كثيرين، واتسع حوضها كذلك، وكأنها كانت تريد أن تنجب المزيد منهم. ومع ذلك فقد استنتجت، والله يعلم كيف، أنها لم تنجب طفلاً واحداً. كانت عريضة القسمات، ليست سيئة الطلعة، لكنها مفعمة بالنشاط. وكانت شولونغو تتمتع بحيوية لا يمكن تفسيرها. لكن رقبتها كانت قصيرة لا يمكن أن تكون رقبة إنسان، بل كانت تشبه رقبة طير على وشك الانقضاض، وهي لا تكّف عن تحريكها إلى الأمام وإلى الخلف، إلى الأعلى والى الأسفل.

كان على أرنبة أنفها بقعة بنية. وكانت نظراتها مرتبكة أيضاً عندما نظرت إليّ. لعلها كانت طائر آكل العسل، مرتبكاً وهو ينبش جثة مدفونة. قطبت جبيني بقلق، وكان بعضي يرفض أن يحكم ظلماً على امرأة لم تقع عيني عليها منذ قرابة عشرين عاماً. إذ إن عدم ثقة أمي بها لا يعني أنها كانت شريرة تماماً. وقررت أن أبادر بنفسي لكي لا أدعها تلف وتدور أو تقود دفة الحديث.

سألتها: «هل ترغبين في كأس من عصير التمر هندي المثلج؟» ولامس لساني سقف حلقي دون أن يتعثر بأي من الأصوات الساكنة. لكن شعوري بالظفر لم يدم طويلاً، فما أن تكلمت حتى عطست عدة مرات متتالية وبسرعة. لم تمطرني بقولها «رحمك الله». بل أشاحت بوجهها، كما لو كان ذلك بسببها. ومع ذلك، أخذتها إلى المطبخ وصببت لها كأساً مليئاً من عصير التمر هندي وقدمته لها. أمسكت الكأس بيديها كلتيهما، وجلست إلى الطاولة. رحت أفكّر كيف يمكنني أن أتنكر لماضي شبابنا، لكني لم أستطع أن أتفادى عطسه بسبب الحساسية.

جرعت رشفة من عصير التمر هندي، وبدا في عينيها وكأنها تتذوق ذكرى قديمة في نكهة الشراب. وللحظة لاحت على وجهها ابتسامة عريضة شيطانية، لكنها قالت بنبرة تأكيدية: «لقد مضى وقت طويل، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي لقد ازداد صوتها خشونة، مثل صوت أمي. فقد كانت فيه بحة معدنية، وكأن نصف شفرة حلاقة دفنت فيه. خشيت أن أتصوّر الشرر الذي قد يسبب الاصطدام وجهاً لوجه بين أمي وشولونغو حين تتصادم الزوايا الحادة لشفرة شولونغو مع زوايا شفرة أمي الصلبة كالحصاة. عطست مرة أخرى.

قالت: «أرجو أن لا تكون لديك حساسية للقمل».

كنت قد سمعت أن أنجع وسيلة لوقف الفواق هو أن تصدم من يصيبهم به، وهذا يفسر السؤال السخيف إن كانت لدي حساسية للقمل؟ - كان له تأثير مفيد علي. وفجأة زالت الحكة الانفعالية من أنفي. «لماذا تسألين إن كانت لديّ حساسية للقمل؟»

«لأني أحمل زوجاً منها». قالتها بحدة مثل حمامة تهدل وهي تتهيأ لجلوس القرفصاء. لم تظهر عليها أي ارتعاشة، بل كانت في غاية الجدية.

وللتغلب على حذري قلت بفضول: «ولكن بحق الله أين تحملين القمل، ولماذا؟» ربما كنت ضابط جمارك أمريكياً يسأل إن كانت تحمل بعض الفواكه المصابة بالحشرات من وراء المحيطات.

«لا تكن مملاً»، قالت وهي تنحني بعيداً، مفعمة بغموض الشاكارا. لم يكن يبدو أنها ستبوح بالمكان الذي خبأت فيه القمل، ولن تفسر سبب ذلك.

كانت أمي قد منحتني حساسية زائدة. بعبارة أخرى، فأنا أنحو للاستنتاج بأن المراوغة تعادل الكذب أو كتمان السر. «لا أصدقك»، قلت لها، لكن كل ما فعلته أنها ابتسمت.

شعرت بالضيق. كان رأسي يطن بذكريات مودة ولدّت في لحظة هدوء ذكريات أخرى من ماض بعيد. رحت أفتش بين هذه الذكريات. وكنت أشعر بالحرج إلى حد أني لم أستطع تذكرها. كنت آمل أن يعرف

Twitter: @ketab_n

أحد ما كنا نفعله أنا وشولونغو معاً، حماقات طفولة حرية بأن تجعلني أشعر بالخزي التام. فقد كان هناك العهد بالدم، بقطع أوردة الأصابع، واستخدام الصوان، وقطع عهود ووعود حتى الموت. وقد استحال هذا إلى شعور بالذنب أخذ يثقل على ضميري. لكنني في الحقيقة شعرت بأني وقعت في فخ من عالم مليء بالعقد، التي كلما حاولت أن أفكّها أكثر، تراخت عقد الأوتاد، وتشابكت الحواجز الصخرية وحبال الشراع.

قالت: «هل لا يزال فيدو حياً؟»

هززت برأسي قليلاً.

شربت عصير التمر هندي الذي قدمته لها برشفات صغيرة، بينما تراءت لي صورة عالم يتهاوى حول أذنيّ، وأنا أسقط، أتهاوى وأشدّ معي نونو وأبويّ، وربما فيدو أيضاً. تصوّر: امرأة لم تلفظ شفتاي اسمها منذ سنين طويلة وتظهر في أحلام أمي، ثم تظهر في شقتي التي تدخلها بدون استئذان. تخابرني أمي لتسأل إن كنت أعرف مكان وجودها. وهاهي الآن هنا في مطبخي، كائن حقيقي من لحم ودم. خشيت أن أفكّر بما يمكن أن يقوله روائي حين يقوم مجرد مخلوق، وشخصية ضعيفة بتحدي قدراته على الاختلاق.

قالت: «أهذا هو الاستقبال الذي ألقاه منك، كوب من عصير التمر هندي الُمحّلى، هذا كل شيء، لا عناق، لا قبلات، لاشيء سوى الأسئلة والنظرات الميتة؟»

لم أردّ عليها كي لا يبدو صوتي أجشاً، ولم أتحرك، ورحت أتساءل إن كان أسلوبي سيصدمها كسلوك يثير المخاوف. رددت عليها بالنظر إليها بخبث، فواجهت نظراتي بنظرة تشي بالثقة بالنفس لامرأة سكن في عينها بهاء أشعة شمس بعد الظهر.

سألتها: «كيف دخلت؟»

انفرجت شفتاها عن ابتسامة جريئة. «هل كنت تتوقع أن أستخدم باباً

Twitter: @ketab_n

خلفياً كما لو كنت الخادمة التي تستأجرها ليوم واحد أو شيئاً من هذا القبيل؟ كيف دخلت، يا للصفاقة!»

«قالت خادمتي إنها لم تفتح لك الباب».

تملكني شعور بالرعب في اللحظة التي خرجت فيها الكلمات من بين شفتيّ. ولسبب ما تذكرت جريمة قتل. نونو يهرب جنوباً بعيداً عن مسقط رأسه في مدينة بربرا، ليعيش في المحمية الصومالية البريطانية. ولينتهي به الأمر في أفغوي من بين جميع الأماكن، حيث انتحل هوية جديدة، وخرج بشخصية أخرى. لماذا تجعلني هذه المرأة أتذكر بعض الأشياء التي كنت قد نسيتها تماماً؟ ولم يكن ثمة سبيل لمعرفة ما ستجلب زيارتها لاحقاً، وأية ألغاز قد تكشف، وما الأحاديث الكارثية التي قد تثيرها بيني وبين أمي من جانب، وبيني وبين تالادو، المرأة التي كنت ألتقيها من جانب آخر. بعبارة أخرى، لا يعرف أحد مدى الضرر الذي قد تسببه شولونغو.

قالت: «إنك لا تعرف كيف يتدفق الدم في أوردة سبابتي لمجرد التفكير بان ألمس سبابتك بعد كل هذه السنوات. لقد صدمتني، لأن كل ما تبدو مهتماً به هو طلاسم الأمور العادية الرتيبة: كيف تمكنت من الدخول إلى شقتك، أو لماذا كنت أحمل القمل أو أين هو. هل نسيت كيف تفكر بالأشياء الكبيرة؟ هل أصبحت ترتعد خوفاً مما قد تفعله الكارثة الوشيكة الحدوث بأسلوب حياتك، هل حرضت قبيلتك على قبيلتي؟ هل هذا ما يشغل بالك؟»

مضطرباً، رحت أحدّق فيها وأنا معقود اللسان. صرير أصوات أبواب تفتح في رأسي، ثم وفجأة تصفق وتغلق بدوي عالٍ، فيما تخليت عن محاولة أن أتحدث للدفاع عن نفسي.

ثم سألتني: «كيف حال نونو؟»

قلت: «انه مثل طبل مدوزن جيداً، فلا يزال جلده مشدوداً على

Twitter: @ketab_n

جسمه. إنه يبدو أكثر شباباً بكثير من عمره البالغ الثالثة والثمانين، وهو يزداد قوة، وفي مشيته قدر كبير من التوثب».

«وأبوك؟»

«إنه يعيش في عالم بانس».

قالت: «لن أسألك عن أمك».

«لم لا؟»

فأجابت «لعلك تستطيع أن تقدم لي شرابا أقوى».

لا أعرف سبب ذلك، لكني كما كنت أفكر بأسماء الرز الصيني، لفظت العبارة الفرنسية nom de lait (اسم الحليب) متذكراً أن نونو قبل أن يسميني كالامان كان قد بلل شفتي بقطرات من شراب التمر هندي، ثم قامت أمي بإرضاعي.

«ما المشروب الأقوى الذي تريدينه؟»

«أيّ مشروب كحولي لديك بقدر إصبعين».

وفيما اتجهت نحو خزانة الشراب، تساءلت إن كانت شولونغو من اختراعي، مذكّراً نفسي أن ربع قرن زمن طويل. إذ إن قدر العسل لا يدوم إلى الأبد، وكوب عصير التمر هندي المثلج يفسد خلال يومين فيتخمر، وقطعة شوكولاته تذوب فتصير لطخة تحت أشعة النهار الاستوائية اللاهبة، إصبعان من الشراب، حقاً! أخرجت عدة قناني ووضعتها أمامها كي تختار بنفسها. صبّت في كأسها قدراً يزيد على إصبعين من الويسكي.

قلت «لماذا لم تخبريني بأنك قادمة؟»

فجاء ردها الحاسم: «كم أنت برجوازي وممل؟»

شعرت بهدوء غريب في صمتي.

سألتني: «ماذا كنت أعني بالنسبة لك طوال تلك السنين؟»

Twitter: @ketab_n

لم أجرؤ على أن أخبرها بأني كنت قد احتفلت بغيابها بأن منحتها مكانة مركزية في مخطط حياتي؛ أو أن وجودها الكلي كان قد ولج فتحة كل باب دخلته؛ أو أني كنت أتذكرها كلما نظرت إلى فتحة في إحدى آلات النفخ الموسيقية، أو أعزف عليها، وأوقفها بإصبعي.

قالت: «تذكر القول المأثور «من يعثر على شيء يحتفظ به».

«يعثر على ماذا أو يحتفظ بماذا، أو بمن؟»

«كنا نلعب هذه اللعبة عندما كنا أطفالاً».

«وماذا يعني هذا؟»

«كنتُ في الحادية عشرة وكنتَ في العاشرة».

«كنتِ في الخامسة عشرة وكنتُ في التاسعة من عمري» قلت مصححاً.

قالت: «ليس حسب جواز سفري».

«لم أكن أعرف أنه كان لديك جواز سفر في تلك الأيام».

«في جواز سفري الأمريكي أكبرك بسنتين فقط».

خطر لي أنها لعلها كانت تتباهى بجواز سفرها الأمريكي، ظناً منها أنى سأهتم بها من أجل ذلك. إذ إنه سيتيح لها مخرجاً من الأزمة في الصومال عندما ينهار البلد، ويصبح في حالة من الفوضى التامة. تركت ذلك يمر بدون تعليق.

راحت تتذكر: «لقد أمضينا أنا وأنت أوقاتاً بهيجة عندما كنا صغاراً، أليس كذلك؟ عشنا حياة حرة تماماً أليس كذلك؟» والحال هو كذلك اليوم، ويمكننا أن نتطلع إلى أسلوب حياة لا تعترضه التفاهات اليومية النرجسية، لأني أنتمي أنا إلى الفاسيز، وتنتمي أنت إلى قبيلة أخرى.

«أميركا، الأرض التي تذوب فيها كلّ الاختلافات؟»

تملكني الغضب على نحو مفاجئ. وأضافت: «يمكنك أن تفعله

Twitter: @ketab_n

أفضل مما تفعل الآن، فالكليهشات معششة في رؤوسهم. أين هو ذلك الكالامان الذي يتمتع بشعلة من الذكاء، سدادة الفلين التي تحبس الجني في القمقم فلا يتبدد كدخان».

لم تأتني آنذاك لمحة ذكية. وقفت عاجزاً كصرصور ملقى على ظهره، صرصور تبحث أرجله الصغيرة في الهواء عن شيء صلب تتشبث به، جلست أحدّق فيها.

«إنك لا تتذكر كثيراً، أليس كذلك؟» قالت متحدية.

قلت: «إن مشهد ذاكرتي مليء بقطع من الحياة تتناثر فيها تفاهة. أعواد خشب جرفتها المياه. ويتدلى الكثير منها وهي على وشك السقوط، أطر صور أثقل من أن يحملها ظفر».

«هل تعرف سبب وجودي هنا؟» قالت.

قلت لنفسي إن كانت هناك فخاخ بيزنطية تتربص بي فليكن. وأجبت «ستعلمينني بكل شيء إن آجلاً أم عاجلاً، أليس كذلك؟» بأمل أن أبدو غير مكترث بوجودها هنا، أخرجت الصحون. وضعت صحناً على طاولة المطبخ، ثم الآخر، ثم قدمت الوجبة وقدمت لها كمية أكبر من الطعام. أخذت مقدار ملعقة طعام، طعام كدواء واق.

قالت: «من المثير للفضول كيف كان للطعام دور مهم في علاقتنا، كيف كنت تقدم لي الطعام، وأقدم لك نفسي، قوارير عسل، قطعة شوكولاته، لقمة من هذا أو ذاك، ثم ماذا فعلت؟ قدمت لك روح امرأة شابة، روحي، لقاء تلك الأطعمة، إنه شيء مأساوي للغاية! أم أن الأمور تجري هكذا بين الرجال والنساء؟ الرجال يوفرون للنساء الضروريات البسيطة مقابل حصولهم على أرواح النساء؟»

«عليك اللعنة»، شتمتها وخرج صوتي وكأنه خارج من تحت الماء. نهضت وكنت على وشك أن ألمسها أكثر من أي وقت آخر منذ أن رأيتها. هل أستطيع أن أضربها أو أن ألقي بها خارج شقتي؟ لقد شتمتها

Twitter: @ketab_n

لأني لم أعرف سبيلا آخر للدفاع عن نفسي في وجه هذه التعميمات المضحكة والخرقاء عن الرجال والنساء. وأخيراً عدت إلى جانب المائدة، وجلست أمام صحني، لكني كنت قد فقدت الشهية في تناول الطعام.

قالت: «لن آكل وحدي».

تناولنا الطعام. أخذت تأكل بسرعة أكبر وأكبر، وكانت في أثناء ذلك تتكلم، تلفظ كل كلمة ببطء كما تفعل الساحرة وهي تدمدم الرقى، ثم قالت: «لقد جئنا أنا وتيمير لندفن أبانا».

قدمت لها عزائي.

«لكن هناك سبب أخر لوجودي هنا».

وفيما ملأت فمها للمرة قبل الأخيرة، غصّت بها وسعلت. تساءلت إن كان عليّ أن أصفعها على ظهرها. كان ثمة اندفاع قلق مفاجئ في حنجرتها. ومدّت يدها لتتناول تفاحة حواء، راحت تفركها بلطف. جلست منتصباً، أنتظر.

سألتني: «ماذا وضعت خادمتك في الطعام؟»

قمت بحركة «تعالي وفتشيني»، ولاحظت أثناء ذلك بقعة بحجم الشلن على خدها الأيسر. ظننت أنّ البقعة كانت بسبب الظل الملقى على أنفها. لكنها أخذت تحك البقعة الآن. تذكرت كيف وصفت أمي شولونغو ذات مرة بأنها تشبه حيواناً مفترساً، ذات شهية كما يشتهي الذئب إلى الدم والأحشاء، لسعة نحلة عسل حلوة، مكر الثعلب، ومراوغة الضبع.

«سأمكث هنا بضعة أيام، هل يمكنك استضافتي؟»

تلقيت النبأ بابتسامه مجاملة حقيقية. فكرّت بأمي وبما يمكن أن يقوله أبي، وفكرّت بما ستظنه تالادو، وفكرت بنونو.

Twitter: @ketab_n

تابعت كلامها: «جئت إلى هنا لأحمل بطفل».

كان ذهنها صافياً لكي تكشف بكلمات قليلة ما كانت تسعى إليه، وقد حسدتها على ذلك. حسدتها على كل شيء فيها، الشعر، الشفقة، الحديث عن التربية. ومع كل هذا، وبينما كنت أواجه مشكلة في معرفة كيف يمكنني أن أرفض طلبها في البقاء معي، تقدمت خطوة أخرى، فهي هنا لتحمل بطفل، كيف؟ ولعدم تمكني من تحديد دوري في رغبتها بحمل طفل، سألتها: «كيف يمكنني أن أساعدك؟»

قالت «أريد أن تكون أنت أباً لطفلي».

«ولماذا أنا؟» سألتها وأجفلت لفكرة ما يمكن أن تقوله. وتخيّلت سماع صوت مشحون بمزيج من المرارة والسخرية. جاء الجواب جاهزاً. «للعبقرية في جنسك، يا عفريتي الوسيم!»

«الأسباب كثيرة ولا يمكن إيرادها الآن» قالت. ثم تراقصت علي وجهها نظرة خبيثة. لم أستطع أن أفكر بشيء أقوله، لذلك سألتها: «أين تيمير؟

«أصبح يرتدي الآن ثياباً ذات ألوان يرتديها الشاذون جنسياً».

لم أفهم قصدها تماماً، فسألتها: «أي نوع من الألوان؟»

«إنه عضو فعال في الحركة الأمريكية للوطيين».

«وهل جاء إلى هنا ليفتح فرعاً؟» سألتها.

للتماسيح دموع تذرفها، لكن ليس لشولونغو دموع.

«جاء ليشتري امرأة، وهو يفّضل أن يكون لديها طفل رضيع، تكون مستعدة لأن تصبح عبدة له ولخليله المتطفل على الفن في سان فرانسيسكو ليمارسوا الجنس هم الثلاثة، وذلك لأنه يملك مالاً ويحمل جواز سفر أمريكياً».

رن الهاتف. أكدّت ساعة يدي شكوكي: لقد تأخرت على العمل.

Twitter: @ketab_n

سعدت بأني سأخرج. كلّمت سكرتيرتي وأمليت عليها رسالتين قصيرتين.

قلت لشولونغو: «سأغادر الآن وسأراك لاحقاً» وخرجت مسرعاً.

تتمتع يدي بذاكرة قديمة لمخطوطة ذات منحنيات ودوائر غامضة. أتتبعها، إبهامي يحتك بسبابتي وأنا أكتب هذه المخطوطة المتخيّلة. أفعل ذلك عندما لا أستطيع أن أركّز على العمل الذي أفرضه على نفسي في مكتبي. إذ يساعدني الرسم في التخفيف من حدة التوتر في داخلي. وكنت بين الحين والآخر، أرسم صليب لورين، وكنت أصل الخطوط العليا بالخطوط السفلى. وهكذا تبرز وجوه بومة مغمضة العينين، أو أسماك ذات أفواه فاغرة وهي تأكل. كان أبي الفنان في العائلة، وكان بإمكانه أن يصوّر ما يعجز الآخرون على تخيّله. أما أنا فلم أكن فناناً حقيقياً، بل مهووساً بالكومبيوتر، وهو مجال عملي واهتمامي الرئيسي. فقد كنت أدير الشركة التي أنشأتها، ويعمل لديّ ما يقرب من خمسة عشر شخصاً، ويقع مكتبي في ملحق البيت، وعندي مساعدة تتمتع بكفاءة عالية، كانت عشيقة سابقة، تدعى كالين. نعتمد عليها جميعنا.

بدأت أرسم صليب لورين، وكانت تغمرني ذكريات من رائحة شولونغو بين الحين والآخر، مثل رائحة تجشؤ كريهة من زيت النخيل. أتساءل إن كان عليّ أن أخرج وأتمشى كي أنظّف رئتي من رائحة التجشؤ الفظيعة. اتصلت بسكرتيرتي وسألتها عن الرسائل التي وردتني. كان تيمير أحد هؤلاء المتصلين، الذي كان قد جاء وذهب، ووعد بأن ربما سيعود في الغد. هل أريدها أن تتصل بالفندق الذي يقيم فيه؟ لا. مع أني لا أنكر أنه كانت لدي رغبة في الاتصال بتيمير والتحدث معه، حتى لمجرد معرفة حقيقة دوافع شولونغو، لم أنا؟

ومع صوت أزيز المكيّف في خلفية مكتبي، تتبعت يدي مزيداً من الخطوط وحصلت على مجموعة نماذج متشابكة من أوراق شجرة التمر

Twitter: @ketab_n

هندي، أوراق شديدة الخضرة، ناعمة الملمس كالريش، وذات تأثير مشابه على كلّ من يراها. فقدت شمس العصر حدتها والكثير من وهجها. في مكان ما من تضاعيف التصميم، استطعت أن أميّز شكل قنديل مضيء، دائم الاشتعال.

في ذاكرتي عندما كنت طفلاً. والد شولونغو مع امرأة على سرير لم تبدل شراشفه منذ أيام، في غرفة لم تُفتح نوافذها منذ ما يقرب من أسبوع، يمضيان أسبوعاً من شهر عسل عاصف، تتماوج لحمة وسداة جسديهما حتى لاتعود تعرف ساق أو ذراع أي منهما، سوى أنك قد تستطيع أن ترى الفرق إذا ركزّت على شعر جسم الرجل، وحتى حينذاك فقد تخطىء، لأنه لا توجد لمادوبي شعرة واحدة في صدره ورجليه. وكان معتاداً على حلق لحيته وشعر عانته. وهو مع امرأة يمنية أشد سمرة منه، وهو أصلاً شديد السمرة. ولأني لم أكن أعرف من منهما فوق الآخر، ومن منهما يكسوه شعر خشن، اقتربت منهما. كنت في الثامنة من عمري، وكنت أتلصص كثيراً على الممارسات الجنسية. ووقعت في مشاكل أكثر من ثلاث مرات مع والديّ اللذين أمسكاني وأنا أتجسس عليهما. ولكن ليس مادوبي، والد شولونغو.

تيمير وشولونغو في غرفتهما، يتضاجعان دون أن يبوحا بذلك. وكان دليلي الوحيد على ذلك كلمات تيمير التي سمعتها عندما كنت أسترق السمع إليهما فسمعته يقول إنه «لن يعطيها إياه بعد الآن». يعطيها ماذا؟ فاجأتهما في عصر ذات يوم، وبدلاً من أن أبقى مختبئاً بصمت في مكان آمن لمختلس نظر مثلي، قررت أن أظهر.

سألتني «هل تريد أن تفعل ذلك أيضا؟»

ولم تكن قد بدأت بهذه الطريقة!

•

في يوم آخر، رحت أفتش في حقيبتها وفي جيوبها بحثاً عن دليل

Twitter: @ketab_n

على وجود تعويذة سحرية. وعندما لم أجد شيئاً، دعوتها هي وتيمير للسباحة في منزل نونو. تأكدت من أننا غصنا في النهر في المكان الذي يحتمل أن نستثير فيها تمساحاً. فلو كان باستطاعتها، كما كان يشاع، أن تستبدل شكلها البشري بشكل حيواني، فأي طريقة أفضل من تعريض حياتها للخطر لإثبات ذلك؟ لكننا للأسف، لم نواجه أي خطر. حاولت أن أوقعها في الشرك عدة مرات، ولكن بدون جدوى.

وفي مناسبة أخرى، خرجنا نحن الثلاثة نتمشى في الدغل المحيط بمنزل نونو. أخذتهما في الطريق الذي يقال إن قطعاناً من الضباع تكمن فيه لتنقض على فريستها. انتظرنا. ولكن مرة أخرى لم يحدث شيء. ولم يكن من الممتع أبداً أن تجلس وحيداً في الظلام متجمداً من الخوف، وضربات قلبك تدق أسرع من دقات قلب فاوستو كويي وهو يحطم رقماً قياسياً عالمياً.

الآن، وبعد سنوات، وبعد ساعتين من تناول طعام الغداء مع شولونغو في شقّتي، أجفلت عندما رن جرس الهاتف. لم أجب، لأني لم أكن أريد أن أتحدث إلى أمي أو إلى تيمير إن كان هو المتصل، أو إلى تالادو إن كانت هي، أو إلى شولونغو. وعندما توقف رنين الهاتف المتطاول مثل صفارات الإنذار المثيرة للفزع. ألقيت نظرة قلقة إلى الرسم أمامي: ببغاء وعلى منقاره هلال صغير.

عدت في وقت متأخر إلى البيت. لكنني اتصلت بمحل أمي للبيع بالمفرق قبل أن تغلق هذا اليوم، وصالحتها. لم أبح لها بمكان شولونغو، ولم أخبر تالادو عنها حتى عندما اصطحبتها لمشاهدة فيلم ذي حبكة معقدة. شيء عزوته إلى حالتي النفسية. وعندما كنت أنا وصديقتي في محل لبيع الفطائر بالسيارة، سألتني لماذا كنت هادئ المزاج هكذا؟ جاء ردي لها مراوغاً.

كان الهدوء يخيم على شقتي عندما عدت إليها، وكانت الأضواء

Twitter: @ketab_n

مطفأة. وخمّنت أن ضيفتي كانت نائمة في غرفة النوم الاحتياطية التي شعرت أن بابها كان مغلقاً. تجولت في الظلام، واستلقيت في غرفتي، لكن لم يغمض لي جفن، وراحت تمزقني الطلبات المتضاربة لرجل في وضعي. غطت في النوم على نعيب بومة، كانت تتمنى لي ولكل من جافاهم النوم في الحيّ ليلة هانئة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

تهيمن إحدى الذكريات التي تحظى بأهمية خاصة على جميع الذكريات الأخرى. وتتركز هذه الذكرى حول رجل في أوائل السبعينيات من عمره، متين البنية، ذي شعر أشيب كث. وهو يرتدي ثوباً مصبوغاً بصبغة لحاء الأكاسيا خفيفة الحمرة، ويمتطي حصاناً بأبهة تامة. ولدى وصوله تعلو جلبة. وتنفصل النساء عن الرجال ويزغردن. ويثب الرجال واقفين في وجل ظاهر. يترجل الرجل عن حصانه. يقترب فتى ويقود حصانه إلى مكان آخر. يُقدم للرجل ذي الشعر الكثيف الأشيب كرسياً، فيأخذه. ولإبداء الاحترام الجدير به، يحلق حلاق القرية شعره. يصل موكب من النساء يحملن كرسياً عالياً. تقدم له إحدى الصبايا الكرسي العالي باحترام شديد، وكأنها تقدم له نفسها. يرتقي الكرسي العالي.

يسري تيار خفي من التوتر بين الشيوخ والشباب في هذا الجمع. يتحدث أحد المسنين عن الأزمنة المقيتة. ويشير أحد الشباب إلى الجفاف الذي قضى على ثلاثة أرباع ماشيتهم. كل هذا بينما لا يزال الشيخ يتربع على كرسيه العالي، ورأسه الحليق يلمع بفعل طبقة من الزيت. يظل صامتاً وكأن شيئاً لا يعنيه. لكن شفتيه تتحركان وأغلب الظن أنه كان يسبّح بحمد ربه.

وكبادرة احترام، يُطلب منه الآن أن يوزع الحليب على الجمع. الصغار أولاً، وإذا تبقى شيء، فيقدم للكبار. يقدم مقدار نصف يقطينة

Twitter: @ketab_n

مجوّفة مليئة بالحليب لكل مجموعة من الأطفال. ومن الغريب أنه كلما قدم المزيد من الحليب، امتلأ الإناء، حتى يفيض. وللتأكد من عدم ضياع قطرة واحدة من الحليب، يطلب من عدد من الصغار أن يلعقوا الجزء الخارجي من إناء الحليب. وكان البعيدون عنه يتمطقون بشفاههم، في حين كان القريبون منه يجثون على ركبهم ويمدون ألسنتهم في أوضاع خرقاء جداً ليحصلوا على قطرات من الحليب بأية طريقة. ثم يخيم على المكان كله سكون تبجيلي وكأن راهباً هندوسياً يؤدي طقوساً مقدسة. ويهمس الفتى الصغير الذي قاد الحصان بعيداً في أذن الفتاه التي قدمت الكرسي للشيخ ويقول لها: «كالحفرة التي تزداد اتساعاً كلما أزيل عنها مزيد من التراب».

الشمس تميل إلى الغروب. التماسيح تملأ المكان: تماسيح ذات أجنحة. وهناك أيضا أفاع منهمكة بحوار لا ينتهي من الأزيز مع يعاسيب ذات أعجاز عريضة. وما أن تنتهي مجموعة أخرى من الصغار من تناول مقدار كاف من الحليب، حتى يصطفون لاستلام حصتهم من العظام الخالية من اللحم. وقد حفرت على العظام الملساء الخالية من اللحم نقوش منذ قرون. ويمضغ الفتيان أطراف العظام الهشة التي لا توجد عليها نقوش. وهم يفعلون ذلك بحماس شخص عطشان يشرب، في خياله، كل الماء في سراب بعيد.

الجو هادئ ويشي بالوقار. ويبدو أن الطقوس قد استكملت. ثم يسمع الجمع نشجاً، لم يكن بالإمكان تحديد مصدره في بادئ الأمر. ويرى الشيخ من فوق كرسيه العالي الشخص الذي يصدر منه النشيج، فتى، فيطلب منه أن يقترب. يلوذ الجميع بالصمت. يسأل الشيخ الفتى عن الأمر. يهز الفتى رأسه بحزن وهو غير قادر على الكلام. تقترب رفيقته، الفتاة التي كانت قد قدمت الكرسي العالي وتقول: «لقد كان جشعاً جداً». فيسأله الشيخ «ولكن لماذا النشيج؟ هل يؤلمك شيء؟»

Twitter: @ketab_n

ترفع الفتاة صوتها ليغطي صوت نحيب رفيقها وتقول: «لقد ابتلع تفاحة آدم خاصته، ظناً منه أنها عظمة ملساء عليها نقوش تعود إلى قرون عديدة».

يسأل أحدهم: «و ما الذي سيجري له؟»

فترد الفتاة، «من الآن وصاعداً، سنضطر أنا وهو إلى الانتماء إلى قبيلة منبوذة لا يصاهرها معظم الصوماليين. لأنه ابتلع تفاحة آدم خاصته ظناً منه أنها عظمة. إذ إن عدم تمكنه من ضبط نفسه كلفنا غالياً. وستوضع أسرتنا في منزلة متدنية في نظام سياسة القبيلة».

يتأمل الشيخ وتطول فترة صمته. ولأنه جديد في هذا الأمر، لا يعرف إن كان يحق له أن يعطي الفتى تفاحة آدم أخرى. ولكن هل سيصلح هذا الأمر، ويغير أسلوب معاملة المجتمع تجاه الذين يعتبرهم «ضالين»؟ تمر لحظة، ونصبح في أرض المأساة، حيث لم يعد من المنطقي أن تفكر في الفتى كفتى، الذي قد تقترح عليه أن يتناول طعامه باعتدال. لماذا يمكن أن تلحق الطقوس المتعلقة بالطعام الضرر بالمجتمع؟ لماذا يكون الطعام هاماً بالطريقة التي نفكر فيها بأنفسنا، البعض في مرتبة دنيا، والبعض في مرتبة عليا؟» إننا نعيش أزمنة مأساوية، قال الشيخ لنفسه، عاجزاً حيث يمكن للصدفة أن تحدث فرقاً كبيراً في الطريقة التي ينظر فيها إلى المرء. حيث يقرر سر خفي في أعماق الذكريات المكتومة أن تكون للمرء منزلة متدنية أو عالية.

بصفتي الشيخ الحكيم المختار حديثاً، فإني...

كانت الساعة السابعة صباحاً.

لحقت بي شولونغو إلى المطبخ لتناول طعام الفطور. دخلت بهدوء متواطئ في ذات اللحظة التي أسكتّ فيها صفير الإبريق. لم أعرها اهتماماً، بل حتى أني لم أكلف نفسي بأن أحييها إلا بعد أن أفرغت

Twitter: @ketab_n

القهوة من المطحنة في القدر حتى تغلي. أخبرتني بشيء من الجلبة أنها تفضل الشاي إذا كان الشاي «في نطاق الممكن». سألتها كيف تحب الشاي، فقالت «ثقيلاً بقدر الإمكان، وبدون حليب، إلا إذا كان لديك عسل فيدو يمكنك أن تمنحني إياه».

ثم حيتني متمنية لي صباحاً طيباً.

كنت قد ارتديت كامل ثيابي، ولم أكن قد مشطت شعري بعد. وكانت هي ترتدي كيمونو من الحرير عليه رسوم بهيئة نسور. وكانت شولونغو تشبه النسور وهي على أهبة الانطلاق كلما رفعت ذراعيها، وتشبه حركة هبوطها كلما لفت ساقاً على ساق. وعندما وضعت ساقاً فوق فخذها المكتنز ثانية، أصيبت الطيور غير المجنحة بالإحباط. وشبكت أصابعها المكتنزة بطريقة يصعب فكها. أما بالنسبة للعسل في الشاي الذي ستشربه، فلم أكن واثقاً من وجود العسل الذي يجمعه فيدو، خادم نونو. إلا أني أعرف أني كنت قد اشتريت مؤخراً عسلا مستورداً من السوبر ماركت، لكني لا أعرف مكان المرطبان. رحت أفتح خزانة بعد أخرى، أقرأ العلامات على المرطبانات، هذا يليبيلي الزائيري، وهذا بربر الأثيوبي، وهذا الكاري الهندي، وهذه القرفة المطحونة، أو جوزة الطيب.

«ألا تجده؟»

«لا شيء يبقى مخفياً إلى الأبد».

«ولا حتى الأسرار؟»

«لاشيء يبقى مخفياً إلى الأبد دون أن يفقد هويته الأصلية، ولا يبقى السر سراً إلى الأبد، فلابد أن يعرفه أحد يحد له أهمية، ولا يهم إن أفشي به أم لا».

صمتّ لأسأل نفسي عما كنت أبحث. ثم تساءلت لماذا أدخلت نفسي في جدل شبه فلسفيٍ مع امرأة منذ الصباح الباكر ولما أكد أعرفها؟ ما الذي يحدث لي؟

Twitter: @ketab_n

وجدت العسل، ولكن ليس عسل فيدو. رثينا لتغير أسلوب حياتنا واتباعنا الطريقة الاقتصادية الاستعمارية الحديثة، إذ بدأنا نستورد العسل معبئاً بمرطبانات من أوروبا، بينما هو متوفر بكثرة محلياً وبسعر أرخص، وهناك الكثير من أمثال فيدو ممن يقومون بجمعه.

وضعت الإبريقين، القهوة لي، والشاي لها، جنباً إلى جنب، وصببت لها الشاي. رأيتها تضع فيه ثلاث ملاعق من العسل. وبعد أن رشفت رشفتين منه أخذت تتمطق بشفتيها استحساناً.

«إني آسفة لأنه ليس عسل فيدو، ولكن...»

سألتها: «هل نمت جيداً؟»

قالت: «سمعتك وأنت تدخل».

«لكن هل نمتِ جيداً وكنتِ مرتاحة؟»

قالت: «لقد استيقظت عدة مرات لأني كنت أسمع أصوات تبادل إطلاق النار، بعضها من مسافة لا تبعد كيلو متر واحد. كم مضى على هذه الحال؟»

قلت: «ستعتادين على سماع أصوات الأسلحة الآلية، وستنامين على سماعها. مرت الآن بضعة أشهر والمليشيات المسلحة تطبق على مقديشو، لكن سياد ورجاله لا يكترثون. هناك الكثير من الجيوش غير النظامية تعمل في المدنية، بعضها بقيادة ضباط سابقين في الجيش، تقوم بأعمال النهب. لا يمكنك أن تعرفي من يطلق النار على من».

فقالت: «نوع من حرب العصابات».

لم أكن متأكداً إن كان علي أن أخالفها بذلك أم لا. ففي هذه المرحلة من الصراع، بدا أن كل شيء تقريباً كان محكوماً بسياسات الأحزاب التي تؤجج الصراع. تركت ذلك بدون تعليق، كما أفعل مع الكثير من ملاحظات الأجانب وأهملتها بتجاهل، الأجانب الذين يرون أن

Twitter: @ketab_n

«سياسة الصومال سياسة قبلية». لأني سأحتاج إلى سنين كي أقنعهم بعكس ذلك. لذلك جلسنا صامتين كعاشقين دبّ بينهما خلاف ليلة البارحة، وناما في سريرين منفصلين. لكن شروق شمس الصباح جعلهما في مزاج يدعوهما للمصالحة.

سألتني: «ألم تشعر بالرغبة في أن تأتي إلى فراشي عندما عدت في وقت متأخر من ليلة البارحة؟» جلست صامتة كما يجلس الزمن في شعاع الشمس، يسجل مرور الوقت في الهباء. تذكرت المثل الصومالي القائل إنه إذا التقى القضيب والمهبل ذات مرة، فإنهما لن يضيّعا فرصة التعارف ثانية. وكنت واثقاً من أن قضيبي يفضّل أن يظل في حالة سبات على أن يستضيفه مهبلها. وتذكرت أني كنت قد واجهت صعوبة في الانتصاب في الليلة الماضية حتى مع تالادو، وقلت «لم أشعر بالرغبة في أن آتي إليك على الإطلاق».

وكأني كنت أشعر بالغثيان فأشحت بوجهي عن ردفيها البارزين الواسعين، وثنايا سرتها، وثدييها المكشوفين بعض الشيء. وكانت توجد شامة عند مفترق ثدييها عليها شعرة واحدة راحت تمسدها كما يمسدّ بعض الرجال لحاهم وهم ساهمون. تساءلت إن كانت هذه الشعرة الوحيدة قد نبتت هناك بشكل اصطناعي، لأنه في أمريكا، حيث الجنس صناعة، ويمكن توفير احتياجات الزبون حسب الطلب.

سألتها: «ماذا فعلت البارحة بعد أن غادرت؟»

«كبداية صرفت قليلاً من النقود عند الصراف، وملأت حقيبة بالشلنات المحلية من الفئات الكبيرة، واستقليت سيارة أجرة إلى وكالة تأجير السيارات، حيث سددت إيجار أسبوع نقداً ومقدماً، ثم ذهبت إلى بعض الأماكن».

«إلى أين؟»

«كنت أنبش في حياتك الخاصة».

Twitter: @ketab_n

سألتها دون اكتراث: «وإلى ماذا توصلت؟»

«توصلت إلى اكتشاف جميل، اسمها تالادو».

حاولت عبثاً أن أتكلم بشكل طبيعي. فركت معصمي وكأنه يؤلمني، لكنه لم يكن يؤلمني بالطبع. بدا الاضطراب في حنجرتي، خطر لي أن أضع الأنشوطة التي يستخدمونها للإعدام حول رقبتها وأشنقها في الحال، في مطبخي. فهل ستفقد جثتها الدفء الذي كان عليه دمها قبل أن يبرد كوبا القهوة والشاي اللذين نحتسيهما؟

«لماذا تحشرين أنفك في شؤوني؟»

قالت: «لمجرد الإثارة. فالأشياء التي تكتشفها، والأسرار التي تميط عنها اللثام، تثير المتعة والإثارة، تماماً كما لو اتخذت خفاشاً كحيوان مدلل، تحمله معك أينما ذهبت، ويتدلى من قلادتك. كنت قد رأيت على التلفزيون امرأة اتخذت خفاشاً كحيوان مدلل لها. على أي حال، أراهن أنك كنت تظن أني لن أعرف شيئاً عن علاقاتك السرية».

بذلنا جهداً كبيراً، أنا وتالادو كي نلتقي في أماكن بعيدة لا يعرف فيها أحد أياً منا. وفي حين أن أمي لم تكتشف أمرنا، رغم مضي أشهر عديدة على لقاءاتنا، عرفت شولونغو كلّ شيء خلال نصف يوم فقط.

كررت: «المتعة الإثارة فقط».

قالت: «أن يتخذ المرء خفاشاً كحيوان مدلل، تصور هذا الشعور بالإثارة».

تناولت طبق عجة البيض بصمت، أما هي فقد تناولت البيض المخفوق. كانت تتكلم وأنا أصغي بكل جوارحي كما لو كنت أبحث عن مفاتيح لحل اللغز. كنت أشك في أنها شعرت بوجود اضطراب في عينيّ، ومن الطريقة التي ظلت فيها يدي ساكنة دون حركة. وكأني كنت أمسك نفسي من الانقضاض عليها.

Twitter: @ketab_n

قالت: «إن كنت تريدني أن أغادر فسأفعل. سأفعل ما تقوله لي ـ لا تخجل. إني أكره أن أفرض نفسي عليك. فقل لي متى أغادر».

هيأت المزيد من القهوة والشاي، وانتهزت الفرصة لأغيّر مسار الحديث فقلت: «ماذا كنت تفعلين بالقمل؟»

وكأنها تتحدث عن أطفالها النائمين في الغرفة المجاورة، أجابت: «إنها في مرطبان صغير بحجم علبة الكبريت في حقيبتي، ولديها ما يكفيها من المربى لتعيش عليه. إن الرائحة الكريهة منبعثة من المربى».

شعرت بالضيق وأنا أستمع إلى الرعاية الدقيقة التي توليها للقمل، وربما منعني ذلك من متابعة الموضوع أكثر، وأحجمت عن الكلام. «ربما أحست بضيقي لأنها قالت: «إهدأ يا كالامان، لقد فعلنا معاً أشياء أكثر متعة، أنا وأنت، أشياء أكثر غرابة، خارجة عن المألوف، أشياء تجعل الدم يتجمد في العروق. فماذا يعني قمل في مرطبان فيه مربى، هذا لعب أطفال قياساً إلى ما فعلناه أنا وأنت».

ذابت حقيقة أسرار طفولتي في قهوتي. أمكنني أن أتذوقها بالطريقة التي كنت أشمّ فيها مزيجاً من العطور ذات مرارة شديدة، رائحة كرائحة رقى السحر، شذى كخشب العناب المجفف. لقد اعتادت شولونغو على أن تعرض أعضاءها الحميمة فيما يتصاعد دخان خشب العناب بالقرب منها ظناً منها أن عملية التبخير بالدخان هذه تساعد في إطالة أدائها الجنسي.

كانت الذكريات المفاجئة عن أيام طفولتنا هذه قوية إلى درجة أني أحسست باحتقان في جيوبي الأنفية. عطست وعطست وعطست حتى خُدش الغشاء المخاطي في أنفي وأحسست بألم شديد. حين صفت عيناي وزالت عنهما الغشاوة، سألتها وكأن شيئاً غريباً لم يحدث. ماذا تعملين لكسب رزقك، وأين تعيشين؟»

Twitter: @ketab_n

لبثت صامتة لبرهة طويلة، وكأنها تعيد ترتيب كلماتها في رأسها، لتحدد أية ورقه رابحة ستعرضها. ثم ردت قائلة: «أنا أغيّر شكلي».

«بعبارة أخرى، شامان(*)؟».

عندما هزت رأسها، فُتحت الأبواب في مخيلتي، بيوت اهتزت. مادت الأرض، دنت السماء، وبدأت الطيور تحلق وتدخل جماجم بشرية وتخرج منها، ملقاة على أطراف طرق ذكرياتي. وحلّق أحد الطيور إلى الأعلى، إلى سماء آمالي السابعة، وانتظرته حتى يعود وقد علّق سرّ شولونغو في منقاره.

قالت لي: «ليس في نيتي أن أؤذي أحدا».

«هل اتهمتك بالتخطيط لإيذاء أحد؟»

«ستتهمني أمك».

«هل رأيتِ أمي منذ أن وصلت إلى مقديشو؟»

قالت: «أعرف أنه لديها مشاكل تتعلق برفضك بأن تنجب لها حفيداً، وقد قيل لي بأنها ترى كوابيس في الليل. هذا لا يعني أني لا أرى كوابيس، فنحن جميعنا نرى كوابيس بين الحين والآخر».

إحساس بالقلق بدأ يضغط عليّ. أصبحت أتنفس بصعوبة. اعتراني ألم حادّ وكأن رئتيّ تتوسعان وتصلان إلى حيث يوجد قلبي. سألتها: «من أخبرك؟ لأنه يبدو أنك تعرفين الكثير عن حياتي الخاصة».

«أكرر وأقول إني سأغادر في اللحظة التي تطلب فيها مني أن أغادر»، قالت، «فأشد ما يزعجني اتهامي بجميع أشكال الشرور وأنا لا أقصد أي سوء، بل لا أنوي سوى الخير. وإن قدومي لأحمل منك طفلاً أكبر دليل على حسن نيتي».

(*) شامان: كاهن يعالج بالسحر ويستخدمه لكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث.

Twitter: @ketab_n

قلت: «لكن ليس لهذا علاقة بالموضوع».

ومثل مزهرية مكسورة راحت ابتسامتها تقطر حزناً.

شعرت بالامتنان لتسلل ذبابه إلى الغرفة، ذبابة كبيرة يخيّل إليك أنها خنفساء الروث، راحت تحوم حول مرطبان العسل، وتمكنت من نشّها بصعوبة. وفي هذه الأثناء، شغل بالي مزيد من الأفكار المحلية: أفكار عن الضبابية الأخلاقية، عن شولونغو المتهمة بسرقة وثيقة من أمي، عن شولونغو العشيقة الشهوانية الفاسقة. وكانت هناك طبعاً مسألة دخولها الغامض إلى شقتي. كيف فعلت ذلك؟ تغييرها لأشكالها، تبديلها لطبيعتها؟ أو قدرتها على تغيير شكل الأشياء؟ أم أنها سارقة تمتلك مفتاحاً يفتح جميع الأبواب؟ هل يمكن أن تكون لامبار قد تركت الباب موارباً ونست، أو كذبت بأنه كان مجرد سهو؟

قالت: «ذهبت إلى محل أمك أيضاً».

طار الطير من تلقاء نفسه دون أن يساعده أحد منا.

«متى فعلتِ ذلك؟»

«أول البارحة».

«وألم ترك؟»

«لم تعرفني».

لا عجب أن أمي كانت قد رأتها في أحد أحلامها. لقد رأتها أمي لكنها لم تعرفها. بعد ذلك فقط، أقرت بوجودها في لا وعيها، بالحلم بها. وبعد ذلك، لم تكن تتوقع أن تراها. أليس كذلك؟

كانت توجد عقدة عند عيني شولونغو. بدت مرتبكة قليلاً، كمسافر يصل إلى مفترق طريقين، لا يعرف أيهما سيسلك. وحين تمعّنت فيها عن كثب، بدت لي مثل بقرة تمرغت للتو في التراب، بعد أن شربت من جرن ماء. أما قسماتها التي كانت مبتسمة، فقد أصبحت الآن كالحة

Twitter: @ketab_n

داكنة، توحي بمشهد أخشاب منقوعة في الماء. ربما كانت في لا شعور أمي العروس التي أوقفتني، لأنني لم أكن أرغب في أن أمنحها طفلا»؟

حدقّت فيّ غاضبة. لكنها لم تخفني على الإطلاق. ثم تململت بعصبية. بقلق شديد، راحت تحركُ ثوبها المتهدل حتى تمكنت من رؤية جناحيّ نسر مبطنين بالفضة منبسطين على امتدادهما، طير بكامل بهائه، من ذلك النوع الذي قلما يهبط قبل هبوط الليل، والذي يعتبر إحساسه بالخصوصية مثالياً. نهضت بشيء من الحذر مثل طاهٍ شارد الذهن يضع مزيداً من الملح في يخنة مالحة. فتحت درج المطبخ وأخرجت مجموعة من المفاتيح في سلسلة. قلت «ها هي مفاتيح الشقة، يمكنك أن تبقين كما تشائين».

وحالما فعلت ذلك أحسست بالتعاسة، وسألت نفسي لماذا أعطيتها مفاتيحي، لماذا أدخل نفسي في مياه موحلة. وستقول أمي إن لشولونغو سلطاناً سحرياً عليّ.

قالت: «بالمناسبة، يعرف زوجي أني أراك، لكني أرجو أن تكتم الأمر عن الآخرين».

«اللعنة»، كان كلّ ما قلته.

شيء مثير للقلق جعلني أشعر بالتوتر ثانية. أخذت أحك رأسي بقوة. عندما نظرت إلى أظافري، وجدت تحتها قشرة رأس. آثار أكزيما، بقع غير معالجة من مرض جاف.

«سأقول لك من أحبّ».

صدمتها عدوانيتي المفاجئة، لكنها لبثت صامتة.

«سأراك فيما بعد»، قلت وغادرت الشقة.

ظهر اليوم ذاته، وأنا في العمل.

Twitter: @ketab_n

كنت قد أنشأت شركتي بيردرز برأسمال مبدئي منحني إياه نونو. بدأت بها كمؤسسة صغيرة بطاولتين لتقديم خدمات كتابة الرسائل لسكان مقديشو الذين معظمهم أميّون أو شبه أميين في أحسن الأحوال. وعندما حققت نجاحاً، عززته بمساعدة كالين سكرتيرتي آنذاك، وازداد عدد الخدمات التي كنت أقدمها، والتي شملت إعداد الوثائق والطباعة والنسخ. وبعد حصولي على قرض مصرفي، وضع نونو بيته كفالة له، وقد سددت معظمه، ووسعّت عملي ليشمل برمجة الكمبيوتر. وأقمت مؤخراً شبكة لمعالجة البيانات، شركة تتفاخر الآن بوجود زبائن من المنظمات غير الحكومية التي يديرها أجانب والسفارات الأجنبية، وكلاهما يدران ربحاً جيداً، حيث تُدفع الفواتير بالعملة الصعبة، ويُفضل تسديدها في حساب باسم نونو في إيطاليا. وبفضل تفاني العاملين معي، ازدهرت الشركة. وفي واقع الأمر، كنا نتوسع بدرجات متفاوتة، بحيوية طير ينبثق من البيضة التي ولد فيها. وإذا كنا أصبحنا الآن نتجه نحو مضاربات تحصيل الدولار، فلأن هذا البلد بدأ يتحول إلى أرض خراب. وكنا نكافح هذه الصعوبات من أجل البقاء، في منفى محتمل خارج مقديشو، عندما ينهار كل شيء.

وبالإضافة إلى كالين، السكرتيرة القديرة، كان لدينا ثلاثة مديرين مساعدين، بينهم امرأتان. ولدينا أيضاً سبعة ناسخين متفرغين، ثلاثة منهم يعملون صباحاً ومساء للطباعة. وكموظفين داعمين، لدينا ثلاثة مترجمين فوريين (مختص من الطراز الأول باللغة العربية، وآخر باللغة الإنكليزية وامرأة نصف إيطالية) ويدوّن الناسخون ملاحظات تُملى عليهم باللغة االصومالية. ثم يُحوّل العمل إلى الشخص المسؤول، وهذا يتوقف على اللغة التي ستترجم إليها الرسالة. ويقوم الناسخون بعمل رائع للذين يرغبون في كتابة رسائل باللغة االصومالية لأنهم أميون.

ونشغل ثلاثة طوابق في بناية عالية (تتوقع كالين أننا سنكون أول من

Twitter: @ketab_n

سيقضى عليهم عندما تنهار مقديشو). ويسأل الكثيرون الآن عن السبب الذي دعانا إلى أن نطلق على شركتنا اسم بيردرز، كما كانوا يسألون عن سبب تسمية كالامان؟ لكن شولونغو لم تسألني الآن، ولا في أي وقت آخر.

لماذا بيردرز؟ للجواب على ذلك، فإني أذكر قصة الرجل الناطق باليوروبا من بِنين الحالية التي تقع في غرب إفريقيا، الذي سجنه الفرنسيون مع جماعته الانقلابية، وأطلق سراح بعضهم قبل أن يُطلق سراحه. وقبل أن يفترقوا، عرض عليه أحدهم أن يحمل له رسالة إلى زوجته، فرجاهم السجين أن يأخذوا قطعة من الحجر، وقطعة من الفحم، وقليلاً من الفلفل الأحمر، وخرقة. وحين سأل حامل الرسالة عن معنى هذه الأشياء، قال له إن الزوجة ستعطيه مفتاح اللغز.

واقترح عليكم أيضاً أن تستنتجوا بأنفسكم سبب تسميتها «بيردرز؟»

لم أتمكن من التركيز على عملي. طفقت أذرع الممر الذي يفصل مكتبي الخاص عن البهو بقلق جيئة وذهاباً. واعتراني إحساس ينذر بالسوء لكنني تذكرت الحكمة الصومالية القديمة التي تقول: إن للكذبات الصغيرة، كذبات أكبر». فإذا كانت الحقيقة هي المصيبة الأولى الناجمة عن تكتمي وصمتي، فإن التعلق والتبصر سيكونان المصيبة الثانية. وكعواقب لهذه الكذبات، لا بد أن تقع بعض الكوارث، وخسائر مستقبلية فادحة، بالوجه، بالكرامة، باحترام الذات، بالولاء للعائلة، وأخيراً حتى بالحياة. لماذا لم أتصل بأمي؟ لماذا لم أخبرها بأن شولونغو ضيفتي؟ مم أخاف؟ كنت حكيماً عندما لم أتوقف عند الفكرة التي تكتنفها الشكوك، وهي أني كنت أكسب الوقت. لكنني لم أكن أفعل ذلك. بل كنت أمنح نفسي فرصة طويلة من التردد، انتظر ريثما تهب عاصفة، كنت آمل أن تهب دون أن تلحق الأذى بأحد منا. ومن نبرة

Twitter: @ketab_n

صوتها، كانت شولونغو مسافرة، تحمل بطاقة سفر بالطائرة مفتوحة الأجل. ضيفة، ضيفتي، إلى الأبد.

لو أني كنت أريد أن أوقف هذا الكذب، فلماذا لم أتخذ الخطوة الأولى. فبما أن الرحلات تبدأ بالخطوة الأولى، فلماذا لا أرفع صوتي. ضغطت على أرقام كالين على الهاتف الداخلي. دخلت إلى مكتبي، متوترة بعض الشيء. كانت تقاربني في الطول، وتصغرني بست سنوات، ذات عينين ذكيتين، ومظهر أنيق. وأخذت تحدّق بي الآن بارتباك ثم بمودة. كنت أفكّر بها باعتبارها الصديقة الوحيدة التي نسجت نوعاً من التواصل المتشابك حولي. أصبحنا عاشقين ذات يوم، ثم انفصلنا لكن صداقتنا ظلت قائمة، وهذا شيء نادر جداً. وكانت قد أجهضت طفلي سراً، ولم تكلف نفسها بأن تخبرني بذلك كي لا أضمر لها مشاعر سيئة، يا لها من روح كريمة حقاً؟ كنت أعرف عن حياتها أكثر بكثير مما كانت تعرف عن حياتي، وكنت أعرف أنها كانت تلتقي برجل، لكني كنت أشك في أعماقي الدفينة بأنها كانت ستتركه لو اقترحت عليها الزواج.

كنت أتميز غيظاً لأني لم أكن أعرف كيف أخبرها عن تعقيدات حياتي الخاصة. وكنت متردداً، رحت أتكلم وكانت تتخلل حديثي وقفات طويلة. وتلعثمت مرتين عندما أخبرتها بحقيقة أن مشاكلي قد لا تزول قريباً. وأني قد لا آخذ إجازة لمدة عشرة أيام إلى نيروبي، كما كنت آمل بسبب هذه التعقيدات. لاحظت خيبة أمل تنبثق من هدوء عينيها فتأثرت.

قالت: «هل يمكنني أن أساعدك في شيء؟»

قلت: «لستَ متأكداً».

كانت هناك بعض ظلال أخذت تشتد حدتها تحت عينيها. هل كانت التهدلات القاتمة تحتَ العينين هذه نتيجة السهر أم الأرق وهي ترى رؤى ليلية؟

Twitter: @ketab_n

«هل مخاوفك تتعلق بأمك؟» أحسست بنبرة تناقض في صوتها.

«ما الذي يجعلك تسألين هذا السؤال؟»

قالت: «لأنها جاءت لتراني ليلة أمس، في منزل والديّ، وسألت إن كنت أعرف أنك تخطط للهروب مع امرأة، وان كنت أنا هذه المرأة؟ وإذا لم أكن أنا، فهل كنت أعرف من هي؟ قلت لها إنك لم تكن تخطط للزواج»، سكتت لوهلة، ثم قالت: «هل هذا صحيح؟

هززت رأسي وقلت: «لا»

ودون أن تنبس بكلمة. وضعت كالين حزمة من المفاتيح على طاولة مكتبي، ثم ابتعدت قليلاً ووقفت منتصبة القامة، بطريقة رسمية. دهشت لذلك، وظننت مخطئاً أنها ستقدم استقالتها. حدقت في الحلقة التي تجمع المفاتيح وفكّرت بحلقات أخرى، من بينها الخاتم الذي كان في إصبع كالين الوسطى، الذي كان هدية مني عندما فكرنا في الزواج. وحتى هذا اليوم، لا أعرف لماذا قررنا أن لا نتزوج، أو من الذي فسخ الخطوبة، في سبيل صداقتنا.

وزعت انتباهها بيني وبين المفاتيح، وراحت ترّكز حيناً على عينيّ، وحيناً على الحلقة. «هل هناك سبب يدعوني للاحتفاظ بالمفاتيح الرئيسية بما إني لا أفكر في الذهاب في إجازة، وخاصة المفاتيح المشفرّة للخزنة والموّلد؟»

قلت لها: «أرجوك احتفظي بالمفاتيح».

«بالتأكيد»، قالت وأخذتها بحرص كمن يلتقط قنبلة يدوية. وبحزن مشوب بالقلق، أقامت جداراً من الخصوصية حولها. ونظرت إلى ساعتها وهرعت مثل امرأة تستجيب لنداء طفلها الذي يبكي في الغرفة المجاورة.

وحيداً، أحسست بثقل شولونغو على أفكاري. لم يكن من طبعي أن أكون فظاً مع النساء، مهما بلغ الأمر. وكانت شولونغو قد حررتني للتو من بعض أوهامي القديمة كما تروي الحكاية التراثية، مثل ظبي صغير

Twitter: @ketab_n

ضعيف يصارع فيلاً. أدرت هذه الأسئلة المحرقة في فمي بحذر طفل يلمس قطعة بطاطا حارة يلقي بها على الفور. ثم تناهى إلى سمعي صوت رجل يصيح باسم تيمير، كان يلحّ على موظفة الاستقبال بأن تسمح له بالدخول إلى مكتبي.

كان ذلك قبل أن تتصل بي بدقائق قليلة. وفيما رحت أنتظر، كان باب مكتبي موارباً، والقلق يعتري يديّ وعينيّ كأرنب مذعور. تجمّع حولي نثار من الأفكار كظلال رجل تشكلت وتفرقت فيه أفكار يائسة، كما تفعل الغيوم الموسمية في السماء. وهي تتشابك حيناً في زخات من مطر مشؤوم أسود، وتتشتت حيناً قبل أن يشير إصبع من الماء إلى الأرض.

تذكرت كيف وصف تيمير شولونغو قائلاً: «إن أختي غير الشقيقة محتالة من الطراز الأول، فهي تصرّ على أن تسدد لها ما تتصور أنك مدين لها به، ولكنها لا تلتزم بما تتعهد به». لقد جعلت من نفسها البارحة ضحية لمكيدتي الذكورية، وترى نفسها امرأة تمنح نفسها لقاء لقمة من الطعام.

وتيمير؟

كان هو البادئ في الحديث. «يا إلهي، مقديشو مكان خطر، ماذا لو أطلقت كل هذه الأسلحة الثقيلة عشوائياً؟ لقد سمعت أن موسى بوكور واثنين من مرافقيه لقوا حتفهم عندما انفجرت سيارته. هل تعرف إن كان سياد هو المسؤول عن هذه الاغتيالات، أم المليشيات المسلحة؟»

تصافحنا بعد وقفة صامته قصيرة، ثم قال: «يسعدني أن أراك». وكانت في صوته نبرة رضا متكلفة بلقائنا المشوب بالتوتر.

أحدثت ضجة معربة عن فرحتها بلقائه أيضاً.

كنت قلقاً، وقد تشابكت أصابعي بهيئة لعبة خطوط متصالبة يلعبها

Twitter: @ketab_n

الأطفال، اعترتني حكة في جسدي كله وكأني لمست اللبلاب السام. لعل فكرة أن أخته ضيفتي قد سببت لي الحساسية، عطست، وأملت في أن لا يسبب وجود تيمير انتشار الطفح بجسمي. بدا متعباً، وعلى وجهه شعر لم يحلق منذ البارحة، كانت عيناه المنفعلتان تنظران إلى كل شيء مرة واحدة، صورة نونو التي تحتل الصدارة على جدار مكتبي، رسومات لأبويّ، حاسبتي الشخصية، الطابعة وكل المعدات التي تقع تحت مسؤوليتي كمبرمج. وكذلك التصميم الداخلي الفاخر للغرفة التي نقف فيها. كانت سبابتي قيد العمل، تتحرك بعصبية، أحسست بالتقزم مقارنة بالمكتب الضخم الواقع بيننا كحكم يوقف الصراع.

جلست. أشرت إليه بأن يجلس على كرسي لكنه لم يفعل، هل كان يريد أن يقول ما يريد أن يقوله ويغادر على الفور؟

يمكنك أن تقول هذا لصالح تيمير: إنه ذكي بقدر هياج شولونغو. وكان نونو قد علّق ذات مرة بقوله: «يتقاسم الفتى وأخته قدراً كبيراً من نباهة العالم وضجيجه. سحالٍ تدرك دائماً تغيرات الظلال التي تحدث في محيطها».

بعد إشارات كثيرة من يديه وتعابير بسيطة وقصيرة مثل عمر عود الكبريت المشتعل حديثاً، تهالك تيمير على الكرسي وكأنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن القيام بذلك. حككت رأسي وفكرت ببئر في أرض شبه قاحلة، قشرة رأس جافة، أحسست بأن رقبتي، حين لامستها راحة يدي، خشنة كطبقة ممطوطة في جلد زرافة.

«تلقينا برقية تطلب منا المجيء إلى هنا لندفن أبانا، وجئنا، أنا وشولونغو. فقط لنكتشف أن الأحمق المسكين كان قد مات منذ شهر وأسبوع».

«هل استغرقت البرقية كل هذه المدة لتصلكم؟»

«أظن أنه طُلب منا المجيء لغرض مختلف».

Twitter: @ketab_n

«وما هو؟»

فقال: «أهل قبيلتنا يريدوننا أن نساهم في تسليح المليشيا التي تقاتل لصالح قومنا. فلديهم الأسلحة، ولكن ليس لديهم الذخيرة. وبما أننا أتينا من أمريكا، فقد طلب منا أن نساهم بالدولار».

قدمت له تعازيّ، وعندها لم أسأله إلا عن سبب وفاته.

قال تيمير: «لقد ذبل وكأنه ضحية من ضحايا الإيدز، مات هكيلاً عظمياً»

الآن وبعد أن اقتربنا أكثر من بعضنا، رأيت أن شعره كان كتلة شعثاء تكسو رأسه، ولم يخفّ في أي بقعة منه، ولم تشب ولا شعرة واحدة منه. ورغم أني كنت أصغره سناً، فقد ازددت صلعاً، وبدأت التجاعيد تتكاثر حول عينيّ، تغضنات صغيرة فوق جلد كان ناعماً، كرائحة نبات الصبّار. كانت تفوح من تيمير رائحة شارب بيرة حادة في حرارة منتصف النهار.

رحت أفكّر كيف غيرّته أميركا.

قال: «ما الموت بالنسبة لك؟»

قلت: «ماذا تقصد؟»

«أسألك ذلك لأنه لابد أن نونو سيلحق به بعد سنوات قليلة».

بدا لي سؤاله مدبراً ومصطنعا نوعاً ما. صدمني بهذا السؤال، كان يظن أنه يمتدح هيبياً عصرياً ذا ادعاءات تطفلية على الفن ويمارس اليوغا، شيئاً مما قد يقال في إحدى الحفلات المقامة في كاليفورنيا. تخيلت تيمير وهو يشرب نبيذ كاليفورنيا مثلجاً تحت مظلة ماليبو؛ تخيّلته بالجينز الضيق، عاري الصدر، تتدلى من حزام بنطاله سلسلة مفاتيح. تخيلْته يقول هذا حرفياً لممثل مشهور، أو ممثلة معروفة.

قلت: «إن الموت لا يسبب الحزن بقدر ما يسببه عدم القدرة على

Twitter: @ketab_n

الحلم»، قلت ذلك مدعياً أني أنا أيضاً كنت في كاليفورنيا. وأضفت: «إن الموت هو القبول المأساوي المحزن لحقيقة محتومة، إشعار بأن المرء لم يعد يتجسد في حلم حبيبه».

شعرت أنه تأثر بكلامي. عرفت ذلك من سكونه، صمته، وتساءلت كيف ستكون الحياة إذا لم أعد أرى نونو في أحلامي. وقلت في نفسي إن هذا ربما كان أفضل تعريف للموت. أن لا يرى المرء من فقده في حلمه.

سألته: «وشولونغو؟»

قال «ظننت أنك تعرف».

كان صوته هادئاً هدوء المياه في نهر رائق، لا توجد فيه تموجات. هل أُستدرجت كي أصدق أنه لا توجد أسرار في تثنيات الأفعى، الأفعى المنبثقة من سديم النهر، وهي تغيّر جلدها الأشبه بجذع شجرة يطفو فوق ماء داكن اللون؟

قلت: «ماذا؟ ماذا ظننت أني سأعرف؟»

شممت رائحة بيرة أُحتسيت وهي غير طازجة. كان وجهه منتفخاً، وعيناه تزدادان احمراراً، وتعابير وجهه تفرغ ذاتها من كل ذره من الوعي حوتها منذ أن خطا خطواته الأولى. وكان حول شفتيه شيء لم يتشكل بعد، كأنما، بعكس باقي أجزاء جسمه، توقفت شفتاه عن النمو عندما كان رضيعاً. وكان لفكيه اللذين ينتهيان بحنك قوي مدبب شكل معزقة قديمة صدئة. لكني نظرت إلى عينيه الحمراوين الصغيرتين، سحرتاني رغماً عني كما كانتا تفعلان في أيام صبانا، ولأني لم أعد أستطيع أن أتحمل الصمت، سألته: «هل لديك فكرة عما ستفعله أختك؟»

فقال: «إن عناد شولونغو غامض بالنسبة لي كما هو بالنسبة لك»، فقد علمت هذا المساء فقط أنها غادرت فندق لافاوين واختفت. وكل ما أعرفه أنها ربما كانت تقيم عندك».

Twitter: @ketab_n

«قل لي، ماذا تعمل لكسب رزقها؟»

«إنها ترأس فرع نيويورك لاتحاد متحولي الشكل لعموم أميركا. إنها هيئة قوية بقوه نقابة الفنانين في أميركا، وهي تحب أن تصف نفسها بأنها ساحرة صومالية المولد، متزوجة من آكل النار المغربي المولد».

هل قال لي أحدهم إنك عضو ناشط في حركه اللوطيين في سان فرنسيسكو؟» قلتها وارتسمت على وجهي بخبث ابتسامة ودودة، وانتظرت.

«أنا أخوها غير الشقيق، جئت لأشتري زوجة، ستخبرك بذلك عندما تصادفها، ويفضل أن يكون للمرأة المطلوب شراؤها طفل في شهره الثالث، وأن يكون زوجها قد توفي مؤخراً».

قلت في نفسي إن تيمير يتمتع بروح من الدعابة. يستطيع أن يطلق ضحكة في وجه المرء، بل يمكنه أن يعلّق على شيء يمسه شخصياً.

«إن الموت...»، قلت وسكت.

سأل: «هل تقيم عندك؟»

«من الواضح أنه ليس من الصعب أن تصل إليّ».

ساد صمت مشوب بالقلق.

«لماذا تحمل طفل شخص آخر إذا كانت متزوجة؟»

ألقى نظرة فارغة مثل حفرة أحدثها نيزك، وقال: «يبدو أنك لا تعرف أختي».

«أرجو أن تساعدني في التعرف عليها على نحو أفضل».

فقال: «تبدو لي أختي غير الشقيقة مثل يرقة في حلم رأيته حديثاً، لا تستطيع أن تعرف من أين دخلت اليرقة، ومن أين خرجت، كما ستكتشف أن أختي زارت مكاناً آخر عندما غادرت المنطقة، لأسباب معروفة، ولدوافع مفهومة».

Twitter: @ketab_n

قررت أن أتبادل الكوابيس مع تيمير، فقلت: «كانت في أحد أحلامي نوعاً من الجرذان، حيواناً قارضاً ذا صفات أسطورية تقريباً، إذ يقال إنها تعض إبهام قدمك ثم تنفخ فوق البقعة وكأنها تساعد في التخفيف من الألم، ثم تنشب مخلبها فيها ثانية وثالثة».

«ألم وارتياح، أصابع متصالبة، شوكة على ثمرة ذات لبّ».

قلت اللعنة! ها نحن رجلان، واحد نصف شقيق، والآخر تعلق بها ذات يوم، رجلان حقيران يغتابان امرأة، نعتاها بالبغي، بالساحرة، بالعاهرة. نواصل حديثنا.

«عندما تكلمت مع شولونغو آخر مرّة، حدثتني عن حلم كانت قد رأته، كانت ترتدي فيه أمك إزاراً مفتوحا مصبوغاً بالدم، وبدا أنها كانت متوترة. هل قالت إنها كانت تبدو مجنونة؟ على أي حال، أكدت أمك أنها كانت مدعوة إلى حفل زفاف ابنها. لكن لم تكن هناك عروس، ثم حصل أغرب شيء».

«ما هو؟»

«كانت أمك ترتدي ثوب الزفاف. عندما نهض أحدهم لينادي المأذون لتأدية مراسم الزواج، حاولت أمك أن تخفف من حدة الأمر. كان الأمر مأساوياً، كما علّقت شولونغو بأن ترى أبناً يتزوج أمه بهذه الطريقة الغريبة».

غيّرت الموضوع فسألته: «هل رأيت فيدو؟»

جعله الاسم يبدو كئيباً، لم أكن أتصور أن مسحة من الحزن قد تهبط عليه بهذه السرعة. «فيدو؟ لا لم أره، لماذا تسأل؟»

عند ذاك دخلت المساعدة وهي تحمل القهوة والبسكويت، وعندما نهض ليساعد المرأة الشابة، خطرت ببالي فكرتان حلتا عليّ كضيفين غير متوقعين، وهما السحر والمحرّم.

Twitter: @ketab_n

قلت: «السحر والمحرّم، فيدو وتيمير».

فأطلق لعنة بصوت يكاد يكون مسموعاً.

«إذن ماذا تعمل؟»

قال: «لقد انصرفت إلى المسرح، أدرّس نظرية المسرح، أمثل بشبه احتراف في المسرحيات كلما تسنى لي الوقت، أو أتيحت لي الفرصة. وأكتب مراجعات بين الحين والآخر باسم مستعار لإحدى الأسبوعيات المحلية».

«أخت متحوّلة الشكل تتطابق مع أخ ممثل».

تراجعت شفته السفلى فتقلصت وتقزمت، كصحيفة بلاستيكة قريبة جداً من لسان شديد الإحمرار. ترددت في أن أعتذر عن تعليقي الخبيث عندما بدأ يتحدث، وكان لكلماته أثر شخص مخدّر وقد غادر كرسي طبيب الأسنان للتو.

قال: «السحر والمحرّم، مترابطان كمركزيّ جذب، خصائصهما المسرحية تثري إلى لا نهاية. لكن المفهومين لا يخضعان إلى أي تبرير منطقي. دعني أضرب لك مثلاً على ذلك، إذ يمتلك سين من الناس قوى سحرية، ويتبع ذلك أنك لا تستطيع أن تصل سين بالسهولة نفسها التي قد تصل بها إلى الآخرين. من ناحية أخرى، ترتبط المحرّمات بشكل رئيسي بامرأة وهي في فترة الحيض، أو بشخص يحتضر، محرّمات تشير بصورة أساسية إلى افتقاد النظافة أو القدسية أو الخوف. شخص يعود من حافة الموت يؤدي طقوساً معينة، امرأة تلد، تعاني نسقاً تقليدياً من طقوس التطهير. وتكمن الفكرة في التخلص من الشوائب التي تلتصق بمكانة المرء. ومن هنا فإن تذوق دم حيض امرأة، أو العبث بالطبيعة السحرية كما ورد في الكتاب المقدس، أوانتهاك الأعراف الجنسية الصومالية: إذ يحتوي كلّ منها على مظاهر سحرية وكذلك

Twitter: @ketab_n

المحرمّات. وكرجل يعمل في المسرح، يبدو أني أقدّر الصفات المتأصلة في السحر والمحرّم».

قلت: «توجد حقيقة في السحر، لكن هل توجد حقيقة في المحرّم؟ من قبيل الحصول على خصلة من شعر أحدهم بهدف سحر صاحبها؟ أو الوصول إلى امرأة ولدت حديثاً عن طريق قطعة لولبية من مشيمة رضيعها؟ أو الإيمان باستحضار الأرواح والسحر وشرب الدم؟ إنك لا تعني هذه الأمور، أليس كذلك؟»

«لا».

«ماذا تقصد إذن؟»

«ثمة صيغ سحرية مثل «بما أنه فوق فهو تحت أيضاً»، عبارات أساسية تقال لتقود المرء إلى نطاق سيطرة الساحرة».

قلت: «كانت أمي تضع في أعلى ذراعي تعويذة نُقشت عليها القوة الرقمية لأسمي. وبالإضافة إلى قيمتها الوقائية، كما هو الحال عندما تضفر بالسحر ضفيرة من شعرها، فهي تثبتّها بقطرة من دم حيضها. كما أن تركيبة مشروب التمر هندي التي أعدها نونو بعد ولادتي كانت تحتوى على سحر واق، شراب سري أقوى من أي سحر».

قال «يبدو لعقلي المتأثر بالسفر الطويل أنك تسخر مني، هل تريد أن توصلني إلى شيء ما؟ إنك تتحدث عن السحر والمحرّم، كالذي تراه على التلفاز، أو الذي يؤدى في السيرك. لم آت إلى هنا لأتكلم عن هذه الأشياء، بل لأتكلم عني وعنك وعن أمور أخرى»

سألته: «هل لشولونغو قوة تسخّر فيها العفاريت لتنفيذ ما تأمرها به؟ هل أختك حقاً متحوّلة الشكل، ساحرة قادرة على تحويل طبيعتها وطبيعة الآخرين؟» ثم أخبرته بكل ما حدث منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى شقتي ووجدتها هناك. ومع ذلك فقد تعمدت أن أقلل من دور شولونغو في كوابيس أمي.

Twitter: @ketab_n

فيض من الطاقة جعله يقف. استوى واقفاً على قدميه، ومن الواضح أنه كان متلهفاً لقول شيء هام ثم يغادر. كان يبدو أنه كانت توجد هموم عادية أخرى مشابهة تدور في رأس تيمير.

قال: «لم آت إلى هنا لأتحدث عن شولونغو».

«ما الذي جاء بك إلى هنا، إلى مكتبي؟»

قال: «إذا طلبت منك أن تكون الشاهد والوكيل على زواجي، فهل ستوافق؟ هذا ما جعلني آتي إلى هنا، لأني لا أستطيع أن أفكّر بشخص آخر».

سحبت كلماته الهواء من رئتيّ.

أي نوع من الزفاف؟» سألته وكأن ذلك على درجة من الأهمية.

أكد لي أنه سيكون بسيطاً جداً.

«يشرفني أن أقبل»

«ويشرفني أن أطلب منك ذلك».

اندفع خارجاً من مكتبي: طفل يمسك بيده لعبة يتباهى بها.

ما أن أصبحت وحدي حتى سارعت لأتصل بتالادو وأقول لها إني لن أتمكن من رؤيتها في ذلك اليوم. كان ذلك أول يوم ألغي فيه مواعيد عديدة. وقلما مرّ يوم لم نلتق فيه أنا وهي، ولو مرة واحدة. سألت إن كان بإمكانها أن تقدم لي مساعدة، لأنها كانت لا تزال تعتقد أننا سنغادر إلى نيروبي بعد أقل من أسبوع. وكلما كانت إجابتي عن سؤالها يشوبها غموض أكثر، ازدادت لهفة لأن نلتقي ونتحدث. لكن لم تكن لديّ الرغبة في أن أقول شيئاً، ولم أشأ أن أثير شكوكها. أوحيت لها كذباً بأن مشاكلي تتعلق بالعمل. اتفقنا على اللقاء في الغد. طلبت مني أن أتصل بها، وكنت أعرف أني لن أفعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

تدهمني ذ كرى أخرى، من الماضي البعيد.

كنا أنا وتيمير نتسكع قرب المكان الذي تضع فيه التمساح الأم بيوضها التي كانت على وشك أن تفقس، وكانت تحرس عرينها من عبث الحيوانات المفترسة. وكان بوسعك أن تسمع صوت التمساح الأم وهي تزيل التراب الذي يطمر بيوضها خلال فترة حضنها لها. لم أكن أنا ولا تيمير مولعين باختبار صبر التمساح. كان الغسق قد بدأ. ومع ذلك لم نترك المكان بأمل أن يأتي فيدو. فلأنه كان صياد تماسيح ويجمع جلودها، كنا نعرف أنه سيأتي حاملاً رمحاً طويلاً، وقد غطى صدره ومرفقيه بصفائح معدنية ذات طبقات، وقد دعمّ كلّ هذا بإطار «غودبير» الذي وصل طرفيه معاً، ليحمي نفسه من مخاطر التمساح المعروفة. وكانت بعض الجهات تكلف فيدو بقتل التماسيح، ووحيد القرن، وفرس النهر، واشتهر كذلك بأنه يجمع العسل البري. وكنت أعرف أيضاً أنه سيبيع كل ما يعثر عليه في أحشاء الحيوانات التي يقتلها: أساور فضية، أقراط ذهبيه، ساعات، أبازيم، أحزمه وغيرها من الأشياء التي لم يتمكن جهاز التمساح الهضمي من معالجتها.

كنا أنا وتيمير متوترين للغاية، وكنا نعرف أن الليالي الاستوائية تهبط فجأة مثل نسر ينقّض على فريسته. ولكي لا نثير فرس النهر وهو خارج من الماء، أو تمساحاً وقع في شرك في طريق عودته إلى مكمنه المائي بعد أن يكون قد أخذ حمّاماً شمسياً بين الشجيرات المتناثرة على ضفاف النهر، اختبئنا وراء الشجيرات منتظرين قدومه. واستطعت أن أكبح غريزة الخوف لديّ، بأن رحت أستعرض له بأني أعرف عن التماسيح أكثر مما كان يعرفه تيمير.

كنت محظوظاً لرؤية مشاهد رائعة: اللقلق وهو يحفر بمنقاره عميقاً في فم تمساح مفتوح يأخذ حماماً شمسياً؛ ورأيت طائراً يخوض في الماء دون أن يخشى شيئاً، ويسحب سمكة من فم تمساح. وقد أعجبت

Twitter: @ketab_n

كثيراً، عندما علمت من فيدو أن للتماسيح أصدقاء بين الطيور كطير الماء، والزقزاق الذي لم يكن يخشى أن يلتقط بقايا الطعام من بين أسنان التمساح. وكان الزقزاق، الساكن عادة، يطلق صيحة حادة ياق ياق عندما يشعر بالضيق في المكان الذي يعشش فيه، محذراً التمساح من خطر وشيك. وبما أني كنت أصغره سناً، وبما أني كنت أميل إلى التبجح والكذب، لم يصدّق تيمير ما كنت أقوله عن العلاقة بين الطيور والتماسيح فقال لي: «هل تظنني أبله؟»

فقلت «تحكي أنت وأختك حكايات طويلة لا تصدق»، ملمحاً دون تصريح واضح إلى أني لا أثق بقصة شولونغو عن أبيها والبقرة التي تصبح امرأة، والمرأة التي تُمسخ بقرة، «وتريديني أن أصدقك دائماً؟» إنك يا صديقي، تهين ذكائي أحياناً. فإذا كنت الآن لا تثق بما أقوله لك فاسأل العارفين بالأمور، إسأل فيدو».

«سأفعل» قال بحزم.

وتابعت كلامي: «واسأله أيضاً لماذا ينفخ في قوقعة مثقّبة محدثاً صفيراً عاليا قبل أن يبدأ في جمع العسل. إساله إن كان يقصد تنبيه طير دليل النحل ليرشده إلى المكان الذي توجد فيه خلايا النحل».

«ما هذا كله؟»

قلت: «لو لم تكن غبياً إلى هذه الدرجة، لعرفت أن دليل المناحل يساعد فيدو ويدّله على مكان المناحل التي يجمع منها العسل البري. ولعرفت أيضاً أنه بما أن للزقزاق علاقة ودية مع التمساح فهو يحمي صديقه».

فقال: «سأسأل فيدو». لاحظنا أنا وتيمير فيدو قادماً. كان قد جلب معه رائحة نفاذة. رائحة عطر تجعل المرء يشعر بالانتشاء. تذكرت حكاية اللص الذي سُرق بدوره. وعندما وصل فيدو، سُمعت أصوات تحركات بغيضة في الأعشاب الممتدة على جانبي النهر. فقد تحركت كل التماسيح

Twitter: @ketab_n

وخاصة الصغار منها وهرعت بسرعة إلى النهر محدثة جلبة، ما عدا الأم التي كانت تحرس العش، والتي اتخذت وضعية الهجوم. لم تتزحزح قيد أنملة، وراحت تنتظر فيدو غير الخائف حتى يقترب منها. «ما هذه الرائحة العطنة؟ همس تيمير.

قلت «من عادة فيدو أن يلطخ جسمه بالعطر النفاذ الذي تفرزه التماسيح قبيل التزاوج فترتبك».

وفي الحال، بدأ فيدو يطلق خواراً كخوار الثور في فترة السفاد.

وكأنها تنتظر دورها، فتحت أنثى التمساح فمها لتطلق صوتا أجشاً، كما فسرّه لي فيدو، صوت الأنثى التي تستجيب لمبادرات الذكر الشبق.

اقترب فيدو من مكاننا وهو عار تماماً إلا من تعويذة كبيرة تتدلى من أعلى ذراعه، اقترب وكأنما ليصدق حقيقة كل ادعاءاتي. تقدّم نحو التمساح الهائج. وفيما كنا ننتظر فيدو حتى يهاجم الأم التي كانت تدافع عن منطقتها وعن بيوضها، أخذنا، أنا وتيمر، نتحدث، فكما قال لي أبي، كان فيدو يسلك الطريقتين في ممارسة الجنس.

ساد صمت مجوّف كمزهرية فيها ثقوب كثيرة وتصدر صوتاً تلقائياً. وقد ذكّرني هذا بشولونغو، وبالناي ذي الثقوب العديدة.

كان كل شيء يجري أمام أعيننا: فيدو يمسك خنجراً قصيراً في غمده بيده اليسرى. ويحمل بيده اليمنى رمحاً طويلاً. وكان فيدو قد اكتسب منذ سنوات عديدة، لقب ملك نهر الفهود. أخذ يسير الآن بأبهة باتجاه التمساح بنظراته الموجهة إلى أكاليل الغار التي تتوج شجاعة صياد، آثار جروح عميقة، عرضها بعرض أوسمة نالها في إحدى المعارك. رحنا نراقب حركاته المدروسة بوجل. أدار ملك نهر الفهود ظهره للتمساح، ووقف عند حافة الماء، قدمه اليمنى في الماء، وقدمه اليسرى خارجها. وأخذت شفتاه تتمتمان بآيات قرآنية تبعتها دمدمات غير مفهومة، وراح يخوض في الماء أكثر وأكثر حتى وصل الماء إلى سرته، حيث غسل

Twitter: @ketab_n

جسده بعناية طقسية. وكان يفعل كل هذا ليستفز التمساح ويدفعه إلى سلوك متهور، وبدأ الحيوان الآن يتحرك باتجاهه. تراجع إلى الخلف. كان يخطو كل خطوة بحذر رجل مستعد للدفاع عن نفسه. وكان أثناء ذلك يرش النهر بسائل سحري كان قد جلبه معه بقنينة. خلّف فيدو وراءه درباً واضحاً مثل درب التبانة. ثم وصل أخيراً إلى الجزء الضحل من النهر حيث يصل ارتفاع الماء إلى الركبة. الأول، ثم الثاني، وأخيراً انبثق من النهر عشرة تماسيح أو ما يقارب ذلك وراحت تسبح جميعها نحوه في رتل أحادي. بدت جميعها منوّمة تنويماً مغناطيسياً، وكانت مسالمة مثل قبضة طفل. ثم جاءت إليه واحدة إثر الأخرى، فيربّت على رؤوسها ويناديها بأسمائها. أما الأم التي كانت تراقب عشها، فلم تثق بنواياه، لكنها كانت لا تزال تبدو مضطربة. ثم، وفجأة، كان مدركاً لهريرها، اندفعت من الخلف لتهاجم ملك نهر الفهود. رفعت ذيلها لتلقي به في الماء قبل أن تمسك به بين فكيها المفتوحين، لكنه أغمد الخنجر والرمح في بطنها قبل أن تتمكن منه، قلت: «بسرعة تمساح قادم».

غمغم تيمير: «أريفا... أريفا»، في إشارة إلى هيجان سريع، لا ريب أنه كان يمنحه لذة كاللذة التي تستغرق وقتاً أطول.

وفي صباح اليوم التالي، انضممنا إلى فيدو لنساعده في سلخ جلد التمساح، الذي وجدنا في معدته الثانية تمثالاً صغيراً لا يعرف أصله، ولم يكن يزيد حجمه على حجم إبهامي، مصنوعاً من السيراميك، ربما كان من أصل روسي، كما خمّن نونو عندما أريته إياه في ذلك المساء. وصار التمثال لي، من يجد شيئاً يصبح ملكاً له.

وبعد عدة أيام رأيت فيدو وتيمير معاً، يفعلانها.

كانا في النهر، وكانا يفعلانها ظناً منهما أن أحداً لا يراهما. كان ذلك

Twitter: @ketab_n

في وقت مبكر من الصباح. كان جسداهما ملتصقين ككلبين، فيدو في الخلف، وتيمير نصف منحن أمامه، وكان فيدو يتحرك دخولاً وخروجاً وتيمير مذعن مستسلم. وعندما قذف ملك نهر الفهود أخيراً، أخذ تيمير دوره فامتطى فيدو من الخلف.

كان العصر أطول من الظل الذي كان يلقيه، وكان في الظل شيء مشوّه غير سويّ. وكان ثمة طنين مكيّف ثقيل، وأنا أنصت إلى الماء السديمي يقطر في إناء كبير خارج نافذة مكتبي. وفي خيال ذاكرتي سمعت صوت مجداف يشق ماء النهر، دافعاً موجات عالية صاعدة نازلة، كان كلّ شيء مبلل وندي. اعترتني قشعريرة شديدة في عظامي. نهضت وأطفئت المكيّف.

كانت الرطوبة تخنق الغرفة عندما خرجت.

ركبت سيارتي وقدتها دون أن أعرف مكان وجهتي، رأيت سحابة من الدخان من بعيد. لم أعرف إن كانت ناجمة عن هجوم شنته المليشيا، أو نتيجة عمل انتقامي قام به نظام سياد. هل هي قنبلة ألقيت على بيت قتلت كلّ من فيه وأحرقت البيوت الأخرى، أم مجرد دخان متصاعد من أخشاب محترقة. كبقرة تعرف وجهتها بعد أن أمضت نهارها ترعى العشب الأخضر عند أطراف القرية، قادتني سيارتي إلى مكان ما، لكنني لم أعرف إلى أين!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

ازددت حنقاً مع ذاتي إلى حد أني بدأت أكره ما كنت أفعله. فقد كان من الممكن أن يطلق قنّاص رصاصته عليّ وأنا أقود سيارتي ليلاً، فيما أحاول أن أتأخر في العودة إلى شقتي قدر ما بوسعي. ولم أكن أريد أيضاً أن أرى تالادو، أو أن أكون في صحبة بعض الأصدقاء. وكنت قد ركنت سيارتي مرّة أو مرّتين، وأطفأت المحرّك، ورحت استمع إلى تسجيلات الجاز التي أحبها، فيما نسائم المحيط تداعب وجنتيّ. جلست، ولم أعرف لماذا كنت أعرّض نفسي إلى خطر كبير. جلست وتساءلت ما الذي جعلني أقدم على الانتحار بهذا الشكل. إذ كانت الشوارع في الليل تعج باللصوص الذين كانت أسلحتهم جاهزة للإطلاق، وأصابعهم على الزناد مستعدين للقتل على الفور، ولصق تهمة القتل بالمليشيات الشعبية المسلحة أو بالرجال الأشرار، الذين يستخدمهم النظام لمواجهة هجماتهم.

وصلت إلى البيت بعد منتصف الليل ودخلت خلسة كالسرّ. لم أعرف إن كانت شولولنغو قد تعمدت أن تترك باب غرفتها موارباً، بأمل أن أنضم إليها في السرير، أم أنها أخلدت للنوم ببراءة وفتحه تيار الهواء. كان بإمكاني أن أرى سريرها إذا ما مددت رقبتي قليلاً. كانت مستسلمة للنوم مكوّرة مثل جنين على نحو أخرق.

وعندما أعددت الفطور في صباح اليوم التالي، أخذت أراقب بلهفة

Twitter: @ketab_n

ردنيها الحريريين الواسعين كجناحيّ نسر منفردين على امتدادهما. في الحقيقة، وقفت في مكان يمكنني من رؤيتها ما أن تخرج من غرفتها. انتظرت خمس دقائق، ست دقائق، لكن قبل أن يصل عقرب الدقيقة السابعة إلى الثامنة، أحسست بظلّ شخص غريب يبعثر أشعة ضوء شمس الصباح إلى إشعاعات متناثرة. وكان هناك، امتداد أكثر وضوحاً للنور المتجه نحو المطبخ. لم تعبق منها أية رائحة، وكانت تفرك عينيها كي تصحو. هل كانت تفركهما حقاً؟

تذكرت، أين هي القملات؟ وقلت في نفسي إنه يمكن لمنخريّ الإنسان والعقل الإنساني تدجين أيّ رائحة، فالألفة تولّد بلادة الأحاسيس، وتثبّط الحماس، وربما عدم الاهتمام بمزايا الشجار. فالعقل الإنساني يلغي هذه الفروق، ويجعل المرء في صنفين رئيسيين، رائحة سيئة ورائحة جيدة. كانت شولونغو سيئة، وكذلك كانت رائحتها، بقمل أو بدون قمل.

أما بالنسبة لرؤيتها، فقد رحّبت بها كمضيف خلوق يرحّب بضيفه. نهضت، وظللت واقفاً إلى أن جلست. وأخرجت (لا أعرف إن كانت قد فعلت ذلك متعمدة أم لا) يدها اليسرى من حزام ثوب الكيمونو غير المعقود. فأتيحت لي فرصة أن ألمح أثراً من لحمها، وكان هذا بالنسبة لي إشارة على المرض. وقلت في نفسي لا يمكنني أن أضع مستقبلي في يد جسد تكتنز فيه طبقات دهنية!

وخطرت ببالي مسألة مضاجعتها: لماذا يفضل البعض المضاجعة في الصباح، ولماذا يفضلها بعض الرومانسيين في الليل، ولماذا يحبّ البعض الآخر المضاجعة عندما تكون الأضواء منارة، ولماذا يحبّذ آخرون المضاجعة في العتمة. فقد كنت أعرف امرأة تفضل المضاجعة بعد الظهر، والستائر مسدلة، والراديو يعزف موسيقى الروك بصوت عالٍ. وكنت أعرف امرأة أخرى يتمتّع جسدها بالغزل الصباحي. ربما كان هناك

Twitter: @ketab_n

منطق للجنس أكثر مما يدركه الكثيرون منّا. وإذا كان لجسمي جدولاً معيناً، فمن المؤكد أن شولونغو لم تكن شريكاً محتملاً بالنسبة لي.

«ذهبت لزيارة آرباكو»، قالت وهي ترشف الشاي المُحَلّى بالعسل. كانت آرباكو إحدى صديقات أمّي المقربات.

سألتها: «كيف حالها؟»

«إنها تتساءل لماذا لم تكترث بزيارتها طوال هذا الوقت».

أعادني اسم آرباكو الآن إلى الأيام التي سبقت لقائي بشولونغو. إلا أنه كان عليّ الآن أن أوقف ذاكرتي وأنا أصغي، باهتمام مصطنع، إلى آخر الأخبار المتعلقة بآرباكو. ولم أعرف الشيء الكثير من هذر شولونغو. بل حوّلت حديثنا إلى زيارة تيمر بعد ظهر أمس، عندما أحسست أنه من المناسب عمل ذلك.

سألتني شولونغو: «ماذا قال؟»

قلت: «إنه يريدني أن أكون إشبينه».

«وهل وافقت على أن تكون إشبينه؟»

اعتراني شعور بالخبث وأنا أقول: «قلت له إنه يشرفني أن أرتبط به في ساعة زواجه بامرأة اختارها هو». وكنت أهدف إلى إثارة غلّ شولونغو. وقد حققت ما أردت: فقد استشاطت غضباً، واحمرت عيناها وراحت ترمقني بنظرات حادة غاضبة.

قالت: «لكن هذا أمر مخزٍ!»

«ما هو المخزي؟»

فقالت: «لأنك تحرّضه على جريمة خداع النساء»، وأضافت، «تعشش في رأس الرجل فكرة أنانية بأنه يشتري امتنان المرأة وعرفانها، وهذا لا يختلف بشيء عن كونها جارية، امرأة لا تتدخل في حياته الزائفة، بما أنه اشتراها».

Twitter: @ketab_n

قلت بطريقة تمثيلية: «ألا تجرين أنت نفسك وراء دوافع أنانية، تأتين إليّ، وأنت متزوّجة من آكل النار المغربي؟ لماذا جئت إليّ؟ إنك امرأة أنانية، ولا يحقّ لك أن تتحدثي عن سمو الأخلاق».

فقالت: «هناك فروق أساسية».

«كيف؟»

قالت: «نتفق أنا وأنت على هذا الأمر كشخصين ندّين».

قلت: «لم أتفق على أيّ شئ».

قالت: «إنها فكرتي. وأنت لست ملزماً بتنفيذ ما أطلبه. وإذا لم توافقني، فأنا أعرف أني امرأة حرة وأستطيع أن أذهب إلى أي شخص آخر، ولا يمكنك أن تمنعني. فما أن تتزوج المرأة، حتى تفقد إرادتها الحرّة».

انتقلت إلى موضوع أقل إثارة للجدل. سألتها: «لماذا جئت أنتِ وتيمير إلى الصومال، واحد ليتزوج امرأة لديها طفل رضيع، والأخرى لتحمل من شخص آخر؟»

قالت: «نشعر كلانا بأن آمالنا لم تتحقق». وكانت أسنانها المتلألئة تعكس ضياء الشمس. ولوهلة خيّل إليّ أنها ابتسامة، وكدت أستجيب لها.

«وماذا قال تيمير أيضاً؟»

«تحدّثنا عن السحر والمحرّم».

«هل تحدّث عن صديقه الأمريكي الزنجي؟»

«ما المثير في ذلك؟»

فقالت: «إنهما يقومان بأفعال غريبة»، وأضافت، «إنهما يتبادلان الأدوار ويدعو كلّ منهما الآخر باسمه، وفي بعض الأحيان، يتخذ أحدهما شخصية الآخر. إذ يحبّ وين أن يعتبر نفسه أفريقياً، ويحب تيمير أن يمثل دور زنجي أمريكي. ويقدم تيمير نفسه إلى الناس على أنه

Twitter: @ketab_n

ممثل، ويعرف وين نفسه على أنه معلّم بديل في مدرسة ابتدائية. وهكذا يستمرّان في تبادل الأدوار، يلبس أحدهما ثياب الآخر، ولأن أحدهما يشبه الآخر إلى حدّ ما، فقد يثير هذا الأمر الالتباس بينهما».

«ألا يعمل تيمير ممثلاً في المسرح؟»

«لا. لقد قام بأدوار ثانوية، هذا كلّ ما في الأمر».

لا أعرف ما هو الطريق الالتفافي الذي أوصلنا إلى موضوعنا التالي: الجنس، الذي رحنا نتحدث عنه الآن بمودة شخصين يتغازلان. هل هي عدوانية في السرير؟ هل أنا سريع القذف مثل تمساح؟ أم أني آخذ وقتي كما تفعل الضفادع؟ ووصلنا أخيراً إلى زوجها المغربي آكل النار. هل كان يحب مضاجعة الجنسين؟ وفهمت مما قالته عن زوجها، إن زواجهما خلّف بأساليب شتى انطباعات إيجابية كبيرة عليها. وقلت لها إن للجنس منطقه، ووافقتني على ذلك. وأضفت أن للجنس، في ذروته، بؤرة متوترة، تشبه الحمم: جسد حار يبرد، مراحل القمر وهي تدخل منعطفاً حاسماً. امنحني طفلاً! سألت نفسي هل سيثمر لقاؤنا الجنسي، إذا رغبت أنا في ذلك، طفلاً سعيداً موفور الصحة، ذا قسمات صومالية، بوجنتين مكتنزتين، وعينين بنيتين داكنتين؟

رن جرس الهاتف. قررت أن لا أردّ، مع أني كنت أعرف أنها أمّي التي أصبحت تعرف الآن، بفضل آرباكو، أن شولونغو لم تكن في المدينة فقط، بل كانت في استضافتي أيضاً. وعندما توقف رنين الهاتف، نهضت وقلت: «لنفترض أني وافقت على أن أصبح أباً لطفل أحلامك، ولنفترض أنك وضعت طفلاً، فما هي مكانتي في كلّ هذا؟»

«حسب رأيي، لم تعد للآباء أهمية كالسابق».

«إذن وماذا عني؟»

قالت: «ربما ينبغي أن استشهد بالمقولة المبالغ فيها التي قلتها أنت نفسك عندما كنت طفلاً: لا يعوّل على الآباء، بل يعوّل على الأمهات

Twitter: @ketab_n

كثيراً! كنت تناقش آنذاك إن كان عليك أن تضيف اسم أمّك إلى نهاية اسمك».

«طاب يومك يا سيدتي»، قلت، واستأذنتها وخرجت.

بينما أخذت أقود سيارتي، أحسست بأني أطوف عبر طبقات الزمن، في أطوال من الثياب الملوّنة، إذ يمثّل كلّ طول مرحلة معينة من سنوات شبابي: الآن دم قرمزي حيضي، الآن داكن كالتربة الخصبة قرب نهر شابيل، والآن أخضر مثل ممرات في غابة شجاعتي الهوجاء، والآن بسرعة كالنمل الأبيض يزحف خارج عشّه الدافئ من الرماد، والآن مثل إكسوسنا، قردي الأليف.

ومع ذلك، كانت هناك طريقة أكيدة لأحلام يقظتي. لأني تمكنت من رؤية المكان المتجه إليه أخيراً، نحو طفولتي، وبعبارة أخرى بيت أبويّ. كان تصرفي غريباً بعض الشيء، كما لو كنت أنا أيضاً من الذين عادوا مؤخراً إلى مقديشو، أستذكر مشاهد سنواتي المبكرة. وقلت لنفسي إنه لم يكن لردّ فعلي بالنسبة لوجود شولونغو وتيمر في حياتي علاقة كبيرة بسلوكي. لا، فقد كنت أتحكم بقدري، أوجّهه يساراً، ثم يميناً، ثم إلى الأمام، ثم أنعطف، كلّ ذلك بأمل أن أصل إلى بئري.

وقد ذكّرني صوت متخيّل بجامع العسل. طفل يعصي أوامر أمّه أعادني إلى طفولتي عندما كان أبي يغسلني، أو عندما كانت آرباكو تمازحني. ابتسامة: قرصت شفتي السفلى وأنا أتذكّر ظلال حلم أغلقت فيه، بأصابع الطفل، عيني أبي، أبي الذي اعتاد أن ينام مفتوح العينين على وسعهما، حيث كان بياضهما يهيمن على الجزء الداكن الذي يكاد يكون مرئياً. تذكّرت الآن بأني استيقظت في ذلك الفجر من كابوس رأيت فيه صقرين هائلين ينقضان عليّ من ارتفاع شاهق. وكان الصقران يتناوبان، الواحد تلو الآخر، لإثارة الرعب في قردي الأليف الجميل

Twitter: @ketab_n

إكسوسنا واختطافه في نهاية الأمر. وكانت نداءات استغاثتي مدوّية مثل أصوات الصقور. وفي حلمي كنت أتمنى أن أباغت أبي وأنا أغمض عينيه اليقظتين؛ لأنه عندما يستيقظ سيهبّ لمساعدتي ومساعدة إكسوسنا. ورحت أقود سيارتي في دوائر، والذكريات تطوف في رأسي. ثم رأيت ملامح أبي على لوح الزجاج الأمامي، أشكالاً ارتسمت من حركة ماسحات الزجاج بمهارة.

وأخيراً الممر الترابي الذي تربيت فيه. الذي كان يغويني بمنعطفاته كالمتاهة، يغريني بذكرياته الجميلة. وأتذكر وأنا في السادسة من عمري، أني أتسلّق شجرة مجوفة في وسطها فوق البقعة التي أشعل فيها جامع العسل النار. وبما أني كنت أساعده، كنت قد قطعت قصبات الذرة أو نباتات خضراء ليطفئ النار بها. بارك الله فيدو الذي كان يتركني أمضغ أقراص العسل، وتدخل عرضاً جهازي الهضمي بيضة أو قطعة من الشمع المتخثّر. وكنت أقف عند عتبة الفجر، متلهّفاً بلهفة عريس يريد أن يلتقي بعروسه، أنظر في فتحة أحرقت فيها أعشاب عطرية لتمنح العسل طعماً لاذعاً. كانت الرائحة الغريبة رهن إشارة ذاكرتي، فأنا الرائحة، نفحة البخور التي ترسم دوائر في طريقها لعبادة معبود المساء.

رحت أقود السيارة وأنا أحاول أن أرسم وجهاً تشكّل من ماسحتيّ الزجاج الأماميتين اللتين تتحركان ذات اليمين وذات اليسار. واصلت قيادة سيارتي فيما خطر لي المثل الصومالي الذي مفاده أن فرج المرأة لا يمكنه أن ينسى القضيب الذي ولجه.

كان أبي يقف في الشرفة، منهمكاً في تصليح سوار فضي ذي تصميم متقن. كان يقف مطرقاً ومنهمكاً في عمله. ومن مكاني، ظننت أنه كان يعالج سلسلة مكسورة، أسوارة ذات أشكال ونماذج جميلة، أقواس هندسية تتبع نماذج بناء الجملة. أو ربما كنت أقصد أني رأيت نملة

Twitter: @ketab_n

بيضاء مغمورة في كثيب الرمال؟ أو شكلاً حجرياً ذا قبضة مرفوعة، يهتف هتافات النصر؟ أو لولباً داخل دائرة حيث تلتفّ، في منحنى صعودها، حول النقطة الرئيسية، وكانت نظرتي مركزة على طير يرفع جسمه قليلاً، لكنه لا يستطيع الوصول إليها، طير لا يتحرك تماماً، وقفته تنطوي على نفس مكتوم؟ انتظر يا ذا الريش، انتظر!

لبثت صامتاً. ظلّل منكباً على الطاولة التي تتبعثر فوقها الأدوات التي يعمل بها. كان لسانه الأفعواني خارج زاوية فمه، وكانت سحلية تتعقب ذبابة، تفتش عن صيد لها قبل أن تعود إلى قاعدتها. لعلك كنت تظن أن أبي طفل يتتبّع تعلم أبجدية القراءة والكتابة من ألفها إلى يائها. كان أبي يحمل الآن آلة في شكل وتد، وكان يلامس لمسات مرهفة بقعة العمل أمامه، بقعة تبدو رمادية أكثر من الباقي. عندما رفع نظره إلى الأعلى في البداية، إما أنه لم يرني، أو أنه لم يعرفني، اتسعت عيناه كما يفعل الرجل الذي يضغط على حوصلة طير. ولأنه كان منظّماً بقدر كوني فوضوياً، وضع الإسوارة في حقيبة من البوليثين كتب عليها بأحرف حمراء «فيدو». عندها فقط أشرق وجهه بابتسامة شكر مدهشة، وتعانقنا. كان في الخمسينات من عمره، نحيفاً. وسيماً.

سألني: «هل تعتني بنفسك جيداً؟»

فأجبت نعم..

قال: «هناك طلقات طائشة كثيرة مؤخراً، تبحث عن مكان تقبع فيه. وثمة حديث أيضاً عن ميليشيات مسلحة من العشائر تريد أن توقع ضحايا في أفراد العشائر الأخرى. أظن أنك تعرف ماذا يعني ذلك؟ يجب أن تكون حريصاً وأن تبتعد عن مسار الطلقات بقدر ما بوسعك».

قلت كاذباً إني أبتعد عن مسار الطلقات.

سألني: «كيف حال زائرتك؟»

كنت مشوشاً. بدأت أحكّ رأسي الخشن. تذكرت بأني للمرة الثانية

Twitter: @ketab_n

خلال عدة أيام أصبحت أشعر بأني بدأت أتحرر من سذاجتي. ثم استفزني أبي، وأخذ يقارنني بنعامة تدفن رأسها في الرمل، ظناً منها أن لا أحد يستطيع أن يراها. وتطوع قائلاً إن مدبرة منزلي أخبرته بقدوم ضيفتي. قال: «كانت لامبار هنا».

عندما قدمت لأبي خلاصة عما رشح حتى الآن بيني وبين ضيفتي، أخذت عيناه، مثل سطح الماء، تترقرقان مع انعكاس أشعة الشمس التي ترتفع وتهبط فيهما.

«إني سعيد بأنك تمكنت من المجيء لزيارتي»، قال وفي صوته نبرة انزعاج. هل زعزع مجيء شولونغو كيانه؟ فلم يكن من عادته أن يتحدث كثيراً. «وكيف تخطِّط لأن تجعلك تمنحها طفلاً؟ هل تظن أنها يمكن أن ترغمك على ذلك تحت فوهة المسدس؟»

«لم نصل إلى هذا الحد».

«إلى ماذا وصلتما بحق السماء في يومين؟»

أوضحت له بأنه دار بيننا، أنا وهي، حديث متحضر عن الموضوع، وأننا نتناول طعام الفطور في الصباح، وأنني أعود إلى البيت متأخراً في كلّ ليلة. انتظرت بترقب لأرى إن كان سيسألني أين أمضي أوقاتي في الليل، بما أنني أتحاشى العودة إلى شقّتي.

أشاح بوجهه عني، مركزاً على إحدى الحمامات وهي تلتقط تشكيلة من الحبوب. وراح يتحدث بشكل أخرق عما أغضبه.

قال، «لا أعرف ماذا أفعل لو كنت مكانك». كانت عيناه شبه مغمضتين، وكان بياضهما يغلب على الجزء الداكن فيهما، ثم أردف: «انتبه، إنها رخيصة كالخرقة الشعبية التي تصبّ الخلاعة في المصطلح الحديث لبرنامج تثقيفي».

كان من الجيد أن أراه في موقف الشخص الذي لا يأبه بشيء.

Twitter: @ketab_n

عندما لم أقل شيئاً، صاح: «لماذا لا تطلب من تيمير أن يمنحها طفلاً؟ إنك تعرف أن آرباكو تعتقد دائماً بأنهما كانا يفعلانها دائماً، تحت نظر وسمع أبيهما».

لبثت صامتاً.

قال: «من أيّ زاوية تنظر إليها، فإنك ترى تنافراً وتناقضاً، مجموعة من أنصاف وحوش تشارك في طقوس سفاح جماعية، تماماً مثل نصف أشقائهم، الحيوانات. إن شعوري. . .» وسكت، مثل رجل أفشى أسراراً أكثر مما يجب.

أدخلت يدي في علبة تبغ قديمة وأطعمت الحمامات الست في باحة بيت أبي. فقد كان نونو قد درّب عدة حمامات وجعلها حماماً زاجلاً تنقل رسائل. إن صديقاتنا ذوات الريش يتنقلن بين بيت نونو وبيت أبي، ويمكنك أن تعتمد عليها مليون مرة أكثر من اعتمادك على خدمات البريد في بلدنا، التي ليس لها وجود، وهي أرخص ولا تفشي الأسرار كالبشر الذين ينقلون رسائل شفوية بين الأب وابنه. ولهذا الغرض، أقام أبي برج حمام واسع في كلّ باحة. وقد دُرِّبت الحمامات العائدة على حمل الرسائل، التي كانت تربط بأربطة مطاطية في ساقيها بين مقديشو، حيث يعيش أبي، وأفغوي، حيث بيت جدي. وكان أحد الجيران، الذي كان يتملكه شعور بالحسد والرغبة في التعرف على أسرارهما، يكمن لها ليصطادها.

بدا في غاية الاستياء.

قال أبي: «ذهب تيمير لزيارة أمك».

قلت: «عندما أفكر بالجهد الذي بذلته لكي أكون أنا وتيمير صديقين حميمين، ماذا سيكون ردّك إذا ما أبديت ذات الميول الجنسية الآن التي يبديها هو؟» حطّت حمامة صغيرة على كتفي. وقد أخفقت محاولتي في

Twitter: @ketab_n

إطعامها من راحة يدي، ربما لأنها أحسّت بأني لم أكن واحداً من الفرانسيسكان.

«ستنزعج أمّك كثيراً».

«وماذا عنك؟»

«لقد عرفت عن فيدو، ولم أتضايق».

«لكنك عرفت عنيّ وعن شولونغو؟»

«كنت أعرف أنك ستتخلص منها».

«يبدو وكأنها لن تدعني أتخلص منها».

جثمت حمامة على كتفي الأيمن وحاولت أن تنقر داخل أذني، ربما كانت تريد أن تصل إلى صماخ أذني الذي لم أكن قد أزلته بعد. دفعتها عني غاضباً.

قال: «ثمة شيء يثير قلقي في كلّ هذا. إن أمّك ستشتري مسدساً، وتنوي أن تأخذ دروساً مكثفة في كيفية استخدامه».

«من المؤكد أن هذا أمراً مبالغ فيه؟»

حملق عينيه وكان في نظرته المحدقة حدّة.

منذ عدة سنوات، كان أبي يصف نفسه بأنه «حالة صامتة». وكنت أترجم صمته بأنه كلام فارغ لرجل يعرف الكثير ويرفض أن يتكلم. ويقال إنه ولد بعد خمسة أشهر منذ اليوم الذي حملت به أمه. وكانت سبّابته قصيرة جداً، وتتوّج رأسه خصلة شعر فضية. وكان قد وهبه الله عينين يقظتين، حذرتين على الدوام. وقد منحته خصلتان من الشعر الأسود في شعره الأشيب شكلاً مميزاً.

عندما جلسنا صامتين، تذكّرت أني كنت أنام، لسنوات عديدة، على الهديل المنبعث من أبراج حمام أبويّ والقوقأة الصادرة من أقنان الدجاج. وكنت أستيقظ على صياح الديك قبيل الفجر. كم كنت أكره

Twitter: @ketab_n

رائحة هذه الطيور القذرة وبراغيثها. فوضعت خطة للتخلص منها بأن أجعل كلباً ضالاً يتسلل إليها في الليل. وكنت أرجو أن يبث الكلب الرعب في الدواجن، وأن يجعل الحمامات تطير. لكن أبي كان قد كشف حيلتي هذه.

كان أبي بالنسبة لنونو أشبه ببيت تغطيه ألواح خشبية. جلس أبي بعينيه البنيتين اللتين تشبهان ماء نهر موحل فاض على الجانبين، وقد تدلّت شفته السفلى ثقيلة مثل موسى مفتوح. وكان جدّي قد حكى لي كيف أنه كاد يركل أسنان ابنه عندما انتابه الغضب ذات مرة.

وكان نونو رجلاً محترماً من قبيلة أفغوي، يلقب باسم ما ـ توكاده، لأنه لا يصلي. أما أبي، لكي يعطي صورة مختلفة للقرويين، فكان يمضي الكثير من وقته في المسجد، ولم يكن يتغيّب عن صلاة الجماعة كلّ يوم جمعة، وكان يشارك في إحياء جميع الاحتفالات بذكرى الأولياء. وذات يوم اتهم أحد السفلة أبي بسرقة حذاء من المسجد. وكدأبه، رفض أبي تأكيد أو نفي هذه التهمة. كما لم يستمع إلى جدّي بأن مؤامرة تحاك ضده، ولماذا. لكنه لم يفه ولا بكلمة واحدة دفاعاً عن نفسه. أما نونو، الذي كان محتاراً أكثر مما كان غاضباً، فقد فعل كلّ شيء، حتى أنه هدده بأن يتبرأ منه. لكنه لم يفعل شيئاً. أي شيء.

وكملاذ أخير، سعى جدّي لمساعدة أمّي، لأنه كان يُظن أن أبي يتكلم في صحبتها كثيراً، عندما كان كلّ منهما يشاطر الآخر أسراره. ولعل نونو كان يتكلم مع الدجاجات التي لا تكف عن القوقأة في الباحة الخلفية في بيت أبويّ. وبدافع ثقة الزوج بزوجته، كانت أمّي تعتبر أنه ليس من «الشرف» أن تبوح امرأة بأسرار إئتمنها عليها زوجها إلى أشخاص آخرين».

فصاح نونو: «لكني لست أشخاصاً آخرين».

Twitter: @ketab_n

فقالت: «إذا أفشيت لك ذلك فإن العهد الذي أقمته مع زوجي يصبح باطلاً».

«املئي لي الخلفية فقط»، قال نونو متوسلاً. «هل ياقوت مصاب بداء السرقة؟ هل يتخصّص في سرقة الأحذية؟ أم أن رجالاً من عشيرة أخرى يريدون الإيقاع به؟»

ردّت أمّي بأنها لا تريد، بوصفها كنّة، أن تثير شجاراً بين الأب وابنه. وغادر نونو، متهماً إياها بأنها لا تمتلك أي حسّ بشرف العائلة.

إلا أن سبب شجار أبي مع نونو كان لسبب آخر. فقد كان ياقوت حالماً فقيراً، ولديه تطلعات يصعب تحقيقها. وقد فسّر لي ذلك نونو بعد سنوات على النحو التالي: مستشهداً بحكمة أخرى من حكمه العديدة بأن الحياة حلم طموح، وإنك إن لم تحلم بأقصى ما يمكنك أن تحققه، فقد تتخلّى أيضاً عن الحياة، وقال نونو إنه يعتبر أن ابنه فاشل لأنه لا يوجد لديه طموح. وكان يتساءل عن السبب الذي يجعل ابنه يكسب رزقه من هذه الأعمال الغريبة. لماذا كان يبدد وقته وماله بالطلب من صيادي التماسيح أن يجلبوا له الجلود وأية مجوهرات يمكن العثور عليها في أحشاء تلك الوحوش؟ لماذا يعمل في حفر القبور؟ لماذا يدخل في مناقصة مع الحكومة المحلية لدفن موتى المدينة، فيما لا يملك أقرباء الميت القدر الكافي من المال الذي يمكنّهم من تسديد تكاليف الجنازة؟ إذ كان ياقوت يقدّم الفواتير بعد الدفن إلى السلطات لاستعادة المبلغ. «أي لعنة أنت، يا بني؟» كان نونو يقول منتقداً إياه. «إنك لست أقل شناعة من ضبع، يلطّخ نفسه بغائطه، ويعيش على الجيف. أي لعنه أنت».

كان أبي قد ترك المدرسة في وقت مبكر ليعمل عند نقاش رخام إيطالي ليرحمك متخصص في صنع شواهد القبور، وفي كتابة هذه العبارات الكاثوليكية: «موري، أيها العبد الفقير، الله!» لكن نونو لم

Twitter: @ketab_n

يوافق على أن يتدخل ابنه، وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره، في شؤون الموتى، لأنه فعل هو نفسه ذلك وجنى نتائج حزينة. «لكنك مستمر فيّ! «كان ردّ ياقوت. «إني أفعل ما كنت تفعله عندما كنت في عمري، أتدخّل في شؤون الموتى، وأكسب مالاً من وراء ذلك».

عندما حصلت الصومال على استقلالها وتدنت أعمال دفن الكاثوليك، ساعد نونو أبي في شراء ورشة الإيطالي، كما هي. ثم بدأ ياقوت يتلقى طلبات للحفر على الرخام من الحكومة الصومالية، أعمالاً تتطلّب غالباً حفر عبارات طنانة للحاكم المطلق على الحجارة. ومن أجل زيادة دخله، كان يصلح الأدوات المكسورة من الفضة والذهب. وفي وقت فراغه، كان يعمل في الجلد، ويحفر على الخشب، أو يمارس أعمال نجارة صغيرة. وعندما كان يرغب، كان يرسم أيضاً بألوان مائية أو زيتية.

أما الآن، فقد ركن أبي أدواته على رفّ يحتفظ فيه بالكثير من الأشياء الأخرى التي كان قد ألقى بها آخرون، والتي كان يجد فيها فائدة. وكان من بين هذه الأشياء قرط غريب الشكل، وقطعة معدنية قديمة صدئة، وعلب صفيح يضع فيها فرشاته وأقلام التلوين. وكنت أشعر أن اهتمامي بأصل الأشياء، كان يربطني بأبي وجدّي.

سألني إن كنت أريد أن أحتسي شراب التمر هندي البارد. لكنه لم ينتظر ردي. بل سار خبباً، حذراً كسحلية، يتطلع يمنة ويساراً، عيناه مليئتان بالحيوية، قبل أن يغامر، ويدخل إلى البيت.

صوت قرع أجراس خافت.

وصلت خادمة أبويّ. كان وجهها أعرض من جادة واسعة، وجه ترتسم عليه ابتسامة. قلت إن ثوبها الكورتا تلطخ ببقع في أكثر الأماكن غرابة. كان سمعها ثقيل، وكانت تتكلّم بصوت مرتفع. هكذا كانت

Twitter: @ketab_n

طريقتنا في التفاهم، أرفع صوتي لتسمع ما أقول. وعلى الفور استهلكت جميع إمكاني الرئوية، لا في إخراج الكلمات فقط، بل في مجاراة صوتها كذلك. وكانت قد أحضرت صينية عليها كأسين طويلين، كان من الواضح أن أحدها لي وفيه عصير التمر هندي، والآخر لأبي. لم أعرف ما فيه.

وبعد أن عاد أبي، أخذ ينقّل ناظريه بيني وبين الخادمة. كانت شفتاه مزمومتين، وكان مرتبكاً. جلس، وسبابته تحوم قرب أذنيه. فهمت من ذلك أني يجب أن أخفض صوتي. أوقفت الحديث فجأة، وأذناي تطنان والريح تنفخ فيهما. وسرعان ما سمعت صوت ارتطام شيئين معدنيين في الداخل، صوت يشبه صوت طائر الرفراف، صائد السمك، وهو يبحث عن فريسته.

اقتربت حمامة. بطيئة التفكير. لا تتوقف عن نقر الحبوب، وعندما كانت تخفق في التقاط حبة، كانت تتركها وتبتعد عنها، وكانت تحاول مرة أخرى لكنها تفلت منها، ثم تنظر إلى الأعلى قبل أن تقوم بحركتها التالية. ارتفعت يدي لأحكّ قشرة رأس من ذاكرة تتعلق بشولونغو. أساءت الحمامة فهم نواياي فأخذت ترفرف، لتجثم فوق طاولة كرة المضرب التي تبعد عني مسافة مترين.

كان أبي يقول: «لقد أيقظتني أمّك في صباح هذا اليوم لتعيد عليّ روايتها عن قصة لوط في القرآن. ثم تحدثت عن العقاب بأن الله يمسخ المرء ويجعله في هيئة نصف إنسان ونصف حيوان. ثم قالت إنها اشترت سلاحاً نارياً. ولم يعد غريباً الآن أن يمتلك الناس سلاحاً في أرض يحكمها مسلحون، أو حتى أن يلجأ المرء إلى حمله للدفاع عن النفس. وسألت أمّك عن سبب شرائها للسلاح، وانتظرتها حتى تقدم لي الجواب الذي يسمعه المرء غالباً هذه الأيام والذي مفاده أن مقديشو على وشك الانهيار. نظرت في عينيّ وأجابت، «إني أعرف من أريد أن أقتل، امرأة تعبث بأحلامي. ولم أكن بحاجة لأن أسألها من هي ضحيتها».

Twitter: @ketab_n

كان يبدو أن الكلام يضايقه. وعرفت كذلك أن للنوم تأثير مشابه عليه. فلا يرتاح أبي إلا عندما يعمل في ورشة التصليح. ولا عجب في أن عينيه اللتين تشبهان عينيّ البومة تظلان مفتوحتين، فيما يبقى جسده كله نائماً. وسقط رأسه على صدره بالسرعة التي تختفي فيها رقبة السلحفاة.

قال: «هناك مساحة كبيرة يجب تغطيتها، وثمة أسرار كثيرة يجب التخلّي عنها بداية، لماذا لم أوضح رأيي لأبي؟ ثمة سؤالان من الأفضل الإجابة عنهما. لماذا يدعيّ أحد السفلة أنني سرقت حذاءه من المسجد؟ إنك تستحق أن تسمع إجابات عن هذه الأسئلة، حتى لو لم تسألها. وبشكل آخر فإن الأسئلة تشبه عظاماً لا يكسوها اللحم. إذ تفقد الأسئلة التي مضى عليها زمن أهميتها، لكن هل تفقد العظام أهميتها؟ هل تشيخ الهياكل العظمية المخبأة في الخزائن بسبب الغبار الذي يكسوها؟ قد يكون النخاع في هذه العظام قد جفّ، لكن الحياة لا تزال موجودة فيها. وعندما تبقى العظام مدفونة لسنوات، قد لا يكون من الحكمة نبشها، لأن شكلها قد يكون قد تغيّر، وكذلك الأسئلة عنها».

سألت: «ماذا لو لم أكن أرغب في نبش العظام؟»

بدا منزعجاً. نهض، مما أثار بعض الحمامات فطارت، فأخذت أجنحتها تضرب الريح، بصخب مثل حبل غسيل يترنح وعليه ملابس. كان يبدو طويلاً بالنسبة لرجل لم يكن طويلاً، ولم يعد شاباً. سمعت أجراس الذاكرة تقرع داخل البيت، معلنة مغادرة براءتي الحزينة.

ومضى يقول: «تقبع تحت الحجرة التي لم تتزحزح منذ فترة من الزمن جميع أنواع الحياة. إذ تعشعش تحتها حشرات أو تتزاوج، عقارب ذات ذيول خاملة. حرّك هذه الحجرة، حرّك الصخرة، وستكتشف عالماً غامضاً. والآن لماذا تجعلنا شولونغو نتصرّف كالعقارب التي أزعج أحدهم مخبأها؟ لماذا تشتري أمّك سلاحاً؟ ما نوع الأسرار التي نحرسها؟»

Twitter: @ketab_n

وجدت نفسي أنكش أنفي بلا مبالاة، فيما قادتني ذاكرة طالما استحوذت عليّ. كنت طفلاً في هذا البيت، أنسل إلى المناطق المحرمة، وألمس الأشياء المستعملة التي كان قد اشتراها أبي. وكان أبي يشتري أشياء من رجال ذوي خلفيات مريبة. لذلك، كانت الشرطة قد أخذت أبي لاستجوابه مرتين، وأخلي سبيله لأن أمّي توسطت لدى أحد أبناء أعمامها الذي كان يعمل في الشرطة.

وفي البيت، كانت النسائم تقرع أجراس تماثيل صغيرة، هدايا تذكارية من المعدن تتشابك مع تعاويذ تكسوها مادة مماثلة، طلاسم قديمة لا لسان لها، فضيّات «عثر عليها» أحدهم في مكان ما واشتراها أبي منه بسعر بخس. وكان من بين تلك الأشياء خرز الكهرمان الذي يعتقد أنه استخرج من قاع بحر البلطيق، أو الكوبال، وهو حزام مصنوع من الخرز من موريتانيا اشتراه أحدهم من بحّار من تلك المناطق، وصدفات بحرية، وبيض نعامة. وعندما كنت طفلاً، كنت أسمع صوت البحر في الصدفات المعلقة فوق الغرفة التي يشتغل عليها أبي. وعندما كنت طفلاً، كنت أستمع إلى أصوات الصحراء عندما أضع أذني على فتحة تضع فيها النعامة بيوضها. ولم يكن أبي، المشغول دائماً، يمانع إن حككت قطعتين من الكوبال معاً لتصدرا شرراً كهربائياً، أو لتصدرا رائحة تشبه رائحة العسل والليمون. وكان عمله يدرّ الكثير من المال. كما لم يكن يجرؤ لصّ على اقتحام بيتنا، لأن الناس يعتقدون أن لهذه الأشياء قوى سحرية.

خلال صمت أبي، انطلق صليل العالم عالياً. قال: «يجد المرء في ذاكرته عقرباً يقبع تحت قطعة حجر لم يزحزحها أحد منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً. الأسرار ترتبط بالأرض التي يقبع عليها العقرب الملتفّ حول نفسه. والآن سأخبرك بشيء لا يعرفه أحد، إلا أمّك».

قلت: «ماذا لو كنت لا أريد أن أعرف؟».

Twitter: @ketab_n

«طلبت مني أمّك أن أخبرك».

فقلت: «أبي، أشكّ في أنه لا تزال توجد لدغة في ذيل عقرب مضى على اختفائه ثلاثين عاماً. لماذا إذن تزعج نفسك؟»

لم يكن يثنيه شيء عن ذلك. كان صوته مجرداً من طاقته الطبيعية كشريط مسجل يعمل على بطاريات ضعيفة، فقال: «عندما التقيت أمك، كانت تعاني من مشاكل ناجمة عن سوء تفاهم حصل بينها وبين رجل كان قد غازلها وتودد إليها. وبعد بفترة وجيزة من زواجنا، اتهمني أحدهم بأنني سرقت حذاء من أحد المساجد. ولسنوات عديدة، لم يكن يريد أحد منّا أن يرى ماذا يقبع تحت الأحجار، لكي لا يلسع العقرب، إذا ما عكّر أحد صفوه».

كانت عينا أبي مبللتين، وكانت فيهما نعومة تشبه الضياء في أواخر العصر. نهض بدون شكليات وخرج دون مراعاة للأدب. كان أخرق في حركاته الجسدية وراح يمشي كطفل يمشي للمرة الأولى. وكادت إحدى الحمامات تطير باتجاهه، غير مدركة أنه كان قادماً. تطاير بعض الريش من الطير، وفقد أبي توازنه، وفقدت أنا التجّهم في وجهي.

خرج قرابة دقيقتين، ثم عاد وهو يحمل مجموعة من الأدوات. كان يحمل بيده مثقباً، وإزميلاً، وشمعدانات ذات ثلاثة رؤوس.

فكّرت بالطريق المسدود المتعلق باسمي. خطر لي منذ سنوات أنه يوجد تواتر في خيط الأسماء التي يرددها الطفل الصومالي بأنه اسمه أو اسمها، مؤكداً النسب الذكوري. لعلك تؤكد ذلك ملمحاً إلى التكوين الضمني للقدرة القدسية الكلية. في مكان ما في الخلفية، كان ثمة نزوح شيطاني جماعي، دليل على ولاء البشر لنقطة قانونية إلهية، الخالق الأعظم الذي لا يلد ولا يولد. لكن ما الذي يجعل الإنسان يقتل إنساناً آخر لأن هذا السلف الأسطوري مختلف عن سلفه: وليس لهذا علاقة كبيرة بالدم، بل له علاقة أكبر بتاريخ إفساد العدالة وانحرافها. ما الذي

Twitter: @ketab_n

يجعل المرء يرفض الزواج من قبيلة معينة لها علاقة بسياسة الإدماج والإقصاء. إن الولاء السياسي لدى الناس لا يتشكل إلا لأن أولادهم يشبهونهم ـ وبالحكم من الطريقة التي تقوم فيها أي مجموعة من المليشيات التي تتشكل استناداً إلى العشيرة نفسها ـ يالها من حماقة أن يثق المرء بشقيقه بصلة الدم. الثقة المطلقة بدون تعقل للوثيقي القرابة فقط، الأخ، الأخت، أو النسيب. اسأل أي شخص في السلطة، إسأل ملكاً، وسينصحك بأن ترتاب في أقربائك.

قلت، «أبي، كنت أريد أن أسأل. . .»

لكن عندما نظرت عيناه البنيتان إليّ بشيء من الوجل، هدأت. ربما ندم لأنه استخدم استعارات مختلطة غير لائقة من أجل توضيح ما كان يريد أن يقوله. ففي حين تسبب العقارب ألماً شديداً، فإن الحجارة لا تشعر بشيء.

سألته: «وماذا عن أمّي وشولونغو؟»

قال: «ماذا تعرف عما حدث بينهما؟» أحسست بأنّه يكتم سراً كان يريد أن يبوح به.

قلت: «أعرف أشياء تتعلق بتسوية الحسابات بينهما».

كان يعتني بالشمعدانات كما يعتني المرء بطفل يجهش في البكاء. نظر إلى الأعلى، ثم بدأ يتحدث ببطء متعمّد، وكأنه لم يكن يريد أن يبوح بأسرار يجب أن تظل في طي الكتمان. وقال: «لعلك لا تعرف أن أمّك سعت لأخذ بصمات أصابع شولونغو، لأنها كانت تشك في أن البصمات الموجودة على علبة الأزهار على طاولتنا هي بصماتها».

«وهل ثبت أنها بصماتها؟»

«لم يُعثر على الوثيقة المسروقة».

«لماذا لم يخبرني أحد بذلك من قبل؟»

Twitter: @ketab_n

فقال أبي: «لم أعرف بهذا الأمر إلا منذ سنوات قليلة».

«لقد أخبرني الضابط الذي أخذ بصمات شولونغو بذلك. فقد ذكر الحادثة عرضاً، ظناً منه أني كنت أعرف بها».

قلت: «يا لها من فوضى تثير الفزع. لكن من هو الضابط؟»

«شخص يربطه بأمك ولاء العشيرة. وهو الذي جلب لها المسدس».

كان صوته يشي بشيء غامض، لكنه حزين.

جعلني هذا الجرح أستوي واقفاً.

ترنحت قدماي عندما مشيت. كان رأسي يدور، ولم أعد قادراً على التفكير. لقد ابتعدت عن أبي، لأني كنت أريد أن أجد مكاناً أواري فيه خجلي. وكان المرحاض كريماً معي، الذي كان مستعداً ليتلقى قلقي وقيئي ونفاياتي الأخرى. كان ثمة شيء واحد يجمعني أنا ونونو وهو أن معدتينا كانتا حساستين، تضطربان عندما يضطرب توازننا العقلي.

في المرحاض: أتذكر...

عندما كنت طفلاً صغيراً لم أكن أفارق أبي. وكنت أغط في النوم وأنا أحكم قبضتي على إصبعه، ولم تكن أمّي تتواجد كثيراً في البيت. وكان ـ هو يمكث في البيت في غالب الأحيان، حيث يزاول مهنته بمرونة أكبر مما تفعل أمّي. فقد كانت تخرج كلّ يوم، لتدير الأمور العائلية، بما في ذلك إدارة الكشك الذي تبيع فيه الأشياء التذكارية التي يصنعها أبي، رفّ مليء بمختلف المواد، نتاج أعاجيبه السحرية. وكانت تجمع مالاً أكثر مما كان يجمعه. وكان يعلّق على ذلك بقوله لأنها لا تكف عن الجري هنا وهناك مثل عقرب لا ذيل له. لكنه كان أكثر سعادة منها بما كان يفعله، إذ كان يطيل حياة الأشياء. وعندما كان يمتدحه أحد، كانت عينا أبي تشعان، كشعلتين هائلتين.

كان يربطني على ظهره وهو يحفر الكلمات على شواهد القبور الرخامية التي كان يُكلّف بحفرها. وكان يطعمني ويغسلني. وفي بعض

Twitter: @ketab_n

الأحيان، كانت صديقة أمّي آرباكو تعتني بي أثناء غيابه. وعندما لم أكن أستطيع أن أتنفّس بسبب انسداد خياشيمي، كان يأخذ أنفي في فمّه، وبسحبة واحدة، يفرغ أنفي، المخاط وكلّ شيء.

وفي تلك الأيام، كان أبي نادر الكلام. وقيل لي إنه كان يتلعثم حتى بداية فترة مراهقته. وأظن أنه لم يستعد الثقة تماماً في التكلم بشكل طبيعي. إذ كانت تفاحة أدم لديه ترتعش، مثل سلسلة مصعد في بناية عالية، مصعد على وشك أن يهوي على نحو لا يمكن إيقافه، فقد كان يحذف جملة أثناء كلامه، أو لم يكن يكمل فكرة. وكان المذياع لا يكاد يتوقف. فقد كان يسليني ويمتعني كالكبار بلغته، والموسيقى التي كنت أرقص على إيقاعها. وعندما كانت أمّي تعود إلى البيت مساء، كانت تفرض علينا الصمت، فتطفئ المذياع. وكان أبي يصمت كالحجر ويحدّق فيها. وبغضب كانت تحاول أن تبزّه في التحديق، لكنها لم تكن تنجح في ذلك. ولم تمكث أي خادمة في خدمة أبويّ أكثر من أسبوع، لأن مزاج أمّي كان يدفعهن إلى الفرار.

وعندما كانت أمّي تطفئ المذياع وترتفع نبرة صوتها، كنت أجهش في البكاء حتى تكاد تفقد أعصابها. وكانت تصبّ لعناتها علينا نحن الاثنين، وتخرج من البيت، وتقسم بأنها لن تعود ثانية. فيضمني إليه. وكنا نلعب، إذ كان يؤدي دور أمّي، وكنت أتظاهر بأنه يرضعني من صدره. وكنا ندخل في عالم تخيّلي، أنا وأبي، ويسعد أحدنا بالآخر إلى أن تعود أمّي. وعندما تكون أمّي رائقة المزاج، كنا نستحم نحن الثلاثة معاً، وتتدفق تيارات الماء فنرتعش، وكنت أقف بينهما، ألعب، مفعماً بالبهجة.

وكنت أحبّ أن أنام على هدهدة أبي، تهويدة كان يؤلفها ويغنيها بنفسه. ولم أكن أحبّ أن أسمعه يغني أغنية تقليدية، تسافر فيها أمّ الطفل إلى مكان مجهول. ولا يعرف أحد إن كان قد اغتصبها رعاة الجمال، أم

Twitter: @ketab_n

أنها نامت تحت ظلّ شجرة. أما في أغنية أبي، فكانت الأم تسافر شمالاً على ظهر فيل، إلى بلاد دمرتها الحروب والمجاعات القاتلة. وعندما بلغت الثالثة من عمري، أصبح بوسعي أن أكتب اسمي باللغة الصومالية البائدة، وباللغة العربية، وبالأحرف الرومانية. وكان بوسعي أن أقرأ أسرع مما كان بإمكاني أن أقول جملة كاملة في أيّ لغة.

كان أبي ينام بين ذراعيّ أمّي وعيناه مفتوحتان، وفمه مغلق، أما عيناها فكانتا مغمضتين، وفمها مفتوح وهي تشخر. وكانت همساتهما في ذلك الوقت المتأخر من الليل موسيقى لأذنيّ نصف اليقظتين. وكذلك همهمات مضاجعتهما التي كنت أتنصتّ إليها. وكنت بين الحين والآخر أتلقى ركلة غير مقصودة من أحدهما، وهما يتدحرجان على ظهريهما. وإذا أدركا أني كنت مستيقظاً، كانا يتوقفان عن مضاجعتهما، ويتصرّفان على نحو متعقل.

لم أكن أجرؤ على أن أسأل، إلا أني كنت أشعر في أعماقي بأنه لم تكن لدى أبويّ رغبة في إنجابي. وقد فهمت ذلك من أشياء كانت أمي تقولها. وبما أن أبي كان يتكلّم بحدّة أقل، ويوظف كلّ طاقته في عمله وفي رعايتي، لم أتمكن من معرفة رأيه. وكان لدى أمّي سمّ. كنت أخاف من الحقد الظاهر في عينيها. وكان أبي يحرص على أن لا يحشرني في شؤونه، طالما كان بوسعه ذلك.

وكانت أمّي طموحة. لذلك كانت الأخريات يتحدثن عنها غالباً بالسوء، إذ كنّ يصفنها بأنها سليطة اللسان، أو بأنها تفتقر إلى نعمة الأنوثة. وكانت أمّي أيضاً تثير غضب الرجال، إذ لم يكن يتحملها الكثير منهم. فقد شبهها رجل أعرفه بطير آكل النحل، لأنها كانت مشاكسة. ويعرف طير آكل النحل أنه يجيد الاصطياد وهو يطير، ويتلقّف الحشرات الأكثر ضعفاً المحلقة في الجو. ويمكنني أن أفهم لماذا كان الرجال يخشونها، لكني لم أكن أفهم لماذا كانت النساء الأخريات يعادينها.

Twitter: @ketab_n

كانت هذه لعنة بالنسبة لي. «إن مجرد التفكير بأنها لا تعتني بابنها بنفسها كان أمراً مخزياً حقاً».

لم يكن أبي وحده عندما عدت. كانت عنده زائرة.

لكن رأسي أصبح رائقاً. كان أبي يقف على قدميه، وظهره لي، يصلح حزاماً مزخرفاً بقطع البرق الفينيسي اللامع. كان الحزام مثبتاً على حامل، وكان يقف على مسافة فنان، وسبّابته الأقصر من المعتاد تتحرّك مثل رأس سحلية إلى الأعلى والأسفل، وكان يضع نظاراته الثنائية البؤرة، وجسده منحن كله وكأنه يصلي لإله وثني. رحت أراقبه بهدوء متزن، أقارنه في عقلي برجل مشغول بإرسال رسالة طويلة بإشارات المورس عن وقوع كارثة. كان هادئاً هدوء رجل يربط إشارة الكارثة تلك بخيط بساق حمامة، طير يتمتع بقوة سحرية خارقة. وعندما سقط ظلّي عبر رؤيته، التفت لينظر إليّ. لاحظت تجهماً يكلّل حدود وجهه. وبصمت تحرّك نحو كرسي مبطّن بالوسائد، وتهاوى عليه. قال معتذراً: «لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً»

«آسفة لأني دخلت هكذا» قالت لي المرأة، «لم أكن أعرف أن عنده زبوناً آخر».

فقلت لها: «أنا لست زبوناً. أنا ابنه».

كأنه لم يكن لديها شيء أفضل تفعله بيديها، فجمعت المرأة شعرها بعصبية وجعلته في ضميمة كبيرة. وقد تعارض ذلك مع الحلقات الذهبية المعلقة على شحمة أذنها وخلخالها الفضي.

أما أبي، فقد كان يمسك في قبضة يده اليسرى الطليقة قطعة من القماش، يحاول جاهداً تنظيف بعض الأوساخ بسرعة، وبدا مرتبكاً بعض الشيء عندما سألته المرأة: «هل هذا ابن داماك؟»

ففي حديث أمّي الذي لم يكن دقيقاً دائماً، كان ياقوت «أب طفلي».

Twitter: @ketab_n

ولا أذكر أني سمعت أمّي تشير إليه بأنه زوجها على الإطلاق. وهذا الأمر معتاد في بلد تلجأ فيه المرأة إلى استخدام كلّ أنواع الأسماء المشفّرة عندما يتعلق بزوجها. فقد كانت النساء أكثر براعة من الرجال في تعريف المخفي في الأشياء الواضحة، وفي حجب الظاهر في غير الظاهر. ما لم تكن أمّي تؤكّد أهمية شيء مختلف تماماً.

كان أبي منهمكاً في عمله. وذكرتني يده التي وضعها في صندوق العدّة، ، لا تتحرّك، بفنان تذكّر فجأة أن ثمة عيباً في عمل كان قد أنجزه منذ فترة طويلة. أحسست أن ثمة شيئاً يضايقه، وأنه غير قادر على تصحيح الخطأ. كان يفكر. كان يعتريه شيء من الحزن وهو يخرج مفكّاً. أمسكه بيد واحدة، وراح يفكر بالخطوة التالية.

تبادلنا أنا والمرأة أحاديث مختلفة. ومن لهجتها، عرفت أنها قدمت من المنطقة الوسطى، مسقط رأس أمّي. وكذلك مسقط رأس تيمير وشولونغو. وبعد قليل قالت: «لقد هاجت أمّك وماجت بسبب امرأة شريّرة تمسك بروحك في قبضتها السحرية».

لم أجادلها، لأن ذلك كان يشبه شيئاً تقوله أمّي. وكانت عينا أبي تتحاشاني، وأخذ يعمل شيئاً لا يتوافق مع شخصيته: فقد استفزته إحدى الزبونات. فقال: «هذه السيدة جارتنا، وهي تعرف أمّك. والآن لا أستطيع أن أجزم حقيقة ما يقوله بعض جيراننا الآخرين: إنها تختلق قصصاً، تنسبها لاحقاً لأشخاص آخرين وتنشرها على أنها حقائق».

قالت: «إن الناس دنيئين».

قال لها أبي: «إنك تبحثين عن شيء يؤكد ثرثرة كنت قد سمعت بها في مكان ما، أليس كذلك؟ وتريدين أن تعرفي المزيد. ألم تطلبي مني أن أصلح لك هذا الشيء لهذا السبب؟»

نهضت المرأة مذهولة، وجذبت حزامها ذي الخرز من قبضة أبي وغادرت.

Twitter: @ketab_n

لم يفه أيّ منّا بكلمة واحدة لفترة طويلة.

سألته: «هل كنت ستلقي بشولونغو خارج البيت لو كنت في مكاني؟»

تحدّث أبي عن النتائج المحتملة، وخاصة عن العواقب. وبشكل غير مباشر، وصل إلى الفكرة الباطنية الصومالية «نابسي» التي يقال إن تأثيرها الارتدادي يعطي نتائج هائلة في الشخص الذي لا يستجيب لتودد الشخص الآخر إيجابياً. ففي رأي الصوماليين إذا أظهر رجل أو امرأة اهتماماً بك، يجب أن تعاملهم بلطف كي لا يلحق نابسي الحبيب ضرراً بك لا يمكن إصلاحه. والنابسي هو سلاح ووسيلة يحوّل فيها الضعفاء المعركة لصالحهم. قال: «امنح شولونغو يومين آخرين»، ثم أضاف: «ولو كنت مكانك، لطلبت مشورة نونو. فلعله يعرف ما ينبغي عمله».

جثمت حمامة سمينة على حضني، غير خائفة.

قال أبي: «أترى ماذا يحدث عندما تأتي لزيارتي وتمكث طويلاً؟ حتى أصدقاؤنا الطيور لا تعود تخاف منك. تصوّر».

استويت واقفاً استعداداً للمغادرة.

قال: «كنت أريد أن تبقى لتتناول العشاء، لكن أمّك قد تكون ملتهبة المزاج. لو كنت مكانك لما بقيت هنا عندما تعود».

تعانقنا. وغادرت.

عدت إلى البيت وكان في نيتي أن أتحدث مع شولونغو. لكنها للأسف لم تكن هناك، لكن كان هناك دليل على حضورها في الشقّة. وهو وجود عدد من الصفحات التي كانت تتسلى بكتابتها. أخذت أتصفحها بهدوء. قد تكون بمثابة مفتاح لحالتها العقلية. وأقدم هنا الفقرات ذات الصلة من كتابتها. وهي بعنوان «الإبريق يدعو الغراب الأسود».

«أظن أن كاف كان في العاشرة من عمره عندما، في حمأة رغبته

Twitter: @ketab_n

العارمة لإغوائي، تعرّى بسرعة كبيرة، أسرع مما كنت أستمتع بتذوق الشوكولاته التي جلبها لي في ذلك اليوم. فقد كان يربط الطعام بالجنس، وكان يسأل دائماً إن كنت قد أكلت، أو إن كنت أريد أن آكل. كان منحرفاً، يتلذذ بصوت مضغ الطعام، مدعياً إن ذلك يستثيره جنسياً. الطعام قبل ممارسة الجنس!

ثم كان يجرّني إلى زاوية سرية، ليهمس في أذني كلاماً ماجناً بذيئاً. وكان يتفاخر بمآثره في التلصص على الفتيات: رجل يعتلي امرأة من الخلف، امرأة أمريكية سوداء تأخذ قضيب صاحب البيت الذي تقيم فيه في فمها. نعم كان مهووساً بالجنس، لكنه كان محترماً بما يكفي، لأنه لم يكن يفشي أسماء الأشخاص المعنيين.

وكان في كاف جانبٌ سادي، ففي يوم كان يريد أن يقيد قدمَي، وفي يوم آخر كان يصرّ على أن نمارس الجنس في مكان معيّن، لأننا سنجد متعة أكبر فيه. وفي إحدى الليالي دهن مكمن أنوثتي بخلطة من الأعشاب أعدها فيدو، وقال إنه يريد أن يحاول ذلك مرة أخرى، بعد إدخال بعض التعديلات عليها. ولأن قدمي اليسرى كانت أصغر من قدمي اليمنى، فقد قال إن عيباً طفيفاً في قدميّ أحد الشريكين قد يؤثر في عملية الإيلاج.

كان هوسه ينحصر في الطعام، وفي القدمين، وفي الجنس!

لكني أتذكّر اليوم الذي أثنيته فيه عن القذف في داخلي، لأني كنت في فترة الطمث. لا تستطيع أن تتصوّر كم كان يرغب في أن يسألني عن فترة طمثي. وبدون حماس كبير، قلت له إن فترة طمث المرأة شكل مركّز للغاية بحيث إذا جمّدها المرء، يستطيع أن يشكّل إنساناً. وتساءل إن كان أباه، الذي كان بارعاً في منح الأشياء أشكالاً، يمكنه أن يصنع منه طفلاً، شقيقاً له، الذي سيفعل له ما كان يعتقد ما كنا نفعله أنا وتيمير لبعضنا.

Twitter: @ketab_n

وذات مرة، تساءل كيف يبدو طعم دم الحيض. وبخبث، شجّعته على أن يحاول ويتذوقه «ليس سيئاً»، قال بعد أن ذاقه، ثم قلت له (تعلّمت هذا من أبي، الذي جاب بلاداً كثيرة لأنه كان بحّاراً) إن الناس في بعض البلدان يطلقون على دم المرأة الأحمر اسم الحليب. وكانوا يشربونه لأنهم يؤمنون بأنه يطيل العمر. وقبل أن أدرك ذلك، كان كاف قد جرع الدم الذي كان في الكشتبان. وطلب المزيد.

قلت: «الآن ستصبح حاملاً».

كان في غاية السرور!

سهرت حتى ساعات الصباح الأولى، بانتظار شولونغو. استبد بي الحنق. أويت إلى الفراش أخيراً، وأنا أفكر بأن الطاولات كانت مقلوبة: مرآة ترى انعكاسها في الرمال المتحركة لزئبق مرآة أخرى. وهنا شعرت أن شولونغو كانت تقدّم نفسها، من ناحية، في ضوء جيد، ومن ناحية أخرى، تستخدم وسائل فاسدة للتأثير على قراري. الابتزاز. بمعنى آخر، كانت صادقة لذاكرتها، وكنت أنا صادق لذاكرتي. فللحقيقة ديناميتها، وللذاكرة هفواتها المؤقتة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

في طريقه إلى إحدى الولائم، يصادف كالامان (في الحلم) كومة من عظام الفيلة، يغطي جزء منها أشجار مقتلعة وأحجار ونفايات أخرى. وليس بعيداً عن هذه المنطقة الخربة، تنتصب شجرة تمر هندي. ويبدو أن الشجرة قد يبست وماتت بسبب النقرات التي أحدثها فيها طائر نقّار الخشب. وفي الأفق البعيد، كان ثمة عمود رملي يصعد نحو السماء، وقد اتخذت قمّته شكلاً يشبه رأس نبتة الفطر. وإلى الشرق، كان يتشكل سراب ويتلاشى، بخاري، ضباب كثيف، لا يزول.

وكان هناك ما يقرب من مائة شخص، معظمهم من النساء ومعهن أطفالهن من كلا الجنسين. كان هناك احتفال، كما لو كان احتفاء بإله قديم. النهار صاف، والطقس لطيف، وقد اكتست السماء هنا وهناك بأشدّ الغيوم نصاعة، تلقي ظلالاً داكنة على سطح الأرض، مثل رعشات شمعة داكنة في حالة من الهياج العصبي. وقد انهمك عدد من النساء والرجال في إشعال نار ضخمة. وقد انشغل آخرون بإضافة بعض الملح إلى قدور تغلي فيها الماء. وكانوا ينظرون بين الحين والآخر إلى السماء بترقب، وكأنهم كانوا متلهفين لتقديم الطعام إلى شياطينهم الداخلية الجائعة على منّ الأمل. وكانوا جميعهم يتصرّفون وكأنهم يتوقعون وصول وعد قدسي طال انتظاره.

كان ثمة فرح وبهجة. وكان الصغار ينشدون أغاني للأطفال. أما

Twitter: @ketab_n

الذين كانوا يكبرونهم سناً بقليل، فكانوا يلعبون ألعاباً تحتاج إلى روح قوية من المنافسة. أما الذين بلغوا العشرينيات من أعمارهم، فكانوا يرقصون ويهللون، وقد غدت القسمات المرتسمة على وجوههم أكثر لهفة، فيما كان أحدهم يتودد إلى الآخر، وعيونهم المشعة تعكس البهجة الحقيقية الكامنة في قلوبهم. وكانت النساء يحرقن بخوراً ذا رائحة عطرة في جرار من الحجر، ويدرن حولها. وكانت نساء أخريات يدهنّ بشرتهن بزيت تعبق منه رائحة القرفة. وكانت امرأة مسنة تمسك بيدها سمكة طائرة معلقة بخيط، وتقص شعر فتاة شابة. وبعد أن قصّت شعر الشابة، أخذت تحفر حفرة في الأرض. وكانت تفعل ذلك بطريقة شعائرية مهيبة مثل شخص زرادشتي مؤمن يهيّئ جثّة للطيور التي ستلتهم جثة الميت. وفي أثناء ذلك، كانت الفتاة الشابة ترسم صورة نعامة، طوطم تعرف أهميته الحلاّقة اليقظة جيداً.

وعلى حين غرة، انقض سرب من الجراد، المهاجر بأسراب كبيرة، وغطى جبهة السماء أولاً، ثم جناحيها، وأخيراً جسمها برمته. وبحماس شديد، بدأ الرجال والنساء ينزعون ثيابهم وبقوا في ثيابهم الداخلية، بأمل أن يجمعوا أكداس الريح في أرديتهم. كانوا يتصرّفون وكأنهم يتطلّعون بشيء من القلق إلى اللحظة التي يمكنهم أن يشبعوا فيها جوعهم الداخلي. فقد كانت المجاعة قد تفشت في المنطقة. جفاف دام طويلاً، فنفقت الماشية، وتحوّل البشر إلى هياكل عظمية، وامتدت أيدٍ ضامرة لتستجدي الطعام.

كانت آذان الجميع تطّن بصوت الجراد الذي كان غطى حاجب السماء، وكانت عيونهم تراقب الجراد الدائب الحركة. وعندما بدأ الناس يخشون من أن يحلّق الجراد فوقهم، وأن لا تتاح لهم، هم الضحايا، فرصة الثأر منه، بدأت الحشرات تفقد توازنها، وتهبط كالطوفان، الأجنحة أولاً، نحو القذور التي تغلي فيها المياه مباشرة. ولبهجة الجميع المطلقة، بدا أن الصيد الذي جمعوه في أرديتهم الممدودة أصبح وافراً.

Twitter: @ketab_n

وبعد أن أخرجوا الحشرات المسلوقة من القدور، نُشرت على العشب لتجفيفها. ثم أضيفت إليها البهارات ومُلّحت، ثم مُرّرت على الجميع. وأصبح لديهم كميات وفيرة من الطعام كما كانوا يحلمون. فقد كانوا يزيلون رؤوسها، ويبقرون بطونها، وبمهارة بارعة يزيلون القطعة الغير صالحة للأكل من الحشرة ويلتهمونها بتلذذ كبير. وكان الذين يملكون توابل يشاركون إخوانهم ممن لا يملكونها. وفعل الذين أحضروا إضافات أخرى أو مخللات مملحّة الشيء نفسه. وكان هناك رجلان يطلبان من امرأتيهما أن تدهنا حصتهما بالزبدة. وكان آخرون يصرون على إضافة البصل المقلي والثوم والأرز من نوع بسماتي المسلوق عليها.

وكان هناك رجل عجوز، يحمل غراباً كطوطم، لكنه لم يكن يشارك في الوليمة، مما جعل ذلك يؤثر على معنويات الواقفين في دائرته، وخاصة الشابّ الواقف بجانبه الذي كان يعرض بافتخار فرس نَبي في حالة من الوجد الديني وهو يلتهم طعامه. وسأل العجوز عن سبب عدم مشاركتهم في تناول الطعام ـ لماذا لم يكن مبتهجاً مثل الآخرين.

فرّد العجوز بوجه متجهم: «إننا نشهد مأساة، وها نحن نرى مجتمعاً يمالئ قلقاً يدور في رأسه بشكل مسعور بحشو بطونه. إننا نشهد تصرفات حمقاء لمجتمع يصرّ على رفض أن يلاحظ جفافه الروحي، الذي يعتبره خطأ نوعاً آخر من الحاجة. فإن كنت أرفض مشاركتكم الطعام، فلأني أتساءل هل يجب علينا أن نحطّ من مكانتنا الإنسانية ونتناول الجراد؟ ألا نحطّ من أنفسنا وننتقص من ذاتنا بتناول الجراد الذي ألحق الخراب بحياتنا، وحرمنا من محصولنا؟»

فقال الشاب الذي كان يحمل فرس النبي: «لماذا يثير هذا قلقك؟»

فقال العجوز: «يثير قلقي، وأرجو أن لا أكون الشخص الوحيد الذي يفكّر بهذا الأمر، لأننا نهيئ أنفسنا لليوم الذي سنأكل فيه جيراننا، ونسلقهم لأننا نظن أنهم يحرموننا من حصتنا في الطعام منذ عصور

Twitter: @ketab_n

سحيقة، أو يحرموننا من مكاننا الشرعي. وأرجو كذلك أن لا نعتبر الشخص الذي يرفض مشاركتنا الطعام شاذاً ويستحقّ النبذ».

فردّ رجل يحمل حرباءة طليقة بعدوانية على ملاحظات الرجل الذي لم يكن يشاركهم الطعام، والذي وصفه بأنه ساذج للغاية. فقال الرجل: «هل خطر ببال زميلي الموقر الذي يقاربني في السن، بأنه ليس بوسع أفراد مجتمعنا المظلومين إلا أن يكونوا ناقمين. فالمرء الذي تعرض لظلم هائل قد لا يعرف كيف يعبّر عن إحباطه مكبوت؟ ماذا بوسع هؤلاء المنبوذين أن يفعلوا إلا أن يلتهموا الحشرات التي اجتاحت محاصيلهم، مع أنه لا توجد وسيلة أخرى للإنتقام من هذا الحيف الشنيع؟ كيف يمكنهم الإبقاء على أجسادهم وأرواحهم معاً إذا لم يأكلوا الجراد؟ على أيّ حال، من هو ذاك الذي يقدم مواعظ من أرض أخلاقية مثالية؟ وكيف يجرؤ على أن ينحي باللائمة على شعبنا لأنه لا يستطيع أن يميز بين الجوع الجسدي والجوع الروحي؟ أرجو أن تقول لي ماذا يُتوقع منهم أن يفعلوا في هذه المجاعات المنتشرة في كلّ مكان، التي لم تجفف النخاع في عظامهم فقط، بل حرمتهم أيضاً من إحساسهم بالفخر بذاتهم، ومن قدرتهم على التفكير، ومن إنسانيتهم؟»

فأجاب الرجل العجوز الذي يحمل الغراب الطوطم: «مثل الدكتاتوريات، للمجاعات تأثير ارتدادي، ردّ فعل وحشي. فحيثما تسود الدكتاتوريات، تسود المجاعات أيضاً. لكني لا أظن أنه يتعين علينا أن نتقاتل لكي ننفس عن غضب الناس، أو لنهدئ من حدة جوعهم، بل يجب علينا أن نضع دائرة حول الدائرة، لنعالج أسباب المجاعات، الدكتاتوريات الجاهلة، الظالمة من جذورها».

قالت امرأة لم تكنِ قد تفوهت بشيء حتى ذلك الحين: «إننا هالكون إن نحن فعلنا ذلك، وملعونون إن لم نفعل». وكانت هذه المرأة تحمل سحلية ذات رأس هائج، وعينان تشيان بتوتّر شديد.

Twitter: @ketab_n

وردد الرجل الذي يحمل الحرباء الطليقة كلماته وكأنها مستمدة من لحن حزين طويل. فراح ينشد: «إننا الجفاف، نحن من نربي هؤلاء المستبدين البشعين. إننا أبناء المتملقين، نسل الملعونين. يحل على رؤوسنا خراب المجاعة. لا أنهار تنبع فينا، لا دماً جيداً يجري في عروقنا».

لم يكد ينهي كلامه حتى أحس الجميع بصدمة هائلة. سُمعت، ثم شُوهدت، بهذا الترتيب، زلزال يمكن تتبع مركزه إلى قاع المحيط على بعد كيلومترات عديدة إلى شرق مكان الوليمة. وفجأة، انخسفت السماء، وحدث فيضان هائل، وتحولت الأرض إلى كهف. وعلى شفا الكهف المفتوح، عُلّق الكثير من الرجال وهم يصرخون، نساء، وأطفال يتوقّعون، وقد تملكهم الخوف والرعب، السقوط في المياه الهادرة في الأسفل.

وبين ثغرين من الماء، كانت هناك امرأة ورجل يغرقان، يتبادلان كلماتهما الأخيرة، إذ قالت المرأة، «إنه نذير الموت!» فرد رفيقها نادباً: «مجاعة تعقبها الفيضانات، عين إعصار في زوبعة صاعدة تنتهي بعاصفة».

وفجأة، صحت السماء. وتقهقر السراب في الأفق البعيد، وحلّ محله قوس قزح الذي ارتفعت على كعبه أكوام من الرمل في سحر بادٍ نحو الشمس، تسونامي من الهزات الأرضية، وأمواج عالية على صفحة مياه المحيط المتلألئة. مزيج من صيحات الغربان تأتي وتذهب. لا يفهم هذا النائم، الحالم، كالامان، الذي صاح مذعوراً «وواغ». وانتصب في جلسته، وراح يفرك عينيه الحمراوين، ليصحو.

فيما كنت أستحَم، تذكّرت أني كنت قد قرأت شيئاً عن ناسك جائع كان يشتهي تناول ضلع لحم يمتلكه جاره. ونصحه معلّمه أن يرسم عليه

Twitter: @ketab_n

شارة الصليب قبل أن يتناوله. وفعل الناسك ما طلبه منه معلّمه. وفي صباح اليوم التالي، لاحظ الناسك، لدهشته، أنه رسم وشم صليب على جسده.

بعد فترة وجيزة، في المطبخ.

أعددت طعام الفطور، وتساءلت إن كان عليّ أن أستفز شولونغو. كنت أفكّر ببعض الفقرات التي تركتها خصيصاً حتى أراها وأقرأها. فقد جرحت هذه الفقرات كبريائي، مع أني قد لا أقرّ بذلك. فقد شعرت بالإساءة لأنها شوهت صورة علاقتنا. تصوّر نفسها بأنها بريئة وضحية، وعلى نحو خاص بأنها امرأة تمنح نفسها لقاء فتات من الطعام.

عندما أويت إلى الفراش في الليلة الماضية تراءى لي أني أستطيع أن أنهي هذه المسألة برمتها خلال يومين دون المساس بكرامتي أو بكرامة أي شخص آخر. وفيما رحت أستعرض الأحداث التي مرت حتى الآن، غمرني سلوك أبي الكريم، عندما أجاب عن بعض الأسئلة التي لم أطرحها عليه عن «العقارب» وعن موقعها السام في حياتنا، وأوضح أموراً لم أكن أعرفها. تركت الآن إبريق الشاي يطلق صفيراً لمدة أطول، راجياً أن يجلب صفيره شولونغو إلى المطبخ بسرعة.

لم أكد أقرر أن أناديها باسمها، حتى سمعت صوت المفتاح يدور في الباب الخارجي. ثم سمعت وقع خطوات شخص يقترب. ظننت أن شولونغو قد عادت من نزهة صباحية، فقلت: «كنت قد بدأت أتساءل ما الذي جعلك تمضين وقتاً طويلاً. شولونغو، لماذا لم تأت لتناول الفطور معي».

لم أكنّ أحبّ المفاجئات الصباحية. إذ لم أهيئ عقلي لشيء ذي طبيعة مختلفة فحسبُ، بل أني لم أتوقع أن أرى تالادو غاضبة. راحت تصيح بأعلى صوتها: «أين هي الكلبة؟»

Twitter: @ketab_n

أصبت بالخرس. تحرّكت نحو تالادو. أردت أن أطمئنها وأظهر لها مودّتي، مع أنها كانت تظن بي الظنون، أو ما قد تفعله لي أو لشولونغو.

وفي سورة غضبها، لم تدعني أحدثها بهدوء. قالت: «أين تخبئها؟»

لو كان بوسعي، لعانقت تالادو بحبّ وحرارة، إن كان ذلك سينهي قلقي وقلقها أيضاً، ولشكرتها لأنها أنقذتني من مكائد شولونغو الشريرة. لكن تالادو وقفت على بعد خطوات مني. كانت نحيفة وأنيقة وأطول مني وهي تنتعل حذائها ذي الكعب العالي، وكانت بشرتها السمراء الفاتحة تتلألأ في شمس الصباح، وعيناها واسعتان، وذات صدر صغير. وبشكل عام، لم تكن تشع سحرها العادي، بل مجموعة من الرسائل المبعثرة غير المتماسكة. كانت في التاسعة والعشرين من العمر وتقترب من الثلاثين. كانت تبدو قبيحة عندما تغضب.

«أين هي؟» كررت سؤالها.

الغاضبون يكرّرون أنفسهم، وكذلك الذين يريدون تبرئة أنفسهم من التهمة الموجهة إليهم. كررت تالادو ملاحظاتها اللاذعة. وكرّرت براءتي. (لا يخطر لك أنه توجد طرق كثيرة، كما تبين لي، لكي أعبّر فيها عن براءتي). في النهاية، تعبت ولذت بالصمت، فأخذت تعنفني بقوة أشد. كانت تنتفض غضباً بسبب خيانتي لها على حد قولها، «قل لي أين تخفيها». وبحزن، رحت أحدّق في الحقيقة بصداقة منهارة، صداقة تالادو وصداقتي. ثم شاهدتها، حبيبتي، تستدير نصف استدارة، وتندفع نحو غرفة نومي، حيث تتوقّع أني كنت أخبئ شولونغو. جلست لأحتسي قهوتي.

عندما عادت، كانت تبدو أشدّ غضباً، ربما لأنها لم تشأ أن تعترف بالهزيمة، لأنها لم تعثر على الشيء الذي استشاطت غضباً من أجله. تساءلت أين يمكن أن تكون شولونغو، إذا لم تكن قد أتت إلى البيت في الليلة الفائتة، أو إذا كانت اختفت ثانية، بطريقة أغرب من المرة الأولى.

Twitter: @ketab_n

قالت تالادو، «هذا يعني نهاية كلّ شيء». ومع أنها كانت تبدو أشدّ غضباً، كانت تبدو كذلك غير مقتنعة بعواطفها. لا أظن أني فهمت معنى كلمة «نهاية»، الكلمة التي استخدمتها تالادو، بالطريقة التي يفهم فيها المرء الكلمة نفسها إذا ما وضعت على نحو ملائم على الشاشة بعد أن يختفي رجل وامرأة عاشقين في الغروب. مددت يدي لألمس تالادو. لكن بلا جدوى. تحاشت أي لمسة مني.

اقترحت عليها أن تحتسي قليلاً من الشاي، وأن تحليّه بكمية كبيرة من العسل، وأن تصغي إليّ. كنت أترك مسافة بين كلماتي لأتأكد من أني لا أدغم الحروف الساكنة بأحرف العلة، وكأنها تخرج من لسان مبلل بالكحول.

صرخت قائلة: «كيف يمكنني أن أحتسي الشاي معك؟»

قلت: «لأني لا أزال أحبّك».

«أتريدني أن أصدقك؟»

سألتها: «من قال لك إن شولونغو تقيم هنا؟»

قالت: «أمّك».

صمتّ.

وأضافت بمزيد من الشراسة، «والعار في كلّ هذا أنك تعترف بذنبك فقط، ويبدو أنك لا تريد أن تعتذر بأقل تقدير».

ارتسمت ابتسامة على شفتي، وقلت لنفسي إنها لا تزال تحبّني. وإلا ما الذي يجعل عيناها تترقرقان بسائل مجمّل الرموش. لماذا أصبح وجهها يشبه لوحاً يجد تلميذ يحفظ القرآن صعوبة في فك حروفه الأبجدية، فيما تظهر للأحرف سيقان وأيد إضافية تجعلها تندمج ببعضها؟

كانت تالادو حادة الذكاء. فقد خطرت لها فكرة جديدة: أن تبيع «أراضي شاغرة» ووضعت إعلانات في الصحف أو في إعلانات على

Twitter: @ketab_n

الجدران. وعندما أصبحت الاشتراكية شيئاً قديماً بالياً، وكانت الرأسمالية لا تزال في مرحلتها الجنينية، أضحى من الممكن وضع لوحات الإعلانات. كنا قد التقينا منذ أكثر من سنتين. راق أحدنا للآخر على الفور، وقدمت لي بطاقة عملها، حيث كان اسمها ورقم هاتفها مدونين على أحد طرفي البطاقة، ودوّن على الطرف الآخرعبارة: «نبيع أراضي شاغرة». كانت وكيلتي مسؤولة عن شراء الأراضي بالنيابة عن شركتنا. وخرجنا أنا وكالين وتالادو لنتناول الطعام ونناقش بعض الأمور. وبعد أن أنهينا طعامنا، انعطفت فيما كنت أوصلها، لأنني سأزور أبي، لا أتذكّر سبب زيارتي له. وعلق أبي بأنها تشبه كوخاً من القشّ تشتعل فيه نار صيفية. ولم أعرّفها على أمّي حتى الآن، لأنهما لن تنسجما مع بعضهما، وإذا انسجمتا، فإنها ستطلب مني أن أتزوجها على الفور.

اندفعت تالادو وخرجت من شقّتي الآن دون أن تنبس بكلمة. لكن الغريب في الأمر أني لم أنزعج من تلقائية هذه الميلودراما. ربما لأنها لم تترك مجموعة مفاتيحها. كما لم تعد لي خاتمي، أو تطلب مني أن أعيد لها صورها.

والغريب أنه لم يكن هناك أي أثر على وجود شولونغو حتى بعد أن صفقت تالادو الباب وراءها. تصرّفت بهدوء شديد، وكنت واثقاً من أن عاصفة تالادو ستخمد ما أن نلتقي ثانية، ونتحادث بهدوء. فلا بد أن تثوب إلى رشدها في نهاية الأمر... وعندها سأعتذر منها.

عندما نظفّت المائدة، شعرت فجأة بأن حياتي دخلت منعطفاً حاسماً. اتصلت بمكتبي، وتحدثت إلى مساعدتي، وأخبرتها بأني سأذهب إلى أفغوي لزيارة نونو. وبما أنها كانت مولعة به، سألتني كالين إن كان العجوز بخير. طمأنتها أنه على ما يرام حسب علمي.

Twitter: @ketab_n

كنت في سيارتي عندما سمعتها لأول مرة في مذياع سيارتي.

عندما جمعت أطراف القصة، واستمعت إلى روايات مختلفة من الحكاية ذاتها، قرّرت أنها وضعت في شكل سلسلة من حلم فيه نقطة محورية. وكانت الحكاية تغوص في أعماق النتائج المشؤومة، وكان فيها ثمة شيء أسطوري. لكنك عندما تمعن النظر فيها، يتبين لك وجود فجوات كبيرة في نسيج القصة الخرافية التي حكيت. بل يمكنك أن تتبين بعض عناصر التخمين المقحمة في الحكاية، التي عثر عليها الصحفيون الذين نقلوها إلى الصحافة العالمية.

مرة أخرى أخذت أفكّر بها وأنا أقود سيارتي.

يظهر فجأة جبل متحرك رمادي أمام قرويين اثنين شاهدا هذا الحدث الاستثنائي: فيل، يتصرف كالإنسان، يسير وكأنه يعرف وجهته جيداً. وأضاف أحد الرجال الذين رووا هذه القصة للصحفي الإذاعي بأن الفيل كان يبدو في عجلة من أمره، مثل شخص لديه مهمة محددة يجب أن يؤديها قبل بزوغ الشمس.

وعندما أطفئت أضواء التلفزيون، خرج عدد أكبر من القرويين من بيوتهم، وتحدثوا جميعهم إلى المراسلين عما شاهدوه. قالوا كيف أن أحدهم خرج من بيته، نصف عار، ورأى هذا الفيل الضخم المثير للذعر. وقال أحد الجيران إن هذا لا يمكن أن يكون فيلاً، وأضاف أنه ربما كان هناك أشخاص يحملون قطعة قماش ويمشون تحتها على نحو متزامن، كما يفعلون في أفلام الرسوم المتحركة. وروى شخص آخر في الوقت نفسه، صادف أنه كان ماراً في ذلك الوقت، كيف أنه عندما كان عائداً إلى البيت بعد أن سبح في النهر في الصباح الباكر، رآه، فيلاً ضخماً ذا حجم مخيف. ويتذكر شخص آخر أنه تراءى له أن الوحش قد هرب من حديقة حيوانات في مكان ما. ومن جانبها، أكدت إحدى الأمهات التي كانت ترضع طفلها، أن طفلها هو الذي رآه أولاً، فأطلق

Twitter: @ketab_n

صرخة عالية جداً. كان القرويون، كباراً وصغاراً، ينظرون مذهولين إلى ما رأووه، وتبجح أحدهم قائلاً إنهم أصبحوا الآن مشهورين في العالم كله بسبب الفيل، إذ كانت إذاعة لندن، وإذاعة القاهرة، والإذاعة الألمانية، تأتي إليهم الواحدة تلو الأخرى، وجعلت روايتهم الخبر الرئيسي في نشراتها. تصوّر.

وأعطى قرويون آخرون ممن رأوا فيلاً لأول مرة في حياتهم، روايات سخيفة مبالغ فيها عن حجمه ووزنه وارتفاعه. ووصفه أحدهم بأنه «شيء هائل». وبسبب ضخامته، وصفه آخر بأنه مثل «قبة السماء». فقد أحس بأن السماء غابت عن ناظره. وأقسم آخر، ممن قابلتهم محطة التلفزيون المحلية، بأنه أحس أن العالم كان يميل إلى الأمام عندما سار الفيل إلى الأمام، ويميل إلى الخلف عندما أقفل هذا الوحش عائداً.

يخب هذا الحيوان اللبون الضخم. لا يكترث بالحشد الصامت الذي يتبعه خلسة. وتحدثت إحدى القرويات التي يشك بأنها تعمل في مجال السحر، عن نظريتها الملهمة: بأن هذا لم يكن فيلاً، بل بشراً في هيئة فيل مرسل في مهمّة مقدّسة لينتقم من أجل تحقيق العدالة. وأكد شاهدان آخران، لم يكونا على اتصال بالمرأة، ادعاءات المرأة، بأنهما شاهدا الفيل يستدير عندما قال أحدهم شيئاً باللغة الصومالية. ولم يعلّق العديد من القرويين خشية العقاب.

وأخيراً، أفاد الذين كانوا يتبعونه بفضول كيف أن الفيل توقّف فجأة أمام بيت قرويّ يدعى فيدو. ولبث واقفاً هناك لفترة طويلة، ثم تنحّى جانباً ليدع النساء والأطفال يخرجون من بيت فيدو الذين انضموا إلى جمهرة المشاهدين الفضوليين في الخارج، وراحوا ينتظرون ويراقبون. وزأر الفيل بقوة، ثم سكت. ثم زأر مرات عديدة، لعله كان يطلب من صاحب البيت أن يخرج. وكاد ارتفاعه يتضاعف، وانتصب خرطومه وأنيابه، وازداد وزنه، وأخذ الفيل يقوم باستعراض استفزازي، استعراض

Twitter: @ketab_n

جعل الناس يهربون من حوله ويختبئون. وكأنه يريد أن يقنع الذين لم يخشوه، فقد حطّم جدار البيت الخرساني المرتفع، وهشّم البوابة المعدنية وألقاها نحوهم. وهرب الكثيرون منهم طلباً للنجاة. لكن الكثيرين منهم عادوا بعد لحظات ليروا ما سيحدث.

هنا خرج فيدو من منزله. ثم تراجع بسرعة، وعاد ثانية مسلحاً ببندقية كبيرة. أجفل الفيل، وبسرعة الموت، دفع بأنيابه باتجاه فيدو وطرحه أرضاً وراح يطأه حتى أصبح عجينة. ثم خطا فوق جثة فيدو، والحشد المذعور لا يزال يراقبه، ودخل إلى الغرفة التي خرج منها فيدو سابقاً. وعندما رآه القرويون مرة أخرى، كان الفيل يحمل معه عشرات الأنياب.

أذاعت إذاعات العالم الخبر بأكبر عدد من اللغات. وراحوا يكررون إذاعة هذا العمل المدهش، أسباب ولغز الفيل الذي ينتقم لبني جلدته. إذ راحوا يتحدثون عن فيل يطارد رجلاً كان قد قتل نصف أفراد فصيلته، وأخذ أنيابهم، وخبأها في بيته. ويقولون، إن الفيل لم يقتل الصياد فقط، بل استعاد الأنياب التي كان قد اصطادها. ورأى بعض الصحفيين أن الفيل كان ينوي أن يقدم لأفراد فصيلته الذين قتلوا مراسم دفن لائقة. وتنبأ أحد المراسلين الإذاعيين المحليين متبجحاً أنه من اليوم وصاعداً سيكون لدينا حركة خضراء في الصومال، أول حركة حقيقية من نوعها في العالم.

أُوقفت عند نقطة تفتيش عند أطراف المدينة. وفُتشت سيارتي خشية وجود أسلحة، وفُتّشت أنا شخصياً ثم تركوني وشأني.

وقفت في طابور طويل من السيارات على جانبي الطريق السريع، لم يكن عددها يقل عن خمسين سيارة، وكان ثمة جنود يعتمرون قبعات حمر يزيد عددهم على المائة، الكتيبة الخاصة بالدكتاتور، التي دُرِّبت

Twitter: @ketab_n

للقضاء على طموحات حركات المليشيا المسلحة في الاستيلاء على المدينة والقضاء على الديكتاتور. وطُلب من عدد من السائقين ذوي اللهجات الإقليمية المميّزة الوقوف إلى جانب الطريق، والترجل من سياراتهم وانتظار مزيد من التفتيش تحت أشعة الشمس.

عندما ألقيت نظرة سريعة إلى مجموعة الرجال الواقفين بجانب سياراتهم، وهم يقفون متململين ذليلين بانتظار التحقيق معهم، وتفتيشهم ثم اقتيادهم، عرفت أنه يشتبه بهم بسبب لهجتهم الصومالية. فقد تم انتقاؤهم لأنه يرتاب بأنهم كانوا يتعاطفون مع مجموعات المليشيا المحلية المسلحة، الحراس الذين يتسللون ليلاً إلى المدينة. وليس من غير المعتاد إلقاء الحجارة على المذنبين لإصابة الأبرياء. ويسقط الكثير من الأبرياء منا ضحية هذه المواجهة المباشرة بين الدكتاتور، وعلى رأسهم ذوي القبعات الحمر التابعين له، وجيشه من المجرمين وقطاع الطرق، وزعماء الحراس الذين يدّعون أنهم يناضلون من أجل إسقاط النظام، مع أنهم كانوا يحملون السلاح من أجل مصالحهم الشخصية لا من أجل مصلحة البلد.

في الطريق، وأنا أقود سيارتي، رحت فكّرت بقصة الفيل...

هل كان يجدر بي أن أشغّل مخيلتي وأنا أبحث عن شولونغو أو تيمير في متاهة الحكاية عن الفيل؟ هكذا كان مزيج الحزن الذي اعتراني، بموت فيدو، وذهاب تالادو، وحزن أمّي، إلى حد أن هاوية فُتحت تحت قدميّ، وفرض الألم نفسه على عقلي. كان ثمة شيء يراوغني، لكن ما هو؟ كانت لدي مشكلة في معرفة المكان الذي توجد فيه شولونغو في كلّ هذا. هل أعتبر أنها هي التي استحدثت كلّ هذا، وأطلقت سلسلة الكوارث؟ أم أن كلّ ذلك حدث بشكل عرضي، وتصادف وجودها في المدينة عندما حدثت هذه الأشياء؟ ما الذي يجب عليّ أن أفعله بهذه الرؤية، في حلمي عن كومة عظام الفيل؟

Twitter: @ketab_n

قدت سيارتي باتجاه أفغوي على طريق اعتدت عليه منذ ما يقرب من ثلاثين سنه وأنا أطرقه ذهاباً وإياباً، طريق جعلتني رؤيته أطفح بتململ عصفور ينقر رفيقه وهو يلعب. أما اليوم، فكانت هناك نحلة في طاقيتي، طاقية ذات خيوط غير مرئية مثل محرك الدمى في مسرح العرائس. لم أكن أعرف ما الفائدة من شدّ الخيوط. في الواقع، كنت أتمنى أن أتمكن من تغيير طبيعتي البشرية. أن استبدلها بحياة نحلة لأتمكن من الطيران بحرية، أو أن أصبح قلنسوة لأقدم خدماتي كقبعة إلى شولونغو. ثم ربما عرفت المزيد، وعندها فقط يمكنني أن أصل إلى حقيقة كلّ هذه الاتصالات السرية.

كانت أفغوي تعني لي نونو، الذي كان بمثابة مكان أكثر من كونه شخصاً له ثمانية أطراف أشاركه بهجتي. نونو: المزهرية التي كنت أخبئ فيها ألعابي عندما كنت طفلاً. كان ضخم الجثة، منحه الله ضحكة رحبة. كانت لديّ أذناه، وقد ورث منه أبي قدميه وحجم عضوه. وكانت يدا إحدى عمّاتي تشبه يديّ نونو، وورث أحد أعمامي ضخامته. إلا أنه إذا كان لنونو قلب، فيبدو أنه دفنه مع زوجته الراحلة.

كم كان من الممتع عندما كنت طفلاً، أن أعرف جغرافية شخصه. كم كنت أبتهج عندما ألامس تناظر رؤيته من خلال الاتصالات التي كنت أقيمها مع عقله عندما كنت أرافقه، وأجلس في حضنه وأحدّق في النجوم، وهو يروي لي أساطير قديمة، ويختلق أساطير جديدة ليعلمني، أنا حفيده الأثير لديه. كان نونو حاجة تذّكر بضرورات أخرى. كان طموحاً يجعل الرغبات الأخرى تستحقّ الاحترام. كان عهداً يذكّرك بعهود أخرى، زمناً جاء ومضى. كانت لديه أسماء عديدة، ظل يغيّرها، إلى أن استقر في نهاية الأمر على اسم نونو، اسم يصف مكانته، بأنه جدّ، جدّي. لقد عاش سنين لا نهاية لها، كلّ سنة متعة للذين يعيشون بقربه.

Twitter: @ketab_n

وقد بقي الكثير من نونو حتى بعد أن استولى الجميع على الأجزاء التي كانوا يدّعونها لأنفسهم. كانت لديه أبعاد أعظم من أبعاد الأسطورة، لذلك عندما كان يأخذه الحماس، كانت ترتسم على نصف وجهه ابتسامة عريضة، ويظل النصف الآخر صارماً كبحيرة هادئة في فسوقها. أتذكّر بشكوك نرجسية، أتذكر بتواضع وجل، كيف كنت أتمنى، عندما كنت طفلاً، أن أكون قطرة ندى على ورقة انحناءة يده، ورقة مسّها ندى الفجر، ابتسامة جذّي نقية كسائل الأمونيون.

كان يهوى الطيور. هكذا كانت علاقتنا. كان يعرف ما كنت أفكر به أكثر مما كنت أعرفه أنا نفسي. ففي عيد ميلادي الرابع قدم لي ببغاء. وقد ساعدني نونو في أن تصبح لمخيلتي أجنحة أحلّق بها إلى السماء السابعة ثم أعود إلى كوكب الأرض حاملاً في جعبتي قدراً كبيراً من الأسرار. وكان يشير إلي مجرة هال تودوباد، التي كانت رؤيتها تنذر بهطول الأمطار. وكان يشرح لي كيف تصبح الغيوم داكنة. لماذا، لماذا تدحرج السماء حُصراً من الرعد عبر حاجبها لتصبّ سيولها الموسمية. وكانت الأشياء تحدث غالباً كما كان يتوقع. فقد كان هو من تحدث عن Isninta qorrax madow، كسوف ينبئ بحدوث مذبحة. أو عن سنة يوم السبت، التي تشير إلى وصول الكابتن بوتيغو، الاستعماري الإيطالي، إلى بلدنا. واستناداً إليه فقد كنت قد ولدت تحت طالع غودبان المحظوظ، برج العقرب. وقال إن هذا يعني أني سأصبح خطيباً عندما أصبح رجلاً.

قاطعت أفكاري، لأني كنت قد وصلت. ركنت سيارتي عند ظلّ شجرة التمر هندي، وفيما كنت أفعل ذلك، رحت أردد بيتاً من قصيدة لتيد هيوز، التي يدعيّ فيها صقر جرئ أنه يمسك الخلق بمخالبه!

مشيت بخفة ورشاقة طير علقت في مخالبه المدبّبة سرّ الكون. ورحت أردد على نفسي كيف أنه يعتريني، منذ وصول شولونغو إحساس

Twitter: @ketab_n

بأن الأحداث التي برزت قد تجاوزتني. وعندما رأيت عصفوراً، قلت لنفسي إن الزمن يقبع في زقزقة عصفور ناعمة. الزمن يقبع في همس امرأة أمريكية سوداء، عشيقة نونو السرية. زمن قلق يتنقل من يد إلى يد بخفة حبة بطاطا حارة يلقيها الطفل من يده لشدة حرارتها. كان الزمن في فم الطفل، الطفل الذي يتسلل عبر الضباب في الغابة باتجاه النهر، حيث ينصب الفخاخ نيابة عن فيدو، معلّمه. وكان هذا الطفل، الذي أصبح فضولياً في سنوات شبابه، ينفخ في حلزون كبير ليجذب طيور العسل. يستحضر الزمن فتاة، منهمكة في رسم قرود تضع أصابعها على شفاهها أو تصم آذانها أو تتظاهر بأنها لا ترى. لكن أين كانت أصابع الصبي، الأصابع التي لا تساعد القرود الثلاثة؟ ففي ذاكرة الصبي، كانت الأصابع تزحف تحت تنورة الفتاة، أو تطعمها.

أحببت الآن المشهد أمامي الذي رحت أحدّق فيه بتأمل. وكانت تقبع إلى يميني حديقة حيوانات صغيرة: أرانب منزلية وقطط ضالّة، وكان الطاووس الغريب يستعرض ألوانه أمام حشد من الناس الذين كانوا يبدون إعجابهم الشديد به. وكان هناك غرابان اثنان، وثلاث بطات تتهادى جيئة ورواحاً، تدخل إلى البركة الضحلة وتخرج منها؛ ولقلق جناحاه مصابان، وعدة حمامات. وكان هناك قرد أيضاً، الحيوان الأليف الوحيد الذي يحمل اسماً، هانو، وهو اختصار لاسم هانومان، حفيد إكسوسنا، الذي ظل لفترة من الزمن حيواني المدلل. وبما أنه كان له اسم، فهذا يدل أيضاً، على أنه كالبشر. وكان هانو يمكث في البيت الرئيسي معظم الأوقات، يرتدي أحذية أو قمصان أبي. ولم يخطر ببالي أبداً أن نونو كان يربي حيوانات ويحافظ عليها من أجلي أنا. وعرفت بعد سنوات أن جدّي كان يخاف على نحو غير منطقي من الأفاعي، وكان وجود هذه الحيوانات يحرسه من عبثها.

كان هانو أول من رآني، فأسرع نحوي بلهفة طفل انضم ثانية إلى

Twitter: @ketab_n

أحد أبويه الغائبين. عانق أحدنا الآخر بشكل أخرق وقبلّني بشفتيه وقدّم لي عرنوص ذرة نصف ممضوغ. ثم انضم إلينا أعضاء السيرك الآخرين، وتجمّعوا عند قدميّ، بطات وغربان أيضاً. أما الحمامات، فقد طارت وجثمت على كتفي، واحدة على كتفي الأيسر، والأخرى على كتفي الأيمن، وراحت ثالثة تهدل بارتياح وحطت فوق مقدمة رأسي. وأخذنا نمشي معاً باتجاه الكوخ، سيرك لا يشبه سيركاً آخر، وتلوث قميصي وبنطالي بسحر هانو الذي لا يقاوم، وببصمات إعجابه، وراح يقطر من رأسي ذرق الحمامة.

«إنك تعاملها كما لو كنت قد أنجبتها من دفق نخاعك ومائك»، قالت مدبّرة منزل نونو، بنبرة تحمل شيئاً من اللوم. «انظر إلى نفسك!»

التفتت وصاحت في الحيوانات وكأنها أطفال لم تكن تسلك جيداً في حضور ضيف. فابتعدت البطات مطيعة وهي تهز أوراكها. وطارت الحمامات ولو ببطء، وخلّفت وراءها بضعاً من ريشها. وابتعد الطاووس شاعراً بالإهانة. ولم يبق سوى هانو، الذي دفن رأسه في صدري. قلت له: «اتركيه»، لكن زاريبا لم توافق على إسرافي في تدليل هانو.

كانت زاريبا امرأة بدينة في أواخر الأربعينات من عمرها، ذات قلب كبير بحجم القارة الأفريقية. وهي تعمل عند نونو منذ أكثر من ثمان وعشرين سنة، وتفتخر بذلك. وكانت أمّي تلمح إلى أن زاريبا كانت أكثر من مدبّرة منزل الرجل العجوز. وعندما اقتربت كرّرت قولها: «انظر إلى نفسك، يجب أن تخجل من نفسك». لم أعرف إن كانت توّجه كلامها لي أو إلى هانو. إلى أن سمعتها تصرخ آمرة: «انزل، أنت»، وعندها تأكدت أنها كانت توجّه حديثها إلى هانو.

قلت: «لا تقلقي، فلديّ غيار من الملابس هنا. ويا له من شيء رائع أن يُستقبل المرء بهذا الشكل، وخاصة أن فيلاً هائجاً قد قتل فيدو دهساً منذ ساعتين».

Twitter: @ketab_n

«رحم الله الموتى»، قالت وارتسمت على وجهها علائم الحزن، وكأنها في عزاء. بدا هانو حزيناً أيضاً. ضربني - لم تكن المرة الأولى التي يفهم فيها هانو كلّ كلمة نقولها (تذكّرت ما كان قد قاله أحد الذين أجرت معهم الإذاعة لقاء، بأن الفيل يفهم كلام البشر). أخفض هانو عينيه الصغيرتين، مما أحزنني قليلاً. هل كان حزيناً أيضاً؟ فقد كان يعرف فيدو ويحبّه.

قلت: «المأساة كلّها».

«هذا ما قاله نونو أيضاً»، قالت زاريبا، وهزّت رأسها. لعلها تذّكرت ردة فعل نونو عندما سمع النبأ.

تطلعت حولي فلم أر شيئاً سوى آثار الجفاف المتعاقب. وخلصت إلى أن لغضب الفيل علاقة بعدم اكتراث الإنسان بالطبيعة، طمع البشر على نحو استغلالي.

عاد هانو إلى طبيعته الأصلية، حبّ الأذى. فأمسك بوشاح لفّه بإحكام فوق أنفه وعينيه. سألت زاريبا: «لمن هذا الوشاح؟» وحملته لأقبّله على خده المكسو بالشعر.

ومثل عروس خجولة في حضرة والد زوجها، أحنت رأسها قليلاً، وافترت شفتاها عن ابتسامة مترددة وقالت: «الوشاح لشولونغو التي أمضت ليلة أمس في غرفتك».

عندها استأذنت زاريبا وانصرفت.

كان يقال غالباً إنك عندما تكون في كوخ نونو، فإن الفصول تصبح مثل نمرة مروّضة، تتناول طعامها من راحة يدك. فقد كان قد صممه في مطلع القرن مهندس معماري إيطالي حاذق أصبح فيما بعد مزارعاً، وكان مغرماً بالطيور. وكان فيه أربع شرفات مسقوفة بالإضافة إلى ملحق حديث البناء. ولهذا الملحق الجديد، حيث ينزل الضيوف، مدخل

Twitter: @ketab_n

خاص. وقبل عشر سنوات، كان البيت محاطاً بالأشجار من جميع الجوانب. وكان نونو يستشهد بقصيدة لكالي ديكس، الشاعر الصومالي، تحكي عن الترابط بين عالم الإنسان وعالم الحيوان، فكيف يستطيع الإنسان أن يحدد حلول فصول جيدة بدراسة فترة سفاد الغزلان.

عندما كنت طفلاً، كنت أصل إلى النهر قبل أي شخص آخر، لأني كنت أملك كلّ أسرار المنطقة. فقد كنت أعرف كيف أجد جذوع الأشجار التي يحدِد بواسطتها فيدو أماكن خلايا النحل. وفي بيت نونو هذا، عرفت أشياء كثيرة عن علم الفلك والتنجيم، هنا في هذه البقعة التي كانت دغلاً في الماضي حيث ضاجع فيدو تيمير، حيث كنت أتسلل ليلة بعد ليلة، وأراقب رجالاً ونساء منهمكين في مضاجعات محرّمة. فقد كان لدى فيدو، كازانوفا، عشيقات كثيرات.

استرخيت الآن على كرسي نونو الهزاز القديم في الجناح الغربي. بدأت أتذكّر اكتشافات طفولتي الأولى الممتعة والسيئة. ففي ذاكرتي ستارة متموجة. طفل في السابعة من عمره، مختبئ في خزانه الملابس في غرفة كاثي الأمريكية السوداء التي استأجرت غرفة في بيت نونو. كنت أراقبها وهي تخلع ثيابها، وهي تزن ثدييها بيديها، وهي تدني رأسها محاولة تقبيل حلمتيها. ثم تستلقي على سريرها، عارية، تداعب نفسها. وبعد قليل، يتسلل نونو على أطراف أصابعه إلى الغرفة. يستحمان معاً، يفرك أحدهما ظهر الآخر. أحاول أن أغادر، لكنني لا أستطيع كي لا يرياني. أمكث وراء الستارة، انتظر الفرصة المناسبة كي أنسلّ خارجاً.

كانت كاثي متطوعة في فرقة السلام. وكانت تدّرس اللغة الإنكليزية في مدرسة أفغوي. امرأة ضخمة، وكان لضحكتها العالية رنين يعلو على ضحكة نونو. وعندما كانا معاً، كانا يستحمان، أو يفرك أحدهما ظهر الآخر. لا تزال بقايا شباب نونو تطفو على السطح. كان كل منهما يعامل الآخر بشكل جيد. وكان قد أصبح نونو أرملاً قبل أن تظهر بعدّة سنوات.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم الذي اختبأت فيه في الخزانة، كانت كاثي تأخذه كله في فمها. وفيما كانت تفعل ذلك، كانت تنشد: «السماء ثقيلة، والجحيم يأتي بسرعة». وبعد أن استحما، ضاجعها مرات عديدة. كنت لا أزال مختبئاً في الخزانة.

لا ريب أن كاثي ساعدت نونو في لملمة روحه الممزّقة. فكرة تفضي إلى فكرة أخرى. وفي لحظة تذكّرت زيارات نونو المتكرّرة إلى ملحق كاثي. وفي لحظة أخرى، هنأت نفسي لأني تمكنت من التسلل إلى غرفة كاثي في وقت سابق، وجعلت فتحات في الستارة، فتحات واسعة تكفي أن أرى من خلالها دون أن يراني أحد. وفجأة، وقبل أن أدرك ما كنت أفعله، راودتني فكرة أدخلت البهجة إلى نفسي، وشعرت بالسعادة لأني ابتعدت عن فترة الطفولة. فلم أعد مختبئاً في الخزانة، بل أتحدث إلى نونو، أطلب منه أن يرى ما يعجبني: منحنيات نسر محلق، أرى حركاته عبر شقوق الستارة. توقفت كاثي ونونو عن مضاجعتهما. انتصبا جالسين، وقال لي: «ماذا تفعل هنا؟»

جلست في الشرفة، انتظر هبوط الغبار الذي تصاعد في الأفق مرة أخرى. وفي النهاية، تراءت سيارة نونو من وراء زوبعة الغبار. لفترة من الزمن، لم أستطع رؤية الكثير، وكأن الغيوم غشت بصري. ولكي أزيل الغشاوة عن عينيّ، أخذت أفرك جفنيّ، متذكّراً أن شولونغو كانت قد أمضت الليلة في غرفتي. أين كانت عندما جاء «الفيل» إلى القرية، ليس بعيداً من هنا؟ هل هربت؟ هل لها يد في موت فيدو؟

ظهرت سيارة نونو التي كانت تصدر جلبة كبيرة. ركنها بجانب سيارتي، ونزل وأغلق الباب بقوة. لكنه توقف عندما سمع زقزقة طيور تجثم على قمة شجرة النخيل العالية الجميلة، لكن الطيور فزعت وطارت.

Twitter: @ketab_n

نهضت لأرحب به.

طار صوت نونو مع الريح، وقال: «من يعبث بالفيلة، يكون على مسافة نعيق بومة من الموت».

«أو يتعامل بالعاج» قلت، متجهاً إليه.

«أو يحصل على كمية كبيرة من الدولارات من هونغ كونغ».

وتابع نونو: «مبالغ مجزية لقاء قتل نصف قطيع من الفيلة».

أفسحت كلماته المجال لابتسامة طويلة ارتسمت أفقياً على وجهه، نجماً من الترحيب، يشرق في العين التي انعكس فيها شروق الشمس. كان رجلاً واسعاً بوسع سفينة كبيرة تمخر عباب البحر. التقينا في منتصف الطريق وتعانقنا. قبّلته على خدّه الأيمن. ابنعثت منه رائحة التبغ. قلت: «كان يجب أن أذهب مباشرة إلى المقبرة التي سيدفن فيها فيدو، لكني لا أعرف أيّ مقبرة».

قال نونو: «مع أنه كان يستحق الموت، فقد صعقنا فيدو، نحن الذين عشنا بعده. كيف تفسر تصرّف الفيل بهذا الشكل؟ تقول الإشاعات إن القاتل لم يكن فيلاً مسعوراً، بل شخصاً متنكراً كفيل. إذ لا يستطيع أحد أن يفهم كيف يستطيع فيل أن يقطع كل تلك المسافة من المنطقة التي كان يوجد فيها، ويجتاز حدوداً دولية، ويقتل رجلاً بثأر وحشي، ثم يغادر مصطحباً معه بقايا إخوانه المقتولين».

تذكّرت حلمي في الليلة السابقة، ورفضت الفكرة بأن شولونغو غيّرت طبيعتها لتقوم بعمل سخيف كهذا. سرت قشعريرة في جسمي.

بعد قليل انضمت زاريبا إلينا. جلبت لنا كرسيين ووضعتهما باتزان على كتفيها. قالت لنونو: «كيف حال الأمور في المكان الذي أتيت منه الآن؟»

فقال: «إني أقول إن فيدو تجاوز الطابور»، وأشعل سيكارة، ثم أخذ نفساً عميقاً منها. «كان أصغر مني، وكان يجب أن ينتظر دوره».

Twitter: @ketab_n

«ما هذا الهراء!» قالت زاريبا معترضة.

أصبحت أخبار الموت مؤخراً تؤثر عليه كثيراً، سواء كانت عن شخص يعرفه أم لا، وكأنه تعب من التحديق في النجوم، وأنهكته رؤية حالة بيته المحزنة. كنت أتصوّر دائماً أنه عندما يأتي ملاك الموت في نهاية الأمر، فإن نونو سيستقبله كصديق قديم، وسيقارن وصوله المتأخر مع قدوم شخص يعرفه جيداً، يرتدي زيّ المسيح الغريب في جلد نمر.

«لا يستطيع فيدو أن يقول إني لم أخبره»، قال نونو.

ذقت طعماً مالحاً في الريح. كانت ترتسم على وجه نونو قسمات حادة، تعبير وضعني في حالة ترجمان يتغذى على لحم الخنزير.

ظننت أنه كان يتكلّم مع نفسه عندما قال: «لقد جاء لزيارتي قبل أن يذهب إلى منطقة الحدود بين الصومال وكينيا بأسبوع. قال لي إنه عقد صفقة مع بعض رجال الأعمال من كينيا والصومال وهونغ كونغ. تحدث عن مبلغ كبير كان يتمنى أن يتقاعد بعده. نصحته بأن يدرس موقع النجوم. وحذّرته بأن لا يمضي في هذا الأمر. طلبت منه أن يلغي رحلته».

نعم كنت حزيناً. لكني كنت غاضباً أيضاً. غاضباً ومضطرباً، وأنا ما أزال لا أعرف حقيقة دور شولونغو في هذا الأمر. وتلاشى حزني واضطرابي عندما أشار نونو إلى النجوم. هل كان لها، نظراً لقدرتها على تغيير الأشكال، يد في موته؟

صاح نونو في زاريبا: «ألن تقدمي لنا شيئاً نشربه؟» جلس وراح يحلم أحلاماً حزينة. لم يفه أحدنا بكلمة حتى سمعنا صوت قرقعة الكؤوس تقترب. أطفأ سيكارته وتناول كأسه. وبعد أن أخذ منه رشفة، قال: «قبل ثلاثة وثلاثين سنة، وبدقة أكبر، في اليوم الذي ولدت فيه، ظهر غراب في حياتنا. وفي ذلك اليوم، أخذ حشد من القرويين يراقبون بذهول شديد السيناريو الذي يكاد يكون هزلياً، حيث أخذ نونو العريض

Twitter: @ketab_n

المنكبين، المتوسط العمر، يجاري مشية الغراب. وكانت مخلوقات عديدة أخرى قد سبقت وصول الغراب، وجاء عدد أكبر منها بعد مغادرته. واستطيع أن أتذكر نعامة أو نعامتين، وقرد يدعى اكسوسنا، وحمامة زاجلة، وطاووس، وبطات، وطيور تملأ السماء وهانو. وكان السؤال السائد، كيف يمكن للحمام الزاجل أن يتجه إلى المكان المحدد في السماء وعلى الأرض؟»

قلت: «ربما كانت تحفظ الطريق عن ظهر قلب في طريق ذهابها؟»

«وكيف تعود؟»

«من السهل تذكّر مخطط الطريق؟»

راح ينفث سيكارته الآن، ثم تابع، «يمكنك أن تضعها وهي معصوبة العينين في سلة في مؤخرة سيارتي. يمكنك أن تدور بسيارتك وتدور بأي سرعة كانت، وستجد أنها ستعود إلى هذا المكان. إذن كيف تفعل ذلك؟»

قلت لا أعرف.

«أظن أن إحساس الحمامة بالقدرة على العودة إلى المكان الأصلي لا يمكن أن يخطئ، لأنه توجد لدى جميع الحيوانات «نوورو» يساعدها في معرفة طريقها. فقد منحها الله هذه الغريزة، التي تشبه الذكاء عند البشر».

وبما أنه كان بارعاً في إصدار الصوت الذي يحدثه الطير، راح نونو يصدر الآن. وما هي إلا لحظات، حتى سمع صوت حركات في الدغل، وبين الشجيرات الواطئة، وفي أعالي الأشجار. وبدأت جميع أنواع الطيور تتجمع الآن، وكأنها دعيت إلى مؤتمر. حتى النمل جاء، وكذلك الكلب الضال. والتفتت زرافة، ربما لترى ما كان يحدث. وصهل حصان بصوت مرتفع وكأنه يريد أن يلفت الانتباه إليه. وكان هانو منهمكاً في جمعها.

Twitter: @ketab_n

ثم أصدر نونو صوت هديل عميق، بلغة الحمام. ساد صمت. ثم كرّر الصوت نفسه. انتظرنا قليلاً. طارت معظم الطيور الأخرى، وبقي عدد قليل جداً منها، راحت تراقب من مكانها المرتفع. وكان من بينها غربان وعقبان، وصقور، وعصفور الكناري البالغ الجمال. هل كان نونو النبي سليمان وهو يدعو إلى عقد اجتماع للحمام؟ وبأمر منه اقتربت المخلوقات المكسوة بالريش. وبإيعاز منه شكّلت نصف دائرة. ووضع يده في جيب جلابيته وبدأ يطعمها. لعله كان آدم في أول يوم من الخلق، يطلق أسماء على الحيوانات جميعها.

ظللت هادئاً في هذا الجوّ من التوتر المتزايد، متمنياً أن يتمكن نونو من التوصل إلى نتيجة هامة في وقت مناسب: عن فيل يقطع مسافة كبيرة ليسترد بقايا بني جلدته؛ فيل يقتل الرجل الذي قتل ذريته بالكامل.

وأخذ يقول الآن: «لو سلّمنا بأن للنباتات أسرارها، وأن للبشر، كما نعرف، عالمهم الخاص بهم، عندها يجب أن نفترض بأنّ للطيور عالمها الخاص أيضاً، وأسرارها التي تساعدها في تفادي الخطر، والتمييز بين من يسعون لإيقاع الشر بها، والذين يتمنّون لها الخير، غريزة لا تمكّنها من الإحساس بالخطر فقط، بل كذلك معرفة إلى أين تهاجر ومتى. ولدينا أيضاً في اللغة الصومالية كلمة تصف هذه الفكرة، وهي «نوورو»، التي تمتلكها الحيوانات، وكذلك الأطفال الرضع والحمقى والمجانين، وأيّ شخص أصيب بمكروه بطريقة ما. ملكة توجد لدى فئة محددة، تعود من حافة الموت، وتعيش لتروي حكايتها. ملكة لا أملكها، ولا تملكها أنت، لماذا؟ لأن ملكاتنا العاملة لا تحتاج إلى شيء مكمّل. وبما أنه يوجد وجه آخر لكلّ عملة معدنية، يحمل الجانب الآخر للنوورو اسم نابسي، وسيلة تحكم الأفعال البشرية، طريقة للحفاظ على التوازن: من فضلك، السلام والاستقرار العام للمجتمع».

«نابسي!» كرّرت الكلمة كما لو أني أسمعها للمرة الأولى. وبدافع مني، تذكرت حديثاً جرى مع أبي بعد ظهر أمس.

Twitter: @ketab_n

«نوورو» قال نونو، وقد لفظ الكلمة بوضوح. هذه المرة لم أكرّرها.

تابع كلامه: «عندما أفكّر بنابسي، أتذكرك وأتذكر شولونغو أيضاً. أفكّر بالطريقة التي يجب أن تتصرّف فيها، وكيف يجب أن تعاملها بكياسة ولطف. ولا تنسى أبداً أنك كنت مفتوناً بها، مما يجعلها تستحق قدراً كبيراً من الاحترام، خاصة وأنها جاءت الآن لتردّ لك حبها».

قلت: «لكنها لم تأت لهذا السبب».

«لقد رماها القدر إليك، بطفل أو بدون طفل؟» لم أستطع أن أفكّر بجواب. فخيّم صمت.

قال: «لا يمكنك أن تهرب من هذا النابسي. إنها أشبه بالتخلي عن مسؤولية مدنية. ترفع النابسي رأسها، تضع حداً لمعاملة غير منصفة للأشخاص الأضعف منا. النابسي تعيد المُعذّب إلى أحاسيسه، النابسي تضمن العقاب لمن يقتلون الحيوانات، ويرتكبون جرائم القتل المدمرة. وأظن أنه إذا كانت النوورو هي التي قادت الفيل إلى بيت فيدو، فإن النابسي هي التي قتلته».

بدا وكأن نونو كان يدافع عن شولونغو، يمنحها قوى النوورو والنابسي على حد سواء، واحدة بسبب المصيبة التي حدثت لها عند الولادة، والأخرى لأنها كانت الأضعف، الأكثر احتياجاً، لكي يجعلني أن لا أتخلى عنها.

سألته: «ما سرّها؟»

بدا منزعجاً، لبث صامتاً. طارت الحمامات دون أن يصرفها. ثم استأذن ودخل إلى البيت ليبّدل ثيابه، ثم عاد بعد بضع دقائق.

قال: «يحبس أحدهم نفسه في غرفة مظلمة ويرفع سبابته نحو السقف. وعندما يخرج، يتحدّى أفراد القبيلة بأن يخبروه ماذا فعل في الغرفة المظلمة. ويصف الرجل الآخر بدقّة ما فعل في الغرفة المظلمة عندما كان وحده».

Twitter: @ketab_n

«أخلاق التاريخ؟»

فقال نونو: «دعني أخبرك شيئاً آخر. طُلب ذات مرة إلى الرسول محمد أن يعرّف الله. فقال إن الله يختلف عن أيّ صورة يمكن أن يكونّها أي إنسان!»

ماذا كنت أقول؟ أو ما الهدف من القصة الشعبية، التي يحبس فيها رجل أنفاسه في غرفة مظلمة، ويرفع إصبعه إلى الأعلى، ويخبره آخر بما فعل؟ ما علاقة تعريف الله بكلّ هذا؟ كان يوماً مليئاً بالصدمات. فأول شيء في الصباح، جعلني وصول تالادو المفاجئ عاجزاً عن الكلام، ثم قصة الفيل وموت فيدو، ثم علمت من مدبرة منزل نونو أن شولونغو كانت قد أمضت الليلة الفائتة في غرفتي.

انضم هانو إلينا أنا ونونو. وقدّرنا نحن الثلاثة، كلّ بطريقته، الإدراك الذاتي لنحلة تصدر طنيناً، نحلة تبحث عن بقعة آمنة تحّط عليها. وقلت لنفسي، هنا مثال عن النوورو، شيئان ضعيفان يتصادفان في طيات فهم إنسان أو سوء فهم ما كانا يعزمان على عمله: هانو والنحلة!

قال نونو: «لن أتكلم عن حديث النبي حول تعريف الله، لكني سأتكلم عن الأخلاق إذا كان هناك أيّ منها في التاريخ والتي تكمن حكمتها في الفكرة البسيطة بأنه لا يوجد شيء مجهول ما دام الإنسان يعرفه. والعبرة من هذه القصة، أنه عندما يعرف شخصان سراً، فإن هذا السرّ سُيعرف قبل أن يموت هذان الشخصان».

شعرت بعاصفة تتجمّع في رأس نونو. أحسست بالصخب العنيف من الرعشة في صوته، وقد انتقلت عيناه إلى مسافة أبعد من رؤيتي. أخذ أنفه يرتعش وكأنه يشتمّ ريحاً عاتية ستهب من بعيد. هل سينفجر من الداخل أم من الخارج؟ هل سيسبّب موته هزة أرضية بسبب الصدمة التامة؟ تذكرت حلم ليلة أمس مرة أخرى. تذكرت النسيم اللطيف الذي بدأ به كلّ هذا، الذي أعقبته رؤية كومة من عظام الفيل في الحلم.

Twitter: @ketab_n

تذكّرت كيف ظهرت جرادة صغيرة جداً، حزينة لأنها وحيدة، إلى أن انضم إليها عدد أكبر من الحشرات، وامتلأت السماء بالجراد، مشهد غمر وعي الحكاية وراويها. وانتهى الحلم قبل أن أسمع زئير وحش غاضب، نابسي يطارد مرتكب مذبحة، وتأتي النوورو لمساعدة حيوان لبون أكثر ضعفاً.

أما الآن، فقد هبت عاصفة أقل شراسة في بوبؤي عينيّ نونو. وبدت خافتة في زاوية، وبراقة جداً في زاوية أخرى، ثم أتى برق ثم انطلق في فترات منتظمة. رمش عينيه، أحسست برعدة في أحشائي. تكوّن لديّ الانطباع بأن الإشارات لم تكن جيدة. صعدت البرودة من بطني إلى رأسي. تجمّدت أفكاري في شتاء من عدم الفهم. وفجأة تجمد النخاع الذي يجري في عظامي. كان الهواء رطباً، مثل نسيم يجلب مطراً من وراء الجبل.

قال: «إن لمعظم المجتمعات أساطير يلد فيها غير البشر أسلافهم. وثمة أعداد أكبر من الاحتمالات الأخرى، عن بيضة تضم الكون في داخلها، عن الإنسانية تبدأ في تاريخ محدّد، عن قرون ثيران تحافظ على توازن العالم بدقة، وأنت تعرف الكثير. لكن في معظم الأساطير، يوجد للمرء جزء من سلف بشري. ويلي ذلك أن القادرين على استعادة ذاتهم الحيوانية ودمجها بذاتهم البشرية يعتبرون أنهم يتمتعون بقوة. إنهم يستحقون حسدنا، لا ازدراءنا».

رغبت في أن أدافع عن نفسي. رغبت في أن أذكّره بأني كنت غالباً أحسد شولونغو على القوة التي تمتلكها في تغيير طبيعتها، إذا كان هذا ما تفعله، تستبدل طبيعتها الإنسانية بطبيعتها الحيوانية. والأكثر من ذلك، لم أكن شريراً إزاء شولونغو. بل كنت مهذباً. مع أن الألم الذي تفاديت أن أحدده كان قد بدأ يجد موطئ قدم في جسمي. كنت أعرف من أين نشأ الألم أو ما يمكن أن يكون. لذت بالصمت.

أراحني هذا الهدوء، استأذنت وانصرفت.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

كان حفيدي كالامان واقعاً في ورطة كبيرة!

عدت إلى البيت ونور باهت من الشمس كان لا يزال متوهجاً، ووجدت كالامان في الشرفة. كان يضم إلى صدره جهاز راديو بموجات قصيرة، ويستمع إلى الأخبار. عندما التقت عينانا، استرخى وجهه في ابتسامة عريضة ساحرة. كانت هناك آثار عرق جاف على حدود ذقنه. كانت لحفيدي جبهة ملساء كباطن صدفة بحرية. لوّحت له عندما نهض ليرحب بي، وأشرت إليه بأن ينتظر.

ولأن الخوف من الأفاعي بطريقة غير عقلانية كان يعتريني عندما يخيّل إليّ أنها قد تكون موجودة، كنت أرفع قدميّ عن الأرض بمزيد من الحذر، كي لا أطأ واحدة منها. وكان هذا الخوف غريباً للغاية، بالنسبة لرجل أفريقي يعترف بأنه يخشى الحشرات.

كنت قد ألقيت شالاً حريرياً على كتفي الأيسر. وبما أن جنازة فيدو كانت تقتضي ذلك، ارتديت الثوب الرسمي، الذي يشمل قبعة مخروطية محبوكة كانت زاريبا، مدبرة منزلي، قد قدمتها لي بمناسبة بلوغي العتبة السابعة. كما كنت أرتدي جلابيتي المصرية الأثيرة لديّ، المصنوعة من أجود أنواع الحرير، وهي هدية كان قد قدمها لي كالامان. وكنت أرتدي في قدميّ صندلاً من أجمل الأنواع، أنيقاً للغاية، كان ياقوت قد صممه وصنعه بيده بمناسبة بلوغي الثمانين، ويحتل مكانة خاصة في خزانتي

Twitter: @ketab_n

وفي قلبي، لأنه الشيء الوحيد الذي صنعه لي من ألفه إلى يائه. ويجب أن أؤكد أن ياقوت لم يولد ابناً لصانع أحذية.

كان طولي يزيد على ستة أقدام ونصف القدم. وكنت أُعتبر ضخم الجثة بالنسبة لرجل صومالي وأتمتع ببنية قوية. وقد قالت لي امرأة أمريكية أفريقية، تستأجر شقة عندي، بأني كبير الحجم ويمكن تناولي في جرعة واحدة. وعلى حد قولها فإن المرأة قد تغص به. وقد فهمت قصدها.

ورغم أني لم أكن أنتمي إلى أسرة عريقة، فقد بلغت سناً نبيلاً، وعشت عمراً مديداً، جبلاً من السنوات. واستخدم هنا عبارة «جبل» كرمى لكاثي، المستأجرة الأمريكية السوداء، التي ظلت عشيقتي لفترة من الزمن، وكانت كاثوليكية في ذلك. فقد كانت تصليّ كي أعيش، كما كانت تقول، إفريست من السنوات. وبطريقة غير مباشرة، كنت أتساءل إن كان هناك أحد بنبالة عمري، وفي شكلي ومزاجي، ذو هوية يتجاوز حدود الشخص الذي اخترعه أشخاص آخرون، فقد أقام كلّ امرء لنفسه هوية ذات قيمة، عملة مختلقة. فالبنسبة إلى كالامان مثلاً، ما أنا إلا مكان، مزهرية قادرة على تلقي مشاعر الودّ التي يملأها بها. أما بالنسبة لياقوت، فقد كنت عائقاً متخيّلاً لشخص يقدّر ذاته، نسل يتجاوز وجه جبل ضخم، مغامرة محفوفة بالمخاطر، وخاصة عندما لا يكون ثمة موطئ قدم. أما بالنسبة لأمّ كالامان، فقد كنت ثعباناً من النوع المائي، غامضاً كالألغاز التي يحرسها. أما بالنسبة لكاثي، فقد كنت رجلاً ذا عضو كبير الحجم، حجراً كريماً. وبالنسبة لفيدو، ربما كنت غراباً، أنعق بنبوءات لا يلتفت إليها أحد. باختصار، فأنا عدة أشخاص في شخص واحد، وأنا شخص آخر أيضاً.

ما أن علمت بوجود شولونغو، وخاصة بعد موت فيدو، قلت إن كالامان سيكون وريثي، لأسباب تتعلق بموتي الوشيك. عانق أحدنا الآخر.

Twitter: @ketab_n

إن من يعبث بالفيلة ويقتل نصف قطيعها سيقيم حتماً على مسافة لا تبعد كثيراً عن نعيق بومة من الموت. قلت. «كم كنت أتمنى أن يكون فيدو قد أخذ بنصيحتي بعدم اصطياد الفيلة. كم كنت أتمنى أن لا تغريه حفنة الدولارات الواردة من هونغ كونغ. أما الآن فلم يعد له وجود، ولم يعد للعاج وجود أيضاً. وارتبك السماسرة الكينيون الذين كلّفوه بالعمل، وكذلك تجار أنياب الفيلة الصينيين لم يعودوا يعرفون ما سيفعلون. وها نحن نرثي الآن صديقاً».

الشيء الذي كان يدهشني أن كالامان كان قلقاً من شيء لا أعرفه. فلم يكن من عادته أن يتحدث بسرعة كبيرة وبصوت عال يقلق راحتي (فرجل في عمري النبيل يصبح حساساً عندما يظن الآخرون أنه ثقيل السمع، أو أنه فقد السيطرة التامة على وظائفه الجسدية). لماذا يتكلّم بهذه السرعة، كما لو كان قد دفع سلفاً ثمن مكالمة هاتفية لمدة ثلاث دقائق عبر الأطلسي؟ أم أنه كان ينوي أن يقول كلامه بسرعة، ويذكر كلّ شيء يريد أن يقوله في الوقت المحدد الذي دفع ثمنه، ثم يغادر، يرحل؟ أتذكّر أنه عانق أحدنا الآخر بعد أن قال كلامه.

كان أحدنا يمازح الآخر غالباً حول حجم كلّ منا. فقد كنت لوحاً كبيراً. وكان هو ضئيلاً، قزماً بحجم الدنكا. جلسنا، وبدأنا نتحدّث عن أبويه. ومع أنه لم يكن هناك داع لذلك، أشار مرات عديدة وعلى نحو غامض إلى الموت. وبطريقة ما أقحم شولونغو في حديثنا. وألمح إلى وجود عقارب مخبئة تحت الأحجار، وإلى أحلام مثقلة بجثث الفيلة. تحدثت بحزن عن حالتي العقلية المشحونة: كيف يمكن أن يفتح الباب إلى البهو بعد قليل، وينتهي كل شيء، قبل أن أصل إلى عتبتي التاسعة، وأنهي بذلك، وعلى نحو غير متوقع، صعودي إلى كيلمانجارو. وليس سراً أني قرأت صفحات النعي في الصحف أولاً، ثم في الصفحات اللاحقة. وبفضول، بدأت ألاحظ أن الصفحات التي تنشر إعلانات عن

Twitter: @ketab_n

الموت، في دول استبدادية محتضرة كالصومال، تعبّر بشكل شعبي أكثر من تقرير ينشر على الصفحات الأولى يركّز دائماً على الطاغية، أو على أعمال نوّابه المضلّلة.

كانت تغمرنا دائماً رائحة الموت في أفكارنا وعقولنا. كنت أتمنى أن أتمكن من ربط رائحة مسيرة البلاد البطيئة نحو الانهيار. مادة: تفجيرات المدن، مثل هارغيسا، التي سُويت مع الأرض، وذُبح سكانها الذين تناثرت جثثهم دون أن تدفن، وأصبح الناجون لاجئين. مادة: المدنيون الذين يقتلون في مقديشو يومياً، والذين تُقطع أجسادهم إلى أشلاء بالمناجل. مادة: البيئة. مادة: فيدو الذي داسه الفيل. الموت أينما نظرت. جثث تحمل اسم عشيرة. لا أحد بريء. لا أحد منّا. إن كنت قد تحاشيت ذكر اسم شولونغو، فذلك لأنني كنت أخشى أن يزعج ذلك كالامان، الذي فيما كان يرحّب بي في بيتي، بدا وكأنه وضع مشاكله الشخصية الرئيسية في محرقة. ولم أكن أعرف كيف كنا سنفتح موضوع شولونغو.

كانت فترة العصر تسطع على نحو يمكّن عينيّ النسريتين من معرفة أن كالامان كان عند طبيب الأسنان. وفيما كنت على وشك أن أشعل سيكارة، ذكرت كيف أصبحت أسنان كالامان ناصعة كما تبدو في الإعلانات التلفزيونية بعد أن أزيلت بقع التبغ منها. وباستدارة مقصودة، راحت يدي تنقر بلطف فوق جيب قميصي، لأتأكد من وجود عدد كاف من السكائر تكفيني حتى الصباح، علبة كاملة تقريباً، مما جعل حفيدي يقدم لي منفضة سكائر، وانغمست في شهيتي في التدخين بهدوء فيما رحت أنفث دخان سيكارتي، هدية من السوق الحرة في مطار نيروبي، لم يشترها لي أحد سوى كالامان. «إذا كان لا بد من أن تدخّن، فدخّن»، كان يقول، وكان يقدّم لي قداحات جميلة الشكل، بالإضافة إلى علب السكائر من التبغ القاسي من ماركة غاولواز، والسكائر الإيطالية

Twitter: @ketab_n

ناتسيونالة، ويلقي مزيجاً من التبغ التركي، عجائب نقيّة من الدخان، لأحرقها في سمائي!

اندفع كالامان قلقاً حول الكراسي وأطفأ الراديو، الذي كان قد وضعه بجانب صحن خزفي مليء بالكاسافا المقلّية التي تغمس بالخلّ والملح. تناولت شريحة مفحّمة من الكاسافا، وشربت جرعة من الماء. هل سألته إن كان سيمضي الليلة هنا، أم أني سألت زاريبا؟ لست متأكّداً.

ومرة أخرى، لا أعرف تماماً إن كان كالامان قد كرّر حديثه مع تيمير البارحة. وقال أحدهما «أن أحد شروط الموت عدم الحلم، القبول المأساوي بوقوع خسارة كبيرة. إذ لا يظهر الذين تحبهم في أحلامك، بعد موتهم». لعلي لم أتمكن من اقتباس العبارة بشكل صحيح. ومع ذلك، فقد بدا متضايقاً عندما تذكّر مرة أخرى مكانته هو وتيمير. ثم صمت ولم ينبس بكلمة للحظات طويلة، وكأن لسانه تحوّل إلى عقدة من الأشواك. فلعله تذكّر أن شولونغو تعيش وتظهر في أحلام أمّه، أو ربما بدأ موت فيدو يغوص إلى أعماقه آنذاك. أظهر سنواته، شاب علق في بهارج عمره.

قبل سنوات مراهقته، دأب كالامان على حمل قوقعة صدفة معه أينما ذهب، قوقعة صدفة يقول فيها كلمات يخترعها. كان يقرّب قوقعة الصدفة منه، ويسأل سؤالاً، ثم يقرّبها من أذنه، وكأنه يستمع إلى جواب. وكان يصّر على أنه كان بهذه الطريقة يتلقى سرّاً، يسمع همسات أمواج بعيدة، ويقول إنه على اتصال مع المجهول. وكان مغرماً بشولونغو، التي بنى لها بيتاً من الحجارة في داخله، وكان يرجوني أن أتلمس بطنه ويقول إنه حامل «بطفل مودّته». بصراحة كان يخيّل إليّ أنه كان يقدم لنا أفضل وصف لهيام طفل.

وعندما لم يكن كالامان ينتظر اتصالات خاصة من قوقعة الصدفة، أو يهمس أسراراً، كان يمضي معظم يومه مع إكسوسنا في غابتي، ويلتحق

Twitter: @ketab_n

أحيانا بأحد العمال في المزرعة، وكان أحياناً يساعد فيدو صيّاد التماسيح وهو في غاية السعادة.

تناولنا في حديثنا في عصر ذلك اليوم مواضيع عديدة. وكان أحد أهدافي أن نلتقي. أما الهدف الآخر، فلم أكن أرى جدوى من التحدث عن العقارب أو عن نوايا شولونغو أو إن كان من الحكمة لومها على موت فيدو. فقد كان الرجل أحمق عنيداً، والحمقى يموتون بشكل مجاني. ولأن أشياء كثيرة كانت قد بلغت ذروتها، كالخراب الذي بدأ يحلّ بهذه الأمة في اللحظة التي نتحدث فيها، ركزت جهدي على إيجاد ملجأ آمن في المجردات. لذلك تناولت مفهوميّ النوورو والنابسي. ولا أستطيع أن أتذكّر الطريق الملتوية التي أوصلتنا إلى التجريد.

حدثني كالامان باختصار عما جرى معه حتى الآن، لأني طلبت منه ذلك. وعندما انتهى، شعرت بالأسف. أحسست بأن الحزن لا يتعلق بالتنازل ومنح شولونغو ما جاءت من أجله ـ لكن أيضاً بخسارة تالادو. ففي ذات يوم كان مولعاً بشولونغو، لكنه تجاوز ذلك الآن وأصبح يحب تالادو الآن. وكان من سوء الحظ أن تزوره تالادو في شقّته على نحو مفاجئ، وهي تبكي. وكان اللغز: كيف دخلت شولونعو إلى شقّته؟ وكيف تسللت، تلك الشيطانة، إلى كوابيس أمّ كالامان قبل يومين من الذهاب إلى دكانها؟ وقد اعتبرت أن معظم هذه الأحداث مجرد صدفة.

كانت تتملك كالامان الحيرة (أمّه تدفعه في اتجاه، وتالادو وشولونغو تدفعانه في اتجاهين مختلفين، تدفعه كلّ منهما إلى صدرها، صدر إحداهما صغير وجميل، وصدر الأخرى تملؤه تناقضات كثيرة)، فقرّر أن لا يؤجّل رحلته التي سيقوم بها لمدة عشرة أيام إلى نيروبي مع تالادو.

أضاءت عينا كالامان بشموع الذاكرة.

سأل: «من هو ذلك السافل الذي اتّهم أبي بسرقة حذائه من المسجد؟»

Twitter: @ketab_n

حاولت أن أهدئ من غلوائه، وأخفف من حدة كلامه، وقد ارتسمت على وجهه تعابير رافضة، وبدا وكأنه رجل تقي يهمس أدعية إلى الله. إلا أن ذلك لم يثنه عن عزمه. هززت رأسي في ذكرى حزينة وقلت: «لا داعي لأن تشغل نفسك، أو لأن تتذكر الحادثة، لأني واثق من أنه لا توجد لها علاقة بهذه الأزمة على الإطلاق». لكنه لم يتأثر بذلك. ثم قررت أن لا أبذّر في القليل الذي كنت أعرفه، والذي أخبرته به، من كرم روحي. كان يصغي باهتمام شديد. لعله كان حاسوباً يخزّن مواداً في ذاكرته، وأعطاها اسم ملف خاص بها.

«يبدو أن الأمور معقدة أكثر مما تبدو عندما تدرس الأنماط»، قلت، وقد لجأت إلى التجريد، وأضفت، «دورة طير في الهجرة والعودة، مراحل القمر ومدى تأثيرها على العلاقات الإنسانية. فإذا كنت قد عقدت أنت وشولونغو عهداً بالثقة المتبادلة، عندما جرح أحدكما سبابة الآخر ومزجتما دمكما النازف، إذا»، وهنا توقّفت لأسأل، «بدافع الفضول فقط، ما هي اللعنات التي استحضرها كل منكما، عندما قدّم كل منكما عهده للآخر؟»

كان قلقاً. تململ في كرسيه وقال: «عندما تلامست أطراف أصابعنا النازفة، قالت شولونغو وكنت أردد وراءها: ليدّك الموت أساس أرضنا، إذا نكث أحدنا بهذا القسم».

«أساس الأرض؟» هزّ رأسه.

تبين لي شيئاً من التجريد في نصّ القسم، ونقلتني مخاوفي إلى مجال مختلف. لا يمكنني أن أتذكر كيف أشير إلينا أنا والفيل، بأسلوبنا، كـ«أساس». فكّرت بصفة القسم التنبؤية، كيف يحرّك شابان التاريخ، في تنبؤ حذر، لا فيما قد يحدث لهما فقط، بل فيما قد يحلّ بالبلد في ساعة انحلاله الوشيك. وكان يعني أيضاً أني لم أعد أستطيع أن أرفض هذه الإشارة القاسية إلىٰ موتي، أنا الذي كان يصفني كالامان ذاته بأني الأساس، الأساس بمعنى أني «راسخ».

Twitter: @ketab_n

قلت: «دور من سيأتي بعد فيدو؟»

فقال: «لا من، بل ماذا؟»

لم يفتني أنه كانت لشولونغو في حساباته، يد في موت فيدو. وكان عليّ أن أعيد تفسير عبارته «لا من، بل ماذا؟» في ضوء مختلف تماماً. كان وكأنه يشير إلى «انهيار التاريخ»، الذي كان بالنسبة له أكثر أهمية من المحفّزات التي أدت إلى انهياره.

يظهر أمامي مشهد، ثم استمع إلى تلاطم مويجات النهر الخفيفة، الذي يبعد قرابة مائة متر.

في المشهد كالامان يستحمّ في ذاكرة حلم حلوة، عارياً مع شولونغو. ومن الأرض الغرينية، يخرج رجل يكسوه الطين، كان قد عثر على كنز على ضفة النهر. ثم، وبكلمة «افتح يا سمسم»، يُفتح باب ليكشف كنزاً دفيناً آخر من الذكريات. أرى رجل دين في السابعة عشرة من عمره، كان طموحاً ذات يوم، يعيش في الضواحي الشمالية في مدينة بربرا. هرب الشاب من مشهد الموت. كان يرتدي خرقاً بالية، ويجري جنوباً. يدرك الشاب هويته، ويتخذ اسماً مختلقاً في البيئة الجديدة، ليقطع صلته بماضيه تماماً. ويجد وظيفة وضيعة منخفضة الأجر، وينكر أنه كان قد تعلم ليصبح رجل دين. ويتزوّج امرأة من أهالي النهر الجنوبي، الأمر الذي يساعده في أن يدفن ماضيه في قبر النسيان.

سألته: «هل يمكنك أن تكون قوياً؟»

لم يسمع كلماتي.

صغت سؤالي بطريقة أخرى، فقلت: «كالامان، هل يمكن أن تكون لديك الشجاعة الكافية كي تحلّ نفسك من وعدك لشولونغو؟ هل يمكنك أن لا تهدر قطرة واحدة من حيوانك المنوي، بانغ، بانغ، زوم، ومن ثم باستا؟»

Twitter: @ketab_n

تراخت تعابير وجه كالامان عندما فهم قصدي. رأيت أن عدم فهمه تحول إلى تجّهم، ثم أجفل، ثم تحوّل ذلك أخيراً إلى ابتسامة مرتبكة، وقد تم كلّ ذلك خلال ثوان. وبعد قليل، رأيته يحدّق في هانو. حيواني المدلل - بل وأكاد أقول طفلي - إذ كان يؤدّي مجموعة من الحركات الرياضية وكأنه يسلّي ضيفاً معكّر المزاج.

قال كالامان: «لقد فكرت بذلك».

ذكرت أن أساليب الجسد البشري غامضة، ولا تعرف ما يمكن أن يحصل مطلقاً. وتابعت كلامي: «ومع ذلك كنت أظن أنكما كنتما تتقاسمان شيئاً أهم من مجرد عهد شفوي ردده طفلان. كنت أظن أن لديها أيد خفية قادرة على التأثير بقواها الابتزازية عليك، دليل ضد أمّك».

«كنت أعتقد دائماً أنه لا يمكن تصديق ما تقوله، وأن أمّي يضلّلها جنون الشك والاضطهاد»، فقال: «أتمنى أن لا يكون هذا صحيحاً».

قلت: «ومع ذلك، ربما كانت شولونغو تمتلك، في عقلها المتضخم، سرّ كيفية تحطيم الأرض، الذي سيؤدي البوح به إلى أن يهتز الكوكب من أساسه. أي عالم منهار، يرشح، دم ثقيل، عشائر في حناجر أساطير مثار جدل!»

صمتنا بضع لحظات.

تابعت كلامي: «أظن أن للفضائح المحلية خصائص تجعلها تحطم الأرض. وهي على قدر من الذكاء يجعلها تعرف أشياء كثيرة بعد أن عاشت في نيويورك، حيث تترعرع مجموعة من الفضائح في كلّ مخيلة البالغين». لم أتوقف عن التدخين، كنت أشعل سيكارة من عقب سيكارة أخرى قبل أن ألقي بها في المنفضة المملوءة بالماء حتى حافتها.

تساءل: «ماذا تعني بفضيحة محلية؟»

«محلية بمعنى أنها محدودة»، قلت موضحاً.

Twitter: @ketab_n

«لنتصوّر أن أمّك كانت على علاقة غرامية بأحدهم، أو أن أباك زنى، أو ارتكب خيانة أخرى لا يمكن غفرانها، ربما شيئاً يتعلق بشولونغو. هل تذكر الجلبة التي أثيرت حول اسمك، كالامان؟ بمعنى آخر، إنها تدرك تماماً أن الذين يحفظون سراً في حياتهم يصبحون مهووسين بالشك. هل تحتفظ أمّك بسر في حياتها، وهل هذا ما يجعل سلوكها يشوبه جنون الشك؟ سترى، إن أجلاً أم عاجلاً، أن الأسرار تهدم الغرض الذي حُجبت من أجله، تمنح الشيء الذي يريد المرء أن يحميه».

«ما رأيك؟»

قلت مجازفاً: «كلما فكرت بذلك، شككت في أنه حنث للوعد، أظن أنه سيحدث خراب كبير لم يسبق له مثيل».

تحدث بحذر وقال: «هل تظن أن شولونغو وأبي كانا على علاقة؟»

جلس ينتظر بقلق، وكأنه لا يريد أن يعرف الجواب. كنا ندرك أننا نطأ أرضاً حسّاسة هنا. لبثت صامتاً لوهلة، ربما لأترك أفكاري تختلط بكآبته. قلت: «لماذا تسأل؟»

فأجاب: «أسأل لأني أعرف أن شولونغو كانت قد حملت بطفل من رجل مسن قبل أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها».

تألمت، لأننا كنا نغوص في أعماق الحلم. وتتكشف أسرار عائلية، عيوب، ثآليل وما إلى هنالك. لقد جعلني ذلك في غاية الحزن. خرج عقلي من جسدي ومشى فوق أرض شبابي. كنت أستمع إلى صرخات تمزق نياط القلب، صرخات عنزات تذبح لكي تقدم لنا كوليمة، وأنا الشاب الذي لم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره بين تلاميذ حفظ القرآن التائهين. لم أكد أستل نفسي من حلم اليقظة حتى لاحظت أن هانو قد أحسّ بعمق صمتنا أيضاً. لبث جامداً، ولم يأت بأي حركة.

قلت: «ما الذي يجعلك تظن أن ياقوت هو الذي جعلها تحمل؟»

Twitter: @ketab_n

فقال: «أتذكّر النظرات المشحونة التي كان أبي وشولونغو يتبادلانها غالباً»، وأضاف، «نظرات تشي بشيء خفي بينهما. كنت أشكّ في أنهما ربما كانا يخبئان شهوة خفية». توقّف لوهلة ثم تابع كلامه: «لا أقصد عدم الاحترام إذا قارنت نظراتهما المشحونة التي كانا يتبادلانها بالنظرات التي كنت أنت وكاثي تتبادلانها علناً. كما أن أمّي لم تتوقف عن اتهام شولونغو بجميع الشرور. وقد جعلني ذلك أتساءل إن كانت اتهامات أمّي مجرد أفخاخ تريد بها أن تضلل الآخرين».

«إذن فأنت تظن أننا عائلة أساسها الفضيحة المحلية؟»

بدا متضايقاً. «هناك فضيحة مدمرة إذا ما جمعت الأشياء التي فعلتها لها أمّي، منها أنها طلبت أن تؤخذ بصماتها في قسم الشرطة، ولزيادة الطين بلة كانت تلقي إليها بنظرات مشحونة. ودعنا لا ننسى علاقتي الشخصية بها».

حدثته عندئذ، ببطء متعمّد، عن حديثي مع شولونغو في اليوم الفائت، عندما قالت لي إنها لا تريد أن تخرّب ذاكرتها عن الأوقات الممتعة التي قضتها معه. «بالعكس، «تابعت قائلة، «لقد جئت إلى هنا لأرتبط به، لا لأنفصل عنه. ولا أريد أن أبعده، أو أبعد أمّه».

قال كالامان: «لم يعد لشيء أي أهمية».

ابتسمت لنفسي، وكنت واثقاً من أن سوابق هانو، إذا ما مُنح الفرصة، قد تفضي إلينا بسر مرعب آخر، فتاة لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها باءت محاولتها في إغواء شخص في الستينيات من عمره بالفشل. وكانت الغاوية قد لحقت بالرجل العجوز عندما كان يستحم في نهر شابيل في الصباح الباكر. حتى عندما كانت في مقتبل العمر، كانت شولونغو خبيرة في أمور الإغراء المقنع. فقد اختارت رجولته ـ هضبة تصعد إلى جبل. كان قد ركلها بقسوة. جُرحت، وبدأت شفتها السفلى تنزف دماً بسبب ركلته لها. وراح الرجل البالغ الواحدة والستين من العمر

Twitter: @ketab_n

يسبح، ولم يكترث بها. وفيما كان جرحها ينزف، تدفق الدم في مياه النهر، وتجمعت حولها أسماك صغيرة، وتبعتها بعض الأسماك، وأخذت تفرك نفسها على فخذيها. وحسب معرفة الرجل العجوز، لم تخبر شولونغو أحداً بأي شيء.

ومنذ ذلك اليوم، بدأت أرمقها بعين الريبة، خشية ما قد تفعله، واحترامًا لقوة روحها. وقد قال أحدهم ذات مرة عن شولونغو بأنك تشعر وكأنك في حضرة كاراويلو، الملكة الأسطورية التي كانت تلقّب، في ذلك الزمن، مخصية الرجال، قاتلة الفتيان. لكن كان هناك فرق بينها وبين الملكة الأسطورية: إذ كانت شولونغو مغرمة بالرجال غير المخصيين، بل الرجال الذين فقدوا رجاحة عقولهم.

سأل كالامان: «وماذا لو لم يكن الفيل فيلاً؟»

فقلت له: «كفى»، إذ بدأت بروستاتي تحثّني على المغادرة.

لم يتناول كالامان طعامه.

كان لعدم تناوله الطعام تأثير عليّ، مثل رجل يخطو بسرعة لكنه يجب أن يبطئ خطواته لأنه يعرف أن ساقيّ ابنه القصيرتين لن تتمكنا من اللحاق به إذا لم ينتظره. تناولت قليلاً من الطعام، بأمل أن يجعله ذلك أقل خجلاً.

قلت: «لا يمكن التنبؤ بما يمكن أن تفعله شولونغو».

قال: «جاءت إلى البيت، وتحرر الشيطان من قيوده، واجتاز الفيل الحدود لينتقم لبني جلدته. امرأة تغيّر شكلها، متزوّجة من آكل نار مغربي، ولها أخ غير شقيق يترأس جمعية باي للواطيين. هذا محض جنون!»

وفي لحظة صمت قلت: «وهناك الإيدز أيضا».

Twitter: @ketab_n

في البداية لم يفهم قصدي، كما في السابق، عندما سألته إن كان يستطيع أن يجعله ينتصب. لكنه عندما فهم، قال، «لا يمكنني أن أشاركها الفراش. لا، شكراً. لن أفعل ذلك، حتى لو لم يكن هناك إيدز. الآن، إذا كان الحمل بطفل جزءاً من العقد، يمكنني أن أضع واقياً جنسياً. وبصرف النظر عن أيّة عاطفة أو خطر على الصحة، يمكنني أن أفعلها بسرعة كما يفعل التمساح. جيئة وذهاباً، بسرعة!»

بدا قلقاً.

قلت: «لكن يجب أن تعجب بشجاعة المرأة. إن ما يدهشني تحديها الرهيب لأخلاقيات المجتمع الذي عاقبها عندما ولدت، كجزء من شعائر الغفران لأمّها. هل هو جزء من انتقامها ـ تنصب لنا الشراك لتعاقبنا، لأن المجتمع جعلها تتحمّل وزر طالعها النحس؟»

«وماذا عن هيامي بها؟» سأل كالامان.

ابتسمت له ابتسامة مصطنعة. «كنت في مرحلة النمو. أذكر أنك كنت تشعر آنذاك بقرابة روحية مع الحيوانات أكثر من البشر. وإذا لم تخني ذاكرتي، عندما أضعت إكسوسنا، حيوانك الأليف وحبيبك، حزنت، وأصبحت مستعداً لتعود إلى مجموعتك البشرية، وعندها تعرفت على شولونغو. لقد فعلت ما كنت أتوقع أن تفعله: أن تحوّل ولاءك المكبوت من قرد ميت إلى شولونغو، إنسان يتمتع بقدرات حيوانية، إن كان علينا أن نصدق ذلك».

قال: «كانت أمّي لا تحبها!»

«ومع ذلك، لا يمكن لأحد أن ينكر أنه كان لها تأثير مهدئ عليك. كان ذلك واضحاً جداً لنا. كنا نظن أنها كانت الشيء، أنها كانت مفيدة جداً لك».

«ربما كانت كذلك».

«هل كنت ستصغي لنا لو رفضناها؟ أشكّ في ذلك».

Twitter: @ketab_n

كان ثمة تناظر في حديثنا. تابعنا اللف والدوران حول مواضيع عديدة، وكنا نعود إليها، تابعنا استثارتها ظناً منا بأننا سنضع أيدينا على مفتاح السرّ الذي لم نعثر عليه حتى الآن. قرعنا أكبر عدد ممكن من الأبواب، لمسة إحباط تغيّر طبيعة وجوهنا عندما لا يسمح لنا بالدخول.

كان الدم شيئاً أساسياً في رحلاتي العقلية. هل يوجد شخص آخر يعرف عن عادته المقيتة في تذوقه دم حيضها؟

كما لو لكنت أريد أن أطمئنه بتعاطفي معه، استرضيته بالقول: «لكلّ كائن حيّ أسرار كثيرة بعدد المخابئ التي يحصل آخرون على مفتاح لكشفها. نتنصّت، نثرثر، ننشر الإشاعات، نقف وراء ثقوب المفاتيح عندما توصد الأبواب».

كنت آمل أن لا أسبّب له صدمة أكثر مما كان يعاني، أو أن أعترف بأنني كنت أقف أيضاً وراء ثقوب الأبواب، أتلصص، أو وراء النوافذ، أتنصت. لقد جعلت شولونغو المرء يفعل أشياء غبية.

سأل: «هل تعرف أين يمكن أن تكون الآن؟»

قلت: «لا أعرف».

بدا وكأنه بدأ يفقد السيطرة على امتلاك الحقيقة. فإذا نام في السريرالإضافي في غرفتي، القريب مني، ربما كان لذلك تأثير إيجابي عليه. بالتأكيد لن أقلق كثيراً عليه، لو كان قريباً مني جسدياً.

بدأت شفتاه تدمدمان الآن أصواتاً خافتة. هل كان يحدّث نفسه؟ فبالنسبة لعينيه الغافلتين، قد أكون ظلاً ألقاه جني يدخّن سيكارة وراء أخرى. لم أحبّ ما كنت أتصوره.

قلت: «اسمع، لقد فقد أحدهم عقله، لكنني لا أعرف من هو. كان الآن مستلق على ظهره، رجل ينتظر دوره ليتبادل حديثاً ودياً مع جده.

قاطع ما كنت أنوي قوله، وقال: «إني أتساءل ماذا ينوون عمله». لم يكن سؤالاً، بل بياناً حاسماً.

Twitter: @ketab_n

لمسته وقلت بتوسل: «اصغي إليّ».

لم يستمع، بل راح يتكلّم. «أتساءل ماذا لو لم أر كومة عظام الفيل في حلمي؟ أو لو لم تندس في حلمي مشاهد أكل الجراد؟»

صمت وكأنه لن يتكلّم ثانية، أبداً. لذلك لم أطلب منه أن يستمع إليّ. لم تكن هناك فائدة ترجى من ذلك. ابتعدت عن المائدة التي يوجد عليها طعامنا الذي لم نتناوله، ثم مشيت حوله ووضعت يدي على كتفه الأيمن. كان تنفّسه ضعيفاً مثل تنفس رضيع نائم.

كان الصمت الآن ملاذه.

لم تكن لديّ الشجاعة لأذكّره بالسنة والنصف السنة التي أمضاها في معسكر اعتقال، حيث كاد أن ينقطع عن العالم. وقف كالامان يدافع بشجاعة عن حريّتي، ضد مستبد الصومال آنذاك.

زُجَّ به في زنزانة الحجز الانفرادي. إن سنة ونصف السنة في سجن أفريقي كفيلة بأن تحدث أثراً كبيراً عليك مدى الحياة.

التفتنا إلى هانو عندما دخل الغرفة وهو يسحب وراءه حقيبة كالامان المصنوعة من الصوف الغليظ. وبعد أن هدأ قال كالامان غاضباً: «كيف عرف هانو أني لن أبقى في الغرفة التي اعتدت المكوث فيها، وأني سأشاطرك غرفتك؟»

لم ينتظر ردي، بل اختطف الحقيبة من هانو، وأخذ يفتّش فيها. كأنه كان يعرف ما يريد أن يبحث عنه. وقد منح نعيق هانو العميق، والضجيج الذي انبثق من تجويف حنجرته، كالامان سبباً أكبر ليفتش في الحقيبة بالكامل. كنت أحاول أن أتذكّر أين سمعت نعيقاً شديداً كالغراب. وكأنه يريد أن يفرك الملح فوق جرح متقيّح، كان القرد يتقافز، يذكرنا بالغربان التي تخب بين مساكن البشر، المستعد للطيران عند أدنى حركة عندما يلقي أحدهم حجراً عليها.

«إلى اللقاء»، قال كالامان وهو يخرج من الغرفة. سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

Twitter: @ketab_n

«سآخذ دوشاً مرة أخرى»، قال.

تناولت سيكارة. كنت بحاجة إلى أن أنفث سيكارة، بأمل أن يزيد كلّ احتكاك قوة إرادتي. وبهدوء مثل عمود من الدخان، أقنعت نفسي بأن كالامان على ما يرام.

أعاد الحمّام الحار الطويل، البريق إلى وجهه.

الحمّام الحار يفعل به العجائب، كالطفل الرضيع. أتذكّر كم كان يحبّ أن يغوص في بخار الماء الحّار. وكنت أفضّل السباحة في النهر في الصباح الباكر، أو في وقت متأخر من المساء. وكنت أفضّل أن آخذ قيلولة العصر على أن استحّم. قيلولتي مقابل استحمامه! وبعد أن كان يستحم، كان يبدو رجلاً آخر، إذ لا تعود تزهر في عينيه تلك الوحشية. وكنت أتمنى أن يكون حديثه متماسكاً. لأنه كان يجعلني أقلق عليه، يجعلني أخشى أن يفقد عقله، كالامان الذي نجا من سنة ونصف السنة في السجن الانفرادي في أحد السجون الصومالية. لم أستطع أن أتصوّر كيف ستكون حياتي إذا ما حدث له مكروه، عزيزي كالامان.

ويمكنني كذلك أن أعترف هنا وعلى الفور أنني شعرت بأني أخفقت في واجبي كجدّ عندما لم أتوقع كلّ ذلك عندما أعطيت شولونغو عنوانه الحالي. هل حصلت على نسخة من مفاتيحه لدخول شقته؟ لم تكن ثمة وسيلة لمعرفة عدد مجموعات المفاتيح الموجودة في غرفته، لذلك لا يمكن معرفة إن كان قد فقد أيّ منها. والآن يعتريني شعور بالخزي: لقد ارتكبت عملاً طائشاً.

رحت أحدّق فيه. أتلصص عليه. وقفت على مقعد ورحت أسترق النظر إلى الحمّام فيما كان كالامان يستحم: بعد أن اشتم هانو رائحة وجودي، انضم إليّ ليشاركني في وقاحتي. قفز إلى الكرسي وقبع بين قدميّ. وبلغت به الوقاحة حداً جعله يشدّ عباءتي، يريد أن يرى ما أراه.

Twitter: @ketab_n

أبعدته بشيء من الفظاظة، وأردت معاقبته. وضعته في غرفة، وأقفلت عليه الباب بالمفتاح. ثم عدت لأسترق النظر إليه.

كان الصبر مفيداً. فقد أبعد ستارة الحمّام. كان كالامان منتصباً، وكان يدمدم تعويذة وكأنه منوم مغناطيسياً وهو يفرك قضيبه. نزلت من المقعد عندما رأيت زاريبا تقترب من البهو. اعتراني شعور شديد بالخجل. تعللت بالإصابة بتلبك معوي، لكني لم أسمّي من الذي يعاني من هذا التلبك، أنا أم كالامان.

التقينا في الشرفة الغربية من البيت. كان بوسع هذه الشرفة أن تحتوي مزاجينا المتباعدين. لم نشعر بالحماية من البعوض فقط، بل لم يجرؤ أحد من الزوار العاديين على القدوم من ذلك الطريق. كنت أحبّ أن أجلس هنا لأتأمل، هنا حيث كان بإمكاني مشاهدة حركة النجوم، والإصغاء إلى الأصوات المائية المنبثقة من النهر من مسافة خمسمائة متر.

جلسنا صامتين نواجه فسحة في الهواء الطلق. كانت تحيط بنا أشجار الزنزلخت، وكانت هناك منطقة مفتوحة مجاورة للغابة. في هذه الفسحة كنا ننظم حفلات الرقص ونشاطات القرية الأخرى. والأرض التي كانت ذات يوم أرضاً خصبة، أصبحت الآن مجرد أرض ترابية، أرض ميتة لا تنبض فيها الحياة مثل سلك كهربائي يخلو من التيار. وقد قُطعت الأشجار والغابات، ودُمرت الحياة البريّة، وأصبح لدينا جيل من الفلاحين المتضورين جوعاً. وبدأ الكثير من الفلاحين السابقين، يعتمدون على المنح الضئيلة التي تقدمها لهم أسرهم، أو يعتمدون على منظمة أوكسفام لتقديم المعونات وغيرها.

ومن خلال فتحة في هزيع الليل، رأيت شيئاً على شكل طبل ضخم يطلق عليه القرويون اسم الكركدن لأنه يشبه ذو القرنين، الذي كان

Twitter: @ketab_n

يرتاد هذه البقاع باستمرار. وكانت قد شاعت بين السكان قصة مفادها أن فرس النهر كان قد صادف الكركدن على حين غرة وأخذا يتصارعان، وقد جنّ جنونه أمام خصم لا يمكن تحديه. وكان ياقوت، ابني، هو الذي قيّد القرون وأطراف الكركدن بالحديد. وعندما نحته، منح الشكل الارتفاع الصحيح، وقوته الطبيعية الصامدة. وكان الكركدن يُعامل باحترام تمثال منبوذ، وكان الأطفال يخفون أسرارهم في بطنه. وكان بعض الفتية والفتيات يستخدمون بطنه كشباك بريد، كان أحدهم يترك للآخر فيه رسائل غامضة. وعندما كان صغيراً، كان كالامان يجلس فوقه مباعداً ما بين ساقيه، يستمّد منه موسيقى رائعة من جانبيّ الوحش العريضين عندما يقرعها بعصي. وكان إكسوسنا، قرده المدلل، يقلّد الراقصين بأفضل ما بوسعه. إذ كان يمدّ لسانه إلى الخارج، وتدور عيناه، محاولاً إيصال إشارة جنسية بشكل أو بآخر. وكنت قد اكتشفت سراً في بطن الكركدن مرتين: في واحدة وجدت كشتباناً عليه بقع قديمة، وفي الثانية، وجدت رسالة.

أشحت الآن بنظري عن الكركدن. وتركت نظرتي اليتيمة تهبط على كالامان، الذي أصبحت قسماته تشي بخيال قلق. كان لديّ افتتان خاص بأيّ شئ ينمو، وكنت منحازاً للأسئلة التي تؤدي إلى أجوبة، مثل فرع شجرة يمتد إلى الخارج وكأنه ذراع إضافي، أو شجرة مثمرة تورق في البرية، أو جذر يمتد في أحشاء الأرض. يا له من حظ سعيد: رسالة تنتظر استعادتها في بطن طبل في شكل كركدن.

سألته فجأة: «من يملك أوراق الشقّة، أنا أم أنت؟» لم أر وجهاً أكثر اضطراباً من وجه كالامان. أشعلت سيكارة أخرى.

سأل: «وما علاقة هذا بأيّ شئ؟»

قلت: «ثمة حقيقة راسخة في التقاليد الصومالية، فإذا لجأت امرأة إلى بيت رجل، ورفضت أن تغادر بمحض إرادتها، لا يحق للرجل أن

Twitter: @ketab_n

يرغمها على مغادرة المسكن الذي وجدت فيه مودّة. وإذا فعل ذلك، يجب أن يدفع غرامة، للحفاظ على شرف المرأة المهانة».

أكّد كالامان أنه كان قد سمع بهذا القول المأثور. لكنه جادل بأن وضعه ووضع شولونغو مختلف. وتساءل عن الفكرة التي تقبع وراء موقف المجتمع الصومالي التقليدي، ووافق على مشاعر الحكمة، لا على روحها. إذ كان يجد وسيلة لثني الأقوياء عن معاملة الضعفاء معاملة سيئة، وأضاف: «إن حالتنا مختلفة».

«لكنها تبحث عن المودّة والعاطفة؟»

قاطعني قائلاً: «إنها امرأة متزوجة. وليست بحاجة للعاطفة أو الحماية في بيت رجل آخر. وإذا كانت تبحث عن شئ، فيجب أن تبحث عنه في بيت زوجها المغربي آكل النار».

قلت: «ربما كان بوسعنا أن ننقذ شرفنا العائلي وشرفها أيضاً، إذا عرضت حلاً وسطاً. افترض أني تدخلت، وأصبحت المالك الاسمي لشقتك. فإذا ألقيت بها إلى الخارج، فلن يقع عليّ اللوم، فالمكان ليس باسمك بل باسمي أنا، وأنت مستأجر وهمي». لكنني كنت أدرك كم كنت أبدو غبياً حتى أمام نفسي.

«وماذا عن العهد؟»

قلت: «العهود تلزم الأشخاص الذين عقدوها، والعهد بينك وبين شولونغو ليس قابلاً للتحويل. ومع ذلك، فلم يرد في العقد الأصلي أنك ستمنحها طفلاً».

نهض. بدا على غير ما يرام، وكأن فيروس القلق قد استقر في أعصاب معدته، أو في مجرى دمه. بدا مكتئباً أيضاً. وبعد نصف ساعة، عاد وقد أصبحت معدته المتلبكة سليمة.

Twitter: @ketab_n

سنوات وسنوات مضت. . .

كانت شولونغو تسير في الغابة، وبطة تسير وراءها. اختفت هي والبطة برهة من الوقت، وعندما رأيتهما بعد ذلك، كانت شولونغو تلفّ كركدن. جثت على ركبتيها وكأنها تصلي، وكانت رقبتها تتحرّك على نحو أخرق مثل حمامة. كانت تبحث عن شيء في ثيابها. وبعد أن فحصت قطعة الورق الموجودة أمامها باهتمام شخص يعاني من قصرالبصر، وضعتها شولونغو في بطن الكركدن.

عندما بدأت أتحدث، أخذ كالامان يلهث. بدا أيضاً أشبه بطفل صغير خائف، طُلب منه أن ينام في العتمة. شعرت أنه كان يخشى أن يسأل ماذا يوجد في بطن الكركدن.

دون أن أقدم اعتذاراً عن سلوكي، قلت له إني، ما أن تأكدت من أنها ابتعدت، استعدت رسالتين قصيرتين، كانتا ملفوفتين داخل صدفة.

«وماذا كان في الرسالتين؟»

خيّل إليّ أن صوتي بدا وقوراً وقار شخص يسير في جنازة حبيبته. قلت، «كنت مهتماً برسالة أكثر من الثانية، التي لم تكن حقاً رسالة، بل رسماً غامضاً مرسوماً بقلم الرصاص». وأذكر أني وضعت الصدفة بقرب أذني، لأنصت إلى أسرار الريح والبحر.

«ما نوع الرسم الغامض؟»

شرحت له كيف كانت مرسومة بقلم الرصاص، خدود منفوخة، وشفاه ملونه باللون الأحمر، ونتوء بشكل إبهام يدفع الخدود من الداخل. وأضفت: «الصدفة تذكار من أيام شبابك، الصدفة التي أعطاها لك فيدو بعد أن قتل أسداً يرعى في بستاني».

«ألا تتذكّر محتوى الرسالة الأخرى؟»

«لا».

Twitter: @ketab_n

كان حزيناً. «هل يمكن أن تكون الرسالة التي وجدتها في بطن الكركدن هي الوثيقة التي اتهمت أمّي شولونغو بسرقتها منها، الوثيقة التي من أجلها أخذت بصماتها؟»

فعلت حركة تعني تعال وفتشني. هززت كتفيّ، وكأنهما قد اهتزا من تلقاء نفسيهما، وارتفع حاجبيّ مثل ستارة صفقتها الريح. استمعنا بصمت إلى طاقة حرارة المساء المسترخية في سقف الزنك فوق رؤوسنا.

قلت: «كم أتمنى أن أنقذك».

تساءل: «تنقذني؟ من أي شيء؟ أو من أي شخص؟»

قلت: «إني مستعد لأن أفعل أي شئ، لا أبالي بأن أفقد عقلي، أو أن أُقتل، إذ إن إنقاذك هو إنقاذ لما تبقى من سلامة عقلي. سأفعل أي شيء من أجل ذلك، وأرتكب جريمة قتل إذا دعت الحاجة».

اندفع كالامان خارج الغرفة بسرعة. وبعد برهة، كان الدوش ينطلق بكامل قوته. لم أسترق النظر. كنت أعرف أنه على ما يرام. لعله كان مصاباً بالإسهال. لكن الأسوأ من كلّ هذا، أني شعرت بأني انتهيت.

لكن أين، في ذاكرتي، وضعت الرسالة الثانية؟

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

سبق الفجر حلم!

تمكنت من رؤية بشائر الفجر بوضوح. كان قادماً من وراء أكمة، كما لو كان خارجاً من ظلام نفق، وكان ينبثق كفجر كامل من ساعة متردّدة. وكانت تشوبه بعض السحب الخفيفة، وتجويفات ضبابية.

شعرت أيضاً بأن مفاجئتين قد حلتا بشكل مشؤوم، الأولى في شكل نعامة، التي أخذت تصدر صوتاً خفيفاً «بوو»، ثم صوت «توو» أشد قساوة. ويبدو أن النعامة كانت قد تناولت وجبة ضئيلة من بذور أعشاب الموسم الطويلة، التي كان بوسعي أن أراها من نافذتي أيضاً. وفي ركن قصي، كانت هناك مفاجئة أخرى. فقد كان يجثم طير كبير على شجرة، ربما كان محمّلاً بأسرار طير دفنت في لون بؤبؤي عينيه الرمليين. أما الآن، فقد تركزّ كلّ اهتمامي على النعامة، فيما بدأت أتذكّر مشاهد سابقة لنعامة تطارد فريستها بسرعة. وكان مادوب، والد شولونغو وتيمير، قد درّب العديد منها لترعى طيوره. إذ كان يرى أنه بوسع النعامات أن تصمد في وجه الكركدن الشرس. فعندما تهرب النعامة، تلقي بأحجار طائرة على مطارديها، مما أوصلني إلى الحكمة القائلة بأن من يقطن بيتاً من زجاج يجب ألا يرمي الآخرين بالحصى!

وأذكر أنه كان قد سبق ذلك الفجر حلم. وفي الحلم، كنت في حانوت، ودم متخثّر يكسوني. وكانت هناك امرأتان، تشبهان داماك

Twitter: @ketab_n

وشولونغو، تبيعان لترات من الدم المتخثر إلى شخص يشبه كالامان. وكانت المرأتان تتحدثان بمودة، لكني لم أستطع أن أتبع خيوط القصة المعقدة، التي ترتبط بحكاية أخرى تذكرني بقصة أخرى. وبعد أن ألححت عليهما أن تساعداني، قدمت لي المرأة التي تشبه داماك عقدة زهرة مبللة بدم نبيل. لكن ذلك كان للعرض فقط، لا للبيع. ثم أفقت.

رحت أنتظر زائري المفاجئ، راجياً أن أنسى ذلك الحلم. لكن لماذا؟ لا شك أني كنت أفكّر بطريقة تجعلني أحمي حقي بتجاهل ما يلمح إليه الحلم، وأن لا أستسلم للفكرة الغير معقولة بأن أحداً قد أقحم نفسه في حلمي. لكن ما فائدة هذا لي. لا بد أنها تداعيات غير سارة محبوكة بدقة شديدة، ألغاز متشابكة تتعلق بأشباه كالامان، وشولونغو، وداماك؟ وعندما أخذت قيلولة بعد ذلك، بعد نصف ساعة من رؤيتي للحلم السابق، وبعد رؤية النعامة والطير الضخم (لا أستطيع أن أعرف إن كانت جزءاً من الحلم نفسه)، وصلت كنتي لتكتشف أرضاً غير محروثة لعقل منهك، مستنفذ، في تربة زرع في لا وعيها حرير عنكبوت، يا داماكي!

ومن الناحية الأخرى، كانت تظهر كنتي في معظم أحلامي مبللة تماماً على نحو يدعو للرثاء، وفي مزاج كئيب. ولأنها كانت تحتاج إلى مناشف كثيرة لتجفف نفسها، كانت تبحث في الغالب عن مكان تلجأ إليه لتقي نفسها من المطر الهاطل بغزارة. كانت تقطر مثل حنفية معطّلة، وندوب بارزة على خديها، خدوش على الوجه تدل على عشيرتها تشبه دموعاً تتساقط في أعلى خديها. وفي أحلامي كنت حمامة، وكانت تقول إنها أحضرت رسالة، وتردد: «ثقي بساعي البريد، لا بالرسالة».

استلقيت على السرير لا يفصلني عن كالامان سوى بضعة سنتيمترات. ومن وضعيته وهو نائم، بدا لي وكأنه يعاني من حالة تعذيب

Twitter: @ketab_n

مؤلمة بسحق الخصيتين. ولم أكد أسجّل الفكرة، التي جعلتني أتجادل بعجز مع نفسي إن كان هناك شئ أستطيع أن أفعله لأخفف من ألم كالامان، حتى سمعت صوت طرطقة شاحنة تويوتا صغيرة تعمل على الديزل. لقد جائني زائر، داماك.

وقفت وراء الستارة المسدلة مثل طفل شقي ينتظر عودة أمّه، يعرف أنه سيعاقب. تأكّدت أنه باستطاعتي أن أراقب حركات كنتي دون أن أُرى، ربما كنت أريد أن أقيّم المزاج الذي كان يعتريها، وأستعدّ على نحو كاف لها. كان طولها يقارب المائة والخمسة وستين سنتمتراً. ومع أنها كانت في الثانية والخمسين من عمرها، فقد كانت لا تزال جميلة. اتجهت الآن نحو جناح البيت. رحت أنتظر وصولها. كلّ خطوة على درجة هامة، امرأة تتحرك وهي تظن بعجرفة أنها مراقبة، وأنها محبوبة إلى حد كبير. وكانت تعابير جسد داماك، اليوم كما كان دائماً، تظهر أنها نامت واستيقظت، وهي تعرف تماماً أنها محور عالم زوجها وابنها أيضاً.

كان من عادتها أن تصل في الساعات الغير ملائمة. ومثل طفل، كانت تظن أن العالم يستيقظ عندما تستيقظ هي. كانت تتوقّع أن تستقبلها بحرارة، وتتوقع أن تدللها بترحيبك الشديد لها، سواء كان الوقت ملائماً أم لا. ولم تكن تعتذر عن سلوكها الغريب، مدعيّة أن ما يهمّ هو قدومها. وكانت قد اعتادت على أن يعاملها زوجها بفخامة، ويعاملها كالامان برهافة طفل. وعندما أكون عندها، كانت داماك تخرج حليها الفضية والذهبية. لكنها لم تكن تتمالك نفسها من الظهور في ساعة غير مناسبة، وتتصرّف غالباً بأنانية، حتى معي.

لم أكن أشاطر أولادي رأيهم بأنها مستبدة، مهيمنة، وصعبة المراس. بل كنت أعتبرها امرأة تفتقر إلى التقدير الذاتي على نحو كبير. وإذا كان ثمة شيء، فإني أتهمها بالمغالاة في الأمور المتعلقة بالثياب

Twitter: @ketab_n

والمجوهرات. فقد كانت داماك تختبئ وراء صفّ من الكلمات الصحراوية المشبعة بالتراب، الخادعة كالسراب. كانت ترتدي ثيابها بإفراط. «أنا إعلان زوجي ياقوت، إعلانه المتنقّل، لوحة إعلاناته الناطقة». بمعنى آخر، كانت ترتدي زينات ياقوت اليدوية الفضية والذهبية. وكان الأصدقاء العاديون يسألونها من أين حصلت على هذا العقد، وخاصة النساء الغريبات. كانوا يشاهدون، ويشعرون بالقهر ويذهبون إلى حانوتها لشراء كلّ المواد الفريدة. أما في البيت، فكانت هي التي تتكلم، وزوجها ينصت. لكنها كانت تعرف كيف تردّ على الإطراء، ولمن. وبفضل ياقوت، كانت تتباهى بأنها تفوق النساء الأخريات.

يمكنني أن أعرف من الثياب التي كانت ترتديها ومن زينتها بحليها أنها كانت معكّرة المزاج. كانت ترتدي ثياباً مبهرجة: عباءة حريرية من ماركة مشهورة، وحزام رائع مرصع يدوياً بالخرز، وقطعة رائعة من الفضة، وعقد في جيدها، وأشياء باذخة لم تكن تمنح ياقوت تقديراً كاملاً، التي صنعها لتزيين من يرتديها، داماك، بعيني الناظر إليها.

في إحدى المرات قارنتها بنعامة قلقة قادرة على رعاية قطيع صعب المراس. كانت تتحدث بسرعة نعامة تجري. أما ياقوت، فكان يراقب حديثها بذات الاهتمام الذي تحدّق فيه نعامة بعطف أمومي، إلى أحد فراخها وهو يخرج من بيضته. ياقوت، أب ابنها! وكانت المرأة عبقرية إلى حد أنها جعلته خاتماً في إصبعها الصغير. لكنها للأسف لم تتمكن من جعل شولونغو خاتماً في إصبعها الأوسط، مع أن الإصبع الصغير كان منهمكاً بالاهتمام بزوجها.

فتحت الباب لألقي عليها تحية الصباح، وانتظرت. لبثت واقفة، قدمها الأيمن يسبق قدمها الأيسر، وعينها تطرف في تأمل ماكر. «أين هو؟» سألت.

Twitter: @ketab_n

عرفت من تقصد. ولم يكن مستغرباً أن تتجه مباشرة إلى الغرفة التي يقال إنها غرفة كالامان. وهذا ما فعلته تماماً. كان هناك تمايل خفيف في مشيتها، مع أنها كانت تبدو، لمراقب عادي لا يعرفها، أنها مستغرقة في ذاتها مثل شاب يرقص على إيقاع مع ظلّه.

قلت: «إنه ليس في الغرفة التي يقيم فيها عادة».

التفتت مباشرة إلى الزاوية حيث يلتقي الجداران، يفضي أحدهما إلى الغرفة التي يقيم فيها عادة، والأخرى تفضي إلى غرفتي، حيث كان كالامان نائماً. أخذت تحدّق فيّ. «أليس هو على ما يرام؟»

لوهلة فكرت بأن أتطوّع وأقول لها إن تلك المرأة نامت في غرفة كالأمان ـ لكني لم أشأ أن أذكر أسماء الأشخاص الذين تكرههم ـ لكني لم اعتبر أن الفكرة مناسبة، فقلت، «إنه يشاركني غرفتي».

كان هذا يعني أن ثمة شيئاً لم يكن يسير ما يرام. إذ قلما شارك أحدنا الآخر غرفته ما لم يكن أحدنا مريضاً. وبعصبية راحت تتحدث بسرعة كما يتحدث معلّق مباراة كرة القدم، وقد عدلّت درجة صوتها إلى توتّر داخلي. «إنها معدته، أليس كذلك؟ إنها ليست على ما يرام؟»

قلت: «إنه نائم».

هل بدا أني مغتاظ؟ ربما.

قلت: «كان مثل طفل يرى كابوساً. كان يدمدم شيئاً في نومه، شيئاً يتعلق بحلول كارثة وطنية وشيكة ذات عواقب فظيعة. لعل موت فيدو أثّر عليه».

تقبلت ذلك بقدر كبير من ضبط النفس. فبدلاً من أن تتوجه مباشرة إلى الغرفة التي ينام فيها، أخذت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ربما كانت تفكّر بما ستفعله في خطوتها التالية. وكلّ ما كنت أعرفه أنها ربما كانت تسأل نفسها إن كنت أخفي عنها شيئاً. فمن المعروف أن لها تلك العادة اللعينة في أن تتصرف بفظاظة. خشيت أن تجعلني أفقد أعصابي معها،

Twitter: @ketab_n

وترغمني على أن أفعل شيئاً مؤسفاً. إذ إننا جميعنا نعرف أنها تتصرف بحماقة عندما يتعلق الأمر بابنها أو بزوجها، اللذين كانت تحميهما.

سألتها: «هل ترغبين في كوب من الشاي؟»

كنت أعرف أنها لن توافق على أن أدخل المطبخ لأعدّ الشاي أو القهوة. فقد كانت من ذلك الجيل من النساء الذي يعتبر أن هذه الأعمال تقلّل من هيبة الرجل. لذلك لم تكن تحتمل فكرة أن ألوّث، أنا عمّها، يدي لكي أقوم على خدمتها. فقد تعرضت لعبارات قاسية، ووجهت إليها الأصابع لأن ياقوت هو الذي يقوم بالأعمال المنزلية. فهو من اعتنى بكالامان منذ فطامه. هل كانت تشعر بأن الآخرين قد يتّهمونها بالقسوة إذا ما قدمت لها أنا أيضاً الشاي من مطبخي، لأن مدبرة منزلي لم تأت للعمل؟

سألت: «أين زاريبا؟»

قلت لها: «يمكنني أن أعدّ الشاي أو القهوة»، فقالت: «يمكننا أن نؤجل هذا الآن».

لم يسبق لها أن ردت عليّ بهذه الفجاجة. ففي جميع الأحوال، كانت تنصت إلى ما أقوله عن طيب خاطر، وقلما كانت تقاطعني. كنت أعرف مدى صعوبة ذلك بالنسبة لها. فلكي نتفق على شيء، كانت تستجمع كلّ طاقاتها من الإقناع الذاتي. وكجزء من ذريعتها في ضبط نفسها، كانت تغلف نفسها بطبقات من التوتر المشحون. وقد شعرت بهزّات توترها، وحافظت على مسافة عازلة بيننا.

وفي غمرة اندفاعي للترحيب بها، نسيت أن ارتدي عباءة أكثر احتشاماً. فقد تبين لي الآن أني كنت أرتدي قميص نوم رقيقاً، القميص الذي كنت قد نمت به. لكنني لم أغيّر ثوبي لأني لم أكن أتوقع أن يوقظني أحد في ساعة غير مناسبة وأن أرتدي ثوباً لائقاً، مثل عروس تستعد لكي يراها عريسها. وجمعت في قبضتي المكوّرة قليلاً من

Twitter: @ketab_n

القماش، وهكذا غطّيت أكبر قدر من مقدمتي، كما يمكن أن تفعل ورقة التين لآدم.

قلت لها: «لا أظنك تمانعين إن نحن تركنا كالامان وشأنه؟»

كانت مفاجأة لطيفة لي عندما قالت: «سندعه وشأنه، فأنا أريد أن أتحدث معك قبل أن يصحو. فهناك عدد من الأشياء التي يجب أن نسوّيها، أنا وأنت».

«إلى اللقاء إذن».

بالإضافة إلى إزالة الغشاوة عن دماغي، ساعدني الحمّام الحار في فتح الممرات الهوائية لجيوبي الأنفية. كان الاستحمام في الصباح، بل الأفضل من ذلك، تلك الغطسات الصباحية في النهر التي كنت اعتبرها ضرورية لي كما طقوس الغطس في نهر الغانج لراهب هندوسي. إلا أن استحمامي كان طويلاً ومدروساً بكلّ معنى الكلمة. لكني أفضّل أن لا أقصّ عليكم تفاصيل ما فعلت في الحمّام، لأن ليس لذلك علاقة مباشرة بالحكاية الواضحة للعيان.

أتذكر كيف التقينا، أنا وداماك. فقد كان ياقوت قد أحضرها بعد أن تزوجا سراً. ولم أسألهما عن السبب الذي جعلهما يلجآن إلى الزواج السري، الذي يعد شكلاً من أشكال الزواج الذي يلجأ إليه عادة الأزواج الذين يتوقعون معارضة من جهة أو أخرى. وكان قد اعتراني الشك بأن ثمة شيئاً غير صحيح في زواجهما السري هذا، لكني لم أطلب تفسيراً عن ذلك. لم يقل ابني ياقوت شيئاً، فيما أعلمتني داماك بأنهما عقدا قرانهما، لكنها لم تقل لي السبب. هل كانت تحمل طفلاً من خطيبها السابق؟

وبعد أسبوع، جاءت لتراني. تحدثت كثيراً. ولأنها كانت قلقة وعصبية، لم أفهم منها الكثير. وغمرتني بسيل من الكلمات. وعندما

Twitter: @ketab_n

طفوت على السطح لآخذ نفساً، ارتفعت يديّ بحركة سبّاح لا يجيد السباحة. أحسست بأننا لن نلج إلى الأسرار التي تشغل بالها في جلسة واحدة. وخيّل إليّ أن أمامنا وقتاً طويلاً لكي يتعرف أحدنا على الآخر بشكل جيد، ورحّبت بانضمامها إلى حضن العائلة. ولم أفهم آنذاك ماالذي كان يثير قلقها. هل كانت تخشى أن يلحق بجنينها ضرر ما؟

انتابني الشك آنذاك في أن داماك وياقوت لم يذهبا إلى الشيخ. انتابني الشك بأنهما لم يعقدا قرانهما في حضرة مأذون، وبأن أحداً لم يعلن زواجهما. وقد بررت السنوات شكوكي. فقد كنت أحسدهما على قربهما الجسدي في معظم الأحيان، رجل وامرأة يحب ويثق أحدهما بالآخر إلى حد كبير. لا تسألوني كيف عرفت أنهما لم يكونا زوجاً وزوجة، بل مجرد عشيقين. عندما رحت أجفف نفسي بالمنشفة، تساءلت إن كانت ضحية ابتزاز ما. ضحية شولونغو؟

كانت كنّتي داماك، تعمل آنذاك في تجارة الخرز، وخاصة في تجارة الكهرمان وبديله الكوبال. وكان عندها كشك على أحد الأرصفة في وسط منطقة راقاي في مقديشو. ولجذب المارة، كانت تمتدح مواد بضاعتها التي تعرضها للبيع بأعلى صوتها. وعندما لم يكن ينفع ذلك، كانت تعرض الكوبال، وتفرك عدّة خرزات معاً، لتوّلد منهما تياراً كهربائياً. وكان الدخان القليل الذي يصدر عن هذا الاحتكاك يجذب الناس. وكانت تبيع عقوداً مصنوعة من البذور أيضاً، وأساور عاجية، وتحفاً رخيصة. وكان لديها الكثير من الزبائن الغير صوماليين ممن كانوا يشترون بضائعها، ويكلّفونها بأن تجلب لهم مصنوعات فنية مختلفة.

وفي عصر اليوم الذي طلبت إليها أن تأتي لزيارتي وحدها، جلسنا على الشرفة، ورحنا نتكلم. وعندما توقفنا قليلاً أثناء حديثنا، رأينا أفعى صغيرة جميلة من النوع غير السام. كانت تقبع بين أعشاب المرج الذي لم يكن مشذّباً، وكأنها تأخذ حماماً شمسياً، أفعى رفيعة مثل سلك مرن.

Twitter: @ketab_n

ربما كان طولها يصل إلى ربع متر. وكانت الأفعى من النوع الذي يغذيها رعاة الجمال الصوماليون بالحليب، ويعاملونها بمودّة زائدة كما يعامل المرء حيواناً أليفاً. ما كدت أفكر بشيء يثير الضحك لأهدئ من روعها (أنا الذي أخاف الأفاعي أكثر منها) حتى قفزت إلى الدرج، واتجهت إلى المكان الذي يقبع فيه هذا المخلوق الرائع، وركلتها بسرعة، وأخذت تطأها على طرفيها. وكانت النتيجة: عقد نسيجية ميتة.

فقد لساني الحياة لوهلة. ثم سألتها، «لكن لماذا؟» أعطيت إشارات متضاربة. كنت أتمزق غيظاً في داخلي، لكني نهضت كما يفعل مشاهد كرة القدم وهو يصفّق لإنجاز رائع تحقق.

جعلتها هذه الحركات تضطرب. تباعدت شفتيها، مثل صديقين تشاجرا شجاراً عنيفاً. قالت: «إني حامل»، كما لو أن ذلك أوضح كلّ شيء. لكنه لم يوضح لي شيئاً.

حولّت نظري من الأفعى الميتة إلى داماك. لم يكن لما فعلته أي معنى. ما التهديد الذي كانت تشكله الأفعى غير السامة للجنين القابع في أحشائها؟ إن الموت يشوّه. إن الموت يجلب الحزن إلى عيني المرء. لقد أثّر موت الأفعى عليّ كثيراً. لم تعد حية، لم تعد جميلة. كانت جثتها ملقاة تعاني سكرات الموت وهي تكافح من أجل ما تبقى من الحياة. خيّل إليّ أنها ستبقى محصورة في حركة لم يُعَبر عنها جيداً، في محاولة عقيمة للهرب من ركلة داماك. أم هل كانت تنوي أن تدافع عن نفسها؟

«في أي شهر من حملك؟»

«الثالث».

«هل يعرف ياقوت؟»

قالت: «طبعاً».

تساءلت إن كنت قد أهنتها عندما سألتها إن كان ياقوت يعرف.

Twitter: @ketab_n

وخلال فترة الصمت القصيرة، تذكّرت السرعة التي قتلت فيها الأفعى. قلت في نفسي، كما لو كنت أريد أن أحلّها من اللوم، إن للنساء الحوامل عيون فصامية يرين فيها العالم مقلوباً رأساً على عقب. وتعرف النساء في حالتها أوجه الخلل في قدرتهن على التفكير. لم يكن ثمة داع للقلق، ولا حاجة للبحث عن تفسيرات أخرى.

هنأتها لأنها حامل.

وعندما رأيت أن عينيها كانتا جامدتين في سكون برونزي، لبثت صامتاً. تجهم وجهها. تكلمت داماك دون أن تعطي نتيجة. قالت: «ألا يوجد مثل شعبي يقول بما معناه أن الوالد آخر شخص يعرف عن حياة ذريته السرية؟»

طلبت منها أن توضح ذلك.

قالت: «ربما لأنك لا تعرف، مع أنك أبوه، أن ياقوت يحبّ الحياة، مع أنه يتعامل مع الموت بحفر شواهد القبور». انتظرت. واصلت كلامها، وقالت: «سأحبّ طفلي، ابني الوسيم».

كانت أفكاري مشغولة بتفسير محتمل. فهي التي كانت تريد أن تحتفظ بالطفل، الذي كان بالنسبة لها، «طفلي» و«ابني الوسيم». هل عقدا، هما الاثنان، زواجهما سراً قبل أن يكتشفا أنها كانت حاملاً بطفل، أم بعد أن اكتشفا ذلك؟ لكن مهما كان، فقد أسعدني النبأ. فحتى ذلك الحين، لم يكن أحد من أولادي الآخرين قد أنجب لي حفيداً. قلت: «لا أريد أن أكون فظاً»، ثم سكت.

قالت: «ستكون عاجلاً أم آجلاً. بما أن شهر العسل مع أنسباء المرء لا يدوم إلى الأبد. دعنا نصفّي الأجواء. لنصفّي هذا الأمر أو أيّ أمر عائلي آخر بسرعة. إسأل. وإذا لم أشأ أن أجيب عن سؤالك الفظ، فسأقول لك ذلك. فلا يمكن لأحد أن يجعلني أفعل ما لا أرغب في أن أفعله بملء إرادتي».

Twitter: @ketab_n

أحببتها. كان ثمة شيء كبير يجمعنا. لكنها كانت أكثر طمعاً، لأنها كانت تصغرني سناً، وليس لديها ماض طويل تستند إليه. وكانت امرأة عنيدة، وأنا أحبّ النساء العنيدات لأنهن أكثر إثارة. وهذا ما جعلني أقرر بأن لا أسألها إن كانت هي وياقوت متزوجين رسمياً. ولم أسألها أي سؤال خارج عن اللياقة، ولم أستفسر عن خلفيتها العائلية. لقد أحببتها. وجدتها ودودة. لم يعد يهمني شيئاً آخر. لقد قبلت بها على الفور. كانت امرأة تتكون، وكأنها فُصّلت تفصيلاً، من مربعات ومثلثات وعلامات الأبراج. وكانت تدعم هذه العلامات خطوط تتقاطع مثل قرنيّ كبش عند القاعدة، وبرسيم في الأعلى. لقد جلبت بضع كلمات قالتها داماك التي رحّبت بها، أكثر من لحم وعظم وأحشاء الكثير من الأنسباء الذين كان عليّ أن أقابلهم مع مرور السنوات.

سألتها: «هل حملتِ قبل الآن؟»

انفصلت عيناها عن بقية جسمها. طافت إلى مسافات بعيدة، وعادتا بعد الكثير من الرعي في مرعى ذاكرتها الخصبة البعيدة. قالت شيئاً تبين أنه يتسم بنبوءة: «حمل واحد يكفي».

بعد أربعة وثلاثين عاماً تقريباً، وبعد حمأمي الحار، ها هي هنا في غرفة الجلوس وحدها. أيقظت مدبرة منزلي التي أعدت لها قليلاً من الشاي في المطبخ. كانت تبدو دائمة الشباب، لأن طفلاً واحداً يكفي لداماك. أما الآن فقد كانت تعض على شفتيها من القلق. أراهن أنها لم تكن تدرك ذلك. أرتاب في أنها تتذكّر كلّ شيء مرّ بيننا في اليوم الذي خطت فوق رأس يوم آخر: لتنقذ جنين مستقبلها، كالامان. ولو كنت من النوع الذي يتباهى بنفسه لأمكنني الاستماع إلى أفكارها، أزيز نحلة لا تتوقف عن الحركة لإنتاج العسل. كان ثمة شيء من الولع في الطريقة التي كنا نتحدث فيها أنا وداماك.

لكن مدبرة المنزل كانت تحوم عند باب المطبخ. إني أكره

Twitter: @ketab_n

الأشخاص الذين يقفون في نقطتي العمياء. أصبح عصبياً. وأتذكّر أني كنت قد حبست هانو في إحدى الغرف. طلبت منها الآن أن تخرجه وأن تأخذه في نزهة إلى الحرش ذي الأشجار المتناثرة. وعندما أصبحنا، أنا وداماك، وحدنا، قلت: «والآن يا عزيزتي».

كانت داماك قد أفضت إلى شخص نعرفه كلانا جيداً بأني أستطيع أن أصدر صوت نعيق طير عنيد بمجرد ان أحدّق فيه. مع أني كنت أرى أن سلوكي نحوها كان يتسم دائماً بالاحترام. لقد عانينا من أوقات عصيبة، أنا وهي. وكان أحدنا يعرف مزاج الآخر. كنت أعرف أن داماك قادرة على أن تضبط نفسها، وهو أمر يحسده عليها الكثيرون.

سألتها: «بعد أشهر من ولادة كالامان اتهم ذلك الرجل السافل من حثالة الناس، لقد نسيت اسمه الآن، ياقوت بسرقة حذائه من المسجد؟»

ساد صمت مطبق. كنا وكأننا على شفير هاوية. اعتراني القلق وكأن إعصاراً سيهب علينا، مثل ثور هائج لوّح أمامه مصارع الثيران قطعة القماش الحمراء.

سألته: «لماذا تسأل؟»

«ماذا كان اسمه؟»

«لا أريد أن أتذكّر»، قالت متلعثمة.

قلت: «إن لم تذكري اسمه»، وأنا أتساءل إن كان بوسعي أن أخمد جذوة الإعصار، أو أن أغيّر مساره، كي أحوّل عينيها المجنونتين وأجعلهما تركّزان على مكان آخر، «أرجوك ذكّريني متى حصل هذا الاتهام المشين!»

قالت: «وما الفائدة من هذا كلّه، لماذا، نخرج الوحش من عرينه بعد دهر من الزمن؟»

Twitter: @ketab_n

قلت: «التاريخ، من فضلك».

بدأ الإعصار يهّب بقوة الآن، وكان اسمه «داماك». كنت أعرف أنه لن تمضي فترة طويلة حتى يشتد ويصبح كالزلزال، ويصبح مدمّراً مثل سقط تشرنوبيل. انتظرت.

لكنها غيّرت الموضوع. «هل تحاول أن تلحق بي أكبر قدر من الضرر؟» قالت بحدة، «كيف تجرؤ وتجعل شولونغو تقيم في غرفة كالامان، هنا في بيتك، وتعتبرها ضيفة مرحباً بها؟» كانت عدوانية جداً. ودون أن يتحرك لي جفن، نظرت مباشرة في عينيها المشحونتين بالعاصفة، وتابعت: «وبعد إهانتي بهذه الطريقة، كيف تجرؤ وتطلب مني أن أتذكّر أحد أكثر الحوادث في حياتي خزياً، اتهام ياقوت زوراً بسرقة حذاء شخص من حثالة القوم».

كانت حصاناً ذا نسب أرستقراطي. لكن كان عليها أن تترجّل، وكلما أسرعت في ذلك، كان أفضل، لأني قرّرت أن لا يصرفني شيء عن كشف الحقيقة.

فقلت: «يحق لك أن تطعني في نزاهتي بمقدرتي على الحكم على الأمور، إذ إنك تعرفين بأنني لا أساوم على مشاعر المحبة التي أكنّها لك ولياقوت كعائلة واحدة، أو أستخف بها. وبعد حديثي مع شولونغو منذ ليلتين، تكوّن لديّ الانطباع بأنها تنوي إيقاع الأذى، بك وحدك أو بالعائلة كلها. فإذا كانت تضمر مشاعر بغيضة، فهل تريدين حقاً أن تحمل طفلاً من كالامان؟»

«الكلبة»، قالت ولعنتها، «الساحرة».

لم يكن ثمة شيء يثنيني عن هدفي، فقلت: «أما ذلك الرجل من سفلة القوم، فلا أذكر إلا النصف الأول من اسمه الذي يعرف به، اسم مستعار أُطلق عليه بسبب يده المحروقة، وأصابعه الذابلة التي أصبحت قرمة شنيعة الشكل ذات نهاية مدبّبة. وكانت يد الرجل تشبه ذيل عقرب».

Twitter: @ketab_n

قالت داماك: «ليكن في قلبك رحمة!»

واصلت كلامي: «ما يثير حيرتي لماذا يجعلك ذكر هذا اسم هذا الرجل الشنيع تنفجرين كالبركان، إتنا؟»

«بعض البراكين تنفجر بين الحين والآخر، طوال تلك السنوات»، قالت وارتسمت على ملامحها معالم حزن كئيب: «وأنا أفعل ذلك كلّ ثلاثين سنة تقريباً».

«كنت على وشك أن تفقدين صبرك معي حتى في تلك الأيام»، قلت مذكراً إياها، «عندما كنت أحاول أن أستفسر عن تلك الحادثة القبيحة، عن سرقة زوج من الأحذية، ثمن كل فردة لا يزيد على القرش الواحد. ما هي القصة الحقيقية؟ لأني لم أسمعها».

تمالكت نفسها ثانية وقالت: «يجب أن تسأل ياقوت».

«هل عليّ أيضاً أن أحدّث ياقوت عن سبب أخذ بصمات أصابع شولونغو؟» سألتها، وقد انزعجت الآن بحق، «ما الذي ارتكبته هذه الشابة لكي تؤخذ بصمات أصابعها؟ ماذا أخذت منك؟»

أخذ جسدها كله يرتعش، وبدأ كوب الشاي يصدر قرقعة فوق طبقه. كان يتأرجح، وعلى وشك أن يقع. جلست ويدها ترتجف. كانت ترتعش وكأنها تعاني من برد شديد أو من حمّى.

فردت بعنف: «ما العار الذي جلبته لك أو للأسرة؟ لماذا تنبش في أشياء عفا عليها الزمن؟ لماذا تتناول مرحلة من حياتي أخجل منها؟»

«لم أتهمك بشئ. كلّ ما أريده بعض المعلومات».

«نعم. إنك تتهمني بشيء. نبرة صوتك تشي بذلك».

«ماذا تخبئين؟»

«ماذا تظن؟»

غيّرت أسلوبي، فقلت: «هل تريدين أن يفقد كالامان عقله؟»

Twitter: @ketab_n

لاحظت في عينيها بقعاً بنية أكثر مما كنت قد لاحظته من قبل، بقعاً بلون الصدأ. كانت عيناها مثل معدن قديم أخذ يشيخ، لكن فيهما نظرة حديدية. لم يرق لي ما رأيت. رحت أحدّق فيها. وأخيراً رمشت عينيها. قلت: «هل تريدين أن تنقذي حياة كالامان؟»

شممت رائحة غضبها المكتوم، كانت البقع البيض التي ترسم حدود عرقها القديم الذي جفّ الآن متشنجة ومتعفّنة. هل من الممكن، مع أنها كانت متأنقة في ثيابها، أن تكون كنّتي قد نسيت أن تستحم قبل أن ترتدي ملابسها؟ هل كانت هذه الإشارات تدل على الشقاق، علامات على إهمال الذات؟

قلت: «جميعنا نحبّك، وأنت كنتّي. إنك أقرب إليّ من بعض أولادي. لكننا نختلف حول شولونغو التي لا أظن أنها ساحرة أو كلبة. ما الذي فعلته كي تغضبي منها بهذا الشكل؟ ماذا تخفين؟»

قالت: «لا أحبّ أن أتكلم في هذا الأمر»، ونهضت.

لن ترغمني على الصمت. «إني أصرّ على أن تجيبي عن سؤالي: ماذا تخفين؟»

نظرت إليّ نظرة امرأة مخدوعة، عاجزة، ومتورطة في مشكلة حتى وركيها العريضين.

قلت: «هل ترتابين بشولونغو منذ اليوم الذي أخذت فيه كالامان إلى مكمن أنوثتها؟»

جلست، ووضعت رأسها بين يديها، وراحت تنشج.

قلت: «هل صحيح أن آرباكو، صديقتك منذ سنوات كثيرة، ساعدت في العثور على قابلة تخلّصت من ذلك الإحراج، أي الحمل؟»

اخترقت وعيي رائحة قوية. الرائحة التي هبت عليّ قرصت شفتي السفلى، وجففتها. بلّل لساني الشفة التي وقعت ضحية لهذه الموجة الحرارية المحلية. قالت: «لماذا تثير كلّ هذا الأمر؟»

Twitter: @ketab_n

قلت: «بصدق، داماك».

استغرقت في سلسلة أفكارها، ثم عادت أخيراً، وهي أكثر حزناً، مسافرة في عربة نوم لم يغمض لها جفن طوال الليلة الفائتة. قالت: «هل قالته لك؟»

لوهلة لم أكن واثقاً إن كانت تشير إلى شولونغو أم إلى آرباكو. قلت: «هل يهمّ كيف عرفت؟ ضعي كلّ الفرضيات جانباً»

بدت حقودة دنيئة. قالت: «أعرف حقيقتين مريعتين أيضاً، سأخبرك بهما. وإذا كنا في مزاج الإفشاء بالأسرار القبيحة، إذن دعني أذكّرك بأنني أعرف عنك وعن شولونغو».

فقلت: «أخبريني».

قالت: «لم تكن الشمس قد أشرقت بعد. وكانت سحب الصباح تخيّم فوق النهر. وكان ثمة رجل عجوز يستمتع بالسباحة في النهر، عندما غاصت بهدوء كسرّ دفين، شابة وأمسكت الرجل في أسفل بطنه. ثم أخذته في فمها. هل هذا صحيح أم لا؟»

لن أسألها كيف عرفت بهذا الأمر، فقد خشيت أنها تحاول أن تنزلني إلى هذا المستوى لاستخلص نتيجة جانبية. وهذا الأمر لن يساعدني كثيراً. ولم يكن ثمة داع لإضافة تفاصيل دقيقة جداً إلى القصة، ولا يوجد ثمة داع لأن أذكّرها بأنني ركلت الشابة التي أخذتني عنوة في فمها. وأنها نزفت دماً كثيراً. لا يهم إن بدأت هذه الأشياء، التي ظلت مخبأة لسنوات، تظهر الآن، أسرار سبب الاحتفاظ بها القلق، والتي بضغط منها غادرنا بيت العقلاء وذهبنا إلى دار المصابين بالجذام، مشفى المجانين.

سادت فترة طويلة جداً من الصمت.

Twitter: @ketab_n

قدمت لداماك ماءاً بارداً وقليلاً من الخلّ لتزيل من ثوبها بقع الشاي. وعندما عادت، قدمت لها كوباً من الشاي مثقلاً بالسكر، ربما للتخفيف من شدة المرارة في فمها. أشعلت سلسلة من السكائر ورحت أنفث منها النيكوتين لأهدئ من غلوائي.

قالت: «إن شولونغو ليست مثلي ومثلك».

ذكّرني هذا بما كان يقوله العنصريون البيض عن الإفريقيين. قلت: «لا يمكن أن تكون شولونغو أكثر من مجمل أفكارها المتذكّرة». لا بد أني اقتبست قول أحدهم، لا أتذكر من هو. ثم أضفت: «إنها لا تزيد ولا تقل عنك. إنها بشر مثلك ومثلي».

قمت بحركة وكأني سأغادر. شعرت بالإهانة.

«إني أشير إلى ما حدث منذ سنوات»، قالت.

كان صوتها حاداً شبيهاً بالمعدن. قاطعتني. لبثت واقفاً. كان صوتها يأمرني بأن أعيرها انتباهي. خيّل إليّ أنه لم يعد لدينا وقت كثير لإزالة ما علق بشولونغو قبل أن أغمض عينيّ، قبل أن أغادر هادئاً هدوء أجنحة نسر ينطلق ليحصل على شريحة من السماء، ميتاً.

قالت: «لقد سمعتك»، وأضافت، «هل ستسمعني؟» فقلت: «أرجو أن تعدّلي رأيك».

«لن أقبل أيّ شروط مسبقة»، قالت مهددة.

قلت: «عندما تتحدثين عن شولونغو، أريدك أن تتذكري أن مجتمعنا الذي لا يتمتع بالإنسانية، ضميرنا الجماعي الذي هو أساس ثقافتنا، كان قاسياً جداً عليها عندما كانت طفلة، كإنسانة. فهي امرأة، بحق السماء، امرأة أخرى». كنت أمثل الشراسة ذاتها، وأخذ العالم شكلاً مباشراً.

قالت: «إنك لا تنصت إليّ».

قلت لها: «أرجو أن توضحي كيف يمكنك أن تطلبي أن تؤخذ

Twitter: @ketab_n

بصمات أصابع فتاة مراهقة من أجل تهمة ملفّقة بأنها سرقت؟ هل كان لديك إثبات على ذلك، إثبات تقدمينه إلى محكمة؟»

اختلج وجهها كما يفعل أنف أرنب يحاول أن يقرر إن كانت الرائحة التي يشمها في الهواء رائحة خطر أم رائحة طعام. قالت: «لم تكن تهمة ملفقة».

«ماذا سرقت؟»

قالت: «من الواضح أنك ضُلّلت».

قلت: «إذن نوّريني، كليّ آذان صاغية».

من الإنصاف أن أقول إني كنت أعجب بها، لأنها كانت تقول رأيها بصراحة. لكنها كانت مختلفة اليوم، فلم تعد تستخدم فقرات إضافية اعتادت على استخدامها للتخفيف من حدة هجومها. وكانت هذه الفقرات، التي كانت مولعة بها، تتضمن عبارات ذرائعية مثل «أنت تعرف أنني لا أريد أن أختلف معك» أو «قد تفاجئ إذا علمت أن» أما في هذا الصباح فكانت تمثل الصراحة بحد ذاتها. وفي تصوّري، فإن داماك سلحفاة، ما أن تستشعر بوجود خطر وشيك، حتى تدير لك فقراتها الظهرية كي لا تصاب بالأذى. لماذا لم تلجأ إلى البكاء، ذريعة ربما كانت تخفي وراءها وصمات واضحة، مثل قلم حبر تتسرّب منه نقاط من الحبر؟

«هناك تخمة في الإرادة»، قلت كسبيل للإعتذار. «فهناك عدد كبير من العقول القوية التي تعمل في الأرض ذاتها. وشولونغو هي الأرض التي نحرثها جميعنا، تربة خصبة جداً، داكنة مثل ما تنتجه الأرض الجيدة. إنها الأرض، إنها القضية، إنها مصدر الكثير من النوايا السيئة. كلّ فرد في عائلتنا المباشرة متورط في هذا». ثم تابعت كلامي بعد لحظة توقف، «أضيفي إلى ذلك الواقع بأنها تدرّبت في أمريكا، كي تصبح متغيرة الشكل، قادرة على الدخول في طاقة قواها السحرية. فالسحرة يشفون المرضى لكنهم لا يسببون الأذى».

Twitter: @ketab_n

فقالت داماك: «كما أرى الأمور، فهي ناقمة على المجتمع الذي ما فتئ يعاملها بأنها دوغان. إن شولونغو امرأة ممتلئة بالحقد. ولا أظن أنه يوجد علاج لأساليبها. إنها حقودة، في نيتها إيقاع الأذى. إنها الموت. إنها الابتزاز. سترى ذلك. وإلا لماذا تجعل كالامان يشرب من دم حيضها».

«لماذا تلومينها؟ لماذا لا تلومين كالامان على ما فعله؟»

«أأنحي باللائمة على صبي سحرته حتى درجة الافتنان والهيام بها؟» صاحت. «هل جننت؟ كان آنذاك واقعاً تحت تأثيرها. كان سيرتكب جريمة قتل لو طلبت منه ذلك».

«الساحر يشفي»، قلت مذكّراً إياها.

«ليست هي!»

«في حلم تنبؤيّ رأيته في الليلة التي سبقت مجيئها إلى شقّة كالامان، ادعيت أن شولونغو شقت طريقها إلى عقلك الباطن. قلت إنك دعيت إلى حفل زفاف ابنك، ووجدت أن العروس لم تكن هناك، وأنت حللت محلها. لقد تزوّجت ابنك. الآن سأطرح عليك ثلاثة أسئلة ذات علاقة بهذا الأمر. أولاً: لماذا تلومينها على التوتّر الحاصل في البلد، وكأنها المسؤولة عن ارتكاب الناس الانتحار الجماعي؟ الثاني: هل رأيت وجهاً يمكنك أن تقولي اسمها؟ والثالث: كيف صدف وعرفت اسم شولونغو من بين مليون شخص علماً أنك لم ترينها منذ عشرين سنة؟ هل يمكن أن تكون قد جاءت إلى محلك، ولم تعرفينها إلا بعد أن غادرت؟ ثم وفي تلك الليلة، تحوّل تذكرك لها إلى حلم؟ لأنها كانت هنا، في البلد، عندما رأيت الكابوس في منامك. والرابع: لماذا تلومينها؟ لماذا لا تلومين نفسك؟»

بشيء من الهدوء قالت: «لم أرها».

«ماذا يجعلك واثقة من نفسك إلى هذه الدرجة؟»

Twitter: @ketab_n

«كنت عرفتها من رائحة جسمها».

«ألم تكوني تعرفين أنها في مقديشو»؟

«كنت آخر شخص علم بذلك».

«وأول من أطلق جرس الإنذار؟» قلت مستفزاً.

عادت إلى مزاجها اللا عقلاني، وأخذت تصيح: «إنها ساحرة وكلبة. وتيمير، أخوها الغير شقيق، يوافق على هذا الرأي. إنها لا تستخدم إلا كلمات كبيرة غير مفهومة توضع في أكياس علمية للتأثير».

لا فائدة ترجى من الحديث معها. كان كلّ كياني متوفزاً. كنت مثل قطّة طاردت جرذاً حتى فتحة مخبئه. وعندما حوصرت، راحت داماك تفرك أصابع يديها وكأنها تبعد ضميراً شائناً. جلست منحنية قليلاً، مثل ممسحة في سطل، وقالت: «ما لا أستطيع فهمه، لماذا اختارت أن يكون ابني كالامان أباً لطفلها؟»

عكّر حنقها المتجدد صفو هدوئي الداخلي. حاولت أن أبدو ذلك الرجل التقي عندما قلت: «المسألة برمتها عبارة عن أسرار، ومعرفة الأسباب لفكّ أسرار بعضها. وقد قال الصوماليون الكثير عن احتواء الأسرار، عن الجن القابعين في لغز تفكيرهم. فهم يعتقدون أن كتل السحاب هي التي تحتوي على كميات مجهولة من الأسرار التي ستكتشف في لهيب نار يتغذّى على خشب رطب. لحركة عبّاد الشمس أسرار أيضاً. ولأننا لا نهتم بالسلوك السري لنبات أو بئر أو حيوان لكي لا تصبح حياتنا في خطر. هناك مليون سرّ وسرّ في كلّ شيء نلمسه. ومن المحزن، أننا لا ندرك وجودها. وقد سألت شولونغو أيضاً عن السبب الذي جعلها تختار كالامان، ورفضت أن تفسر السبب».

قالت: «سأفعل أي شئ لأنقذ كالامان من قبضتها الشيطانية، أيّ شئ»، حتى أني مستعدة لأن أقتل، إذا كان ذلك البديل الوحيد المتبقي أمامي». بدت مثل أيّ أمّ، حطب يطقطق في محرقة حبّها القرباني.

Twitter: @ketab_n

«نصيحتي لك بأن تتكلمي، لا أن تقتلي».

«أتكلّم مع من؟ هل جننت؟»

«تكلّمي مع كالامان»، قلت لها ناصحاً.

«قولي له كلّ شيء».

«هل سيفيد ذلك في شيء؟»

«لا تخبئي أي أسرار عنه».

كانت راحتا يديها تتجهان إلى الأعلى، ودون أن تقتنع، قالت: «إذن؟»

قلت ناصحاً: «بحديثك بصراحة مع كالامان ستحررينه من قبضة الخوف والقلق في قلبه وعقله. افتحي قلبك له».

أرسلت عينيّ في مهمة مخفية، واستنتجت أن غيوم العاصفة عبرت فوقنا، وأنه لا يوجد إعصار اسمه داماك يمكن أن ينفجر. «أما بالنسبة لأمنية شولونغو في أن تنجب طفلاً من كالامان، فيمكننا أن نجد وسيلة لذلك».

«لا يمكن»، قلت مقسماً.

كان تقلب مزاج داماك الكليّ الوجود حاضراً. من الواضح أني لم أقدّر جيداً حدة غضبها. كانت متكلمة عنيفة، تلّون حديثها باستخدام يديها وكأنها أعلام ترفرف وسط عاصفة رملية. «هل تسافدها؟»

قلت: «أسافدها؟ لكنها ليست حيواناً».

توقّفت يداها عن الإيماء بجنون. «إنها لا تختلف في شيء عن الحيوانات التي يضاجعها بشر». ومع أن حركاتها كانت سريعة، فإنها لم تكن مهذّبة.

قرّرت أن لا أتأثر بحركاتها الاستفزازية، وكنت أدرك أنها كانت تتحدث بغضب. السفاد، في الحقيقة ـ وكأنها تصف التزاوج بين حيوانين

Twitter: @ketab_n

بهدف التكاثر، أو مضاجعة إنسان مع حيوان لأسباب شهوانية، قلت: «إذا كان سفادها، كما ذكرت، سينقذ كالامان من الدمار، فسأفعل أنا ذلك أيضاً»

خرجت محتدمة من غرفة الجلوس.

في مكان ما في البيت بدأ المذياع يبث أغاني حزينة تقطر كآبة على موت حبيب. كان صوت المغني مشبعاً بالأسى، متمنياً أنه لم يهجر حبيبته. كانت داماك قد أصبحت خلفي الآن، بعد أن غسلت وجهها بالماء البارد ووضعت طبقة جديدة من الكحل على جفنيها.

قالت داماك: «الألغاز هي شرط شولونغو. هكذا هي، دم حيض في جرّة عسل، تغمس سبابتها فيها وتقول لكالامان الشاب هيا، تذوقني».

سألتها: «كيف عرفتِ ذلك؟ دعينا لا نتسرع في تخميناتنا».

«كنت أختلس النظر من ثقب الباب. أعرف ذلك!»

ودون أن تنكر أو تطعن في تخميني، قالت: «إذا لم يكن ما فعلته تلك الكلبة الساحرة أحقر أنواع السحر، فأنا لا أعرف شيئاً»، ثم فعلت داماك حركة غريبة وكأنها تحمي نفسها من الضرب.

سألتها: «ماذا حدث أولاً: سرقة الوثيقة، أم تناول كالامان بعضاً من دم حيضها المحفوظ في جرّة عسل، أم كان في كشتبان؟»

«لماذا تعذّبني؟»

قلت: «هل أعذبك؟ لنا جميعنا الحقّ في الاحتفاظ بأسرارنا».

«إن هذه الأسرار مثل أسرار شولونغو ملعونة!»

«إن الأسرار هي التي تحددّ ماهيتنا، تصمنا، تميزنا عن الآخرين جميعهم. إن الأسرار التي نحتفظ بها توّفر مفتاحاً لنعرف من نحن، في أعماقنا».

Twitter: @ketab_n

ارتسمت ابتسامة على فمها، وأخذت تربت على شفتيها. عرفت بالغريزة وبشكل مباشر أني لم أتمكن من إيقاعها في الفخ الذي نصبته لها. طالت الابتسامة إلى حد جعلها تصبح تهديداً. أخذ أحدنا ينظر إلى الآخر عبر خليج من الصمت لم يكن أحدنا على استعداد لكسره. تذكّرت كالامان وهو يقارن الأسرار بالأشياء التي تنمو على الجسم، دمامل لم تصل إلى مراحلها الأخيرة وتتقيح كي تنفجر. وفي ذات يوم، وفي لحظة ما، يحدث شيء. يصبح السرّ مسعوراً مثل فيل هائج، ويتحول العالم إلى فيدو بلا رأس، ويتناثر الدم والعظام واللحم في كل مكان، ولا يعد أحد منا يتمتع بالحكمة.

قالت داماك وفي صوتها نبرة تهكم: «يتبع الحظ السعيد طريقة غير منطقية لحماية ذاكرة المرء من الأوقات الشريرة التي عاشها ذات يوم». وبتردد مزيف ظننت للحظة، أنها ستغيب عن الوعي. استويت واقفاً، ووقفت بجانبها أطلّ من فوقها. تلامست أطراف أصابعنا، ولامست يدي الممدودة يدها. وعندما أحسست بضعف في إرادتها، ساعدتها في الانتقال إلى كرسيّ الهزاز. ظلت داماك ثابتة، لا تهزّ الكرسي.

لاحظت وصول الكثير من طيور الصباح، وكانت الطيور تتواصل بواسطة النعيق. أحسست بدغدغة في مؤخرة رقبتي، لكنني لم أجرؤ على أن أحكّها، كي لا أقتل فراشة. كيف عرفت بالفراشة؟ كنت أجلس أمام نافذة، ورأيتها ترفرف مترددة قبل أن تحط بين ياقة قميصي وفقرات عمودي الفقري العليا.

ثم وبشيء من القلق، شعرت بوجود كالامان في غرفة الجلوس التي كنا فيها أنا وأمّه. كانت عيناه غائرتين، مثل الغلاف المعدني لجرس بدون لسان ليقرعه، وكانت داماك تقبع في عينيها الغاضبتين.

هربت من المشهد.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

استيقظت. كنت أشعر بأني نصف ميت في غرفة نونو. لكن حماماً طويلاً وحاراً أنعشني. وظلت عيناي تفتقران إلى التركيز، كما لو كنت أنظر من خلال نظارة وصفت لشخص أكبر سناً.

بعد أن خرجت من غرفة النوم مباشرة، وبعد أن ارتديت ثيابي وأحسست بالانتعاش، بدأت أسمع أصواتاً. عندما تتبعت اتجاه الأصوات، وجدت نفسي في غرفة الجلوس، حيث كان نونو وأمّي. بدا أنهما قد استنزفا نفسيهما، وكذلك الموضوع الذي كانا يتناولانه. كانا أشبه بملاكمين منهكين، لم يفز أحدهما بأي جولة، ولم يرغبا في التوقف عن المباراة. أين مكاني في هذه المباراة؟ كانا في الجولة الأخيرة في حلبة لا يوجد فيها مكان لملاكم ثالث. ولم يكونا بحاجة إلى حكم، ليس أنا على أي حال، وخاصة وأن المباراة التي كانا يلعبانها كانت قد بدأت منذ فترة طويلة. غادر نونو الغرفة، بعد أن أدرك أنه لم يعد هناك شيء يمكن أن يقوله أي منهما، أو لم يعد الخوض في الحديث مجدياً. وبعد أن غادر الغرفة، لم يشعر أحدنا بالارتياح تجاه الآخر لبرهة قصيرة. لكننا سرعان ما وجدنا حلاً، فانتهزنا حركة الصباح التي دبت فيها الحركة. ابتسامات. عناق. قبلات. لا أذكر من منّا بدأ ذلك. كانت أمّي تنشج. ربتّ على كتفها، ودمدمت بضع كلمات رقيقة. بدأنا نسمع صوت قطع الأخشاب في الخارج. بدأنا نصغي إلى الحياة وقد دبت فيها الحركة.

Twitter: @ketab_n

جلست، لا أعرف ماذا أفعل بنفسي المحطمة، بعد أن غزت عقلي صور غير متناسقة: أطراف مبعثرة، ورسغ رخو بدون أربطة، وعظمة طويلة خارجة من أحد الأطراف، وقد زالت عنها جميع الأنسجة واللحم الذي يكسوها. باختصار، أصبحت أحجية صور مقطّعة لأشياء غريبة، ففي لحظة رأيت رجلاً يطأ نثار زجاج مكسور، وفي اللحظة التالية، رأيت شكلاً معدّلاً. كنت أشبه بحرباءة حذرة. خطوت خطوة إلى الأمام، ونصف خطوة إلى الخلف، وكأني كنت أتسلق جبلاً شديد الوعورة، سحيق الغور نحو قمة تحديد الذات. وبسبب شلل جزئي في عضلة عصب عيني اليسرى، بدأت أرى كلّ شيء مضاعفاً.

منذ لحظات، وفيما كنت أستحّم، قالت لي زاريبا، مدبرة منزل نونو، تستحثني: «تعال بسرعة». وبطريقتها العصبية، كانت تريدني أن «أحبط أيّ مشكلة محتملة، إذا كان بالإمكان تحاشيها»، وقالت إن أمّي غاضبة وتتصرّف «بطريقة غريبة، تلقي الاتهامات يميناً وشمالاً، وتنثر بذور الاحتقار على الأرض التي يقف عليها نونو». خرجت، والماء لا يزال يقطر مني ولم أكن قد غسلت الصابون تماماً عن جسمي، عندما ذكرت زاريبا أيضاً أن أمّي كانت تحمل سلاحاً. «إنها تريد أن تقتل أحداً»، ولم تكن مدبرة المنزل تعرف من. سألتها كيف عرفت بوجود السلاح. تردّدت في بادئ الأمر، ثم اعترفت، بعد قليل من الصمت، بأنها كانت تختلس النظر إليها ورأتها. قالت إنها فعلت ذلك «لمصلحة الجميع»، واعترفت بأنها تنصتت كذلك على نونو وعلى أمّي.

اعتراني شعور بالدوار، بينما كنت أدفن داء الشقيقة الذي كان يهاجمني في غمرة هدوئي. أشحت بنظري عن أمّي إلى نونو الذي ذهب. وبعد قليل، بذلت ما بوسعي لكي أدرّب عينيّ على حقيبة أمّي اليدوية. لكن بعد أن رأيت حقيبتين، العين اليمنى تنقل ما أرى، واليسرى ترسل الأشياء بطريقة مبعثرة، قرّرت أن أخلصها من فرضياتها

Twitter: @ketab_n

الخاطئة: بأن لا أحد يعرف أنها تحمل سلاحاً نارياً، أو أنها تنوي قتل شولونغو.

كما قلت، لم أكن متأكداً كيف سارت الأمور. كنت مشوشاً. هل لامست شفتاي، وأنا نصف منحن، خديّ أمّي للمرة الثانية؟ هل نهضت قليلاً لتتلقاهما، وهل التقينا في منتصف الطريق؟ لا يهم. على أية حال، هل كان شيئاً له علاقة بروائحها، مزيج غريب من الروائح التقليدية والمستوردة ـ أم شيئاً له علاقة بالإفراط في ارتدائها لثيابها، إسرافها؟ ـ قد غيّر موقفي. قرّرت أن أثير حنقها، لا أن أسترضيها، وافترضت أنّ تغييراً في درجة حرارة لقائنا قد يحلّ عقدة لسانها. وإذا لم أطرح عليها أسئلة تتعلق بالأخلاق، فقد ينطلق لسانها. وبما أني كنت أعرفها حق المعرفة ـ وكان هذا واضحاً بالنسبة لطفل في الثانية من العمر ـ فما أن كانت تدرك أني متضايق حتى كانت أمّي تسرع تخفّف عني وطأة أحزاني. قالت: «أعدك بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام بعد فترة وجيزة».

سألتها: «لماذا تحملين سلاحاً؟»

أجفلت. بدت عاجزة مثل صقر مكسور الأجنحة. لقد صدمها سؤالي المباشر. ظلت شفتاي ترتعشان بعد أن نطقت كلماتي بفترة طويلة. كانتا شديدتي الحرارة وهما ترتعشان.

لكني سرعان ما استرديت عافيتي. «من أجل حمايتي».

«بالتأكيد لن يخيف هذا السلاح الصغير المدافع الثقيلة التي تستخدمها المليشيا وجيش النظام» قلت متحدياً إياها، «لا مسدس صغير في حقيبة امرأة، إنه مجرد لعبة طفل؟»

قالت بطريقة مأسوية: «إن كلّ مالا يغتفر له فهو عار!»

سألتها: «لماذا تقولين هذا؟»

قالت: «ليس لنونو علاقة كي يحشر أنفه في محتويات حقيبتي»، ثم

Twitter: @ketab_n

ألقت بطريقة مسرحية قطعة مسواك نصف ممضوغة إلى منفضة سكائر نونو، التي كان الرماد وأعقاب السكائر تطفو فوقها. كان لتكشيرة أمّي فوائدها، وكانت تعرف كيف تستغلها إلى أقصى حدّ. كان بإمكانها أن تغيّر مسار أي حديث، وذلك بأن تلوّح بذراعيها بغضب وتلعن وتصرخ ساعات طويلة حتى يتوقف الطرف الآخر عن مواصلة حديثه.

كنا أنا وأمّي نعرف بعضنا جيداً. قلت لها: «لماذا تتهمين نونو بأنه يحشر أنفه في محتويات حقيبتك، ومتى لم يفعل ذلك؟ ومن المفيد أن تجيبي عن سؤالي حول المسدس. لماذا تحملينه؟ من ستقتلين؟ تلك المرأة الساحرة، الكلبة؟»

«لا علاقة لأحد إن كنت أحمل مسدساً أم لا».

فقلت: «هناك مكان للسلاح في حقيبة أمّي»، وأضفت، «يقولون إنك تموت بالبندقية إذا كنت تحمل واحدة، أو إذا استعملت سلاحاً لتحصل على أيّة مكاسب. في واقع الحال، فإن عدد الأشخاص الذين يحتفظون بأسلحة في بيوتهم والذين يقتلون على يد مسلّحين آخرين، أكثر من عدد الأشخاص الذين لا يحملون سلاحاً على الإطلاق. إنّ لدى رجال المليشيات والمجرمين الذين يعملون في خدمة الديكتاتور أسلحة أكبر منك، وهم في غاية الوحشية. إذن لماذا تحملين لعبة أطفال؟»

قالت: «هل يفتش نونو في كلّ مكان، أو أن زاريبا تتنصت علينا؟»

قلت لها: «لعل أبي ذكر أنك تحملين مسدساً. نعم لقد ذكر لي ذلك في حقيقة الأمر. وقال أيضاً إن شرطياً من أبناء عمومتك سيدّبر لك سلاحاً نارياً. أليس هو من حرّضك منذ سنوات عديدة على أن تؤخذ بصمات شولونغو؟»

هنا بدأت تمثل دورها بأنها تنتمي إلى الجنس الضعيف، فأخذت تصدر صوتاً بين النشيج والبكاء. وكان هذا يعني أن تغيّر مسار حديثنا. وقالت: «ماذا يحدث في العالم، فالرجال المحترمون يحشرون أنوفهم في شؤون النساء؟»

Twitter: @ketab_n

فقلت: «إن كنت تقصدين بالنساء شولونغو وأنتِ نفسكِ، فربما كان عليّ أن أذكّرك بأن جريمة القتل، عندما ترتكب، تصبح شغلنا الشاغل، نساء ورجالاً على حد سواء. لا يمكننا أن نغلق أعيننا عن ارتكاب جريمة القتل، بما أننا لن نتمكن من الفكاك منها».

«أين هي، على أية حال؟»

كانت أمّي تريد أن تجرّني إلى مستنقع. فأعدتها إلى مكان أكثر جفافاً، وقلت: «شولونغو ليست مختبئة في بيت نونو».

«لا أعرف كيف أصدقه إن قال لي إنها ليست مختبئة فيه».

فقلت: «ماذا تقصدين؟»

«لأن كلّ عمل يقوم به نونو هو احتفال بالسرية. فالرجل ينحو لرعاية الأسرار وتغذية الأسرار، واكتشاف الأسرار. وهو لا يشعر بالحرج في أن يفتش عن الأسرار بين المحارم الورقية في حقيبة امرأة. لا بد أنه فخور بك. لأنك إذا سرت على خطا نونو فإنك ستكتشف مخبأ في أيّ فتحة في كلّ مكان، تنبش الأسرار في داخل صندوق، خزانة، من وراء شجرة، تتنصت، تستمع إلى كلام الناس».

«لا أفعل مثل هذه الأشياء»، قلت بضعف. «ولا نونو».

«إنه معلمك، إنك غنيمته لأنك تلميذه وحفيده».

لم أبد أي تعليق.

«كانت زوجته المتوفاة تعرف ذلك»، واصلت أمّي كلامها، «وقد تحدثت زاريبا، وكاثي عشيقته الأمريكية عن ذلك أيضاً. وفي أشياء كثيرة، فهو على صلة بشولونغو. ربما كان يتعاطف معها لهذا السبب ـ لأنه ذهب، مثلها، إلى منحدر الموت وعاد منه. ونام أيضاً في سرير الموت الشائك قبل أن يهرب جنوباً. وهو الآن يعيش في ذعر الموت الذي يلاحقه. يقولون إن من يحمل أمنية سرية بالموت يعيش فترة

Twitter: @ketab_n

أطول. إنه سيبلغ الرابعة والثمانين في السنة القادمة. ومن شكله يبدو أنه سيعيش أكثر منا جميعنا، أنه سيدفعنا جميعنا، بالتواطؤ مع شولونغو».

قلت: «أرجوك!»

كانت التجاعيد تملأ وجهها. كان الإجهاد باد على وجهها. «بعد أن كسرت شولونغو قفل صندوق مجوهراتي لتأخذ منه إحدى وثائقي»، تطوّعت أمّي قائلة: «جاءت إلى هنا. فقد اختبأت هنا يوماً وليلة».

هل كانت أمّي تشير إلى الرسالة المزعومة التي تركتها شولونغو سرّاً، في بطن الكركدن؟ كنت مسروراً بأنّ نونو تذكّر الحادثة بعد وقوعها بسنوات عديدة. لكن هل سيتمكن من وضع يده على الوثيقة؟

قالت أمّي: «لم أتحدث بالسوء عن نونو في حياتي كلها. ولا أريد أن أفعل ذلك الآن. لكن تعتريني القشعريرة عندما أتذكر أشياء كثيرة غريبة كان قد فعلها. كان بعضها غريباً للغاية بحيث يمكنني أن أقسم بأنه إما أنه يشتغل في السحر، أو أنه رجل يحمل أسرار الموت والحياة من أجل حمايته مثل شولونغو».

كانت شمس الصباح واعدة. كانت تفور في سطوعها، حارة كمزاج الشباب. وشكّل سطوعها حدود امتداد الشمس، نصف دائرة من الظلال تمتد كذلك إلى المناطق التي لم تلمسها، مثل أصابع يد، إلى داخل شكل آخر أكثر ظلمة. وقد وضعتني هذه الأشكال في صورة هلال، وأجنحة صقر في وضعية الانقضاض على فريسته. ولم أكد أراجع قراءتي لمعنى الظلّ حتى سمعت صوت أمّي، ندياً كالخدود المبللة بالدموع.

قالت: «الحبّ قاس».

فقلت: «الحقد اللاعقلاني أكثر قسوة».

«الحبّ يعتصر قلبي ويجفف دمي».

قلت لنفسي، الحبّ، أمّ مسلّحة. لكني لم أقلها.

Twitter: @ketab_n

قالت: «إن دفقة مفاجئة من الدم تجعلني صماء عندما أتذكّر إهانات شولونغو لك. أفكّر بجرائم القتل التي ترتكب في وضح النهار، عندما أتذكّر كيف جعلتك تفعل ما فعلته».

نهضت. ذهبت لأتناول حقيبة أمّي، التي فتحتها. أخرجت المسدس القديم. لكني لم أفكر حينها بما يمكن أن يفعله المسدس، لكن جماله. تحسسته بأصابعي، ولم أتخيّل أن شيئاً أنيقاً كهذا يمكن أن يسبّب الموت. هل ستستخدمه أمّي للقتل؟ لم أكن واثقاً من ذلك.

إلا أن المسدس كان يسبب مشاعر حادة كثيرة بيننا حتى دون أن تضغط على الزناد. هل ينبغي لي أن أخبر أمّي بأني أعرف عنها أكثر بكثير مما كانت تظن، بعد أن تكلّمت مع أبي ونونو؟ اعتراني شك الآن بأن نونو كان يهزّها في الماضي وكأنها شجرة مثمرة لا تعطي ولا حبة واحدة من تين المنّ. وكانت المسكينة تتماثل للشفاء من صدمة الهزّة التي تعرضت لها. أعدت المسدس إلى حقيبتها اليدوية، ووضعتها بجانبها.

كانت في مزاج يجعلها تحكي قصة شعبية. قالت: «ثمة حكاية تقول إن ذبابة رأت خلية نحل في بستان. وقدمت الذبابة نصف ما تملكه كي يحق لها أن تغمس جناحيها في العسل. واتفق على أن تُمنح نصف أملاك الذبابة إلى ملكة النحل، التي سمحت للذبابة أن تمكث ما شاء لها في العسل. وفي النهاية، اعترى الذبابة التعب والملل بسبب وجودها في العسل، وأرادت أن تخرج. سألتها نحلة صغيرة كانت تقف بالقرب منها، ماذا يمكن أن تمنحها الذبابة إذا ما ساعدتها. عرضت الذبابة قائمة من الفوائد العديدة. لكن النحلة الصغيرة لم يرق لها ذلك. وعرضت الذبابة أخيراً أن ترافقها إلى الوادي حيث يموت طائر دليل العسل بالملايين. وافقت النحلة الصغيرة وامتلأت بهجة. ساعدتها في الخروج

Twitter: @ketab_n

من الدبق. طارت الذبابة، ولم تترك وراءها سوى ضجيج طنينها القبيح لوعد لم يتحقق في أذنيّ النحلة الصغيرة».

وكما لو كانت على موعد، جلبت لنا زاريبا الشاي وغادرت.

وتذكرت فجأة كم كان شغفي بشولّونغو أثناء فترة المراهقة قوياً، إذ هام أحدنا بالآخر، وجعلنا نمزّق أحشاء بعضنا، غير عابئين بالضرر الذي كنّا نحدثه لنفسينا. فإذا كانت تتمتع بقوة، لم أكن أتصوّر أنها كانت قوة حيوانية، بل قوة شخصيتها. وإذا كانت قادرة على أن تغيّر نفسها إلى أيّ شئ، فلم يكن بوسعها ذلك إلا لأننا، أنا وأمّي، كنا أضعف منها. لا نونو، ولا أبي. فقد كان إيمانهما بنفسيهما قوياً، وكانا كريمين معها أكثر مما كنت معها أنا أمّي. إلا أن حزناً كبيراً خيّم على المكان، وراحت أمّي المعروفة بكلامها السريع، تتكلم ببطء.

«لم تعد الأمور مفهومة» تجرأت وقلت.

فسألت: «وما الأشياء الغير مفهومة؟»

قلت: «يبدو أنني لم أفهم معنى قصصك الشعبية، ولا أرى أي صلة لأحلامي والألغاز والأسرار التي تحبك لتكون حجاباً. وفي الوقت نفسه، فإنك تتبادلين أنت وشولونغو الشتائم والإهانات، وتتبادلين أنت وأبي الأسرار، وتتبادلين أنت ونونو إساءات مبطّنة. والآن، هل يوجد رجل، بالإضافة إلى أبي، كان قد لعب دوراً في حياتك قبل أن أولد؟»

كانت هذه مسألة بسيطة لأمّي. «لا يوجد شيء».

ثم تذكّرت أن نونو كان قد ذكر رجلاً يعرف باسم مستعار هو غاكم إكسوم. لذلك سألتها: «ما اسمه الحقيقي؟»

مع أنها ارتعشت، لم تنبس بكلمة، بل أدارت ظهرها لي لكي لا أرى وجهها. «سأسأل أبي».

Twitter: @ketab_n

لم تقل شيئاً.

«لنحاول هذا. ما هي الوثيقة التي سرقتها شولونغو؟»

اعتدل صوتها وقالت: «إنها شهادة زواجي».

«لماذا؟»

«اسألها بنفسك».

«لماذا أحضرتها إلى هنا؟ لماذا تختبئ هنا يوماً أو يومين؟»

«يجب أن توجه هذا السؤال لها».

«هل تظنين أنها أعطتها إلى نونو، ليحتفظ بها؟»

«إسألها بنفسك».

كان دماغي أشبه بسلك يحترق من أحد طرفيه. وكان هناك أيضاً جهاز تفجير متصل بالطرف الآخر. لم أكن أعرف متى يمكن أن ننفجر ونتطاير أشلاء في الهواء. سألتها: «هل كنت تخططين للطلاق من أبي؟»

«بالطبع لا».

«هل كنت مخطوبة لرجل آخر لتتزوجي منه بشكل قانوني؟»

«ما هذا الهراء؟»

«لماذا لم تحصلي على نسخة إضافية منها من البلدية، إذا لم تكوني تخططين للطلاق من أبي وإن لم تكوني مخطوبة سراً إلى رجل آخر؟ لماذا كل هذه الجلبة؟»

قالت: «إنك لن تفهم».

سألتها: «كنت تريدين أن تستعيدي النسخة الأصلية؟»

لم تقل شيئاً.

«هل كنت تريدين معاقبتها؟»

«أشكّ بأنك ستفهم».

Twitter: @ketab_n

«لماذا تريدين أن تقتليها الآن؟»

لبثت ساكنة، لا تتكلّم.

«لماذا يا أمّي؟ لماذا؟»

كانت أصابع يديها متشابكة وتضغطهما بقوة. أخذت رشفة من الشاي وأنا شارد الذهن، وتركزت نظرتي على قشدة الحليب الرقيقة التي كانت تعوم على سطحه.

قلت: «هل تعرفين كيف كنت أشعر عندما كنت أدخل إلى الغرفة فتصمتين أنت وأبي على الفور؟ أو تغيّران موضوع حديثكما؟ هل تعرفين كيف كنت أشعر؟ كنت أشعر بأنك ربما لا ترغبين فيّ. أو أنك كنت تخفين شيئاً عني ـ لعلي كنت طفلاً بالتبني، ولم تكوني تريدين أن أعرف ذلك».

جاء صوتها قاسياً: «ما هذا الشيء القاسي الذي تقوله لي!»

قلت: «إن منع طفل من معرفة الجانب الرقيق والحنون من أبويه لهو أكثر قسوة. إنك تجعلين الطفل يرتاب بنفسه. جنون الشك ينهش قلب غير الأحبة. وفي النهاية، تخطر في بال هذا الطفل جميع أنواع الأكاذيب. كنت أرتاب بالبشر ولا أثق بهم، فسعيت لمصاحبة الحيوانات الأليفة. وعندما لا أكون مع نونو، الذي كان منفتحاً معي أكثر من أيّ منكما، كنت أقوم بأعمال من أجل فيدو. ومكرهاً، تغذّيت على طعام فاسد من الحقد الذاتي، عندما دخلت ولذت بالصمت».

دفنت أمّي رأسها بين يديها المكورتين، وأخذت تنشج. جلست بجانبها، لكني لم أملك الشجاعة كي ألمسها. كانت هناك بقعة ساطعة من الشمس في شكل دائرة شمسية، يحيط بها عدد من الظلال الأخف. رفعت رأسها. رتّبنا أجسامنا ثانية كي نتعانق.

لا بد أنها حبست فيضاً من الدموع، لأن كلماتها، لا خديها، كانت تقطر بالعاطفة. «لقد فعلنا كلّ ما فعلناه بدافع من الحبّ».

Twitter: @ketab_n

«البكاء، الحبّ، الكراهية كلها أمور طبيعية كالأمّ التي تحبّ ابنها حتى درجة الدمار الذاتي». قبّلت دموعها، وتذوقت مسحة من الكحل، «ومع ذلك فأنا لا أعتبر أن موقفك نابع من مشاعر أمومية صحية. ليس في جميع الأوقات. افتحي لي عقلك وقلبك يا أمّي، فأنا ابنك الوحيد».

أمسكت يديّ ولثمتهما. ثم حدّقت في بقعة داكنة على إبهامي، سحبتها عندما رأيت القلق على وجهها. مسحت بقع الكحل عن خديها المبللين، ثم قلت: «السؤال البسيط يا أمي هو لماذا يوجد الكثير من القبح؟ هل لأن المعرفة الحقيقية تُكتسب عن طريق نوع من الموت؟ أم لأن تعريف الذات الحقيقية يتحقق من خلال إصلاح كليّ لهوية المرء؟ تغيير الاسم، طفل يكبر، نضوج شيء جديد تماماً من شيء قديم: أين أنا من كلّ هذا؟»

لعلها كانت تريد أن تقول شيئاً لو لم ينضم إلينا نونو. وأخذنا نتحدث ثلاثتنا بطريقة ودية، وتعمدت أن أذكر فيدو في حديثنا. غادرت في وقت متأخر من الصباح عندما غادرت. لكنها قبل أن تغادر، قالت: «إننا نحبّك، أنا وأبوك».

شردت فور مغادرتها. حلّقت في السماء بصحبة غراب كان يحلّق على ارتفاع منخفض. كان الغراب ينظر إلى العالم بعينيه الثاقبتين اللتين تميزان آكل الجيف، والكون في قبضة مخالبه.

كنا في منتصف الظهيرة الآن. في غرفة الطعام، حيث امتزجت بقايا عطر أمّي على نحو كريه برائحة دخان نونو.

كان خيالي لا يزال يريد أن يحلّق بعيداً. شممت نفحة بارود وسمعت صوت طلقة. وفي اليوم التالي، شممت رائحة جثة متعفّنة كريهة، جثة شولونغو وهي مستلقية في غرفتي، دون أن تدفن. كنت حزيناً لأني أستحضر كلّ أنواع الانحرافات التي تكتنفها أشياء غريبة

Twitter: @ketab_n

رخيصة، إنتاج عقلي المحموم. لقد زاد وجود مسدس الأمر تعقيداً. لو كان هناك جمال في الموت، لكانت هناك وحشية في قتل أبرياء. فقد يرى الكثيرون جمالاً في فيل ينتقم من فيدو، الذي سيطارد ذكرياتنا شبحه الذي تحرّر الآن.

كنت في غاية التوتر إلى حد أني لم أستطع أن أجلس. ولم أكن أحتمل الوقوف أيضاً. رحت أغذ الخطى ذهاباً وإياباً، وقد ندمت على أني لم أدفن رأسي في رمل نعامة الثقة الأبوية. إن الشيء الذي لا تعرفه، لا يستطيع أن يضرك. وبما أني تكلّمت، بدت صورة كلّ واحد منهم وكأنها أصيبت بالشرخ. هل كنت مجرداً من الإحساس، أوزّع اللوم على من يكبرونني سناً؟ هل وضعت اللوم عند باب أبويّ دون أن أعرف كلّ ما حدث؟

وكانت هناك مسألة هانو أيضاً. فلم يكن يجلس بعيداً عن المكان الذي كنا نجلس فيه أنا ونونو، هادئاً كأنه يسترق السمع إلى ما نقوله، وكأنه يقول ألم أقل لك. كان وكأنه يشاركنا أسراره القردية. ثم سمعنا صفيراً ناعماً لطير يخوض في مياه النهر الضحلة، ورأيت أن عينيّ هانو قد اكتستا بريقاً من الحماس في ذهوله. انتصب واقفاً. كانت عيوننا الفضولية تتبع عينيه.

جاءنا زائر غامض. حطّ زقزاق ذو رأس أسود على حافة طاولة الطعام. جعلنا هانو المفتون نتساءل إن كنا ننصت إلى صافرة الطير القوية الغامضة وكأنه طفل ينطق لأول مرة. وأخذ ضيفنا الذي وصل مؤخراً يمشي الهوينى، وقد ذكّرني عرفه بتصفيفة شعر شعبية في ذروة هيامي بشولونغو. وكان لنظرة الزقزاق ذي العينين الحمراوين تأثير علينا نحن الثلاثة، وخاصة على هانو. نهض وغادر الغرفة، وخرج يمشي على أطراف أصابعه، كما يغادر المرء غرفة يوجد فيها طفل مريض يغط في النوم.

Twitter: @ketab_n

جلسنا، نحن الثلاثة، جدّي والزقزاق وأنا في صمت مريب، وكأن علاقة جديدة بدأت تتوطد بين نوع يعود إلى عالم لا يتكلّم، واثنان من البشر عاجزين عن الكلام. قلت رأيي بصوت عال: «لكن ما الذي جعل هانو يغادر بحق السماء؟»

«ربما كان علينا أن نقدم لضيفنا شراباً»، قال نونو، نصف جاد. بدا الزقزاق ذو الرأس الأسود خائفاً كإنسان وجد نفسه في مكان كانت اللغة فيه غريبة عليه.

قلت: «هل تقدم له شراب ليمون محلّى؟»

«أليس كذلك؟ »

«هل نصبّه له في كأس؟»

لكن لم يتحرك أحد منا.

تساءل نونو: «هل تزعجك فكرة أن يزورنا طائر الزقزاق من مكان غامض يا كالامان؟»

قلت: «لماذا يجب أن تزعجني. فعندما تدخل قطة ضالّة إلى شقّتي فهي لا تزعجني؟»

قال نونو: «إن زائرنا ليس هانو المدجّن، هانو الذي ندلّله ونطلق عليه اسماً، ونعبّر له عن مودتنا. إن هذا الزقزاق طائر ولد حراً، ويفكر بحرية. الآن ما الذي يجعلك تعتقد أنه سيتلقى شرابنا المحلّى بالسكر في جرّة، على النحو الذي نقدمه له؟»

ما أثار فضولي خيط مربوط بساق الطير. ومن الساق كانت تتدلى قطعة ورق صغيرة، مطوية بعناية، مكتوب عليها بأحرف تشبه الكتابات القرآنية التي تكتب لتشكل جزءاً من تعويذة. هل كان الزقزاق طائراً يحمل رسالة في غرفة طعامنا؟ وبخلاف رأي نونو، لم يكن الطير كائناً حراً، يجوب الرياح بإرادته، ويقتحم زوابع الصحراء. وما لم نفك قيده، فإنه سيبقى رهن العبودية.

Twitter: @ketab_n

كانت في صوت نونو لمسة من الرطوبة، التي أثرت على أدائه، تجعل كلماته تبدو مجعدة مثل صفحات يلفظها جهاز الفاكس. قال: «يتحدث الصوماليون في أساطيرهم عن طائر الزقزاق بأنه كان ينتمي ذات يوم إلى فصيلة الطيور المفترسة. إلا أنه ذات ليلة، وفيما كانت طيور الزقزاق نائمة، التهمت الطيور آكلة اللحم الأخرى كلّ الطعام المتوفر. فدعا ملكهم إلى عقد اجتماع، ناقش فيه طيور الزقزاق إن كان عليها أن تستمرّ في أن تظل جزءاً من فصيلة الطيور المفترسة أم لا. وأقسمت جميع الطيور الموجودة في الاجتماع على أن لا تطير مع الطيور الأخرى، وأن لا تأكل لحوماً على الإطلاق. ولكيّ تميز نفسها عن الطيور المفترسة الأخرى، قررت أن تمتنع عن الأكل خلال ساعات الظلام. وعندما كانت ترى أيّ شئ في الظلام، كانت تردد القسم، وتؤكد معاً أنها لا تزال تلتزم بتعهدها بأن لا تتناول اللحم. وتظل يقظة طوال الليل، لكي لا يُسرق منها نصيبها. ويعاني عدد كبير منها حالياً ضعف النظر أثناء النهار، لكنها ترتفع من تحت أقدام المسافرين، وهي تصيح بصوت مرتفع اللعنة غالو! ونحن نعتبر أن الزقزاق طائر ينذر بالشر».

نظرت إلى الزقزاق بوجل فضولي، لاحظت أن ساقيه مثنيتان مثل رقبة سلحفاة، مخبأة بحذر لحفظ الذات.

في مكان ما في المطبخ، اهتزت الثلاجة. علت وجه نونو ابتسامة مسرحية واسعة. هل كان ثمة ذاكرة لطيفة تدعوه، رغم وجود الطير النحس؟

جاءت زاريبا، تحمل بيدها صينية. ومن الغريب، أنها جلبت لنا ثلاث شرائح من الأفوكادو. لمن كانت قطعة الفاكهة الثالثة؟ هل هي للزقزاق أم لهانو؟ وقبل أن تغادر الفرندة بسرعة، هزّت رأسها في محاولة مستميتة لتنسى ما رأته.

Twitter: @ketab_n

قال: «لقد هبط زائر غامض بغموض الزقزاق ذي الرأس الأسود من إحدى ثنايا السماء السرية في اليوم الذي ولدت فيه»، وأضاف، «فقد ظهر غراب وكأنه يريد أن يحتفل بولادتك. وقبل الغراب هبط عصفور، وأخذ ينقر رسائل بإشارات المورس على لوح النافذة عند الفجر». كرّر القصة وما حدث. أصغيت إليها مسحوراً، كما أصغيت إليها مرات كثيرة من قبل. استمعت إليها، وفمي مليء بطعم الأفوكادو كالزبدة، مسامات جسدي كلها يقظة كالآذان المشنفة. وقد أدرك إن كلانا يعيره الاهتمام الكامل، ارتفع صوت جدّي وسقط في الاعتراف بأهمية الحكاية التي كان يرويها.

في ذاكرة جدّي، يرتبط اليوم الذي ولدت فيه بعصفور. الطير الصغير ذو الذيل المربع الشكل الذي أخذ ينقر لوح زجاج غرفته، ويغرد بشكل جميل برموز المورس، تغريدة تتراوح من ثلاث إلى خمس نغمات، بإلحاح مثل ثغاء جدي ضائع خائف، مما جعل نونو يشعر باضطراب فظيع. وكانت أمّي في حالة مخاض بي منذ أكثر من ثمان وأربعين ساعة. وكان ثمة أمل ضعيف في انتهاء معاناتها المؤلمة نهاية سعيدة قبل أن ينقضي يوم آخر. وبسبب قلقه على الحفر التي كان قد حفرها، عاد جدّي إلى أفغوي بعد سهر دام يومين، بأمل أن يتحاشى كوارث غير متوقعة تصيب خططه المتعلقة بالريّ. نام قليلاً في الليل، لكنه كان يريد أن يعود بسيارته لينضم إلى أبويّ بعد بزوغ الشمس، ليرحب بالطفل الجديد. استيقظ قبل الفجر مباشرة، على صوت طير ينقر ويثب على لوح زجاج غرفته. الرسالة؟

تذكّر حلماً كان قد رآه منذ يومين. ففي الحلم، ولد الطفل وله وجه قرد. كان ذاك هو حفيده في المستقبل. وعندما حاول أن يسأل الطفل عن السبب الذي جعله يتخذ هذا الشكل، ازداد الحلم صخباً، بسبب

Twitter: @ketab_n

أزيز النحل الصاخب، الذي كان يستقر بعضه في أذنيه. وفي الليلة التالية، رأى حلماً مشابهاً، لكنه لم يكن هذه المرة سوى نحلة واحدة، جسدها الرائع على شكل راقصة بالية، رأسها نصف منحن أدباً. وعلى قرنيّ النحلة بقعة شمعية بيضاء. وقد وخزته النحلة بسمّها، وخزة مؤلمة وكأنها وشّام يشم جلده. قرأ: «المفتاح مدفون في نصف الجذع الحيّ من شجرة التمر هندي. اعصر ثمرتها، واجعل الطفل يتناول اللبّ كمسهّل». ومثل مفتاح كهربائي، خفت بصره. ولم يعد يحلم، واستلقى على السرير، قلقاً.

وفي صباح اليوم التالي، وكما شاءت الصدف، عثر فيدو على تلة من روث الفيلة. وكانت قد نمت في الروث بذور التمر هندي. سعى نونو لاستشارة النجوم بالتحديق فيها طوال الليل قبل أن يزرع بذرة واحدة. لكن لماذا وجه القرد؟ لماذا طنين النحل؟ كانت الرحلة بين النحلة في الحلم والطير الذي كان ينقر إشارات المورس وهو يثب، أقصر من المسافة التي تفصل بين الوهم والحقيقة.

لم يكلّم نونو أحداً عن هذه الأشياء. ولم يشأ أن يقول ماذا كانت تعني له هذه الأمور أيضاً. كان أزيز النحل عالياً ويصدر ضجيجاً كضجيج حشد من الناس يبكون؟ وماذا عن الطير العصبي الذي كان ينقر على زجاج نافذته؟

استيقظ جدّي المستقبلي على رسائل الطير المشفرة برموز المورس، واستحم. وقف على الشرفة، ولمعت عيناه بالقرار بأن يأخذ معه، بالإضافة إلى بذور التمر هندي، قارورة من العسل الذي جمعه فيدو. وأحضر معه أيضاً تمثالاً قزماً يُظن أنه عُثر عليه في البطن الثانية لتمساح، وقطعة جلد نسخ عليها ياقوت سورة الفاتحة.

انطلق قبل شروق الشمس. لكنه لم يكد يجتاز حدود بلدة أفغوي حتى أحسّ بأن محرّك سيارته بدأ يخفت. توقّف أمام لافتة كتب عليها

Twitter: @ketab_n

أن مقديشو تبعد مسافة ٢٠ كيلومتراً. دفع جدّي السيارة إلى جانب الطريق وركنها إلى جانب بعض الشجيرات. كان يشعر بالارتياح التام ولم يكن يشعر بالقلق. ولم يخطر له أن يعود إلى البيت سيراً على الأقدام، أو أن يطلب من أحد أن يوصله إلى المدينة، كما يتوقع المرء. خطا خطوتين واسعتين إلى الحرش ليستجيب لنداء الطبيعة العاجل.

وعندما عاد إلى السيارة، وجد فيها راكباً. وبدون أن يوجه له أحد دعوة، جلس في المقعد الأمامي غراب، وكان يتصرّف كحيوان أليف، ولم يكن يبدو أنه كان قلقاً أو خائفاً. بل حيّاه المخلوق المكسو بالريش بنعيق تهكمي، ربما لأن نونو لم يرحّب به. وكأنه أحس بالإهانة، فترك المقعد الذي كان يشغله، وطار ووقف على إطار الشاحنة المعدني.

لم يربط جدّي العصفور الذي كان ينقر على لوح زجاج نافذته في الصباح الباكر بالغراب الجاثم على إطار سيارته الآن، والذي كان يرتعش ويزعق. ركب نونو سيارته، وأدار شارداً مفتاح التشغيل. فاعتلق المحرّك في أول محاولة كمعجزة وسارت السيارة. وقد أعاده كلّ ذلك إلى حلم يقظة يكمّل رؤية ليلية سابقة، ظهرت فيها طيور ونحل. وامتد الطريق أمامه خالياً من السيارات، فضياً بسراب بعيد.

كان هناك شيء من التوتّر بين نونو وابنه ياقوت منذ أن ترك الشاب المدرسة وهو في الرابعة عشرة من عمره ليعمل عند نقّاش إيطالي. وأثبت ياقوت مقدرته على أداء مجموعة من الأعمال. وقد أصبح حرفياً ماهراً يحظى بالاحترام ولما يبلغ الثانية والعشرين من عمره، وبدأ يركّز على مهنته كنقاش. وكان ياقوت رجلاً مفيداً في البيت، وكان بوسعه أن يحفر بئراً أيضاً. ولم يكن أكثر المتحدثين لباقة في العالم، وكانت مفرداته التي يستخدمها في تلك الأيام تتكون من همهمات، وكلمة نعم، أو لا، بهزّ رأسه. وكأن يعزف الكمان على إيقاع الأغاني التي كان يلحنها هو نفسه.

Twitter: @ketab_n

اختلس الرجل العجوز نظرة إلى الغراب. كان الطير يبدو قانعاً كطفل فرح لأنه خرج في نزهة سعيدة. وكان السؤال هل سيذهب الغراب معه إلى المجمّع حيث كانت تأتي داماك انقباضات الطلق؟ أم سيطير إلى المجهول، ويخلف وراءه لغزاً، نوعاً من الرابطة القديمة مع الصومال ما قبل الإسلام، مخلوقاً أسطورياً ارتقى إلى منزلة إله؟

«ها قد وصلنا»، قال جدّي وهو يناور ليركن سيارته. عندها نعق الغراب نعيقاً لطيفاً جداً، بدا لأذنيّ جدّي بأنه يقول له: «سأراك قريباً» وقد تكون أيضاً: «شكراً»، لكن جدّي لم يكن متأكّداً. وقبل أن يفكّر بأهمية كلمة «غراب» المتعدّدة في اللغة الصومالية، انطلق الغراب، مؤدّباً كمسافر يبدي امتنانه وشكره لمن قاده في هذه الرحلة.

عندما كرّر لي القصة الآن للمرة التاسعة، خيّل إليّ أن تعابير لا يمكن تفسيرها قد ارتسمت على وجه نونو، شيء جعلني أفكر بأن الحبّ سيبذر. هل كان يأسف على الطريقة التي سارت فيها الأمور؟

رأى جدّي ياقوت يحفر على لوح من الرخام. فقد كان أبي يعّد شاهدة قبر لرجل إيطالي. وكانت قبضتا الشاب تمسكان منزره بتوتر. وكان هناك رجل آخر نائم على سرير في زاوية الغرفة، في الغالب أحد أقرباء داماك الذين أتوا من الريف. وكان البيت يغصّ بعدد كبير من النساء. التقى ياقوت بأبيه في منتصف الطريق، ومد ساعده، لأن يديه لم تكونا نظيفتين ليصافحه بهما.

قال الأبّ: «أظن أنك قلق».

هزّ ياقوت رأسه كما يفعل الأجانب، رغم أنه لم يكن يفهم اللغة، فقد رغب في أن يظل ودوداً. ومن الواضح أنه كان عصبياً. قدم لأبيه كرسياً ليجلس عليه، ولم يكن واثقاً إن كان سيعود إلى عمله أم لا. كيف يمكن أن يعمل شاب، سيصبح أباً بعد قليل، في حفر شاهدة قبر

Twitter: @ketab_n

لرجل إيطالي ميت؟ ولم يكن قد نقشت عليها سوى بضعة أحرف. وعندما سُئل عن أموره، دمدم ياقوت بكلمات تعني أنه لكي يتلقى أجره، يجب عليه أن يسلّم شاهدة القبر في ذلك اليوم. وعرض عليه أبوه أن يعوّضه عن المبلغ، لكن ياقوت لم يوافق وقال: «إن هذا سُيحزن داماك. إننا نقدّر انفصالنا. لكني أشكرك».

وبعد أن قدمت له إحدى بناته الشاي والبسكويت، تكلم جدّي عن البشارة وعن العصفور الذي زاره قبل الفجر. ثم تحدث عن الغراب، وكيف ساعده في تشغيل محرّك سيارته التي توقفت. لعله كان يتحدث إلى شخص صيني بلغة الإشارات المكسيكية، لأنه لم يسمع أيّ تعليق من ياقوت حول أيّ من هذين الأمرين.

سأل الرجل العجوز: «هل تقصد أن كونك أباً أهم من عملك كغطّاس جيّد، ونقاش أو رجل يُكلّف بحفر القبور؟»

لم ينبس ياقوت بأي كلمة.

وما هي إلا دقائق قليلة حتى انضمت إليهما امرأتان، كانت إحداهما أخت ياقوت الكبرى، التي كان وثيق الصلة بها. وأحضرت لأبيهما طعام الفطور المكّون من كبدة مقلية. كان الجوّ بهيجاً، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث. وسألت آرباكو، أعزّ صديقة لداماك، ياقوت إن كان متلهفاً لأن يصبح أباً. وردّ ياقوت بسلسلة من الكلمات غير المترابطة. وكانت دوفان، أخت ياقوت الكبرى، الشخص الوحيد، بالإضافة إلى داماك، القادرة على حلّ عقدة لسان ياقوت، وترجمت حكمته في سلسلة من الكلمات المفكّكة كالسبحة وهي تعدّد أسماء الله الحسنى.

ولم يكد الجدّ المقبل يتقدم وكأنه يريد أن يشارك في حديث حيوي حتى قاطعه صوت غناء شاعر متجول. وكان الشاعر المتجول يتحدث عن هدية ستبارك بها عائلة بطفل. كيف عرف الشاعر أنه سيولد طفل هنا قريباً، وأن المولود سيكون صبياً؟ ورغم جميع النوايا، كانت الأصوات

Twitter: @ketab_n

المنبعثة من غرفة طلق الأم تشير إلى أنها لم تكن قد بدأت تضغط وتدفع، ولم تنفجر ماؤها بعد.

ودفع ياقوت مبلغاً كبيراً من المال للشاعر.

واستمع جدّي، ربما بدافع من الولاء للشاعر، وكأنه ينتظر أمراً من واق، إله السماء الصومالي القديم، الذي حل الإسلام محله. وكأنه على موعد، عاد المخلوق ذو الريش وجثم فوق أعلى غصن من أغصان شجرة التين في وسط المجمّع، وراح ينعق نعيقاً بدا لأذنيّ جدّي وكأنه يقول «كالامان».

وهكذا أُطلق عليّ اسم كالامان.

كان ياقوت مفعماً بالفرحة والبهجة.

وصل عدد أكبر من الشعراء الجوالين لإنشاد البركات. وقدمت وجبة طعام فاخرة، وذبحت عنزة عند الباب، ووزع بعض اللحم النيئ إلى الفقراء، وطهي الجزء الآخر على نار أعدت على عجل.

نادت دوفان نونو. كان يبدو على وجهها القلق بسبب وجود غراب في مكان قريب أثناء الولادة. رأت نظرة نونو المتمعنة قرب الغراب المشؤوم، الذي جاء ليشرف على ما يجري عن كثب.

انضم الغراب الآن، بثقة ضيف متعجرف، إلى الأعمال الصاخبة. وأشار عدد من الأشخاص إلى وجوده بينهم. واتفقت النساء على طرده. لكن نونو تدخّل عندما لاحظ وصول العقبان الصقور، وآكلات اللحوم الأخرى أيضاً. وتصرف الغراب فقط وكأنه يختلف عن أكلة الجيف الأخرى التي جاءت لتتناول قطعاً من اللحم المرمي، فقد انضم الغراب إلى البشر.

انتشر الخبر بأني لم أتبوّل ولم أبك عندما صُفعت مؤخرتي، أسرع

Twitter: @ketab_n

من نبأ وصول الغراب المشؤوم. وتكلم نونو ببساطته الريفية إلى ابنته دوفان، ليطلب منها طلباً غير معهود: أن يدخل إلى الغرفة التي ولدت فيها داماك. فقد جرت العادة بأن لا يُسمح للرجال دخول هذه الغرفة لمدة أربعين يوماً بعد ولادة المرأة. لكن بسبب الظروف الخاصة، لقي طلب نونو الموافقة.

لعله كان طبيباً مرموقاً أتى لزيارة قصر يقبع فيه ولي العهد مريضاً. شق طريقه، ودخل غرفة داماك، وقد شمّر عن أكمامه. كانت شفتاه ترتعشان بقوى الغراب الطوطمية، الذي كنا نصلي له منذ عهد بعيد باعتباره إله سمائنا، الغراب الذي كان يُعتبر إلهاً بين شعوب القرن الأفريقي قبل انتشار الإسلام والمسيحية.

لكن الغراب لم يتبع نونو إلى غرفة داماك، ربما بسبب مزيج رائحة بخور الكافور والمالما وروائح أخرى، التي تعتبرها الغربان روائح طاردة. دخل الرجل العجوز، محني الرأس قليلاً، عيناه ثابتتان، وكتفاه محنيان: طلب ربط عودين بالأرض الغير إسمنتية، وأن يضرب ستار كي لا تُرى داماك.

كنت في حضن القابلة. سلمتني القابلة إلى نونو. ساد الصمت في الغرفة، وكانت العيون كلها مثبّتة عليه.

وضع جدّي بذرة التمر هندي على شفتيّ اللتين تحركتا وانفتحتا. خرج اللسان ثم دخل، متلمظاً، ربما كنت أسمّي الفاكهة وأقرّر إن كان فيها شيء من اللبّ. وقدم لي نونو قطرة عسل برّي، وأخرى من شراب التمر هندي. وعندها رحت أبكي، وبلت فيضاً من الماء بقدر مياه نهر شابيل.

ربما كان جدّي ساحراً لم يشأ أن يبيح بأسرار مهنته. أعادني إلى القابلة. وانطلقت الزلاغيط. لكنه قبل أن يغادر الغرفة، أخرج من ثنايا ثيابه سورة الفاتحة، التي كان ابنه، ياقوت، قد نسخها بالحرف الكوفي

Twitter: @ketab_n

المنمّق، بالإضافة إلى التمثال القزم الذي اسُتل من بطن التمساح. وقدم لي نونو هذه الهدايا الآن، الحفيد الحديث الولادة، التي قبلتها الأصابع ذات الأظافر الطويلة المحنية وأمسكها بقبضته. ربما كان جدّي بدوياً يقدّم إلى حفيده شعرة طويلة مقتلعة من ناقة، أو جمل تقدم للمولود حديثاً. وعندما فعل ذلك غادر.

عادت الابتسامة إلى شفاه الآخرين. وبدءاً من ذلك اليوم لم يعد ياقوت يهذر في كلامه، وأصبح يتحدث بكلمات يفهمها الجميع بسهولة. وهبط الغراب من مكانه المرتفع.

وعمت الفرحة.

بعد أربعين يوماً اختفى الغراب على نحو غامض كما وصل. أقلع عندما كان جدّي عائداً من زيارة إلى بيت أبويّ للاحتفال بانتهاء فترة خلوتها. ففي هذا اليوم تمارس طقوس الخروج، ويتم إخراج المولود الجديد من البيت لأول مرة. ويتم اختيار حكماء للقيام بهذه المهمة. وتُهمس حكمة سرية في أذنيّ المولود الجديد.

بعد أن هام بشولونغو وعلم أن أباها يدعى مادوب أيضاً مثل اسم الغراب، سألت جدّي إن كان اسم الغراب مادوب هو طبيعة حبي في المراهقة المعدّلة.

فأجاب: «الله وحده يعرف!»

ثم سألته، «ما الكلمات السرية التي همستها في أذني في اليوم الذي احتفلت فيه باستعدادي للخروج الطقوسي إلى العالم الخارجي؟»

«كلمتان فقط»، قال نونو.

«وما هما؟»

«الطيور تحلّق».

Twitter: @ketab_n

طفل صغير يسأل جدّه: «هل يمكنك أن تتصور أي كائن بشري لا يوجد لديه أبوان معروفان، ولا جدّ ولا جدة أيضاً؟»

«فقط آدم يلائم هذا الوصف عند المسلمين والمسيحيين».

«وماذا عن شخص ليس له أب؟»

«النبي عيسى، المعروف بالسيد المسيح عند المسيحيين».

«أيّ له أب لكن ليس له أمّ؟»

«لا أعرف أحداً، ما لم نفكّر بكساوا، التي تُعرف كذلك بحواء»، قال جدّ الطفل.

«لكننا يجب أن نفترض الكثير. يجب أن نفترض أن آدم هو أبوها، الذي تقول الأساطير إنها خلقت من ضلعه».

وأخذ الطفل ينشد: الأمهات يعتريهن الكثير من الهمّ! أما الآباء لا فلا يعتريهم الهم! وكرّر هذا مرات عديدة، وكان في كلّ مرّة ينشدها، يكسر مسواكاً. ثمة شيء ينشّط آلية الرجل العجوز في التذّكر، وعيناه تحلقان بعيداً، تريان أشياء، تتذكران.

«بماذا تفكر؟» سأل الطفل الرجل العجوز.

«أفكّر بأنّ الأساطير ليست إلا بهارات تزيد نكهة حياته»، أجاب الرجل العجوز.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

أنا أمّ كالامان. وبما أني لا أستطيع أن أبدأ كلامي بلغة أكثر بلاغة، فإني سأبدأ بعرض حادثة وقعت بعد عيد ميلاد كالامان الثالث بعدة أشهر، بعد فطامه مباشرة.

فقد جاء إليّ أنا وياقوت. دخل علينا متسللاً كصياد يريد أن يفاجئ ضحيّته، بعد أن حدد البقعة التي سيعمل ضمنها في حدود هدوئه. ولم يكترث كالامان بأن يغلق الباب بهدوء عندما دخل الغرفة، لأن أحدنا، أنا وياقوت، كان غارقاً ومنغمساً في الآخر، ولم نكن نعير أي اهتمام بأية أصوات سوى الأصوات التي تصدر عن جسدينا المثارين والغارقين في مضاجعة حميمة. وفي غمرة إثارتنا، كان أحدنا يهمس في أذن الآخر كلمات تعبّر عن الحبّ والمودة، وكانت تصدر منا أيضاً آهات وتأوهات. وربما لأننا كنا مستغرقين تماماً، فقد نسينا أنه كانت هناك شمعتان تحترقان أيضاً. كنا على وشك أن نصل إلى ذروة الرعشة عندما أحسسنا بوجود، بين ظلال نسيم الشمعتين، شيء أو شخص يلقي بظلاله دون أن يستجيب إلى الريح كما تفعل الشمعتان. وتمكنت من رؤية معالم مجسّمة لرأس في الغرفة. وللحظة مقلقة، تشابك تحديقي الخائف مع هذا الدخيل الجريء على نحو مباغت. رحت أحدّق في عينيّ الزائر، اللتين ربما كانتا عينيّ بومة ذات وجه يشبه القرص، وذات نتوءات تحدّق فينا بقوة أشدّ من قوة عيني إنسان، تشعّان على نحو شيطاني.

Twitter: @ketab_n

كان هناك ابني كالامان، الذي كان أشبه بقزم أكثر من كونه طفلاً في الثالثة من عمره. وكانت نظراته الحولاء تتركز على ياقوت الذي كان يدير ظهره له. وفي تلك اللحظة، كان ياقوت يلجني، وكان يلتقم حلمتي في فمه. وكان الطفل الصغير يضغط بإبهامه على خدّه من الداخل، ويصدر صافرة صغيرة من مكان ما في عمق تجويفه الأنفي، صوت يبدو مثل إثارة جنسية، لا أعرف.

وفي غمرة صدمتي هذه، حدث كلّ شيء وكأنه إعادة عرض بطيء. وسرعان ما تملكني إحساس بشلل جزئي. وشعرت بخدر يسري في كلّ خلية من خلايا جسمي، وأحسست بالعجز يتملكني. وانتهى كلّ ذلك في لساني، الذي أصيب بإحساس بالموت التام. وانخفضت درجة حرارتي إلى نقطة التجمد. دفعت ياقوت جانباً، الذي لم يكن يدرك حتى ذلك الحين حقيقة ما يجري، أزحته عني لأستر نفسي، لأغطي صدري وفخذي ومكمن أنوثتي، لا بثيابي، وبالتأكيد ليس بياقوت، بل بعماء لا متناه. لم أكن أريد أن أرى، ولم أكن أرغب في أن يراني كالامان، أو ياقوت أيضاً. هكذا كان شعوري: ابني الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره يتلصص علينا!

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، أخبرني ياقوت كيف أنه لاحظ البرودة في قدميّ أولاً قبل أن يدرك حقيقة ما كان يجري، وكيف أنه لامس بعد ذلك القشعريرة التي اعترت فخذيّ. وعندها بدأت ساقاي تسترخيان، وبدأتا تبتعدان عنه شيئاً فشيئاً إلى أن لم يعد في داخلي. ولكي أستعيد جسدي، حرّرت صدري من شفتيه المداعبتين، كما تخلّص الأمّ من قبضة طفلها النائم لعبة قد تكون خطرة. وانكمش قضيبه، وأصبح بحجم إصبع سادس إضافي ميت، خال من الطاقة، ومجرد من ذاكرة الجنس.

كان كالامان يقف بعيداً عدا ظلال الشموع التي ترتعش على نحو

Twitter: @ketab_n

مخيف. وكان يردّد عبارة، أكثر من كونها أمر. كان يردّد كلمات استغرقت وقتاً طويلاً كي أفكّ شفرتها، بسبب حالتي العقلية الراهنة. فقد كان يردد: «ماما أعطني....»، وبعد توقف وأنين، كان يضيف عبارة «...أخ»، أو كان ينشج، ثم يعيد العبارة كلها بدون توقف. وكان ينهي هذه التمثيلية ذات الألغاز بأن يدفن وجهه بين يديه الصغيرتين وينتظر، وكأنه يلتقط أنفاسه.

«ماذا تريد أن تعطيك أمك يا كالامان؟» سأله ياقوت، وهو منهمك في ستر نفسه.

وقبل أن يهرع خارج الغرفة، أخذ كالامان يردّد: «أعطني، أعطني، أعطني أخاً». ولسنوات كثيرة، كانت جدران ذاكرتي تهتز بصدى كلمات ابني كالامان وهو يقول: «أعطني، أعطني، أعطني أخاً».

كان كالامان يريدنا أن نجلب له أشقاء، وإذا كان ممكناً أخاً أصغر وأختاً أصغر، أخ من كلّ جنس، وهو طلب طبيعي لطفل أخذ يكبر. ولم يكن سبب عدم إنجابنا طفلاً آخر أننا لم نحاول ذلك. بل لأني حملت بكالامان لفترة طويلة جداً، ثلاثمائة وعشرة أيام. فربما أدى هذا الحمل الطويل إلى إتلاف بطانة رحمي. ولا أشعر بالأسف على الإطلاق لأني أبقيته في رحمي طوال هذه المدة. ولا أندم لأني أرضعته من صدري مدة ثلاث سنوات تقريباً، مع أني نُصحت بأن أفطمه في وقت أبكر. لماذا أرضعته من صدري طوال هذه المدة؟ لأني لم أشأ أن أتركه، وكنت أتخيّل أني كنت أنبوباً تداعبه شفتاه الحنونتان، وكانت قنوات حلمتّي الكبيرتين تزدادان كبراً ما أن كان يلمسهما. وكما ترى، فقد كان لديّ ثديان صغيران مثل صدر قزم عند بطني. فكم كان يثيرني أن يُرضع هذان الثديان، وهي متعة كان زوجي ياقوت مستعداً لمنحي إياها إلى الأبد. ولكي يمتصهما، كان يجثو على ركبتيه، ويلتقم حلمات ثدييَ في فمه، الواحدة تلو الأخرى، في أداء طقسي خاص كنا نجد متعة

Twitter: @ketab_n

كبيرة فيه معاً. كم كان من الممتع عندما كان كالامان يرضع من ثدييّ، وزوجي جاثياً عند قدميّ، وكأنه يؤدي طقوس عبادة عند ثدييّ القزمين، ورأسه مدفون في وجل بين الثديين الصغيرين، يداعب المنافذ الخالية من الحليب. كم كنت محظوظة بهذين التوأمين، كلّ منهما يرضع من ثديين مختلفين. وكانت أيّ امرأة ستحظى بشعور ممتع للغاية وهي تحظى بهذا التبجيل. «إلى الأسفل، إلى الأسفل أكثر أرجوك، هيجهما برقة»، كنت أقول لياقوت، «لا تتوقف عن لمسهما، استمر في إثارتهما، أكثر وأكثر، بلسانك وبكلّ شيء». وكان يستجيب لذلك، فليباركه الله، إلى أن أُقرع مثل جرس. وبدفع حثيث مني، كنا نصل معاً في نداوة الرياح الموسمية. وكانت شفتاه اللتان يعلوهما شارب، مبللتين بطبقة حليبية، ندواتي الخاصة.

كنت عازمة على أن أبقيهما هما الاثنان لنفسي. كنت قد قرّرت أن أجعلهما لي تماماً، كالامان الجنين الذي يعتمد عليّ طالما تمكنت من التمسّك به، وياقوت ليّ بكليته، بثقتنا السرية. وكان ياقوت رجلاً لا يبارح البيت بسبب مهنته. ياقوت، مدفئ سريري. بارك الله اليوم الذي التقيت فيه هذا الرجل، آمين. لم أترك الجنين، لأني لم أكن أريد أن يرى أي شخص آخر أسراري الجسدية، ثدييّ الإضافيين الصغيرين. فقد كنت أخشى أن تراهما القابلة، وعندها سينتشر الخبر. وعندما يأخذ الجميع في التحدث عنهما، فإما أن يسقطا من تلقاء نفسيهما، أو سيعتبرني الناس ساحرة.

كنت أعرف أني بعد أن ألد الطفل، وخاصة إذا كان صبياً، فإن الرجال سيفرضون سطوتهم. لكني لم أكن أريد أن يشاركني أحد في طفلي، وخاصة مع أحد من الرجال. لأن للرجال أسلوباً في جعل الصبية يتشربون أفكارهم، وذلك بهمس الأسرار الذكورية في آذانهم، فيما تتمدد الأمّ على ظهرها في عطالة جسدية، وخدر عقلي، بسبب انفتاح عضوها

Twitter: @ketab_n

الجنسي. ويستغرق الجرح كي يلتئم ما لا يقل عن أربعين يوماً، إن لم يكن أكثر. وطوال الأيام والليالي التي تتماثل خلالها المرأة للشفاء، يتواطؤ الرجال فيما بينهم على المولود الجديد، ويفتحون لأيام وليال الكتب الدينية ليستمدوا منها التوجيهات القدسية. وكان حماي ميفتاكس (الذي أطلق عليه فيما بعد ابنه المتلعثم ياقوت اسم نونو) قد درس النجوم، ومواقع الكواكب، وكانت الطيور تتجمّع حوله، وتنقر وتأكل من راحة يده. كم كان رائعاً ذلك المشهد عندما كان الغراب يسير وراءه. وكان الرجال يأتمرون بأوامره، المجتمع كلّه أيضاً، لأنه كان غنياً. وكان سليط اللسان. وقد غذّى ابني على جميع أنواع التدابير القائمة على السحر، الشعوذة التامة.

وعندما فُطم ابني، لم أكن أعرف ما الذي سيحدث لثدييّ الإضافيين، بعد أن أصبح الثديان الرئيسيان رهن إشارة ياقوت وامتصاصه الدائم لهما. كنت أعرف أن اليوم الذي سننفصل فيه أنا وطفلي آت، هو ليتبع مسار قدره، وأنا لأتبع مساري. لكنني بقيت في مخيلّتي أمّ التوأم، أحدهما كبير، زوجي، والآخر صغير، ابني الرضيع. وحتى الآن، عندما نمارس الجنس، لا يزال ياقوت يرضع ثدييّ، الواحد تلو الآخر. إلا أن ثدييّ الصغيرين أصبحا فيما بعد، ربما بسبب شولونغو، هامدين ساكنين، مثل خوختين ناضجتين جفتا على شجرتهما الأم. فقد فقدا فيضهما وامتلاؤهما. لذلك لم يعد يفاجئني إن استيقظت في صباح أحد الأيام لأراهما قد تلاشيا، ضحيتان هامدتان لا حياة فيهما على حضن شولونغو المسحورة. ماذا سيحدث لي آنذاك؟ كانت تنتابني كوابيس بأن شيئيّ الجميلين سيزولان دون وداع لائق. كان كلّ ذلك بسبب شولونغو. ولو كانت تعرف بوجودهما، لفعلت مزيداً من الشر. لا أحد يحب الساحرات. لقد أضرمت النار، وهي تتغذّى على محارق الجثث فيها. الساحرات يحترقن بسرعة. لا سمح اللّه!

Twitter: @ketab_n

وحتى لو لم تضرم محرقة جنائزية، فإني لا أريد أن يعرف الآخرون عنيّ وعنهما، هذان الثديان الصغيران اللذان يكمّل وجودهما وجودي. وكنت قبل أن أخلع ثيابي عند طبيب ليفحصني، كنت أجد نفسي أمام خيارين: الإحساس بالمهانة عندما يراهما، أو أن أغطيهما بضمادة. وفي كلتا الحالتين، كان سيعرف الأطباء بوجودهما. وحتى فترة مراهقتي، كانت أمّي تضع ضمادات لاصقة، وكنت أدّعي بأن لديّ كتلاً ليفية، أو مرضاً له علاقة بسن البلوغ. لكني التقيت عندها بياقوت، الذي ساعدني في أن أنظر إلى لعنتي الأصلية، بأنها نعمة في ثوب نقمة.

وبصورة عامة أحدث الثديان الصغيران الإضافيان، غوراً في روحي المعنوية كامرأة. وكم كان من المثير للشفقة أن ألد الجنين، لكي يطلق عليه نونو اسم كالامان. وكبادرة حسن نيّة، منح ياقوت أباه الشرف في أن يسميّ الصبي. لكنه لماذا سمّاه كالامان، أكثر الأسماء سخفاً؟ فالرجل غريب، ويختار أسماء غريبة لنسله: ياقوت، دوفان، والآن كالامان، وجميعها أسماء تلفت الاهتمام مثلما تكشف امرأة عن صدرها في سوق لبيع الجمال.

يصفني الناس بأني امرأة دنيئة، الناس الذين لو عرفوا بوجود ثدييّ الإضافيين، لربما وصفوني بأني وحش متعدد الأثداء. كما أني مندهشة لأن الكثيرين لا يعرفون شيئاً عنهما. فلو عرف الأطباء بوجودهما، لتحدثوا عني، ولما كفت الممرضات عن الحديث عنهما في الكافتيريا. وبما أن الصوماليين أناس فضوليون، ومعظمهم عاطلين عن العمل، فهم يختلقون الأحاديث، وخاصة الرجال، الذين يتناولون جميع أنواع القذف والافتراءات. لكني لم أعرف سوى رجل واحد محب وحنون. لا يمكنني أن أقول إني أعرف الرجال الذين اغتصبوني، لأني لم أكن أعرفهم. ولتحل عليهم لعنة الله! لا أعرف إن كان الرجل الآخر قد تكلّم عنهما. لأنه رجل حقود، ابتزازي. لعن الله سبابته التي تشبه سبابة

Twitter: @ketab_n

العقرب. وكنت سأكرهه أكثر لو نشر كلاماً أكثر قبحاً عن ثدييّ الجميلين!

أما بالنسبة للاسم، وخاصة كالامان؟

أشبّه اسم ابني بصفحة من الماء ذات مسارب جافة في وسط طفح ملحي. وكما لو كنت تقترب من مورد مائي، فإن مجرد الفكرة تمنحك طاقة، تجعلك تستخدم كلّ إرادتك في دفع سديم الحرارة حتى تصل إلى المادة الحيوية المطلوبة، مصدر الحياة، الماء. وفي سراب، رغم اقتراب المادة الحيوية (تعني هذه الكلمة الماء باللغة الصومالية)، يتلاشى البخار كلما اقتربت منه، ويبتعد عنك أكثر وأكثر، فتزداد عطشاً.

لو كان قد أطلق على ابني اسم غير اسم كالامان، بل أيّ اسم صومالي أو مسلم أكثر شيوعاً، لما جذب ابني ذات القدر من الاهتمام لنفسه كما يحدث الآن. ففور لقائه بشولونغو، نذيرة الشؤم، وبعد أن أشارت إليه طبيعة اسمه الغريبة، اقترحت على نونو أن نغيّر اسم الصبي ونطلق عليه اسماً مألوفاً.

في تلك الأيام، أصبح اسم تلك المرأة الشرّيرة (اسم شولونغو أكثر غرابة) على كل شفة ولسان، وكان اسمها يداعب شفتيّ كل ذكر. فقد كانت تستثير الرجال وتهيجهم، مهما بلغت أعمارهم أو مناصبهم. وبفمها الرطب الذي يشبه ثمرة ريانة، ذي الشفتين الممتلئتين اللتين تجسدان الشهوة ذاتها، لم تكن تختلف عن الوحوش ذات الطبيعة المفضوحة. وكان وجودها يثير قلق النساء. كانت تلك المرة الوحيدة التي فكرت في أن أخبرها بأني، بثدييّ الصغيرين، أملك سطوة على الرجال أيضاً. لم أكن أحبّ هذه الكلبة، وخاصة لأنها أخذت اسم ابني وراحت تعبث به، كما تفعل الكلبة اللعوب عندما تلصق مؤخرتها بمؤخرة كلب أثناء الطقس البارد، بتعمد محسوب، لتثيره فقط.

Twitter: @ketab_n

على كلّ حال: كان اسم كالامان شغلي الشاغل، أليس كذلك؟

تحدثت مع نونو عدة مرات لتغيير الاسم أيضاً. وفي أحد الأيام، شعرت بأني ذكية وسعيدة بنفسي، رحت أتدرّب على ما يجب أن أقوله للرجل العجوز. وأتقنت خطتي بمساعدة ياقوت، الذي أضاف إلى ما سأقوله. وعندما واجهت نونو، شبّهت العملية برمتها بسراب يزيد من يراه عطشاً.

قال نونو: «هل تعرفين أين يخزّن الجمل ماءه؟»

لم أكن قد هيّأت نفسي لهذا النوع من الكمائن، لكني لم أكن أعرف ما علاقة تسمية ابني كالامان أو محمد بهذا الأمر. في البداية رفضت رفضاً تاماً أن أقع في مخطط نونو بأن يجعل محدّثه يغيّر الموضوع. فأنا ابنة مدينة ولم أكن أهتم بالجمال، أو برعاة الجمال. «ماذا لو قلت إنه لا توجد لديّ أدنى فكرة؟»

قال: «هذا لن ينفع».

«ألا يخزنونه في سنامهم؟»

هزّ رأسه بأن لا.

شعرت وكأنه يدرّبني على نوع من المباريات الرياضية. إذ كنت كنته الشابة، رياضية موهوبة لكني كسولة، تحتاج إلى مزيد من التشجيع، وإلى مزيد من الثقافة.

سألته: «وماذا عن معدته؟»

«حاولي ثانية».

قلت: «استسلمت».

قال: «لا يخزّن الجمل ماءه في سنمه ولا في معدته بل في دمه».

اعترفت بأني لا أعرف ذلك.

قال: «أعرف ذلك».

Twitter: @ketab_n

سألته: «هل يمكنك أن تقول لي إلام تريد أن تصل؟»

فقال: «أرجو أن تكوني أنت وياقوت ذكيين بما يكفي للتمييز بين الدم في شريان الجمل عن الماء الموجود فيه»، وأضاف «أريدك أن تتصوري أن كمية الماء تنقص نتيجة عطش الحيوان الشديد».

«ما زلت لا أفهم قصدك»، أصررت.

«إني أبني حكاية من كالامان، تسمية ابننا، وإني أستخدم خليط دم الجمل والماء كاستعارة، رمزاً لمعنى أوسع».

«أرجو أن ندع الأمر عند هذا»، قلت، «لأني لا أقوى على تفسير كلامك الغامض عن الجمل والصور المتعلقة بالماء».

«أنت من استخدم صورة الصحراء»، قال يتهمني، «ربما سيفهمها ياقوت».

قال نونو، وكان صوته صوت معلّم قد نفذ صبره مع تلميذ أخرق جلبه له حظه السيئ، «إنها فكرة جيدة. جربي وقولي له هذه الأحجية».

تركت هذه الأمثولة تمر على جواد ذي أقدام بشرية. سمعنا صوت نعيق ضفدع. كنا بالقرب من نهر، وقلت في نفسي إني لن أنظر إلى الماء، أو أفكّر بالجمال أو الصحاري، بالطريقة نفسها مرة أخرى. لكني أبقيت أفكاري لنفسي. وعندما عدت إلى ياقوت الذي لم يكن يبرح البيت، وطلبت منه أن يتفضل ويفكّ لي رموز رسالة الدم والماء، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة مزعجة. هزّ رأسه متسائلاً. لكن رغم محاولاتي وتوسلاتي له، لم يخبرني ماذا يعني هذا اللغز. «أين السرّ في هذا؟»

أستعيد هذه الذكريات وأنا عائدة إلى مقديشو. كان عدد نقاط التفتيش قد تضاعف منذ الصباح. كانت توقفك جميع أنواع البذات

Twitter: @ketab_n

الرسمية، تطلب منك أن تترجل من سيارتك وتقف جانباً، ويجب أن تكون يداك في مكان ظاهر. ولم يطلب أحد مني أن أفتح حقيبتي اليدوية، التي يوجد فيها مسدس صغير.

وفيما كنت أقود سيارتي باتجاه شقّة كالامان، رحت أفكر بهذه الحياة المعقدة التي نعيشها: الفيلة تبحث عن الصيادين الذين قتلوا بني جلدتها؛ شابّة تحوّل رغبتها إلى رغبة حيوان مسعور؛ كالامان يهرب من شقّته ويلجأ إلى بيت نونو؛ ياقوت يرفض أن يتدخل، ويقول إن الأمور سُتحل من تلقاء نفسها إذا تركناها وشأنها. وكان باقي العالم يتفرج بلا مبالاة دون أن يعنيه الأمر، أو أنه كان يخشى وقوع الكارثة الوشيكة، حرب مليشيات، إذا رفض الدكتاتور أن يتزحزح عن منصبه، حرب حتى النهاية، بلد أصابه الخراب.

أقول لنفسي إن الشخصين اللذين ينامان في سرير واحد، قد ينفصلان أحياناً نتيجة الأحلام السرية التي يريانها في شاشات عقلهما الباطن. وأقول بما أننا نضع جميعنا أوراقنا الرابحة بالقرب من صدورنا، فإننا لا نستطيع أن نعرف أبداً ما هي أفضل وسيلة يمكننا أن نخدم فيها هذه الأمة. إني أفكّر أنه فيما تطفح الأنهار بمياهها على ضفافها، وبينما تتخذ الأسماك الطائرة دور الأدلاء، وتتخذ الضفادع دور الرجال القدماء الحكماء الذين يعترفون بأنه أسيء فهمها، وفيما يُحتجز كالامان ويصبح رهينة في قبضة أصابع الريبة والخوف ـ أنا، داماك، أطلق النار!

امرأة في شكل غرير عسل ميت ومدفون.

عاش كالامان حياته كلها في حالة من القلق الدائم. وعندما كبر كان لا يزال يعاني من القلق لأنه لم يبلغ قمة الأشياء. ومن الطريقة التي يتصرّف بها حالياً، فإنك لا تعرف إن كان يفتقر إلى الثقة بالنفس ليتحدث عما يؤرق باله. وهو بارع في إخفاء قلقه عن معظم الناس، يحيط نفسه بهالة من الكتمان إلى درجة الفظاظة.

Twitter: @ketab_n

لقد أخطأت كثيراً في طريقة تعاملي مع كالامان؟ فقد كان العالم بالنسبة له ثقب مفتاح صغير، يصعب الوصول إليه، ويجب أن يزحف على ركبتيه لبلوغه. وبتلصصه علينا، كان كالامان يخاطر في أن يُكتشف أمره. كان يحوم حولنا، يكمن ليستمع إلى أشياء كي ينقلها إلى نونو. وفي فترة لاحقة، كان يسهر حتى وقت متأخر من الليل، يتنصت إلينا أو يرانا ونحن نمارس الجنس. ويقول متوسلاً: «أعطني، أعطني؟» ومنذ ذلك اليوم الذي زحف فيه إلينا ونحن غارقين في الجنس، ومنذ المرة الأولى التي لفظ فيها تلك الكلمة الكريهة «اعطني» حتى بلوغه الثامنة من العمر، كنت لا أنفك أسمع منه «أعطني أخاً، اعطني أختاً»، وكنت أرد عليه «إنك تكفينا، إننا قانعون بك، ولا نريد طفلاً آخر. . . حقاً، إننا لا نريد أن نقاسم محبتنا لك مع طفل آخر». لكن كالامان كان يقول إنه لا يكترث بأن نقاسمه محبة أحد، لأنه يوجد الكثير من الحبّ حوله، وخاصة وأن نونو قريب منه، على مسافة نصف ساعة بالحافلة.

«سنفعل ذلك»، كان أحدنا يقول، نعد طفلنا الذي كنا نتمنى أن ينساه في صباح اليوم التالي. وكان يمر أسبوع، وفي بعض الأحيان أشهر، وابننا لا يتحدث عن هذا الوعد الذي لم ينفذ. ربّما كان يظن أننا كنّا مشغولين في جلب أخ أو أخت له من فيض هورموناتنا المتدفقة، أو ربما كان يظن أن ياقوت سيصنعه من الخشب أو من الرخام الذي يقوم بحفره، أو ربما كنت سأستبدل بثديي الصغيرين الإضافيين طفلاً. وكرّر كالمان طلبه عندما كنا نحتفل بعيد ميلاده، أو عندما كان يولد طفل في المنطقة، لأحد الجيران، أو إذا أنعم الله على أحد عمال نونو بطفل.

«أين الطفل» كان كالامان يصرخ وهو يلمس بطني ويشد ثدييّ القزمين. «أين خبأته؟ اطلبي منه أن يخرج».

لم نكن نعرف ماذا يتعين علينا أن نقوله له، إن كان علينا أن نعترف بأننا بذلنا ما بوسعنا لكننا أخفقنا. وعدناه بأننا سنحاول مرة أخرى، مع

Twitter: @ketab_n

أننا كنا نعرف أنه لا توجد إمكانية لأن ألد طفلاً آخر. وكان كالامان يريد أن نعده. وكان يضع طرف سبابته على سبابتك، بعد أن يخدث جرحاً صغيراً ينقط منه الدم، ليتلامس الدم بالدم، وكأنه يختم عهداً.

وكان بين الحين والآخر يستسلم للانطباع المزعج بأننا لم نكن نحبّه بما يكفي. وإلا لماذا لم نجلب له شقيقاً أصغر؟ أو لماذا لم أكن اجتماعية أكثر؟ لماذا لم نصحبه إلى النهر عراة كما يفعل نونو وفيدو؟ ماذا نخفي عنه؟ لماذا لا نخبره بكلّ شئ، كيف يُصنع الأطفال؟ لماذا لا نكشف له أنفسنا الحقيقية، كما يفعل نونو؟

في تلك الأثناء استشرنا أطباء نسائيين وعرآفين. وحوّلت الأدوية والخلطات العشبية أحشائي إلى قعقعة وضوضاء عالية تشبه أصوات هزيم الرعد التي لا يصحبها مطر. وقد أحدثت هذه الخلطات العشبية خللاً في جسدي، فاضطربت دورتي الشهرية وأصبحت غير منتظمة. أنا حامل. لا لست حاملاً. «أرجو أن تبتّي في هذا الأمر؟» كان ياقوت يقول لي متوسلاً. لم أكن أنا، بل كان جسمي، وكأنه كان يريد أن يحمل بطفل، لكنه لم يكن يريد أيضاً.

استشرنا نونو، فقال: «كوني صادقة مع كالامان».

«لكننا لا نخفي شيئاً عنه. لقد حاولنا وحاولنا ولم نفلح. إننا لا نكذب عليه».

«قولي له كلّ شيء»، قال.

«أقول له ماذا!»

شعرت أننا كنا نُتهم ظلماً بأننا ارتكبنا جرماً. إذ كان عدم إخباره، وإخفاء الأمر عنه جانبين مختلفين من الشيء ذاته. لكن هل أن عدم جلب شقيق لكالامان يعني أننا لا نخبره؟ هل أننا نخفي عنه شيئاً، أم كنا لا نريد أن ننفذ رغبة الصبي الصغير؟

Twitter: @ketab_n

أخبرنا كالامان الحقيقة. فقال، «إذن كيف ولدتني؟» ورحنا نرشوه بالشوكولاتة وبأشياء أخرى. كنا نشتري سكوته مؤقتاً. دفعنا الكثير من أجل فترة شائكة بين أكوام الصمت المبطّن. لعن الله تلك الظهيرة عندما جاءت شولونغو بناء على طلب آرباكو، وهي تضم إلى صدرها جرّة فارغة (لم أصدّق أنها كانت في الرابعة عشرة من عمرها فقط)، وسألت: «هل لديك ملعقة إضافية من العسل؟» وأعطيتها. ويا ليتني لم أعطها.

في وقت مبكر من ذلك الصباح، اتهمتني آرباكو ظلماً بأني تزوجت من عائلة تنشد مدائح السرية. فقد كان يُعرف عن نونو وياقوت، شدة تكتمهما، وكأنهما كانا يقيمان تماثيل عبادة للتكتم والحذر. لعن الله آرباكو التي وقعت ضحيّة إحدى ألاعيب كالامان.

كانت آرباكو تعرف الكثير عني، أكثر مما كنت أخبر أحداً عن نفسي. كانت تعرف عن قوى ابتزاز غاكم إكسم لي، لماذا ابتعد أقربائي من صلة الدم عني. لكنها لم تكن تعرف شيئاً عن سريّن هامّين عني وعن ياقوت. لكننا سقطنا، أنا وهي، لأنها كانت تعوزها القدرة على احتواء جزر ومدّ الثقة وأسرار الحياة. وكان كالامان يشبهها بمنخل فيه الكثير من الثقوب، يدخل إليه شيء من جانب، ويخرج من الجانب الآخر. كان مخطئاً. أقول ذلك لأني أعرفها طوال حياتي تقريباً. لأنها كانت تكتم كلّ الأسرار التي كنت أئتمنها بها. ومع ذلك، كانت آرباكو هي التي جلبت اللعنة إلى حياتي، فهي التي قدّمتني إلى شولونغو وتيمير وأبيهما.

اللعنة على شولونغو التي أطعمها كالامان، والتي أشربته دم حيضها، مقدار كشتبان من تلك المادة اللعينة.

اللعنة عليها وعلى اليوم الذي ولدت فيه! اللعنة عليها وعلى نواياها الشيطانية، اللعنة عليها لأنها ادعت بأنها يمكنها أن تجعله أخاها الصغير إذا أرادت، وكادت تفعل ذلك: شولونغو التي حشت رأسه بأفكار

Twitter: @ketab_n

مجنونة لكنها أفرغت جيوبه من كلّ شيء يمتلكه، فراحت تأكل جرار عسله.

لم يعد سرّاً مصوناً أنها أوشكت على أن تفي بوعدها لكالامان بأن تجلب له شقيقاً. فقد حملت بطفل ياقوت، ثم أجهضته، بدون مساعدة مني.

لعنة الله عليها!

لعنة الله عليها وعلى نذورها الشيطانية! لعن الله الشيطان الذي يغري الضعفاء. لعنة الله عليها لأنها اتصلت أيضاً بغاكم إكسم وتآمرت معه، ذلك المبتزّ الشرير!

في البدء، لم ألحظ حضورها الجسدي، بل مجرد رائحة لا يعرف كنهها، خليط من الروائح، طبقات من الروائح كانت تضعها لتحدث تأثيراً استثنائياً في الآخرين. وكانت الريح تنتشر في الشقة مع نثار من الروائح، عطور قوية تشير إلى حالة عقلية غير متناسقة، روائح متميّزة مثل هواء جبل، مثل خشب الصندل، أو محددة في كثافتها مثل عطور زيتية عربية. وتغلغلت العطور المختلفة في دماغي، وتدخّلت في طريقة تفكيري. وقد لا تكون ثقتي بنفسي قوية كما كنت أحبّ، لكنني تذكرت شولونغو بقوة.

إني أحمل مسدساً في حقيبتي اليدوية. كان مزاجي مزاج مقاتل يتأهب للقتل. وقد أحضره لي ابن عم بعيد لي يعمل في إدارة الشرطة، الذي أسدى لي خدمة كذلك في السابق، عندما أردت أن تؤخذ بصمات أصابع شولونغو. وهو الذي أعطاني فكرة سريعة عن كيفية استخدام المسدس. وبدون طلقات محشوة فيه، ضغطت على الزناد، بانغ - بانغ وأصبح كلّ شيء على ما يُرام. إن الراتل، آكل العسل، جيد بجودة ميت متعفّن! إن حمل مسدس وأنت لست معتاداً على استخدامه يثقل على

Twitter: @ketab_n

ضميرك بشدّة. وإخفاؤه في حقيبتي اليدوية في وسط أغراضي الشخصية الصغيرة لم يخفف من شدة قلقي. أحضرته معي إلى شقّة كالامان خشية حدوث شيء. استخدميه إذا تعرضت لتهديد، أو أريه لشولونغو، كما يفعلون في أفلام العصابات. وبصفتي أماً، كنت أريد أن أدافع عن صغيري، بالمكر والحيلة أولاً، ثم بحياتي إذا اقتضى الأمر. كانت الماء قد بدأت تتعكر أكثر. لأن غاكم إكسم بدأ يطفو على السطح ثانية مثل خشبة تجرفها المياه. إلى متى سيسود السلام؟

لم أقرع الجرس عندما فتح الباب. هل كانت تنتظرني؟ خفق قلبي بقوة، وتذكّرت قول ابن عمي الشرطي إنه يجب إطلاق النار بسرعة لقتل الأشخاص ذوي الطبيعة الجبانة. وقفت أتساءل، هل أنا من الشجاعة أو الجنون الذي يجعلني أستخدم مسدساً؟ كانت مفصلات الباب رخوة، وتصدر صريراً.

هل كنت لا أحب إطلاق النار؟

وقفت شولونغو جانباً لتفسح لي مجالاً لأن أدخل. ابتعدت قلقة، وأصغيت إلى أصوات تنبثق من داخلي، همسات داخلية. دخلت وأغلقت الباب ورائي، ثم تبعتها في الممر الضيق، راجية أن يخرج ابني من إحدى الغرف، ملتفاً بمنشفة أو يرتدي عباءة، فقد كان سيسعدني أكثر إن كانت تالادو هناك. لكني عرفت أين يوجد ابني وبأن تالادو لم تكن هناك أيضاً. لذلك أين كانت الدجاجة الأمّ فيّ، لقد كنت جبانة!

سألتها: «أين كالامان؟»

قالت: «أنت تعرفين أنه ليس هنا، لماذا تسألين إذن؟»

كنا في المطبخ، تفصلنا طاولة الطعام. شعرت بالحرج فأشحت بنظري. لم أكن أريد أن أبدو عصبية. فقد كنت أمّ الشاب المعرّض للخطر. تذكّرت كيف أني رميت من حياة كالامان تلك المرأة الكينية الحمقاء المتغطرسة، التي لم تكن تقول أشياء جيدة عن الصوماليين، مع

Twitter: @ketab_n

أنها كانت تدّعي بأنها مغرمة بابني. قلت له إنه لا يستطيع أن يدخل إلى حياتنا امرأة لا تحترم أهله.

«لماذا يجب عليك أن تكذبي دائماً؟» بدأت هجومي. كنت أنوي أن أنتقدها، ألومها، أذلّها بطريقة ما قبل أن أطلق النار عليها في نهاية الأمر. حاولت ما بوسعي حتى لا أتخبّط في مستنقع قلقي. لم يكن ثمة تراجع. فقد شاهد المسدس في حقيبتي اليدوية أكثر من شخص، لذلك من الأفضل أن أستخدمه. قتل؟ انتحار؟ أم أن هناك خيارات أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، ما هي؟ وخطرت ببالي أفكار شريرة أكثر مما كنت أبالي في أن أضعها في كلمات.

لكي أتجاوز المحنة في هذه اللحظة، أقنعت نفسي بأن ضبط النفس لن يضر أحداً.

قالت: «أتمنى أنّ تكبري». جلست، مليئة بالتحدي.

وضعت يدي في حقيبتي، أتحسس سلاحي. لكني لم أسحبه، وقلت إن موتها سيكون أسرع لو فاجأتها حيّة في لحظة واحدة، وفي اللحظة الثانية، تكون قد انتهت ميتة. لم أتصرف عندما كان من الأنسب أن أطلق النار عليها عند المدخل. عندها كان يمكنني أن أدّعي بأني ظننتها لصاً.

لكن لا تزال هناك أمور كثيرة يمكننا أن ندّعي بأنها ماتت بسببها، مثل المليشيا.

عندما سألتها السؤال المعهود: «لماذا كان الباب مقفلاً؟» كنت أعرف أني لن أضغط على الزناد لبعض الوقت. كنت أرجو أن أتمكن من إثارتها من أن أفتح نفقاً في رأسي وأتجه مباشرة إلى صميم مخزن ذاكرتي - شولونغو التي كنت أربطها في رأسي بباقة من الأزهار الملفوفة بمسحة من دم حيضها - ثم أطلق النار عليها، لكن لا. هنا يكمن أصل خوفي المشؤوم ومصدره، شولونغو التي ربطت كالامان في عهدة دمها.

Twitter: @ketab_n

لم أتحمل الفكرة، لم أتمكن من التحدث معها عن هذه الأمور بشكل مباشر. كيف يمكنني؟ لذلك اتهمتها بجرائم بسيطة، بأنها سرقت أشياء ثمينة مني. وبدلاً من أن أتهمها بأنها حرمتني من حبّ ابني، اتهمتها بالسرقة، بسرقة شهادة زواجي، التي كما قال كالامان، لم أكن بحاجة إلى عمل ذلك.

أخذ أحدنا يدور حول الآخر قليلاً. وانتهى بنا الأمر إلى ممر الشقة الطويل. كانت إحدانا قريبة جداً من الأخرى، يدي مندسة في حقيبتي على تماس مباشر بالمسدس. قلت في نفسي، إن قتل أفعى صغيرة بتهشيم رأسها، ومماحكة نونو ذو الإرادة القوية شيء، والضغط على الزناد وقتل إنسان عمداً شيء آخر. فضلاً عن أنها لم تتورط في جريمة بعد، أو تمنحني سبباً لأن أوجه لها إهانة قبل أن أطلق النار عليها.

كان من الواضح أني لم أكن أتصرف وفق غريزة قاتلي. فقد اشتد عود ياقوت وأصبح متمرساً، ربما لأنه كان يتعامل مع الموت، ينقش شواهد القبور، ويكتب عبارات على الرخام. كنت متأكّدة أيضاً من أن نونو وكالامان سيكونان في حال أفضل للقيام بذلك، كالامان الذي واجه الموت بصحبة فيدو، القاتل المحترف. هل يمكنني أن أستأجر أحداً؟ أدفع له. استريحي واسترخي.

سألتها: «أين كنت في الليلة قبل الماضية؟»

أدارت ظهرها عني وانصرفت.

«إني أتحدث إليك»، قلت بعد أن حقنت جرعة من التهديد في شريان صوتي. توقّفت، نظرت من وراء كتفها، وكأنها تتحداني على أن أقدم على عمل طائش، ثم تابعت سيرها. استدارت يساراً باتجاه غرفة الضيوف، التي خرجت منها منذ قليل، ثم إلى المطبخ حيث جلست، في وضعية تحد. حدّقت فيها، أحدس الرموز والإشارات ذات الصلة: كنا امرأتين تدرك إحدانا عداوتها للأخرى.

Twitter: @ketab_n

«ليس في سرير ابنك».

قلت: «كيف يمكنك أن تكذبي مثل هذه الكذبة؟ فقد أمضيت الليلة في سرير ابني، السرير الذي ينام عليه عندما ينام في بيت نونو».

قالت: «لم يكن فيه».

«لكن لماذا تكذبين؟»

فقالت: «أمضيت ليلة في غرفته عندما لم يكن هناك. وما المشكلة؟»

«أين كنت عندما وطأ الفيل فيدو؟»

قالت: «لا تكوني سخيفة».

«هل غيّرت طبيعتك وجعلتها في شكل فيل؟»

قالت: «هذا محض جنون!»

«أين كنت في الليلة السابقة إذن؟»

انفصل غضب شولونغو المؤقت عن نبرة صوتها، الذي دفنته فيه. تساءلت كيف تمكنت أن تعزل غضبها عن باقي نفسها. كان ثمة شيء مكتف ذاتياً في شخصياتها المتباينة، ذواتها الممزقة، ذواتها الضئيلة المتناثرة في وحدة مترابطة. كانت تسيطر على غضبها، أما أنا فلم أستطع أن أفعل ذلك.

«وأين الوثيقة التي سرقتها؟»

بدأت أتساءل إن كانت ستقتلني وأنا أتكلم، لا أن أقتلها أنا. وضعتني عيناها الخاليتان من الحياة في حالة عقلية تشبه حالة غاكم إكسم المبتور الإصبع، صلبة مثل درع سلحفاة. لم تتكلّم.

قلت: «منذ سنوات، طلبت أخذ بصمات أصابعك. وفي هذه المرة سآخذ حياتك».

قالت: «لقد جعلتهمْ يأخذون بصماتي ذات يوم وقد أفلت منها. والآن تعودين باتهامات أكثر شناعة. لن آخذ هرائك بجدية». ارتفع

Twitter: @ketab_n

صوتها وانخفض في هبات كالبخار في مطبخ مطعم مفعم بالحركة، سحب من الحرارة كانت في طريقها إلى التلاشي، وألسنة اللهب الغازية الحمراء التي تلعق ألسنتها مؤخرات القدور والأوعية والأباريق. «تصوّري أنك تتهميني بأني سحرت كالامان، أو أني جعلت هذان الثديان القزمان العقيمان يتدليان منك!»

صحت بأعلى صوتي: «إنك كلبة جبانة عديمة الرحمة». أخذ جسدي كلّه يرتعش، وضممت حقيبتي اليدوية إلى صدري بقوة، فقد خشيت أن تنزع مني المسدس، خشيت أن تقتلني.

«هذا جنون محض!» قالت مرة أخرى.

«وأنت سبب ذلك»، قلت.

مدّت يدها إلى مقبض باب الثلاجة. فتحتها. كان قدماها متباعدان. استدارت وقالت «أرجو أن تكوني متحضرة مع الآخرين لمرة واحدة».

قلت: «ابتعدي عن حياتنا».

سألتني: «هل تناولت طعام الغداء؟»

كنت أعرف أن لامبار لم تأت إلى هنا منذ يومين، وكنت متأكّدة من أني لا ألمس شيئاً طهته شولونغو. أشرت إلى كأس من اللبن في الثلاجة التي كانت لا تزال مفتوحة. لا بد أننا ندرك أن للمشاركة في الطعام دور في علاقات الناس، كمقياس على ثقتهم المتبادلة. كانت مولعة بالعسل البري، وكان ابني مولعاً بدمها، ونونو بعصير التمر هندي، كما كان ياقوت مولعاً بأشيائي الجوهرية، وكنت أنا مولعة بأشيائه. لا بد أنها تتناول العسل بالشاي، لا الشاي بالعسل! «ماذا تتناولين؟»

كانت شمس العصر تنعكس على ابتسامتها الحقودة. قالت: «أتناول وجبة طعام صينية جاهزة، وأرجو أن تشاركيني فيها. لا تخش شيئاً، فلم أضع في الطعام الذي أقدمه لك شيئاً».

Twitter: @ketab_n

ياله من تحول غريب في القدر، فقد قلت لها إنها تدعوني إلى الطعام والشراب في بيت ابني. بدا من تعابير الدهشة على وجهها أنها شعرت بالضيق. قالت: «إن ابنك رجل بكل معنى الكلمة. أرجو أن تتذكري ذلك».

قلت: «أقصد أن أقول إنك تتناولين طعام الذين وثقوا بك». أخذت ملعقة من اللبن وسألتها: «ما سبب وجودك هنا، في شقة كالامان؟»

دهشت لعدم ظهور على وجهها ولا خلجة واحدة.

قالت، «طلبت من كالامان أن يمنحني طفلاً».

«لماذا عليه أن يفعل ذلك؟»

بدت على وجهها قسمات غير محددة تتراوح بين الابتسامة والتكشيرة، وتوسّع حجابها الحاجز بتنهيدة بالارتياح. قالت: «بما أنه رجل مستقل، فإني أشكّ في أنه يحتاج في عمره ليحصل على موافقة أمّه».

سألتها: «ماذا سيحصل للطفل إذا حملت به؟»

تملكني شعور بأني أخضع لحمّى غضب شيطانية. كنت أتمنى أن أتمكن من استدعاء دافعي للقتل من الأوقات الأخرى، أن أستسلم إلى جنون مؤقت حتى أقتلها.

قالت شولونغو: «ربما لا يوجد شيء يمكننا أن نتحدث عنه، أنا وأنت»، وأضافت: «يجب أن تتكلمي مع كالامان إذا كان عليك أن تتحدثي مع أحد عن الطفل، لا معي أنا». وبعد برهة توقفت، ارتسمت ابتسامة على خديها، كالصخرة البيضاء، مثل بياض بيضة.

عادت إليّ الذكريات: عن نونو وهو يتصرّف وكأنه يعرف محتويات الوثيقة التي سرقتها شولونْغو الشابة. وكان يشير إليها بشكل غير مباشر في أحاديثنا. لبثت هادئة وصامتة، ورحت أتساءل ماذا يمكنني أن أفعل

Twitter: @ketab_n

بهذه المرأة الشريرة، أو ما سأقوله لها. وأحسست لبرهة بأن سرعة البديهة لن تعيد نشاط لساني. استويت واقفة، امرأة كليلة النظر، وكانت ركبتاي تجاهدان لتدعمان وزن قلقي ومخاوفي. لحظة فارغة، يليها سقوط. من؟ هل ضعفت ركبتاي؟ أفقت لأجد شولونغو تطل فوقي، وأعلى ذراعي في قبضة يدها اليمنى. كانت تساعدني على الجلوس، وتحمل بيدها كأساً من الماء تضغطه بين شفتيّ. واستغرق الأمر برهة حتى استعدت توازني، وتمكنت من استخدام لساني. عندما فعلت ذلك، قلت: «لماذا يتعين عليه أن يمنحك طفلاً؟»

أجابت: «لأني وعدت أن أمنحه شقيقاً منذ سنوات كثيرة. وقد حافظت على وعدي، لكن الأمر لم يتم، لأني أجهضت به. فعندما يقطع المرء على نفسه عهداً يجب عليه أن يلتزم به وكأنه أقسم قسماً. أريد أن أحافظ على وعدي لكالامان، مهما كلف الأمر».

مرة أخرى فقدت الاتصال مع نفسي. ثم رفعت ذاكرة قبيحة رأسها كالسبّابة في القصة الشعبية عن طبيعة الأسرار، ذاكرة حزينة تشير إلى صميم جرحي. اعتراني الحزن بغلّ يوم الحساب. وتذكّرت اقتباسا من البخارى الذي قال إنه في يوم النشور يُصب الرصاص في آذان الذين فشوا بالأسرار التي أئتمنوا عليها. للأسف لم يعد جسمي متصلاً بعقلي. وبعد ساعتين استيقظت في سرير كالامان وحدي، ولم تكن شولونغو في الشقة.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فاصل

بعد أن تقيأ كلّ ما أكله، أحس كالامان بالارتياح على نحو غريب.

كان متوتر الأعصاب، شديد الإرهاق. وكان يشتكي من ألم شديد يحفر في أعماق أعصابه. وكان نصف رأسه يقرع مثل صناجين نحاسيين يقرعان معاً، وكان الصنج الآخر يقرع طبلاً بدون إيقاع أو بدون سبب عقلاني. وعندما سئل عن سبب كلّ هذا الألم، ذكر اللحظة التي شعر فيها بالغثيان. قال إنه شعر بالغثيان عندما كان يتحدث مع أمّه، وكان يحاول أن يبعده لما يقارب الساعة. وعندما غادرت أمّه، أصبح يصعب عليه أن يوقفه. لذلك استلقى في السرير، وأخذ يتذكّر بفتور.

يرى نونو أن مشاكل كالامان التي يعالجها كانت قد بدأت عندما أخذ ينحي باللائمة على الآخرين في حزنه المفعم بالشعور بالذنب. قال الرجل العجوز: «هناك لحظات في حياة الفرد أو الأمة، يمكن فيها تفادي الانهيار، حتى لو كانت تبدو حتمية في البداية. إذ إن اللحظات المهمة تأتي وتذهب غالباً دون أن يدركها أحد. إذ تصيب لحظات الذروة المرء كما يصيب الإعصار بعين مجنونة، إذ يظهر الآن، ويختفي في اللحظة نفسها، لكنه يخلّف وراءه الكثير من الأنقاض والخراب. وكذلك هي الذكريات الكثيرة: الذكريات المفعمة بالكثير من الألم والإحباط، والتي ربما كان أمام كالامان عالم من الفرص ليضع حداً لسلوك أمّه المدمّر؛ وكان أمامه عالم من الفرص ليحدثها قبل أن يضرب الإعصار،

Twitter: @ketab_n

أن يقطع المشيمة التي تربطه بأشخاص آخرين. شيء ذو طبيعة موهنة تسيطر على حياة كالامان، تجعله يشعر بالضيق، عندما يتبين له أنه لا يوجد شيء خاص يتعلق ببداياته. ونتيجة لهذا الاكتشاف، فقد كالامان القدرة على اجتياز لا عقلانية أمّه العاصفة، أو على فهم مراوغات نونو وعدم إخباره بهذه الألغاز.

كما كان بوسع أمّه أن تتدخّل في وقت مبكر، وأن تتخذ خطوة حاسمة في مسألة علاقة كالامان مع شولونغو، أو مع أي شخص آخر، عندما كان الصبي في بداية تشكل حياته. وكان بوسع أبيه أيضاً أن يبدي اهتماماً أكبر بالأمس في ما ساهم في تكوين كالامان اليوم.

كان نونو في مزاج يدعوه للثرثرة، كان يحب الاستفاضة. قال: «لنضع تصرفات كالامان ومآزقة جانباً للحظة، ومن أجل التغيير دعنا نتحدّث عن البلد بأكمله، وانهياره الوشيك إلى فوضى وإراقة دماء. ولنتفق على أن المأزق الذي يمر به بلدنا ما هو إلا مأزق لنا نحن أيضاً، مجتمعين ومنفردين، وكلّ واحد منا متواطئ في خرابه. هل يمكننا أن نفعل شيئاً لننقذ البلد من التمزق والتشرذم إلى إقطاعات عائلية؟ أشكّ في أن هذا ممكن في هذه المرحلة. لأن ما يحدث للهوية الجماعية للأمة، وللحياة الفردية لشعبها ليست تيدليوينكس، اللعبة التي تلقى فيها أقراص لدائنية لتسقط داخل وعاء. إن ما يحدث مسألة حياة وموت. وتصبح الألعاب مميتة أكثر يوماً بعد يوم. تنطلق الطلقات، وتُشَّحم الأسلحة، قوّة في المركز، وقوّة في المناطق المحيطة مستعدة للسيطرة ـ في ساحات المعارك التي يكون فيها مختلف المطالبين مستعدين لمواصلة القتال والفوز».

هل كان نونو يرى أن من يفوز في إقطاعية عائلته على المناطق المحيطة ربما تتسلم زمام السلطة في المركز أيضاً؟

«الأولى لا تنفي الأخرى».

Twitter: @ketab_n

«والدكتاتور؟»

قال: «يعين الدكتاتور رئيس بلدية مقديشو ليّدل على قاعدة سلطته السياسية المحصورة بالعاصمة. إذ لم تعد له علاقة بالنتيجة النهائية. فقد أخذ الإعصار المجنون يزداد زخماً، ولا يمكن أن يحول دون وقوع الضرر الأعظم من انطلاقها من عقالها إلا وقوع معجزة. أما بالنسبة للمستبدّ نفسه، فإن قوة الإعصار وشراسته ستكتسحه، وسيتحمل عبء غضب الشعب. كما تعرف، لم أره أبداً على حقيقته، بل كإنسان آلي في حرب باردة، يوجّه جهاز تحكّم عن بعد. وقبل وقوع كارثة أوغادين بقليل، غيّر سياد، دون أن يكيّف نفسه مع ظروفه الجديدة، رجلاً مهزوماً يتسلم زمام قيادة شعب يريد باستماتة أن يكون لديه رجل دولة. كان بإمكان سياد بري أن يمنع تدهور الأزمة لو أنه استقال آنذاك: كان شخصية مأساوية، ضحية ضآلة عقله».

كان بوسع كالامان أن يضع حداً لهذه الهمرجة اللفظية أيضاً، لو كان صادقاً مع غرائزه، صادقاً مع تالادو وأمّه، أو لو كان صريحاً مع شولونغو نفسها: لأوقف الصوماليون جميعهم الانهيار القادم. ولا يحق له أن يلوم أبويه أو نونو أو آخرين على فشله. ولا يحق له أيضاً أن ينحي باللائمة على شولونغو. إذ يمكنك أن تطبّق المعايير ذاتها التي يمكنك أن تقيّم من خلالها الأشياء الأخرى التي ساهم فيها الآخرون في هذا الانهيار، حجرة مدمرة إثر أخرى. امنح الناس الفرصة ليقولوا ما لديهم، وسيظهر الكثيرون جروحهم الشخصية والجماعية: كالامان، أبواه، نونو، فيدو، البيئة، الحيوانات التي لا تتكلم، جميعهم يعتبرون أن الدكتاتورية قد أساءت معاملتهم. احشرهم في الزاوية، واطلب منهم أن يكافحوا ضد استبداد الرجل الأوحد. سيصمتون، ولن يتمكن الكثيرون من إنكار أنهم لم يتواطئوا في هذا الخراب. ودفاعاً عن أنفسهم، سيهرعون وينحون باللائمة على المستعمرين، وسينحون باللائمة

Twitter: @ketab_n

على كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في تمويل المقاتلين أثناء الحرب الباردة، الذين يلعبون بأسلحة الدمار الشامل.

واصل نونو كلامه: «ليس ثمة قاع أعمق من هذا الذي يمكن للمرء أن يصل إليه، عندما يتعلق الأمر باحترام ذات الكثيرين ممن يحبون السلام، باحترام الذات التي تدنت حتى وصلت إلى عتبة الباب. هناك شهيد حزنت عليه: لو كان قد بقي على قيد الحياة، لربما استطعنا أن نبعد اسماعيل علي جيوماليه عن هاوية الهمجية الذاتية. لقد شاركنا جميعنا في جنازته بمئات الآلاف، ودفناه في قلوبنا، بدافع الحبّ لما كان الرجل يريد أن يفعله. فقد بذل جهداً كبيراً للحيلولة دون تدخل العشائرية الأنانية في حياتهم، وتلحق الضرر بالآخرين جميعهم. وكانت الأمة قد علّقت آمالها على جيوماليه، الرجل الذي لم يتمكن فقط من جمع معارضة فعّالة ضد استبداد الحكومة الحاكمة المطلقة، بل قدم أيضاً بديلاً للسياسة الخاطئة والمضللة بربط كلّ فئة من الميليشيا بعشيرة معينة».

تذكّر كالامان أنه التقى به ذات مرّة، وأحبّه.

واصل نونو كلامه: «إن كشف الأذى يعادل نقل مرمى الأهداف. فكما توجد للعقارب مخابئها الآمنة، توجد للإساءة، وكذلك للأكاذيب. وللنمل الأبيض طريقته أيضاً في الاختباء في الكثبان الرملية التي يبنيها بلعابه. تذكّر كلماتي، فالكثير من الرجال الأنانيين الذين يقودون الميليشيا انتهازيين، أعضاء سابقين في عصبة المستبد، إخوانه في المؤامرة، أو الأسوأ من ذلك، فهم مطيعون فاسدون، ومستبدون محتملون في المستقبل. لا نستطيع جميعنا أن ننحي باللائمة على الرجل الأوحد، لأننا نشاركه جميعنا في هذه اللوم».

لم يكن ثمة شيء أنيق في كالامان اليوم. فقد كان الألم ينتشر في أنحاء جسده. كانت شفتاه تتدلّيان، وفمّه يروّل، ولم يبد ذكياً كذلك،

Twitter: @ketab_n

ولم يكن أنيقاً، أو فاتناً كما كان يبدو، ولم يعد رجلاً مثل نونو قادراً على الوصول إلى قلوب الناس، للتأثير عليهم بطريقة إيجابية. كان يبدو طيّعاً، ليناً، من ذلك النوع الذي يقع الناس في حبه، يعتقدون أنه بإمكانهم أن يجعلوه صديقاً وفق هواهم. إذ قالت كالين ذات يوم إنه يدفئ دمها إلى درجة أنها تشعر بالبرودة عندما يلج مركز فتحاتها، في أعماقها، في أعماق أعماقها.

أما الآن فقد انتابت كالامان الرعشات. وبعد لحظة أحس بحرارة شديدة تعتريه إلى حد أن الغطاء الذي كان يتلفع به كان قد بدأ يلتف ويتجعد عند الأطراف، مثل قطعة ورق قريبة من لسان اللهب. صورة انعكاسه في المرآة أجفلته. وجد صعوبة في التعرّف على وجهه. إذ طرأ تغير كبير في هذا الوقت القصير، وفقد وزنه. وعندما تطلع في المرآة، أحسّ أنه غريب على نفسه، وكأنه أصبح وجهاً لوجه مع كوابيسه، التي رأى الكثير منها حتى الآن.

في إحدى هذه الكوابيس، دخل كالامان على أمّه وهو يمضغ أطراف جمجمة بشرية طرية. سألها بقلق من هو صاحب هذه الجمجمة عندما كان حياً. فقالت أمّه إنها كانت رأس شخص ينتمي إلى «عشيرة معادية». هل يريد أن يقضمها؟ وفي كابوس آخر، رأى نفسه حيوان سمندل الماء، في بطن حوت ضخمة، وكان يجاهد في أمعائه محاولاً أن يخرج. وكان موسوماً على جانب الحوت اسم عشيرة أمّه، وعلى الجانب الآخر اسم عشيرة أبيه. كان سجيناً في بطن الحوت، سمندل ماء - رجلاً بدون هوية يمكن التعرف إليها. وكان يتمنى أن يستعيد هويته المستأصلة التي لا تستند إلى نسبه العشائري. وقد خُيّر بأن يموت على يد شخص لا ينتمي إلى عشيرة أمّه أو أبيه، أو أن يتجوّل في بطن الحوت مثل حيوان سمندل الماء. فاختار أن يكونَ سمندل ماء، مفضلاً هذا على أن يتحالف مع القتلة.

Twitter: @ketab_n

كان الوقت ليلاً. وكانوا يمضون بضعة أيام على الشاطئ، هرباً من الهمجية المدنية. رأى أعزّ أصدقائه، وخرجوا يحملون هويات عشيرتهم. وتذكّر أن نونو رفض ذات يوم أن يذكر اسم عشيرته في بطاقة هويته، كما جرت العادة في المستعمرة الإيطالية. فأمضى فترة في السجن، واتهمه الإيطاليون بأنه فوضوي. ثم أطلق سراحه، وأصدرت له بطاقة هوية كتب عليها «بريطاني»، لأنه جاء من المحمية الواقعة في الشمال، التي كانت تحكمها بريطانيا آنذاك. سأله كالامان لماذا فضّل أن يكون «بريطانياً» على أن لا يحمل هوية عشيرته؟ فقال نونو موضحاً: «لأن كلمة بريطاني مفهوم سياسي، تلمح إلى الدولة، إلى التاج وما إلى ذلك، أما أن تكون إنكليزياً أو ويلزياً أو إيرلندياً أو إسكتلندياً فإن ذلك يشير إلى منشأ الفرد العشائري، وإن تمييز المرء بأنه صومالي وليس بأنه ينتمي إلى عشيرة معينة، يحدد كياناً سياسياً. إن العشيرة كيان غير سياسي، تستند إلى هوية الدم البدائية».

يخون الأصدقاء المخلصون أحدهم الآخر بسبب الخلافات النرجسية، رجل يغتصب كنّته، ويفرغها من جنينها لا لسبب إلا لأن المرأة تنتمي إلى سلالة دم تختلف عن سلالته. كان هناك في الماضي رجل يقرع الطبل، ويسير الغوغاء وراءه، وخلال سيرهم عبر شوارع العاصمة، كانوا ينشدون أغنية أطفال، يستثيرون مشاعر الكراهية ضد العشائر في مكان آخر.

كان يفضّل أن يموت وهو حيوان سمندل الماء، وأن يموت خنقاً، على أن يقتل على يد صديق بذاكرة موروثة تختلف عن ذاكرته.

استيقظ كالامان أخيراً. وجاء نونو ليهدئ من روعه.

خرج ليهرول.

أخذ يجري في ما كانت غابة طفولته، ورأى بحزن الجفاف الرملي

Twitter: @ketab_n

للأرض. وبدا نهر شابل مرخيّ الحنك، مثل ولد محروم من بهجة اللعب. وتمنّى أن المجانين الذين يتنافسون على بعض الذكريات سيدركون كيف أن الحروب ترتبط بالمجاعات، وكيف أن الواحدة تأتي نتيجة للأخرى. وعندما عاد راكضاً، كان أشدّ حزناً بكثير لأنه، مثل شهاب يندفع بألق مطلق ثم يختفي في نفخة واحدة، رأى أمّه تضع مسدسها على رأس شولونغو. كانت كل من المرأتين شريرة نحو الأخرى، إذ كانت أمّه تطلق على شولونغو أقذع الأسماء لمجرد أنها ولدت في أوغادين. فيما كانت شولونغو تهددها، دفاعاً عن نفسها، بأن تمحو اسم داماك من شاشة وعي كالامان، «لأني سأقتلك بيدي هاتين، وأجرع دمك حقداً». وأخيراً استدعى صور الرعب، رجلاً لم يره في حياته، غاكم إكسم.

سأل نفسه، هل قتلت أمه شولونغو؟

عندما عاد كالامان من جولة الجري، وجد نونو جالساً وحده في غرفة الجلوس، يتنفّس بصعوبة ولا يتحرك أبداً. ربما كان الرجل العجوز يفسي أو يتجشأ.

كانت منفضة السكائر القريبة من نونو مليئة بأعقاب السكائر. إلا أن اهتمام كالامان تركّز لفترة أطول على شكل رسم عرضاً من رماد السيكارة، شكل يشبه تمثالاً في قوامه، ومع ذلك فهو حقيقي جداً، يداه مثنيتان على صدره، ويجلس بشكل مهيب. وعندما أفاق، أقرّ نونو بوجود كالامان بإيماءة من رأسه. لكنه انحنى إلى الخلف، في وضع لا يريد أن يتنفّس فيه خشية أن يفسد هذا القوام المتشكل من الرماد، صورة الانخراط لسنوات في تدخين السكائر.

قال نونو: «لقد أقلعت عن التدخين».

«ماذا تزمع أن تفعل بدلاً من التدخين؟»

Twitter: @ketab_n

درس كالامان الشكل الرمادي الآن. ربما كان تمثالاً شيد تقديراً للسنوات التي أمضاها الرجل العجوز وهو يتناول النيكوتين، جزءاً من الشكر له.

«ربما سأبدأ أصلي».

حلّ كالامان رباط حذائه الرياضي. «إذن لن تجيب ما ـ توكاده، لقبك القديم، الذي سيبطل عندما تقلع عن العادة؟»

«ربما كانت وسيلة في الحصول على هوية جديدة»، قال نونو بابتسامة ماكرة منحت عينيه ألقاً.

«إذا صلّيت بالهوس الذي كنت تدخن فيه، نعم».

نظر نونو إلى الكتاب الذي كان مفتوحاً أمامه، وكأنه ينتظر شيئاً استثنائياً سيحدث. أما كالامان، فراح يدلّك أصابع قدمه، ولوى أنفه من رائحة قدميه.

«كيف تشعر؟» سأله نونو، وألقى نظرة عابرة على الصورة المتشكلة من الرماد. ربما كان يتساءل إن كانت الريح ستشوّهها، ومتى. أو ربما فقد مادة سحرية مدفونة في الرماد. أحدث النسيم ثقوباً وتجاويف في نصف الشكل الأعلى، مخرباً إياه. بدا الرجل العجوز حزيناً، فنان يشاهد ما صنعته يداه يتحطم.

منح كالامان هذه الخسارة فترة صمت لمدة ثانيتين فقط، رجل حزين من أجل موت فكرة. قال، «أريد أن أدخل في مناجاة تفكير طويلة. أرجو أن تقاطعني إذا حدت عن طريقي، أو إذا كنت أفتقر للاحترام».

حيّا نونو هذه الديباجة بإيماءة.

قال كالامان: «أشعر بوطأة تثقل كاهلي فيها مزيج متنافر من الجسديّ والعقليّ، مزيج غريب يصعب تعريفه. ففي لحظة أشعر بأني على ما يرام،

Twitter: @ketab_n

وفي لحظة أخرى أندب موت شخص عزيز عليّ، وفي اللحظة الأخرى ترتفع معنوياتي، عريس ينتظر وصول عروسه الوشيك. فأنا مواطن في عالم يقف على رأسه، حيث تتصرّف الفيلة بأساليب غير متوقّعة، لكن لمصلحتنا جميعنا. ويتداخل النحل بأزيزه في رؤاي. ويقودني طائر العسل إلى مصدر المادة الحلوة. وتخرج الأقزام من بطن التمساح الثانية. أنا (في الحلم) أكون على مودة مع الأسماك الطائرة، ورجل ضخم في الثمانين من العمر بوجه ضفدع: نتحادث حديثاً ودياً، أنا والرجل العجوز. قوم يتغذّون على قرقعة الجراد، الحشرات ذاتها التي دمرت محصولهم في الموسم السابق. الحمام يؤدي دوره في حياتي. وللقرود مكانها أيضاً. وطيور الزقزاق ذات الرأس الأسود تجد ترحيباً كذلك. يأتيني تحذير من الموت كلما التفت. تاريخ حياتك مؤشر على الموت، وكذلك شولونغو. وكذلك مشهد كومة من عظام الفيلة. وسؤالي: في أي شخص صعدت، مثل نهر؟»

شبك كالامان أصابعه ثم حلّها. وراح نونو، الذي لم يكن يدخّن ولم يكن قلقاً، ينصت. وتابع كالامان كلامه:

«لقد قيل ما يكفي عن شولونغو. وما يكفي عن شكّ أمّي المزري بها. ما يكفي عن اسمي. وما يكفي عن الأقوال المأثورة بأن الأمّ أهم من الأب بالنسبة للطفل. وهناك مثل صومالي يقول إن الأمهات هن الحقيقة. بمعنى آخر: إن كان هناك والد حقيقي للطفل فهو الأمّ. لكننا أصبحنا في عصر لم يعد فيه صحيحاً أن الأمهات حقيقة لا ريب فيها: إذ يُرمى الأطفال الرضّع في صناديق القمامة. قرأت في صحيفة محليّة منذ أيام عن كارثة تتعلق بالشك، أمّ تنتحر لأن ابنتها الصومالية المولد، التي أصبحت الآن مواطنة أمريكية، حملت طفل أنبوب اختبار. لماذا قتلت الأمّ نفسها؟ هل لأنها لمْ تعد تستطيع أن تعيش في عالم أصبحت فيه الأمّ، بكونها حقيقة، أمراً مثار تساؤل، يهددها العلم اليوم؟»

Twitter: @ketab_n

توقف لوهلة، ليتساءل لماذا كان نونو يجلس بجانب منفضة السكائر المليئة بأعقاب السكائر، حتى بعد أن تلاشى الشكل الرمادي.

قال كالامان: «أتذكر ردود فعل العالم الإسلامي عندما ادعى الأمريكيون والسوفيت لأول مرة بأنهم هبطوا على سطح القمر؟» وأضاف: «وقد اعتبر الإسلاميون ذلك بأنه محض جنون. هل نتكلّم عن زعزعة حقيقة ثابتة للمجتمع من أساسه، جوهر بقائه الجمعي؟ ماذا عن تأكيد الأبوّة عن طريق الحامض النووي، الدم مع الدم؟ لقد دخلت الأسرار المستمدة من العلم في أعماق الشك، وقد تساعد في دفع حدود الحقيقة».

شبك كالامان أصابعه ثانية أمامه ثم فكّها. وكان الظلّ الذي نجم عن حركة أصابعه قد ذكّر نونو بمهد قطة، تنفتح الآن، تغلق الآن. هزّ الرجل العجوز رأسه مشجعاً.

واصل كالامان كلامه: «إن مسألة الأبوّة ذات طبيعة مختلفة في المجتمع الصومالي. ربما خيّل إليك أن ذلك بسبب الشك المرتبط بالأبوّة (إن من طقوس الدفن عند الصوماليين، وعند المسلمين كذلك، ذكر اسم أمّ المتوفى للتأكد من هويته، لا اسم أبيه)، وسيعّدل المجتمع الصومالي أساليبه. فالأب أساسي في المسائل التي تحكم حياة المرء. إذ يضاف اسم الأب إلى اسم المولود الجديد، ويصبح للأب أهمية عندما يتعلق الأمر بالميراث. وتذكر كيف اعترضت أنت وأمّي على هوسي في مسائل الأبوّة، لا لأن شولونغو هي التي دفعتني إلى هذه المخاطرة، بل لأني، عندما قلت إني سأضيف اسم أمّي إلى اسمي، كنت أشكك في حقيقة مقبولة لدى الجميع من الناحية الجوهرية، بأني ابن ياقوت. وعندما أتذكّر ذلك، أستطيع أن أقدّر لماذا كنتما تعتبران أن هذا الأمر يشكل إهانة لأمّي كامرأة، إساءة دنيئة هدفها النيل من شرفها الشخصي».

بشرود، التقط نونو علبة سكائر وأخرج منها سيكارة، ووضعها بين

Twitter: @ketab_n

شفتيه. كان على وشك أن يشعلها عندما ضيّق عينيه. وضع علبة السكائر والقداحة جانباً، وابتسم ابتسامة عريضة. ثم أخذت شفتاه ترتعشان. هل كان يصلي.

قال كالامان: «لماذا سرقت شولونغو الوثيقة التي تدعّي أمّي أنها شهادة زواجها؟ زواجها مِن مَن؟ ماذا ربحت شولونغو من ذلك؟ هل تعرف صديقة أمّي آرباكو، وغاكم إكسم الشرير؟ هل كانا طرفاً في هذه المؤامرة؟ هل كنت تعرف هذا السرّ، هذه المؤامرة؟»

بخلاف ما كان كالامان يتوقعه، بدا نونو مرتاحاً.

حدّق في الشاب، معجباً بتدفق كلماته القلقة وهي تنبعث منه لتدبّ فيها الحياة. لعله كان يظن أن إزاحة قدر كبير من الشكوك عن كاهله أفضل وسيلة ليتخلص كالامان نفسه من خياله المحموم، وخاصة أنه قد بدا أنه يسيطر بشكل تام على دفق الكلام.

كالامان مرة أخرى. «لقد نبشنا حتى الآن أشياء كثيرة. قد نستمرّ في نبشها إلى الأبد، إلى أن تسكن حيوانات الراتل جميعها في العالم بارتياح، كلّ واحد في عرينه، آمن في مسكنه، غير منزعج وغير خائف. لكن هل سنستمرّ في التمرّغ في وحلنا، كما لو كنا خنازير، لا بشر؟ إن جزءاً منّي لا يريد المزيد من البحث، ويريد الجزء الآخر أن يصل إلى قعر هذا الأمر، لوضع كلّ حبة رمل تحت مجهر الفحص الأخلاقي. ماذا لو نبشنا في باطن الأرض، ماذا لو نبنشنا الجثث المدفونة، جثة فيدو، وجثة مادوب وجثثاً أخرى؟ ماذا سنتعلم؟ وإلى أيّ شيء سينتهي بي الأمر؟»

تحركت شفتا نونو، فم سمكة تتناول طعامها بعصبية. واصل كالامان كلامه: «لقد عشنا جميعنا حيوات عديدة وفعلنا أشياء نخجل منها. لقد زيفنا القصص التي نرويها عن أنفسنا وتلاعبنا بها، الحكايات التي، حسب ما نرويها، ندجّن أنفسنا وفق منطقنا. ونادراً ما نعترف، إذا لم

Twitter: @ketab_n

يكن قول الصدق لصالحنا. لم يكن من السهل أن تتربى في عائلة يصمت فيها أبواك ما أن يسمعاك وأنت تقترب منهما. هل كانا يحجبان أسراراً لصالح ابنهما الوحيد، أو من أجل كرامتهما وسلامة عقليهما وبقائهما؟»

وفي نهاية حديثه، تغيرت نبرة صوته كثيراً. إحساس بالتعب يملأ كلامه، يكتم تثاؤبة، أحرف صوتية طويلة تقصر دون داع، أحرف ساكنة لم تعد تُلفظ بوضوح. أصبح يقول الآن نتائج خاطئة. قال: «الطعام مكوّن أساسي في استراتيجية الإغراء، شابّ يغذّي حبّ مراهقته على مؤنة الشهوة وشوكولاتة الرغبة. إنها على عكس إعطاء تفاحة حواء، لعلها النسخة الذكورية عما حدث. هنا الرجل يرغم المرأة، يغريها على ارتكاب المعصية. في هذه القصة، يرتبط الأكل بالإغراء وبالموت أيضاً - وبالموت أعني توقف حالة المرء، وتولي آخر. الموت حول تغيير الاسم، رجل يغيّر اسمه من حين لآخر، ويتخذ شخصية باسم آخر».

هنا أصبحت أحرف كالامان الصوتية غليظة، وبدت حروفه الساكنة أشد قساوة. وراح يتكلّم ببطء شديد إلى حد أن نونو لم يعد واثقاً إن كانت أجزاء من كالامان لم تُغلق، مثل جهاز تسجيل وهنت بطاريته. «أنا...» قال، وبدا أنه يمطّ كلماته، عيناه تغمضان كما لو من الإعياء. وعندما فتحهما ثانية، تغلغلت داء الشقيقة إلى أعصابه المتعبة عن طريق بصره. انهار. كان طفلاً اعتراه الوسن وهو في وسط كلامه.

قال نونو: «منذ لحظة كنت في أرض الذاكرة، قبل لحظة، كنت مستلق، كنت رجلاً يطهّر نفسه من ذنوبه. لكن أين أنت الآن، أو من أنت؟ لم أعد أعرف أين أصبحت، هل أنت في موجة المد أو الجزر، هل أنك تطوف أم تجري في تخيلاتك، مستغرقاً في أحلام اليقظة».

وضع يده برفق أولاً على رأس كالامان، ثم على كتفه، الأولى ليتأكد إن كان مصاباً بالحمّى، واللمسة الثانية ليبدي له تعاطفاً، يطمئنه.

Twitter: @ketab_n

تابع كالامان، «أين هي أمّي في كلّ هذا؟»

قال نونو: «ربما كانت في حالة أخرى، سريعة التقلب مثل انحدار الشعب الصومالي الجماعي إلى الجحيم. أرض حيث لا يحكم فيها العقل، حالة من الغضب، وحالة مهيمنة من الحنق الشديد».

«لكن يبدو أن شولونغو اختفت كلياً من ذاكرتي؟»

«هذا يثبت فكرتي في الواقع».

«وماهي فكرتك؟»

«أن شولونغو حالة أيضاً، حالة من الاضطراب والتمرد».

«لكن لماذا اختفت من ذاكرتي تماماً؟»

فقال نونو: «ربما حلّت محلها شخصيات مأساوية تستحوذ على المرحلة الوطنية، وفي هذه الحالة انحدرت إلى موقع ثانوي في مخطط الأمور».

«يا لك من مسكينة أيتها الصومال!»

«غائبة في حضورها، وحاضرة في غيابها»، قال نونو، «تتلّبس شولونغو شخصيات مختلفة كما تفعل الممثلة، فيما تمثّل الطيف الكامل للإمكانيات الإنسانية والحيوانية. لا تقلق. إنها هناك، في الآخرين! لذلك فإنها ستعيش إلى الأبد، لأن الآخرين سيتذكّرونها، مهما كانت الدوافع».

بدت على وجه كالامان لمسة حزن وهو يستعرض الساعتين الماضيتين بسرعة. استمد إحساساً بالراحة من الركون إلى صوت نونو الفسيح، طفل دافئ في الراحة التي يوفرها عزاء أن يضع إبهامه في فمه.

وأضاف نونو: «ورقة تين رقيقة تستر شخصنا، لمجموعة من الأسباب المناخية والثقافية، فنحن الأفريقيين، نكشف أنفسنا للإدانات بأننا نستمتع بكشف أجسامنا. سمعت أنهم يقولون إن العرب، لأنهم

Twitter: @ketab_n

ينحون للغيرة على نسائهم، فهم يعتقدون أن المرأة الصومالية ترتدي ثياباً خفيفة، تكشف عن صدرها وسرتها، وتظهر مفاتنها كما يظهر البدر. وأن رجالنا يسبحون عراة في أنهارنا، وتخوض النساء في الماء أحياناً بكامل ثيابهن، بذات الثياب التي يقفن فيها. ومعاً يخلعن ثيابهن، فتلتمع صدورهن كما يلتمع الزيت فوق سطح الماء المنعكس في ضوء القمر».

ذكّر المد والجزر في صوت نونو كالامان بأنه سمندل ماء، عالق في بطن حوت ذي أبعاد كونية. جاء صوت نونو مرة أخرى، لكن بدون سكائر محترقة الآن. «إن شولونغو طائشة، متهورة، يصعب ترويضها. ولا أظن كذلك أني رأيت فماً نهماً مثل فمها، يريد أن يمتلئ بشيء».

سأله كالامان: «فمها؟ ماذا عن فمها؟»

استسلم نونو إلى إيقاع حكايته وهو يرويها. «أذكر ذلك الصباح عندما اخترقت دفاعاتي ووثبت فجأة من لا مكان لتتمكن منّي. وأحمد الله إني تمكنت من وقف هذا الشيء المخزي بحزم».

بدا كالامان وكأنه في حالة هذيان، وتساءل ماذا ستكون علاقة دمه بأطفال شولونغو لو أنجبت طفلاً من نونو ومن ياقوت ومنه؟ لعن الله الدم الذي يربط بصلة القربى».

«فكّر بشولونغو بأنها حالة فاجعة، لا كشخص»، واصل نونو، «اعتبرها حالة، عندها سيتضح لك كيف أن الذين ظهروا في حالة شولونغو ينتمون إلى فئتين: فئة ضعيفة، وفئة أخرى محصنة ضد الفيروس».

تصور كالامان امرأة محنية، رأسها في الماء، فمها منتفخاً بضخامة ما كان في داخله، والرجل جبل متصاعد إلى الأبد. ورأى كالامان جسماً كبيراً من الحيوانات المنوية، وطفلاً يصطاده بمرح ويلتهمه، دون أن يترك قطرة منه على سطح الماء.

قال صوت أجش: «هل تريدني أن أحضر لك شيئاً؟»

Twitter: @ketab_n

هزّ كالامان رأسه بأن لا.

«برأيي»، قال نونو، «تقوم النساء بمسؤولياتهن الأخلاقية والمدنية على نحو أفضل بكثير مما نقوم به نحن الرجال، وأن النساء حريصات على حفظ الأسرار أكثر منا نحن الرجال. فمن الممكن أن يتحدث صبي في عمر شولونغو متبجحاً لكلّ من هبّ ودبّ وبدون استثناء عن مغامراته الجنسية، إذا كانت لديه مغامرات بقدر ما لديها. فرغم أنها كانت في الرابعة عشر من عمرها، ولأنها امرأة، كان بالوسع مقارنة شولونغو برجل في الأربعين عندما يتعلق الأمر بكتم أسرارها».

أفعى صغيرة تفعى بين الأعشاب الرطبة: داماك؟

«أريد أن أعرض فكرة هرطقية»، قال نونو.

«إن ما يميّز البشر عن الحيوانات الأخرى ليس القدرة على الكلام، أو لأننا نستطيع أن نحلّ مسائل رياضية معقّدة، لا. بل إنها تكمن في امتثال الإنسان لمجموعة من المعتقدات التي تحكم سلوكاً عاماً، معتقدات محرّمة تمارس لأنها تؤثر على حياة المجتمع بصورة عامة. ولا أستطيع أن أتصوّر عالماً بدون محرّمات، ثقافة لا توجد فيها فكرة الصواب والخطأ. الحفاظ على الشرف، الحفاظ على الوعود، عبادة الآلهة. أن يتخيّل المرء عالماً لا توجد فيه أسرار فهو لعنة. فللأسرار طاقة حياة، تراقبنا بعمق.

من بقايا شعيرات على ذقنه من الليلة الماضية، قرّر كالامان أنه لا يزال حياً.

«لعلك لن توافق»، جاء صوت نونو ثانية، «لكني أعتقد أنه يوجد ثمة توازن بين ما يسمح به وما لا يسمح به. هكذا أُرسيت الأخلاق، وهكذا تشكلت المحرمات. يجب ألا تقتل! هذه زوجتي، لذلك... هذه كنّتي، لذلك... صديقك مفضل على دمك. نحن نفكّر، نضع آلية لضبط النفس، توجيهات، ونضع مزيداً من القيود على منطقنا حول

Twitter: @ketab_n

الوجود. أن لا تضللنا غرائزنا البدائية، نشكّل برامج سياسية، ننتمي إلى أحزاب، ندلي بأصواتنا. قارن هذه بنافذة ذات شبك في الجدار، ألواح متصالبة تطل على فضاء مفتوح، السياسي يختلط بالشخصي، الجيد يلغي السيء. وبما أن حيوانات أخرى لم تطوّر إحساسها بالحرام إلى الحد الذي نفهم فيه الفكرة، يلي ذلك أن ثوراً قد يسافد أمّه، طير يتغذى على الجيف يتناول لحم نسله، وهكذا دواليك. وفي حالات استثنائية فقط يتغذى بشر على بشر آخرين للبقاء على قيد الحياة. إن المحرمات تغطي منطقة واسعة. فحرام أن تتناول بعض الأطعمة. ممنوع أن تقترب من أماكن العبادة دون أن تؤدي بعض الطقوس. وعندما تتحوّل الجماهير، التي تقدّم مصالح عشيرة أو تقاتل باسم واحدة منها، إلى غوغاء، وتقتل كالحيوانات، وتقتل عشوائياً، عندها ندخل منطقة المحرّم لأشياء لا يمكن القيام بها في الظروف الطبيعية».

تجمعت عاصفة عوراء في رأس كالامان. أزاح يد نونو. تحرّك في سريره، حرّك يده صاعداً إلى بقعة على عموده الفقري، ولمس ألماً.

«العدل عدل»، قال نونو «قولان سديدان للغاية، منسوبان لك. الأول واضح: الدم هو الدم هو الدم، والقول الثاني جوقة من التحدي: الآباء ليسوا مهمين! الأمهات أكثر أهمية! في رأيي، لا يوجد شيء غير متوقع في كلا الحديثين، فقط لماذا قيلا، ما الذي جعلك تقولهما في المقام الأول. سأتناول كلّ واحد منهما على حدة».

متململاً، اعترى أصابع كالامان مزيد من الألم.

كان الصوت الذي يصله يتغلغل فيه مثل حقائق صعبة. «لقد جرحت إصبعك، لديك نوع من الدم يختلف عن الدم الذي يحدّد القرابة. لكن إصبعاً مغمساً بدم حيض امرأة ترفع نفاية إلى منزلة الشهوة: وهذا شيء محرّم. للاستمرار، لكن أيضاً للمراوغة. دم يغطي نسيجاً من المشيمة،

Twitter: @ketab_n

هل هو دم مجرّد من قوته المتأصلة فيه؟ العدل هو العدل، الدم هو دم هو دم، الحيوان المنوي هو حيوان منوي».

كان صوت نونو يشبه خرير مياه منسربة. وجد فضاءاً في جمجمة كالامان الفارغة، التي شكّلت فيها برك من الماء. لمس كالامان الآن جبهته، وقال لنفسه: يا إلهي، إني أنزّ ماء. والنهر يتدفق إلى رأس كالامان: صوت يلقي قفازاً للمبارزة، يعوم بالأفكار، أفكار ضخمة بضخامة جثة تطفو بذكريات أخرى، دفنتها السنوات تحت الماء.

جاء صوت نونو. «لنفترض أننا نقبّنا في مسألة الوثيقة التي سرقتها شولونغو؟ لنفترض أننا كشفنا كنهها، لماذا سرقتها، أين وضعتها؟ لنفترض أن آرباكو وغاكم أكسم، تآمرا سراً على ابتزاز أمّك؟ كحيوان يتمتع بدرجة عالية من الإحساس بالحرام، هل ستنزعج إذا علمت أنك طفل شخص آخر، لا طفل ياقوت؟ هل ستحطِّم الشكوك قناعاتك؟ ماذا سيحصل لعلاقاتك معنا، نحن أقرباؤك طوال حياتك؟ هل ستقتلني أو ستقتل أباك إذا ظهر أن أسرتك في حالة حرب مع أسرتنا، في الصراع الجاري من أجل السلطة السياسية؟»

سمع كالامان طقطقة في رأسه. ربما كان يستمع إلى جهاز تسجيل توقف زرّ التغشيل فيه آلياً. كان رأسه ممتلأً بالفراغ. سمع الريح تصفر في رأسه وكأنها جمجمة فارغة من الحياة.

قرّر نونو أن كالامان لم يسمعه جيداً: «لا أظن أنه بقيت أمامي فترة طويلة لكي أعيشها»، قال نونو، «وخاصة الآن، بعد وقوع الكثير من الدمار. ربما تسأل، هل أحرم نفسي من كمية النيكوتين اليومية لأني أتهيأ لضرب من الموت لا يختلف كثيراً عن الحالة التي آلت إليها بلادنا؟ هل سأنفجر في الموت؟ هل سيكون موتي هادئاً أم فوضوياً، مليئاً بمنعطفات غير متوقّعة مثل باب دوّار؟ إنك وريثي، حفيدي. ومن العدل أن أموت قبلك».

Twitter: @ketab_n

سقط كالامان على الفور في بئر عميقة من أحلام اليقظة. أخفى رأسه بين ركبتيه، وتكور في جلسته. إذا لم أكن ابن ياقوت البيولوجي، فابن من أكون؟ إذا لم أكن حفيد نونو، فمن هو نونو بالنسبة لي؟ ماذا سيحّل بالاسم الذي منحني إياه كجدّ إحتفاء بولادتي؟

أفاق بعد ساعات على صوت خنفساء الروث تريد أن تلج أذنه اليمنى. انتصب واقفاً مجفلاً. شعر بالارتياح لجزء من الذاكرة التي تذكرها: وصلة وحيدة في سلسلة تضم الحاضر بالماضي، والماضي بالمستقبل: الدم بالدم، الدم بالعدل، الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل. اعتراه إحساس بهدوء داخلي، لم يكن ليهتم لو كان التبادل بينه وبين نونو قد حدث في عالم الأحياء، عالم من الشك من الدم والحيوان المنوي. إذا كان الحاضر مأزقاً، والماضي لغزاً، فماذا عن المستقبل؟ لم يعد يرضى بالحكايات الرمزية، هل قال نونو كيف كانت وكيف حدثت الأشياء؟ ما نوع هذه الحكاية؟ ببطء تلمس طريقه خارج ضبابية النوم والكوابيس والشكوك، ورأى نونو جالساً في كرسيه الهزاز. لكن من هي المرأة الجالسة بقربه، المرأة التي تثير رائحتها المألوفة أحاسيسه؟

قالت تالادو، «مرحبا بك مرة أخرى في عالم الأحياء».

عانق كالامان وتالادو كلّ منهما بارتباك.

جلست على حافة السرير، قبالته. أنحنت، في ظله، حوالي مائة وستين درجة لتضمه إليها وتقبله.

بقيا في هذا الوضع فترة طويلة. عندما انفصل أحدهما عن الآخر، أفاق نونو الذي أخذ غفوة على صوت قبلة قوية حادت عن هدفها المقصود.

ثم امتدت يدا كالامان لتلمسا يديّ تالادو. كان ثمة رعشة طفيفة ساكنة وهما يتلامسان، أصابعه المحمومة تلتقي بأصابعها المتعرّقة، لأنها

Twitter: @ketab_n

جاءت بواسطة النقل العام وسارت من الطريق الرئيسي. ترك كالامان السرير في غرفة الجلوس ليمشي بمساعدة تالادو، إلى كنبة جلسا عليها ويداهما متشابكتان. ومرة أخرى راح أحدهما يلمس الآخر سراً، احتراماً لنونو.

كانت الرعشة في لمستهما، هذه المرة، مترددة كالبرق في الأفق البعيد. لم يعد ثمة حزن في عيني كالامان، ولم يعد يقيم في الأرض القذرة من عدم الثقة بالذات.

سألته تالادو عن أحواله.

فقال: «نمت عندما كانت الأرض تهتز».

ارتبكت تالادو. «ماذا تقصد؟»

قال: «نمت عندما كانت الحمير تتزاوج مع العجول. نمت، وعينايّ مغمضتان، لساني معقود، أراقب فيما ينتج التزواج نعامات في عيونها رمل».

«هل هذا حديث بسبب الحمّى؟»سألت نونو.

«هذا شعر».

«قصيدة فيها ألغاز؟»

قال كالامان: «لأبدي لك مدى سعادتي برؤيتك».

انفتح فمه بابتسامة خفيفة. كان سعيداً. طبع قبلة خفيفة على طرف أنف تالادو. فأغمضت عينيها نصف إغماضة، بينما لمس شفتيه بشفتيها، وأحس بنفسها الحار في أنفه. ارتعشت الشعرات في فتحتي أنفه. تذوق طعم الفستق في قبلتهما.

سألها: «كيف عرفت أني هنا؟»

فقالت تالادو: «ذهبت إلى شقتك، ووجدت شولونغو هناك، تتناول وجبة طعام صينية جاهزة وحدها، ودعتني للطعام معها. أكلنا وتحدثنا قليلاً».

Twitter: @ketab_n

«جيدا» قال كالامان.

تركته يقبّل يدها، كعادته. كان يبدو أجمل بعد أن يصبح ساخراً أو شريراً. «لكن بدا الأمر غريباً، لأني أحسست بأننا لم نكن، أنا وهي، وحدنا في الشقة. ربما ظننت أنك كنت هناك. تسللت إلى غرفتك ووجدت أمّك، نائمة. كانت تبدو مثل طفل رضيع نام بعد أن بكى».

«هل كانت على ما يرام، أقصد أمّي؟»

«يبدو أن أمّك فقدت وعيها من الإعياء»، قالت تالادو، «أو شيئاً من هذا القبيل. أشكّ في أن شولونغو قد تجرأت على تقديم شيء في الشراب أو الطعام لها».

«كيف تكلمت شولونغو معك؟»

«دار بيننا حديث لطيف للغاية، أنا وهي»، كانت تالادو سعيدة بنفسها. «لقد ملأتني بالمبادئ؛ قالت إنها تتمنى أن تمنحك طفلاً كرمى لذكرى الأيام الجيدة في طفولتك. وهي تأسف أنها سبّبت الكثير من الألم للجميع».

«لقد تركت فيك انطباعاً إيجابياً؟»

«سعدنا بالتعرف على بعضنا».

«إذن هل أحببتها؟»

«لم أتمالك نفسي من أن لا أعجب بثبات رأيها».

«لماذا؟»

قالت: «يحتاج الأمر إلى شجاعة لتفعل ما تفعله. أن تعيش بالطريقة التي تعيشها، أن تكون المرأة التي هي. يا إلهي، فلديها كل ما تحتاجه لكي تعيش. وربما ستودعنا جميعنا إلى قبورنا. إنّ المرأة طاقة، فيها الكثير من الشدّ، والكثير من الجذب. ستعيش حتى تربو على المائة سنة».

Twitter: @ketab_n

نظرا نحو نونو، تالادو بنظرة نصف معتذرة. ثم قالت: «هي التي أخبرتني أنك عند نونو، وأنك مكتئب بعض الشيء. واقترحت عليّ أن أخرج لأراك. وعرضت أن تعيرني سيارتها المستأجرة، لكنك تعرف أني لا أجيد القيادة».

«كيف عرفت أني هنا؟»

«لا أعرف. ربما أخبرتها أمّك، أو كالين».

انتشرت ابتسامة على خديّ تالادو عندما التقت عيناها بعيني نونو.

كان قد بدأ يستيقظ.

قال كالامان لنونو: «أترى ماذا يحدث عندما لا تأخذ قيلولتك وتتكلّم وتتكلّم؟»

قال نونو: «إن متعة الشيخوخة والطفولة تكمن في النوم، الذي يغويك بسحر لا يقاوم ولا يعادله شيء. عندما تكون طفلاً رضيعاً، فإنك تنام فترة أطول بكثير، وعندما تكبر، تنام بقدر ما تريد. إنك تحصل على متعة مطلقة من الإغفاءات القصيرة التي تغفوها».

«أرجو أن لا نكون قد أزعجناك؟»

«لو كنت في عمري»، قال نونو، «فإنك ستغفو أيضاً اغفاءات قصيرة. لماذا لا ننام لمدة طويلة؟ لأننا لا نريد أن نفكر بما يمكن أن يحدث للعالم إذا أسلمنا أنفسنا إلى أحضان نوم عميق، تحضنها أسرّتنا المريحة. وبدأ مؤخراً يقلّ نومي كثيراً، لأني أخاف أن أفيق وأجد أن الصومال قد محيت تماماً من خريطة عقلي الباطن. إذا نمتم أنتم الشباب نوماً عميقاً، فإن ذلك لأن ألفتكم بالعالم لم تتشبع بالذكريات المتضاربة كما هو الحال بالنسبة لنا. في النوم، يؤجّل الشباب مستقبلهم، وفي اليقظة، يؤجّل الكبار مستقبلهم أو موت بلدهم».

ظلت تالادو منفصلة عن كالامان. «ذات مرة»، قال نونو مسترجعاً

Twitter: @ketab_n

إحدى الذكريات، «شاهدت جرذاً علقت في خاصرته حقنة، وكأن هذا الحيوان التعيس قد هرب من أحد المختبرات العلمية في مكان قريب. كانت هناك دلائل على كفاحه أولاً من أجل الحياة ثم مع الموت. لكن ماذا كان يفعل جرذ، بثلث غير مفرغ من حقنة من العطر، في غرفة الجلوس.

أنصتت تالادو، متأهبة مثل صف من سيارات الأجرة التي تنتظر. نقلت بصرها من الرجل العجوز إلى كالامان، إلى الباب، وكأنها تتوقّع وصول شخص يمكن أن يحلّ لغز الجرذ الميت.

قال نونو بنبرة مناجاة: «ذهبت إلى المطبخ لأزيل هذا الشيء المخيف، ربما لأجد مجرفة لحملها أو لأجد زاريبا وأطلب منها أن تضعه في علبة القمامة. لكني عندما رجعت وأنا أحمل مكنسة ومجرفة، كان الجرذ الميت قد ذهب».

«أعرف هذا الشعور»، قال كالامان معلّقاً.

رغم دهشة تالادو، فقد شعرت بالتسلية.

«هل يمكن أن يكون هذا من عمل صديقتنا الأخرى؟» قال كالامان، «أم أن هذه فكرة هانو، للتسلية؟ لأنه يوجد شيء من نوع تغيير الأشكال في القصة، جرذ يكون هنا، ثم لا يعود هنا. تتساءل إن كنت قد تخيّلته كلّه. لكنك تحتاج عندئذ إلى وقت لتغذية شكوكك».

«رأيت جرذاً ميتاً فيه حقنة، اللعنة على الشك».

«إنه مثل أن تتصور نفسك سمندل ماء في داخل بطن حوت لا يتجه إلى الشاطئ أبداً»، قال كالامان، «أن تكون صغيراً كالحوت فأنت ضخم، لا يمكنك أن تفعل الكثير حيال ذلك، بالتأكيد لن تتمكن من الخروج من الحوت. وكسمندل ماء فإنك صغير جداً، ولا تثير اهتمام أحد، إنك صغير جداً في جسم الحوت الكبير».

وميض من الإثم، عيون تبرق في عينيّ نونو. كانت حدقتاه داكنتين

Twitter: @ketab_n

جداً عندما تنظر عميقاً فيها، لكنها تبدو بنية عندما لا تنظر فيها. قال: «إننا لا نخترع مخاوفنا يا كالامان، أليس كذلك؟»

«أفهم قصدك»، قال كالامان.

فجأة شعر بحكة بين ساقيه، لكن فكّر بأنه ليس من الأدب أن يحكّ تلك المنطقة. ثم شعر بحرارة وراء أذنيه، وأحس ثانية بالحرج، وكأنه يخفي انتصاباً. كان صوت كالامان رخواً، قافزاً مثل نرد يخبّ بعصبية أسفل درج طويل. وبدأ يروي حادثة بدأت فيها شوارع مقديشو تفرغ، كمدينة دمرتها ميليشا مهزومة وهي تتراجع، تنهب وتسلب. كان المطر يهطل. وكان هناك الكثير من الناس يقفون جماعات تحت المظلات الكبيرة. وقد عرف كالامان الكثير من وجوه الناس الهاربين، لكن قلما كان هناك شخص لا يفعل ذلك. كان بإمكانه أن يسمع جلبة غامضة، بين بكاء طفل رضيع وغراب يرد على ندائه. فاختار أن يتبع الغراب، الذي أخذه إلى بقعة في الغابة حيث كانت توجد جثّة ملقاة. وكانت تحوم فوق الجثة ذبابة بحجم إبهام إنسان. وأشار إليها الغراب إلى أنه توجد في فتحة الجرح الذي سبّب موت المرأة، إشارة بارزة إلى الأسفل، وثلاثة إشارات إلى الأعلى «مثلثات، تلتقي في مكان ما بطريقة أصابع متشابكة».

جلست تالادو ونونو وكالامان لا ينبس أحدهم بشفة لبرهة طويلة. لم تفهم تالادو ما كان يتحدث عنه نونو وكالامان، قالت: «جرذ ميت. امرأة ميتة، جريحة حتى يخاف الذباب أن ينقرها. عم تتكلمان؟»

بعينين تشعان خبثاً جديداً، قال نونو: «نخطط أنا وكالامان إلى تقديم عرض مسرحي يضم العقبان والغربان وسمندل الماء والفيلة، ووحوشاً أخرى ذات أهمية طوطمية، حيوانات يتنبأ وجودها بالموت. لتصوير المأساة التي هي الصومال!»

لم تنبس تالادو بكلمة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

فيما كنت أستحم وأحلق ذقني، قررت أن ألتقي بآرباكو، التي لم أرها منذ ما لا يقل عن عشر سنوات. والحقيقة أني كنت أتابع تقدّمها بطريقة ارتدادية عن طريق واليا، ابنتها، التي أصبحت مؤخراً إحدى أشهر عارضات الأزياء الصوماليات. وكانت واليا تصغرني بأكثر من تسع سنوات، التي أصبحت بالنسبة للكثير من الرجال رمزاً للإثارة الجنسية.

وكان اسم الفتاة يظهر غالباً في إحدى الصحف الشعبية الإيطالية. وكانت صحيفتا Rags وfoto romanzi تدأبان على إشباع نهم قرائهما غير المثقفين بغذاء رائع يتمثل في صبية صومالية نشأت في أوساط شديدة الفقر في كوخ مبني من الطين «في أكثر بقاع أفريقيا ظلمة»، وقد ربيت على يد أمّ كانت معجبة براقص الباليه نورييف». ويقال إن صورة معبودها راقص البالية في إحدى قفزاته الأسطورية، معلقة على حائط بيتها الطيني. وكان نورييف قد جلب البهجة إلى قلب الطفلة واليا. وعندما كنت طفلاً، كنت أعرف كلّ شقّ في جدار آرباكو، أعرف أين يمكن أن يزحف الصرصور، أعرف أين يلعب أبو بريص لعبة الاستغماية مع العنكبوت، يتنافسان على من يتمكن من الانقضاض على الحشرة الطائرة أولاً. ولا أذكر أني رأيت صورة نورييف. ولم أسمع كلمة «باليه» تُذكر في ذلك البيت. .

اصنع من الحكاية المختلقة ما شئت. أما أنا فأستطيع من جهتي أن

Twitter: @ketab_n

أفترض أن زاوية نورييف قد شُكّلت كجزء من بناء هوية متخيّلة لعارضة أزياء شابة. ويجب أن يفترض المرء أيضاً أنها لم تكن سعيدة في صغرها، إلى درجة أنها حذفتها من سيرتها الذاتية. أما الآن، فلا أريد أن أقدم تقريراً مفصلاً عن أي شخص، وأقلّها امرأة سوداء ولدت في بيئة متواضعة، ولا أريد أن أقلل من شأن جهودها لتظهر في حلة جيدة. وتكمن الحقيقة في مكان أكثر قرباً، حيث يمكنني أن ألمسها.

تكمن الحقيقة في كاثي، التي كانت هي نفسها معجبة بنورييف. المتطوعة في كتائب السلام الأفريقية الأمريكية، التي كانت تقيم عند نونو، والتي أخبرتني كيف أنها كانت تحلم بأن يأتي ذلك اليوم الذي تصبح فيه راقصة باليه، لكنها لم تتمكن من ذلك لأنها تعاني من مشكلة في عمودها الفقري تعرف «بانحناء جانبي في العمود الفقري». وقد بدأت مشاكل العمود الفقري بداء الكساح في سن مبكّرة، ثم تطوّر إلى شيء أكثر خطورة في وقت لاحق. ربما تحدثت عن كلّ هذا مع آرباكو، مع أني لا أعرف السبب. ومرة أخرى، ربما رأى أحدهم أو سمع عن صورة الرجل، حسب كلمات زاريبا، «والانتفاخ بين ساقيه» التي كان لها الفخر بأن تجد لها مكاناً على حائط كاثي. وكنت واثقاً من أن آرباكو لم تكن تعرف شيئاً عن نورييف، ولم تكن تعرف أهميته في العالم كراقص باليه. لكن عندئذ، من يعرف، فالمعرفة تنتقل بطرق رائعة. وفي هذه الحالة يصبح من المعقول الاستنتاج بأن آرباكو تمكّنت من الوصول إلى جوهر سرّ نورييف، ونقلته إلى واليا. لا يهم.

بما أننا نتحدث عن خلفيتها، يمكننا القول إن آرباكو تنتمي إلى ذلك الصنف من النساء اللاتي يشير إليهن عالم الاجتماع الصومالي الذي أعرفه «بالهائمات»: يولدن في الريف، ويأتين إلى المدينة، ثم يُطلقّن، ولا يتجاوز تحصيلهن التعليمي المرحلة الابتدائية أو لا يحصلن على أي قدر من التعليم، وبكل تأكيد لا توجد لديهن مهنة يمكن الحديث عنها.

Twitter: @ketab_n

ويمكن رؤية تلك النسوة في المناطق الحضرية من الصومال. وفي الواقع، فهن يبرزن في الحفلات الترفيهية في المدينة، ينظّمن جلسات مضغ القات لقاء مبلغ معين. ويقدمن خدمات متعددة تكون النخبة في المدينة على استعداد لدفع مبالغ كبيرة لقائها. وتغدق على الهائمات الهدايا والمال لمنع حدوث فضائح محتملة. فإذا أردت أن تنام مع عذراء أُقتلعت من الريف الأخضر مباشرة، أو إذا أردت أن تضاجع فتاة غير مرتبطة تتمتع بمهارات تتلائم مع أساليب مدينتك، فما عليك إلا أن تستأجر «هائمة» تكون سعيداً بقدراتها التافهة لتحصل على ما تسعى إليه.

ومن الناحية الأخرى، إن كنت تخشى الإشاعات التي تسيء إلى سمعتك لأنك أقمت علاقة لليلة واحدة مع فتاة دون سنّ البلوغ وحملت منك طفلاً، فإن آرباكو هي «الهائمة» التي ستتوجه إليها. فهي التي ستجد لك القابلة، وإذا ما تعقدت الأمور على نحو غير متوقّع، ستجد لك الطبيب الذي سيجري عملية الإجهاض، أو ستعثر لك على المرأة التي تكتم السرّ لكي تعتني بالطفلة المنكودة الحظ حتى تتخلص من محنتها. ولقاء عمولة صغيرة، تجد لك أحداً يتبنى الطفل.

وتعتبر الهائمات عنصراً رئيسياً في آلية تنظيم المجتمع الصومالي لذاته. وهن لسن قديسات، بل نساء مستهترات مطلّقات أو أرامل، نساء على هامش الاحترام، محظيات لا يوجد لديهن ولاء إلا لمصالحهن الشخصية. وهن يعرفن تماماً ما يفعلنه، يسئن الظن في الرجال والنساء، ويشكّكن في قدسية الزواج. إنهن يعملن سراً، ولا يؤمن بالمستقبل، أو بوجود فرصة لوصول الأمير الوسيم متنكراً في وجه ضفدع.

وللكثيرات من الهائمات واجهة. فقد كانت واجهة آرباكو تجارة شرعية. فعندما تعرفت عليها، كانت تعمل في تجارة الاستيراد والتصدير. كانت تعمل في تجارة البخور وشجر المرّ والتوابل. لكن لم يكن لديها محل.

Twitter: @ketab_n

ولم تكن تدير كشكاً أيضاً. وكانت ترتدي ثياباً ملونة جميلة، وتذهب غالباً في سيارة أجرة إلى مواعيدها مع كبار المسؤولين الحكوميين. أو تمكث في كوخها الطيني. وكان الرجال يأتون، والنساء يذهبن. وكان الرجال الذين يأتون بأعداد كبيرة يشترون «شيئاً». وعندما كنت طفلاً، لم أكن أعرف ماذا كان يباع أو يشترى. أما الآن فقد بدأت أعرف أكثر، أعرف أنهم كانوا يشترون سكوتها، شفاعتها، باختصار، أفضالها، التي كانوا يدفعون لقاءها مبالغ كبيرة. فقد كانوا يتحدثون مع آرباكو همساً عندما يشترون خدماتها. وفي الأمور العادية، كانوا يحدثونها بشكل طبيعي. وكان يصل أحياناً رجل يقود سيارة وحده. وبعد انتظار بضع دقائق، تأتي صبية، وكأنها خرجت من زوبعة ترابية، أو من نتاج مخيلتي. وتطلق المرأة ضحكة مجلجلة عندما ترى الرجل وراء المقود، ويزداد مركز أنوثتها نعومة. وإذا لم يذهبا معاً في السيارة، كنت أرى من المكان الذي أختلس منه النظر أنهما دخلا إلى بيت آرباكو. كانت تنصرف، وتأتي لتدعوني أنا وأبي. كانت تقدم ما يطلبه الرجال. وكان الجميع سعداء في معظم الأحيان.

كانت قد تكونت علاقة خاصة بيننا، أنا وآرباكو. فقد كانت تحبّ أن تحممّني. كان يسعدها أن تفرك جسمي بالصابون، ثم بالزيوت. كم كنت أتطلّع إلى هذه الحمامات، وأنا أقف عارياً، قبالتها، متمسكاً بفتحة فستانها على شكل V. أحدّق في ثدييها الكبيرين، أقارنهما بأثداء نساء أخريات، وخاصة بثدييّ شولونغو. كانت تفرك رأسي بالشامبو، أو كانت تغسل شعري بالنفط الأبيض، في حال خشيتها أن أصاب بالقمل. كانت تفعل ذلك، وأكثر من ذلك، عندما تكون أمّي منشغلة بأحلامها المالية، وأبي غارق في أعماله الفنية. كنت أحبّ أن تفرك آرباكو جسدي كي يصبح نظيفاً. والأهم من كلّ ذلك، كنت أجد متعة كبيرة في أنها لم تكن تكترث بالمحرمات. لقد أحببتها عندما كانت فتاة صغيرة شقية، تعصر بين يديها ذكري في محاولة منها لتثير انتصابي. وفي إحدى المرات، دخل أبي علينا. كانت تهمس كلاماً في أذني عن صغر قضيبي،

Twitter: @ketab_n

إذ قالت: «أين كنت عندما مُنح ياقوت ونونو مرساتيهما، فإذا وضع قضيباهما الثقيلان معاً، فبوسعهما أن يغرقا قارباً شراعياً؟» لكن للأسف، وضع أبي حداً لهذه الحمامات.

في ذلك الوقت كنت أبدي اهتماماً ببدايات الأشياء. كنت أسأل آرباكو كيف يُصنع الأطفال وأين، وماذا يفعل الرجل والمرأة عندما يخفتان فتيل مصباح النفط، وماذا يفعلان عندما لا تعود تسمع إلا آهات وأنات، وتلك الكلمات الغريبة، قبل أن يصدر عن أحدهما أو كليهما عويل في ألم بهيج. كما كنت أبدي اهتماماً بالدوافع أيضاً. ولماذا لم يستمر ياقوت فيّ، كما كان نونو قد استمرّ فيه؟

لست متأكداً، لكن ربما لم تكن هي التي همست في أذني ملاحظة مزعجة بأنني ربما كنت محظوظاً في أنني لم أكن أعاني من حالة تعرف بالورم المائي، الذي تتضخم فيه الخصيتان المشوّهتان وتتدلّيان بتثاقل. قد تكون حادة الإدراك كما يمكن أن تكون النساء فقط. سألت آرباكو ذات مرّة ماذا قالت لها أمّي عندما كنت صغيراً هناك. فقرصتني في ذلك المكان وقالت: «إنك محظوظ لأنك ولدت صبياً».

كان جسمي يُغسل ويُفرك بالكريم، عندما كانت آرباكو تأخذني إلى بيتها لتمنحني قليلاً من المتعة، عندما يكون أبي منهمكاً في عمله عادة. كنت استلقي بجانبها على سريرها في غرفة الجلوس. وكانت الفترة الأثيرة لديّ للعناق هي ساعة القيلولة. لا بسبب وجود عدد قليل من الرجال الزائرين، بل لأنها كانت تجلب انتصابي بكرم زائد إلى نهايته. لا بد أني كنت أبدو فظاً فأنام، كما حدث مرتين اثنتين. وذات مرّة، بقيت مستيقظاً، فأدّت خفّة يد آرباكو إلى إثارة غير متوقّعة، فانتصب ذكري وارتفع مثل سارية علم في هياج شديد، يتنفّس مثل غدد حيوان أبو بريص. كنت في مزاج مبتهج، وكنت أتساءل أين يكمن ما تبقى مني. صغيراً إزاء ضخامة صدر آرباكو، كنت أسقط في بئر من حلم، وينتهي بي الأمر بأن أبلل نفسي.

كيف كانت الحياة ستبدو لو لم ألتق بها؟ كيف كانت حياتها ستبدو لو لم

Twitter: @ketab_n

تلقاني؟ إن ما وصلنا إليه كان شيئاً فظيعاً. فقد فطمت وأنا في السنة الثالثة من عمري تقريباً، لكني كنت لا أزال أرضع سرّاً من ثدي آرباكو إلى أن بلغت الخامسة من عمري ويزيد. كانت تظن أن إرضاع صبي في الخامسة من عمره يساعدها في التخلص من تراخي قنواتها المهبلية. كنت الصبي الذي أرسله لها الله، ليخلّص فتاة مرضعة من عقمها!

قلت هذا بعد أن حملت، وواصلت عمل ذلك حتى بعد أن أصبحت أمّاً كاملة. شعرت بالمهانة عندما عرفت بالترتيبات التي كانوا يعدونها لزواج مصلحة من أحد المتقدمين للزواج في منتصف الليل. أحسست بالمهانة عندما أهملوا ادعاءاتي بأني كنت أب طفلتها الرضيعة.

«ستتخذ من ابنتي زوجة لك»، قالت لي آرباكو ذات يوم، «عندما تكبران ستقدم لي مهراً كبيراً بعد ان تطلب يدها للزواج».

«ولماذا أدفع شيئاً لقاء طلب يدها للزواج؟» قلت متحدياً.

«إنه مجرد حديث»، قالت أمّي موضحة.

كنت أجد أن الكثير من أسلوب البالغين في الحديث إما مشوشاً أو مضللاً، وفي أحسن الأحوال، كان وسيلة متطورة لأظل طفلاً.

قلت: «لو حملتِ لأنك أرضعتني من صدرك، فهل سيكون بوسعي أن أطلب يد واليا للزواج؟»

«لم لا؟»

«لأنها ستكون ابنتي، أليس كذلك؟»

ارتبكت آرباكو وأمّي. أمّي لأنها لم تكن تعرف بأني كنت أرضع سرّاً من صدر أعزّ صديقة لها، وآرباكو لأني أصبحت مصدر إزعاج. ورغم ذلك، فقد تجاهلت أمّي طيشي، وقررت أن تؤجل سؤال صديقتها إلى أن أذهب، بينما قالت آرباكو بصفاقة: «لكي تحمل المرأة طفلاً من رجل، والله يعلم أنك لم تصبح رجلاً بعد، يجب على الرجل والمرأة

Twitter: @ketab_n

أن يلتقيا جسدياً».

وهنا قلت في نفسي إنهما عادتا إلى ذلك الأمر مرة أخرى، فالكبار يعيشون في عالم التظاهر والادعاء. امرأة تلجأ إلى «أسلوب في الكلام». فقد كنت أعرف جسدها أكثر مما كنت أعرف جسد أمّي، كنت أعرف الانحناءات في ظهرها، أعرف الوحمة في باطن فخذها الأيمن. هل كانت تقول هذا الشيء لتتحداني؟

قلت: «ألم ننم معاً عاريين في سرير واحد؟»

«إننا لم نفعل شيئاً لكي تصبح أباً لطفلتي، أليس كذلك؟» بدت جدّية، وأحست بالمهانة وارتفع صوتها كالعصا.

قلت: «لقد ساعدتك في إخراج واليا منك عبر حلمتيك، أليس كذلك؟ لقد استغرقت تسعة أشهر وأسبوع من العمل الشاق. عصر كلّ يوم لقرابة ثلاثمائة يوم». كنت غاضباً ولم يكن «أسلوبي في الكلام» مؤثراً كالكبار.

أيّدت أمّي آرباكو. امرأة بالغة تساند أخرى. قالت وفي صوتها نبرة تهكّم: «عزيزي كالامان، لكي تحمل طفلك، يجب أن تمارس آرباكو الجنس معك».

وكما لو أنها لم تكن قد أعطتني درساً حول بدايات الأشياء، قدمت آرباكو فكرة سريعة عما يحدث بين الرجل والمرأة عندما يمارسان الجنس، أيّ شيء يدخل، وفي أيّ شيء. جلست أستمع غاضباً، إذ لم أكن أتذكر ما كان يفعله أبواي فقط، بل ماذا كنا نفعل أنا وشولونغو أيضاً. وخلال شرحها، كادت آرباكو تلمسني، لكنها اكتفت بأن تشير فقط إلى بين ساقيّ. وبدأت الآن أرى حلمة أمّي بين شفتيّ أبي، فقد أصبحت الآن متلصصاً أختلس النظر إلى رجل وامرأة يتضاجعان.

بعد أسبوع، وفي محاولة أخرى لحماية افتتاني بالأساطير، ذكّرت آرباكو وأمّي بأنه لا يتعين على الرجل والمرأة أن يتناكحا لينجبا طفلاً. ولكي أدعم حجّتي، استشهدت بسوابق تستند إلى أسطورة أخرى:

Twitter: @ketab_n

فالمسيح بدون أب، وآدم كذلك. وكنت كثير الجدل إلى درجة لا تطاق، وبدأت أصبح أكثر إزعاجاً مع كلّ ثانية تمرّ، مما جعل الأمر متعذراً على آرباكو أن ترضع طفلتها من صدرها بهدوء وسلام، ولكي تتمكن أمّي من التحدث مع صديقتها حول إرضاعي من صدرها سرّاً لمدة سنتين. بقيت هناك كما لو كنت أريد أن تتاح لي الفرصة بأن أرضع مرة أخرى.

أذكر ذات يوم أن آرباكو اقتربت مني لتضربني، فقد كانت شديدة الانزعاج مني. إذ كنت قد دخلت عليها وهي تفرغ أمعاءها. كانت مقرفصة فوق حفرة المرحاض، في وضعية غير مناسبة تماماً لامرأة ثقيلة الوزن في جزئها الأعلى. وعندما دخلت دون أن أكلّف نفسي أن أوضح لها سبب وجودي هناك، سألت بشيء من الغضب: «ماذا تظن أنك تفعل هنا بحق السماء؟»

فككت أزرار بنطالي.

فقالت: «والآن ماذا تفعل؟»

لم أقل شيئاً.

وبصوت كانت تريد أن ترعبني به، قالت: «ماذا تريدني أن أفعل بهذه القطعة القبيحة من اللحم الذكوري؟ ثم لمستني، وآلمتني قليلاً. قالت: «يبدو لي وكأن إصبعاً سادساً لطفل صغير قد ولد. يا إلهي، انظر». وضغطت عليه فآلمني. «هل أنت حقاً ابن ياقوت؟»

لم أعر اهتماماً بما قالته. فقد تدرّبت على الكلمات التي كنت سأقولها، وكنت لا أريد أن أتراجع عما قررت أن أقوله. صحت: «أريد أن أكون أباً لطفلتك».

فكّرت بصمت لفترة طويلة، ثم قالت: «أغلق أزرارك. أظن أني أعرف الشخص المناسب الذي توجد لديه الفتحة المناسبة ليستوعب شيئك الصغير».

كان لحديثنا تأثير عميق على علاقاتي مع البشر في ما بعد. واستغرق

Twitter: @ketab_n

الأمر وقتاً طويلاً قبل أن أتمكن من الاقتراب من أيّ امرأة أخرى.

الآن سمعت أحداً ينادي اسمي.

عرفت أنه صوت نونو. ثم تذكّرت أين أنا. فقد كنت في الحمّام، أستحّم، أتذكّر، أستدعي ماضياً مع آرباكو. قال نونو إنه سيخرج، فلديه بعض الأعمال التي يجب أن يقوم بها. ولن يعود إلا في وقت متأخر من بعد الظهر، وسألني: «هل أنت على ما يرام؟»

فقلت: «وأنا كذلك أريد أن أخرج».

«ستوصل تالادو إلى المدينة، أليس كذلك؟»

قلت: «نعم. وبعد أن أوصلها، سأزيل بعض الأحجار، لعلي أكتشف بعض العقارب المختبئة تحت الصخور».

فقال: «أحذر بأن لا تحضر معك عقرباً إلى البيت».

«خلال بحثي تحت الأحجار، قد أمرّ في طريقي على آرباكو أيضاً»، قلت وأنا أغطي عورتي بيديّ. «وإذا كان عندي وقت، سأزور أمّي في المحل».

فقال: «انتبه على نفسك».

قلت له: «سأبلغ آرباكو تحياتك».

قال محذراً: «من المعروف أن لسعات العقرب قاتلة، لذلك انتبه على نفسك جيداً»، ثم سمعت خطواته تبتعد وتتلاشى.

تحدثنا أنا وتالادو قليلاً عما كان يزعجني، لأننا أمضينا ما لا يقل عن خمس ساعات تجاوزنا خلالها مسافة ثلاثين كيلومتراً. وقد اضطررنا للتوقّف عدة مرات، وُطلب منا أن نترجل من السيارة وأن نقف جانباً. وتم تفتيش صندوق السيارة بحثاً عن الأسلحة، وغطاء محرك السيارة خشية وجود قنابل يدوية وأسلحة صغيرة أخرى. وفي إحدى نقاط التفتيش، وفيما كنا ننتظر أن نعود إلى السيارة، سمعنا اسميّ علي مهدي

Twitter: @ketab_n

وعيديد، أحدهما ممولاً للميليشيا التي تحارب للاستيلاء على مقديشو، والآخر جنرالاً في الجيش. «أيام المستبدّ أضحت معدودة»، قال رجل إلى أصدقائه. «عندما يخرج هو وعصبته من المدينة، سنصبح أحراراً، ونصبح مستعدين لاعتناق الإرادة الديمقراطية لشعبنا!»

إذا كنا أنا وتالادو لم نتكلّم، فلأن أهلها ليسوا من المفترض أن يكونوا أهلي. وبهذا النوع من التعريف الذاتي، كان أهل أمّي يختلفون عن أهل أبي.

بعد أن أوصلت تالادو، توجهت لزيارة آرباكو.

خرجت هي نفسها لتفتح لي البوابة الخارجية. وقد استغرق الأمر نصف دقيقة لتدخل في حالة من البهجة. حكّت صدرها على صدري، مرحبة بقدومي للحظات كما لو كنا قططاً. دخلنا إلى الفيلا معاً، يدي اليمنى في قبضة يدها اليسرى المتكئة على ردفها السمين. كانت ترتدي رداء من نوع ديراك. رداء شفّاف جداً إلى درجة أنه كان بوسعي أن أرى تلال الشحم، وطيات اللحم. يا إلهي، كم تغيّر شكلها، وازداد وزنها إلى حد غير معقول. ابتسمت لي، وكادت تلوي كاحلها. كانت بدينة إلى درجة كبيرة. وما صعقني أنه كان لديها رقبة أقصر مما كنت أتذكّر، وأصبحت تتحرك بصعوبة. وأخيراً دخلنا إلى غرفة الجلوس، حيث كان يوجد جهازا فيديو وجهاز تلفزيون، فضلاً عن بعض الأدوات الحديثة المبعثرة. وكان هناك مذياع في مكان ما في إحدى الغرف.

قالت: «كنت أريد فيللا بست غرف، وهذه هي الفيللا الوحيدة التي كانت معروضة للبيع في هذا الحيّ. لكن لا يوجد فيها إلا أربع غرف نوم فقط، ولا يوجد فيها مكان لإقامة الخدم».

«كم عدد الأشخاص الذين يقيمون هنا، في هذه الفيللا ذات الأربع غرف؟»

فقالت: «حالياً أنا فقط».

Twitter: @ketab_n

«هل تأتي واليا إلى هنا؟»

«نعم»، قالت آرباكو، «إذ تأتي ابنتي التي تُعرف عادة في هذه الفيللا بصاحبة الجلالة، وتمكث يوماً أو يومين على الأكثر. وتمكث في الفراش طوال النهار، وتسهر طوال الليل. والشيء الوحيد الجيد الذي تفعله، بالإضافة إلى أنها تلبي جميع احتياجاتي المالية، فهي تقدم مبالغ كبيرة، نقداً وبالعملة الصعبة، لرفع «الروح المعنوية للميليشيا التابعة لعشيرتنا. فعندما تأتي يقرع السياسيون من جميع الأصناف بابنا. إنها تعتبر مساهمة هامة للعشيرة مثل صاحب الفندق الذي يموّل لإدارة جناح محليّ، لجماعتنا من الميليشيا».

فهمت الآن سبب شهرة واليا في هذا الجانب من السياسية، لماذا كانت أمّها تحتاج إلى ستّ غرف نوم لنفسها. رحت أرشف من المشروب الخفيف بانزعاج، مدركاً التبذير بالإضافة إلى التفكير الخاطئ للذين يحصلون على الثروة بدون تعب. تحدثنا بالتفصيل عن واليا، ثم عن نونو، ثم عن أبويّ بشكل عام. كنت أعرف أنها كانت على خلاف مع أمّي: فقد ضمتني آرباكو إلى صدرها الخالي من الحليب وأنا في الخامسة من عمري، بعد أن فطمتني أمّي في فترة متأخرة أثارت الجدل عندما كنت في الثالثة من عمري. وذكرنا أخيراً اللغز، شولونغو.

قالت: «لقد جاءت لزيارتي».

«متى؟»

«لا أذكر»، هزّت رأسها. «منذ أسبوع؟»

«هل تحدثت إليها؟»

قالت: «طلبت من سائقي أن يوصلها إلى نونو، الذي كنت آمل أن يوجهها إليك»، وأضافت، «إن المرأة مهووسة بك. إنها تريد أن تنجب طفلاً منك. إنها تريد أن تنجب طفلاً منك أكثر من أي امرأة أخرى».

«كيف وجدتها؟»

«لا يخيّل إليك أنها جاءت لتدفن أبيها»، قالت آرباكو. «فما أن

Twitter: @ketab_n

دخلت، حتى أرادت أن تعرف كلّ شيء عنك. هل أنت متزوج؟ هل عندك أطفال؟ أخبرتها إني أعيش حياة حافلة بالأعمال حالياً، فأن أمّ واليا وهذا يعني أني مشغولة دائماً، وأن الكثيرين، من بينهم البيض، يأتون لزيارتي ويرغبون في أن أصبح صديقة لهم. عرضت عليها غرفة، لكنها رفضتها».

كان صوتها مثيراً للإعجاب بالنسبة لامرأة فقدت الاتصال مع إمكانيتها الجسدية، بعد أن أصبحت بدينة جداً. لكن على الأقل كان ثمة شيء آخر فيها: عينان عميقتان كالسرّ. وعندما تطلعتا في عينيّ، اقتنعت بأنهما ستكشفان أفكاري بسرعة، ترميان جانباً كلّ النفايات وتحتفظان بالأشياء الجيدة لإجراء مزيد من التحليل. شعرت بالانزعاج لهذه الفكرة؛ لم أعرف إن كانت تروق لي أم لا.

سألتها: «هل حدثتك كثيراً عن نفسها؟» تمنّيت أن تطفئ المذياع في المطبخ أو في إحدى غرف النوم في الطابق العلوي.

قالت: «أتريد أن تعرف ماذا قالت لي؟» وأضافت، «لقد تبادلنا ببعض الأسرار الأنثوية. وكان اسمك يتردد كثيراً، وكذلك اسم أمّك واسم نونو، واسم أبيك. أخبرتني عن أشياء كثيرة لا أعرفها».

«مثل ماذا؟»

وقفت متعباً أمام مدخل عينيها. هل أني اعتدي على قبو أسرار ذاكرتها؟ كهائمة قررت أن تحقق ابنتها النجاح، عندما لم تستطع هي أن تفعل ذلك. كانت أكثر من هائمة، بل كانت ميّسرة عبقرية، متلاعبة ذكية لتحقيق مصلحتها. فقد عرّفت ابنتها على رجل إيطالي استخدمها كعارضة أزياء. هائمة وميّسرة. سأهتمّ بمعرفة إن كانت قد عرّفت أبويّ أحدهما بالآخر. هل كان أحدهما يبيع شيئاً؟ هل كانت أمّي خائفة من الحمل؟ أم هل ذهب أبي إلى آرباكو بسبب «ظروفه الخاصة»، يريد أن يرتب أموره مع امرأة كتومة؟

لوهلة راحت تستثيرني. كان لومها ودياً بعض الشيء، إذ سألتني عن

Twitter: @ketab_n

سبب عدم زيارتي لها قبل أن أضع نفسي تحت رحمتها وتطلب مني أن أشاركها شيئاً من طيش الشباب.

وافقت على أنها كان محقة في ذلك، واعتذرت.

«إن إفضاء السر مثل ممارسة الجنس». كانت تعود إلى موضوع كان ذات يوم يهمنا نحن الاثنان. «إن الرجل المحترم لا يفك أزرار بنطاله ويخرج شيئه أمام سيدة، إن كانت نواياه سليمة. هناك سلوك راق، قواعد الغزل، هدايا تجلب، زهور تقدم، أكّف ترشى. وهناك المداعبة أيضا، قبلة طويلة، وإلى ما هنالك. كما أن مستودع السرّ بحاجة إلى شيء من التنبيه، إذ يحتاج المرء وقتاً لكي يصبح على استعداد للتخلص من السرّ. كالبكارة، فما أن تفضها، حتى يضيع السرّ تماماً».

كان نونو يقول إن الأسرار تشبه مزرعة يجب أن تحرث فأسأله وكيف تفعل ذلك؟ فكان يقول لو كنت مستودع أسرار، فإنك سرعان ما ستكشف ذلك.

اعتذرت لأني لم أنبهها في الوقت المناسب. قلت: «تعرفين كيف تسير الأمور. فقد كنت مشغولاً في إدارة شركة، وأنت مشغولة في الاهتمام بمشاغل ابنتك. قالت: «هل تريد أن تتزوّج ابنتي واليا؟»

وقفت الكلمات في تجويف حنجرتي. بدت وكأن كارثة تتصافح بطريقة ودية مع شيطان ويعقد تحالفاً معه. أخذت أحك رأسي وكأن شولونغو لوّثته بقملها.

لم يكن بوسعي إلا أن أسأل، «لماذا أنا؟»

«لا يكون الرجال مفيدين إلا عندما يكونون في المتناول».

نهضت. رأيت حلمتيها الداكنتين جداً، حجم كلّ واحدة منهما بحجم الإبهام، وكانتا بأرزتين إلى الأمام وكأنهما ترغبان في أن تلقما طفلاً رضيعاً.

Twitter: @ketab_n

«إني لا أخدعك، ولا أضع مسدساً على رأسك لكي تتزوج ابنتي»، قالت تطمأنني. «إنك تعرف أنها تساوي الكثير من المال، وإني لا أوافق على أساليبها، ولا على رفاقها. ولست شديدة الولع بك أيضاً. الآن قد تسأل لماذا ابنتي التي لا تفتقر إلى أي فرصة للالتقاء بأفضل رجل، لماذا لا تختار هي الرجل الذي تريده، والذي أوافق عليه؟ (وهي بجميع الأحوال لا تكترث برأيي من تختاره) والواقع أن آلاف الرجال يتقدمون لطلب يدها يومياً. لكنني أعرف الرجال أكثر من غيري، وأنا لا أثق بهم جميعهم. أما أنت فلا. كما أن ثمة عهداً يربطكما، أنت وهي، عندما كنتما صغيرين. ومن المحتمل أيضاً أنه إذا التقيتما وتزوجتما، فقد نعود أنا وأبويك ونصبح أصدقاء مرة أخرى. وأنا أريد ذلك. كنت أوّد أن أكون صديقة لأمّك، التي كانت صداقتها تعني الكثير لي. وإني أشتاق إليها أيضاً، فقد كانت عزيزة عليّ».

يمكنني أن أقول إنها لم تكن توافق ابنتها في بعض الأمور.

«بالمناسبة، ماذا تحبّ أن تشرب؟ ويسكي؟»

تذكّرت أني سمعت أنه يوجد في جسم واليا كحول أكثر مما يوجد دم. فهي لا تستيقظ في بيت لا يوفر لها متطلباتها.

قالت: «كنت أظن أن برمجة الكمبيوتر والمشروبات الغازية لا يلتقيان معاً»، وأضافت، «وكما ترى فإن عرض الأزياء آخر صرعة. فإذا فعلت ذلك في شركة كبيرة، فهم يدفعون لك مبالغ كبيرة، بما أن فترة حياتك فيها قصيرة. لهذا السبب فإن واليا تشرب كثيراً. ويجعلها سهرها الطويل تشرب حتى الفجر، بكميات كبيرة قد تقتلك أو تقتلني: فهي تمزج ثلاثة أصابع من الويسكي مع إصبعين من البراندي، وتأخذ كأساً مترعاً من البراندي الرديء. كما أن أنفها مشغول بالشم، وأنت لم تر تلك التشكيلة من تلك المادة كالمسحوق الذي يدخل هذا البيت، ويسبب لها احمراراً في عينيها».

Twitter: @ketab_n

سألتها: «لماذا تحرص على أن تحتفظ بوضع جيد في عائلتها المباشرة؟ فأنا لا أتوقّع أنها تكترث بهذا النوع المنحط من السياسة، تنفق على حركة المليشيا المسلحة».

قالت: «الفكرة فكرتي، والمال من واليا».

«لكن لماذا؟»

فقالت: «إنه جزء من مخططي التقاعدي، تحسباً لليوم الذي يغادر فيه الدكتاتور المدينة. فأنا مهتمة في أن أترشح لمنصب رفيع، ربما إلى منصب رئيس البلدية عندما يصبح شاغراً. ستكون متعة كبيرة أن تملأ حذاء المستبدّ. إنها شيء جيد لسيرتي الذاتية».

انطلقت ابتسامة حزينة من أعماق هاتين العينين، ابتسامة عريضة مخضلة بالدمع. وقبل أن أتمكن من تغيير الموضوع وأعيده إلى السبب الذي جعلني آتي لزيارتها في المقام الأول، كانت آرباكو تريني لوحة مرسومة بقلم رصاص في إطار زجاجي. هل يمكنني أن أحزر من الذي رسمها؟ رحت أحدّق في وجه مشكّل من قطع مجمعّة، واكتشفت مجموعة أولى من الأصابع مرسومة من الطرف إلى الطرف الآخر، ومجموعة ثانية من أيد مربوطة عند ثنياتها، وكانت الأصابع في المجموعة الأخرى تلتقي عند المفاصل. رأيت مزهريات مليئة بظلال الضوء ولوناً بنياً داكناً، رأيت مهد قطة بهذا التناظر الرائع إلى درجة أني كدت أقع تحت سحرها.

«هل هذا من رسم واليا؟»

فقالت آرباكو: «نعم».

«لعلها تتخذ من الرسم حرفة عندما تنتهي من عملها كعارضة»، قلت مجازفاً، «إنها موهوبة إلىٰ درجة كبيرة مثل شولونغو».

«إن ما تقوله شيء دنيء».

Twitter: @ketab_n

«لا أقصد سوءاً» بدأت قولي، لكن آرباكو قاطعتني وقالت: «هل جئت بسيارتك؟»

أومأت بنعم.

فقالت: «لنذهب في سيارتك، ونتحدث عن بعض الأمور. لنتحدث عن الأشياء التي لم أتكلّم عنها منذ سنوات. إني أفضّل أن أتكلم عن ذلك وأنا أتحرك في السيارة، لكي لا أتحدث بالسوء عن الأماكن، وعن ابنتي، وعنك، وعن نونو».

وطلبت مني أن أخرج وأنتظرها في السيارة.

تأنقت في ملبسها إلى أبعد درجة، لتبدو امرأة برجوازية. كانت آرباكو في حالة معنوية عالية، سعيدة كطفلة مدلّلة وحيدة لأبوين مسنين. وتوافقاً مع هذا المزاج الجديد، ضغطت بشفتيها على خدي، لتثبت لي أننا سنبقى وثيقيّ الصلة دائماً، مهما كانت نتيجة الأزمة الوشيكة. ثم ادعت بأنها تعرف ما كان يحدث أكثر بكثير مما يعرفه الآخرون، وراحت تتكلّم وكأنها أمضت لياليها وهي تنسج مؤامرة سرّية مع الرجال المسلحين والسياسيين الذين يخطّطون للإطاحة بالنظام، وتمضي أيامها وهي توزّع النصائح إلى قيادة المليشيا وتطبب الجرحى. ذكّرتني عندما أسّست الجابهادا في روما بإصرار من ابنتها ومن علي واردهيغلي. كان صوتها ينم عن أنها تمتلك أكثر من حصة في نتائج الصراع المستمر على السلطة، مثل امرأة وضعت كلّ ما لديها من ثروة في سوق مهزوز فيه الربح أكيد.

وبما أنها لم تخبرني إلى أين سنتجه عندما شغلّت المحرّك، رحت أسوق السيارة وكأن قوّة نوورو تتملكني، مثل بقرة عائدة إلى حظيرتها بعد يوم كامل من الرعي، أعادتنا إلى أفغوي. وبما أني كنت غارقاً في

Twitter: @ketab_n

التفكير، أسأت تقدير سرعة السيارة، وغيّرت السرعة مرتين بشكل غير ضروري، من سرعة منخفضة إلى سرعة زائدة.

سألت: «كيف تفسّر موت فيدو؟»

قلت: «كيف يمكن لأي شخص أن يفسّر موتاً مثل موت فيدو؟»

«كم تراوغ!» علّقت قائلة، «لو لم أكن أعرف الحقيقة بنفسي، لطعنت في كلام أي شخص يجادل بأنك لست ابن ياقوت، أو حفيد نونو». كنت أفكر بأشياء كثيرة في الوقت نفسه. أردت أن أطلب منها أن تعيد ما قالته كلمة كلمة، لأني كنت أجد صعوبة في فهم ما كانت تعنيه. أعدتها في ذاكرتي، والآن لم أستطع أن أعرف إن كانت تهدف إلى تشويشي. لو لم تكن تعرف الحقيقة، لربما ـ لما طعنت في أني ابن ياقوت، أو حفيد نونو؟ بدأت أشعر باليأس، أوأشعر بخيبة الأمل منها لأنها تلقي ملاحظات جزافاً. كنت أتمنى أن أعرف الحقيقة. كنت أتمنى أن أستطيع أن أنظر في بئر عينيها. عيناها اللتان تتفاخران بعمق مظلم، عينان بعيدتا المنال أثبتتا أنهما مضلّلتان.

صفعتني بوّد على فخذي، وقالت: «هوّن عليك!»

ماذا تعني هوّن عليك؟ كيف يمكنني ذلك وأنا أرى عالمي يتقطع إلى أشلاء بإلقاء ملاحظة؟ لكن لم يكن يجدي أن أطرح عليها أسئلة الآن، لأننا وصلنا إلى نقطة تفتيش أخرى. وقد عرفها أحد الرجال الذي كان يرتدي بدلة عسكرية، ولوّح لنا بابتسامة. علّقت قائلة: «أحد فتياننا»، وردت على الابتسامة بأن لوّحت بيدها.

سألت: «كيف حال الشيطان العجوز؟»

خمنت من كانت تقصد. «أجبت يبدو أن نونو مرهق قليلاً».

«هل اقترب من حافة القبر؟»

«لا أعرف».

Twitter: @ketab_n

قالت آرباكو: «هل تعرف أن مادوبي العجوز، والد شولونغو كان قد مات بسبب إصابات في عضوه، جروح قاتلة نجمت عن ركلة إتان؟ لم أكن أصدق أن نهايته ستكون بهذا الشكل، أبقار، دجاج، ونعامات شيء، لكن الإتان قاتلة. إذ وجد عارياً تماماً، مستلقياً على ظهره، وذكره نصف منكّس، نصف منتصب ربما تقول. لكنه كان ميتاً».

«وماذا يفعل رجل في سنه عارياً تماماً وراء إتان في الساعة الثالثة صباحاً؟» قلت، متذكراً أنه كان ينكح عجلاً.

لمعت عيناها مرة أخرى. «لم يكن رجلاً، لا أعرف».

«ما الشيء الذي لا تعرفينه؟»

قالت: «لم أجرّب في حياتي رجلاً شبقاً. فالكثير من الرجال يقومون بأعمال منحرفة ما يتهيجوا جنسياً. ولا يغير بعضهم أساليبهم أبداً، فيدو ومادوبي ونونو في هذا العالم».

قلت: «ربما كانت القوة الحيوانية تتصاعد في الآونة الأخيرة. وماذا عن اجتياز الفيلة الحدود الدولية لتطأ الرجل الذي قتل قطيعها، والإتان تنتقم، وتقتل، لو لمجرد استعادة حقوقها».

سألتني: «ماذا تتذكّر من سنوات طفولتك؟»

ربما كانت صحفية تجري لقاء حياً مع شخصية مشهورة، في برنامج حوار. استرخت، وأصبح وجهها عريضاً بابتسامة مصطنعة. استندت إلى الوراء، وهي تنصت إلى الاستطرادات في كلامي وأنا أطوف في القصور الأكثر فقراً من ذاكرتي: رحت أتكلم عن المنطق الكامن في طفل مثلي، لماذا كنت أتصرّف بالطريقة التي كنت أسلكها، ولماذا أصبحت مفتوناً بفكرة الأنهار والقرود ولماذا كنت أتخيّل أن للكتل المائية أشكالاً. والآن رحت أتكلّم ببطء مقصود مع وسيط مزيف، يتلقى الإلهام من مصدر آخر، خارج نفسه. لم أكن واثقاً من أن آرباكو كانت تفهم كلامي، لأنها بالقدر المحدود من تعليمها، فقد لا يكون بإمكانها أن تقدّر معضلات

Twitter: @ketab_n

كالامان الراشد، الذي كان يشعر بأنه ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، ولديه قرد أليف، ونونو جده، طفل لا يشعر بالقلق من أين ستأتي وجبة الطعام القادمة، وأين سينام. بدأت أتحدث عن مشكلة الصومال ومعظم أفريقيا، وعن سبب اندلاع صراعات أهلية في كل مكان، وبسبب وجود مجموعة كبيرة من الطبقة المتوسطة. فالطبقة المتوسطة هي الضحية الأولى لأي ثورة. وتعثر لساني عند هذا التعميم.

قالت: «لماذا صمت؟ بماذا تفكر؟»

أعدت صياغة أفكاري حول التقاليد القديمة التي تُعتبر فيها الأنهار مقدّسة، ويُعتقد أن للبحار مخططَات ضد طموح شاب. قلت إني في تلك الروح فهمت سبب شغف نونو بالزراعة وقيام أبي بإعادة تشكيل طفولتي. وكان لنهر شابيل تأثير عليّ، تابعت، لكن كذلك كان التفكير بنعامات مادوب، مع أن الله يعرف أنني لم أرها في حياتي. كنت أراقب فيدو بافتنان وهو يستخرج المادة الحلوّة من نحل العسل، ويخرج من بطون التماسيح محتوياتها. «إنها فكرة العبادة التي كانت تسحرني، فكرة الأشكال، كيف كانت تتغير، وبأية وسيلة».

قالت: «أعرف أنك ما أن تبدأ تتحدث بهذه الطريقة حتى تخسرني».

فأجبت: «لا يوجد سبب يدعو إلى ذلك».

قالت: «أنا لست متعلّمة، ولست إلا ميّسرة».

«إني واثق من أن رأيك بما يحدث على الأرض يقوله أيّ شخص متعلّم»، قلت مشجعاً إياها، «رغم اختلاف خلفيتينا».

أضاءت عيناها. «نعم، لدي آراء حول هذا الموضوع. تكمن مشكلتنا في الأجيال. فمن ناحية هناك الكثير من الشباب العاطلين عن العمل، والذين يجهلون عاداتنا وتقاليدنا، ولم يتعلموا في المدارس أساليب الحياة الحديثة أيضاً. ومن الناحية الأخرى، هناك حفنة من السياسيين الطموحين جداً. ضع الاثنين معاً، وتحصل على نار. لديك أزمة، مشكلة آخذة في الانفجار».

Twitter: @ketab_n

ساد صمت.

سألتها: «إلى أين سنذهب؟»

«إن ما تفعله جيد»، قالت تشجّعني.

وضعت يدها على يدي. رأيت ظفرها الداكن المشكّل بشكل سيئ، مثل ظفري تقريباً. إلا أن لظفرها شقّ في الوسط، تحت هلاله الدائري الأبيض. هل أُطبق الجانب المعدني من أحد الأبواب على إصبعها؟

لقد جرحت ظفري عندما كنت أتلصص.

«إلى أين نحن ذاهبان؟» سألتها، «أرجوك أخبريني».

قالت: «إننا نتعقب كنزاً دفيناً».

نظرت إلى تجاعيد وجهها الناعمة، التي تصعد في شكل مصاطب نحو جبهتها الأكثر نعومة. وقد انحدرت جبهة رأسها في موجات أكثر بروزاً مثل نهر، نحو ذقنها الرباعي الشكل، التي انحدرت لتصبح عدّة طيات من الجلد الرخو منتهياً في استدارة، لا توجد نقطة محددة فيه.

كنا على مسافة تزيد على ثلاثة كيلومترات عن بيت نونو عندما مررنا بجانب جثّتين مرميتين على قارعة الطريق. لا يمكنك أن تعرف هوية الموتى أو هوية من قتلهما وجلبهما إلى قارعة الطريق. فهناك جثث كثيرة لا تُعرف هوية أصحابها وتُجلب إلى ضواحي مقديشو. لكن لماذا لم يهتم أحد بدفنهما؟

طلبت مني آرباكو أن أستدير يساراً، ثم يميناً، ثم يساراً، ثم يميناً، ثم طلبت مني أن أركن سيارتي تحت ظلّ شجرة. كدت أعرف أين كنا، في الضاحية الشرقية من أفغوي، لكنّني لم أعرف سبب مجيئنا إلى هنا. ترجلت من السيارة، وطلبت مني أن أنتظرها. خرج عدد من الأطفال من المجمّع الذي اختفت فيه، وتحلّقوا حول السيارة، واقترب بعضهم من السيارة ومدّوا لي أيديهم، وبدأوا يفركون إبهامهم بسبّاباتهم معاً، للإشارة

Twitter: @ketab_n

إلى بقشيش. تحاشيت النظر في عيني أيّ منهم، ووقعت نظرتي المراوغة على عشّ لا يبعد كثيراً، حيث كانت حمامتان تنقران ذيل بعضهما. رحت أتسلى بالنظر إليهما.

وفجأة خطر لي أن عهد السلام في الصومال كان على وشك أن ينتهي، وبدأت تحل محله فترة من الاستنزاف، مواجهات مميتة ذات عواقب مأساوية للسكان المدنيين: فمن المحزن أن يبدأ هذا الأمر فعلاً. وقد جعلنا ذلك نفكر بعلاقاتنا من جديد، وماذا تعني الصومال لكلّ منّا، إذ بدأت الوحدة الأصغر تنجح، فيما أخذت الوحدة الأكبر، أي الأمة، تفشل. قلت في نفسي لقد ولىّ السلام، لقد أصيب السلام بالذعر. وبدأت الحروب الطاحنة تشتعل، وأخذت المجموعات المتمرّدة تقاتل إحداها الأخرى. ماذا سيحل بأمثالي، بأمثال نونو، بأمثال أبويّ، ماذا سنفعل؟ هل نتسلّح، وننزل إلى هذا الدرك الأسفل ونتخلى عن مكانتنا الاجتماعية والعقلية؟ هل نقاتل حتى الرمق الأخير لنحافظ على ممتلكاتنا، على الدخل الذي نكسبه بكدّنا، وعرق جبيننا، وعبقرية عمالنا، وتفانينا لنجعل الصومال بلداً عظيماً؟ هل علينا جميعنا أن نطلب اللجوء إلى مكان آخر، غالباً في الخارج لنجد ملاذاً آمناً مؤقتاً؟ نعم، لقد حلّ عصر كامل نفسه حتى النهاية! هل سيغادر نونو الحزين هذا الوضع المأساوي؟ هل سيفكّر بأنه لم تعد توجد هناك حياة تستحق العيش إذا لم يعد المرء يفتخر بصوماليته؟ لكن ماذا تفعل قصور من الأسرار بصومالية المرء؟ ألم يقل نونو ذات يوم إن بعض الأسرار هي نتاج عصرها وإن موقف المرء يتغيّر مع مرور السنوات؟

إني فاشي عشائري! الحمقى.

عندما ظهرت آرباكو ثانية لم تكن وحدها. فقد كان معها رجل يبدو على وجهه انسجام التواطؤ معها، ذلك النوع من الانسجام الذي يشي به الفساد. يمكن أن أقول إن أحدهما لم يكن يثق بالآخر أيضاً، مثل

Twitter: @ketab_n

متواطئين في جريمة قتل لا يثق أحدهما بالآخر. أما الرجل، الذي كان في الستين من عمره، فقد كانت تبدو عليه سيماء الابتزاز.

أبعد الأطفال، أشار إليه أحدهم بـ«أبي»، لكنه لم يشجع آرباكو على الاقتراب أكثر. وأخذ يحدّق فيّ دهراً، وكادت القسوة في عينيه تخيفاني. لكنه تعب من التحديق وأبعد نظرته، وبدأت ألاحظ أن هناك شيئاً مألوفاً فيه، كما لو كنت أعرفه. كانت يده مشوهة! وأخذت عياني الآن تتنقلان في رحلة مذهلة بين وجه الرجل ونصفه المحترق. وبدأت الذكريات تعود إليّ ذكريات، عن أبي وهو يتحدث عن أحجار تُرفع، وعن عقارب تستخرج. ورحت أتذكر أكثر مستقبلاً يسألني فيه قاض في محكمة جنايات لماذا قتلت غاكم ـ إكسم. ويأتي ردي عليه: «لأنه ابتسم لي»، أو من الأفضل «لأني لم أتحمل فكرة وجود رجل بأصابع تشبه ذيل عقرب».

عادت آرباكو الآن، واستغرقت دقيقتين وهي تبعد الأطفال، الذين عاد العديد منهم مباشرة بعد ذلك مثل طيور جارحة تحوم قرب جيفة. قالت لي إننا يجب أن نغادر. لم أرغب في المغادرة فقط، بل تملكني شعور غريب بأني كنت أريد أن أقتل. كنت مستعداً لارتكاب جريمة قتل! كيف يجرؤ؟ كنت أعرف أني كنت متسرعاً، أقفز إلى نتائج مميتة. أليس من الأفضل أن أتقصى هوية الرجل الذي جعل حياة أمّي جحيماً؟ ومن العجلة التي قالت فيها آرباكو «لنذهب!» كان من الواضح أنها لم تكن تريدني أن أسبر كثيراً في خلفية الرجل، ليس ونحن هناك وهو يحدّق فيّ. لكنني لم أرفع عينيّ عن إصبع الرجل التي تشبه ذيل العقرب، راجياً أن أتمكن من أن أصفّي حساباتي معه. هذا الرجل الحقير الذي اتهم أبي بالسرقة، واتهم أمّي بالخداع. لكن ما هي القصة الحقيقية؟ ما هي رواية الرجل عن الأحداث؟

وضعت يدها اليمنى على كتفي، ورجتني أن أقود مبتعداً.

Twitter: @ketab_n

وتمشياً مع دورها كميّسرة، لم ترغب في أن تعقّد الأمور لأي من «زبونيها»، ثم قالت، «كم تملك من النقود الآن؟»

لم أكن قد هيّأت نفسي لهذا الأمر. «نقود، أية نقود؟»

«الزمن صعب»، وأشارت بذقنها المدبّبة إلى الرجل الذي كان ينتظر عند المدخل، ويقف باستعداد مثل جندي يقوم بالحراسة. «إنه يطلب قليلاً من النقود مقدما».

«من هو؟» سألتها.

قالت آرباكو: «لديه الوثيقة الأصلية الثمينة لأمّك، والثمينة لك أيضاً». أخذت تتحدث ببطء الآن، وكأنها تكلم شخصاً أحمق. «إن الوثيقة تجعلها زوجة شخص آخر. لدى أمّك نسخة كربونية من هذه الوثيقة التي جعلتها تأخذ بصمات أصابع شولونغو من أجلها عندما ضاعت. وهذا الرجل مبتز، هكذا هو. وأنا أقترح أن نقدم له مبلغاً نقدياً كبديل لقطعة الورقة اللعينة تلك».

أحسست بتلبك في معدتي، وكأن قبراً أخذت تتحرك فيه الجثة التي لم يمض على دفنها يوم واحد. كنت أعرف أنه يجب ألا أترك أحشائي تتغلب عليّ في حرب الأعصاب، لكني كنت في حالة عقلية ضعيفة أيضاً. «كم تريدين؟»

«مليونا شلن»، قالت وهي تنظر خلسة إلى الرجل وكأنها تريد أن تحصل على موافقته. أحسست بأنها كانت حزينة. «حاولت أن أجعله يسلّم الوثيقة على أساس الثقة، لكنه يريد وديعة، على الأقل ثلث المبلغ قبل أن يريها».

وراح يكرر مراراً وتكراراً أن الأوقات صعبة. وفي الواقع لم تكن الأوقات صعبة فقط، بل كانت مجهولة المصير أيضاً. للجميع.

سألتها: «كيف حصل على الوثيقة؟»

Twitter: @ketab_n

عرفت من صوتها أنها استاءت مني وشعرت بالحزن أيضاً. «لو بقينا نتحدث بهذه الطريقة، فلن نصل إلى نتيجة. أنت وهذا الرجل تجعلان الأمر مستحيلاً عليّ لكي أقوم بدور الميّسرة. أنا أخلط الورق وأوزعه، وأنت تلعب فقط».

قرّرت أنه لا فائدة من الجدال مع آرباكو. فقد كانت مجرد وسيط، ربما كانت تتوقع الحصول على عمولة بعد ذلك، لكني كنت أشكّ في ذلك. كان شجاري مع غاكم إكسم، ومن الأفضل أن أستشير نونو قبل أن أقدم على عمل طائش. فضلاً عن أن حقدي كان قد بدأ يتحوّل إلى شعور بالشفقة. فلم أعد أرغب في أن أقتله، بل أن أوجه له ضربة على أسنانه فقط.

اقترحت أن نبتعد أنا وآرباكو إلى مكان يمكننا أن نتحدث فيه بسلام بعيداً عن أسماعه. أخذت أقود السيارة بسرعة، وتحركت عجلات سيارتي بسرعة كبيرة فأثارت غباراً كثيراً إلى حد أنك كنت ستظن أن قطيعاً من فرس النهر كان يصارع عدداً من الفيلة.

لم أقد سيارتي في الاتجاه الذي أتينا منه. بل رحت أقود باتجاه بيت نونو. وسرعان ما بدأت آرباكو تتصرف مثل طفل منزعج. فراحت تدقّ بقدميها على أرضية السيارة حتى اهتزت السيارة كلها. كانت تريد أن أتوقّف في الحال. وعندما لم أتوقف، صرخت صرخة مثل طفل تملكته نوبة غضب. خففت السرعة وأصبح صوتها أكثر خشونة وبدأت تصدر كلمات بذيئة. ضغطت على الفرامل فجأة فسقطت إلى الأمام. سررت بأنها لم تصب بأذى.

«لا داعي لهذه الوقاحة»، قالت بعد برهة.

بدت على وجهي تلك النظرة المشوّشة الإضطرارية. قلت: «ماذا يملك هذا الرجل ضد أبويّ؟»

Twitter: @ketab_n

كلمات غاضبة، حادّة المزاج كالنحل، بدأت تحوم بالقرب من آرباكو. كان بوسعي أن أرى النحل هائجاً، مستعداً للسع. أوقفت محرّك السيارة.

قالت: «في مهنتي، فأنا ألتقي بجميع أنواع الناس، رجالاً ونساء، من الباحثين عن المتعة والبهجة. كما ألتقي بأناس يبحثون عن شخص يحلّ لهم مشاكلهم، رجال ونساء أوقعتهم الظروف السيئة في شباكها. لقد تعرّفت على أمّك في ظروف يصعب تفسيرها. لقد جاءت إليّ وهي تحمل مشكلة، مشكلة تتمثل بوجود اختلاف».

«وماهي مشكلة وجود اختلاف؟»

قالت آرباكو: «كانت حياتها صعبة الحلّ، حياة علقت فيها ذبابات كثيرة. وكان أول الداخلين رجل تقدم للزواج منها، لكنها رفضته. إلا أن رفضها لم يثن من عزيمة الرجل. عاد مراراً وتكراراً، ألحف عليها في طلبه. أصبح مصدر إزعاج لها، راح يتبعها إلى السوق، يسير وراءها كظلها إلى السينما، وفي طريق عودتها إلى حيث كانت تسكن مع عمتها، التي كانت تربيها. وذات يوم التقى بها ي. م. إ (لندعوه بحروف اسمه الأولى، لأنه كان معروفاً) وكانت ترافق الرجل الآخر إلى السينما. لم يسأل عن الرجل. لسعه نحل الغيرة، فطارت قبضته إلى الرجل بسرعة مثل لدغة موجعة. ولسوء الحظ، كان الرجل الآخر أقوى، فضرب ي. م. إ ضرباً مبرحاً. ولم يقبل أيّ مساعدة من داماك. وغادر بهدوء.

«لم يسمع داماك من ي. م. إ لمدة أشهر. وفي أحد الأيام، جاء إلى باب بيت عمّتها، وعرّف نفسه بأنه زوجها. استجوبته العمّة. أبرز ي. م. إ لها أوراقاً يثبت فيها أنه هو وداماك زوج وزوجة. أبرز شهادة زواج نظامية تماماً. ومهما قالت داماك، لم يصدقها أحد، على الأقل عمتها. وقبل الإقدام على أي تصرف، سئلت إن كانت اتصلت بالرجل جنسياً، فردّت داماك بالنفي. ولتثبت كذب الرجل، تحدته أمّك بأن يحضر شاهدين ذكرين. لم تكن توجد مشكلة في هذا، ففعل ذلك.

Twitter: @ketab_n

«حتى لو كان الأمر كذبة، تساءلت العمّة، لماذا اختار ي. م. إ داماك من بين مليون امرأة أخرى؟ فهذا ليس يانصيب. ماهي الحقيقة؟ ولتبرئة نفسها، لم تذكر أمّك شيئاً عن الشجار الذي دار بين ي. م. إ وبين الرجل الذي كان برفقتها. وشت بها إحدى الجارات التي شاهدت المشاجرة. سُئلت أمّك عن المشاجرة. لم تكن تعرف شيئاً عن الجارة أو ماذا أخبرت عمتها، حاولت داماك أن تبقي المشاجرة بين الرجلين طي الكتمان. طلبت منها عمتها أن تغادر البيت. لم تكن قد بلغت المسكينة التاسعة عشرة من عمرها، ولم يكن لديها مكان تلجأ إليه.

«سعياً وراء حظها راحت تبحث عن صديق قديم من أيام مدرستها الابتدائية. وكان الصديق رفيقاً بها إلى درجة أنه وفرّ لها إقامة مؤقتة في بيت شاركت فيه امرأة أخرى في غرفة. وعندما رأيت داماك مرة أخرى، كانت تعمل في تجارة الخرز، وكانت تجارتها تسير جيداً. وبتحريض من ي. م. إ، أحكم الرجال الخناق عليها. كانوا يريدونها أن تدفع لهم مبلغاً كبيراً من المال. رفضت. جاءت مجموعة أخرى من المجرمين، على ما يبدو لأن ي. م. إ كان قد خسر شهادة الزواج في ذلك الوقت في لعبة قمار، خسرها لصالح شخص يدعى غاكم إكسم. فاغتصبها عدّة رجال، وعلى رأسهم غاكم إكسم و ي.م.إ. انتشر الخبر. وأخيراً سمعت بالخبر. «بحثت عنها»، قالت آرباكو، «تحدثنا، وعدتها بان أعمل ميّسرة لها. كنت واثقة من النجاح، رحت أبحث عن الرجل. كنت أعرف رجلاً آخر يحمل الأحرف الأولى من الاسم، وربما كان يعمل أعمالاً فنية، إنه أبوك. لا أتذكّر لماذا شككت بأن داماك كانت حاملاً. قلت لها: أذكر أنه كان يوجد هذا الرجل الذي يعمل في التجارة نفسها. دعوت الله بأن تقودني إليه أحرف اسمه الأولى. لأنه إذا كان ياقوت المجرم، لكنت قد سلّمته إلى الشرطة. وإذا لم يكن ياقوت هو المبتزّ فسنكون محظوظين. ثمّ رتبت لياقوت موعداً ليلتقي بأمّك في بيتي. وحمداً لله أنه لم يكن هو المجرم. لكنهما، هي وياقوت، راق

Twitter: @ketab_n

أحدهما للآخر مثل ذبابة عسل صيفية، وتمكنت من ترتيب زواجهما بعد أسبوع. حتى في مهنة الميّسرة (الخطّابة) يمكنني أن أقول إن أسبوعاً كان فترة قصيرة جداً. إنه زمن قياسي. صدقني!»

«وأين يأتي دور غاكم إكسم في كلّ هذا؟»

«كان غاكم إكسم ينتمي إلى عالم الجريمة في الخمسينات والستينات»، قالت آرباكو، «فترة كان فيها تزوير شهادات الزواج تجارة رائجة. وكان المنتحل الذي يحمل الأحرف الأولى من اسمه تشبه أحرف اسم ياقوت، لصاً ورفيقاً لغاكم في عرين أسراره. لا نعرف إن كان كذباً أم صدقاً، لكن غاكم إكسم ادّعى بأنه حصل على «شهادة الزواج الأصلية» كتسوية في لعبة قمار بالورق. وكانت التسوية تشمل كلّ قطعة ثياب، كلّ ما يملكه المنتحل. وكما قلت، لم تتعامل أمّك مع أيّ منهما. إلا أنه عندما اكتشف غاكم إكسم أن المرأة كانت متزوّجة من ابن نونو، ظن أنه يستطيع أن يحصل على ثروة من رجل يملك الكثير من الأملاك. وبين أشياء أخرى، كانت هناك قصة سرقة الحذاء من المسجد. أظن أن موضوع هذا الحذاء كان مسماراً في النعش الخاطئ، إن كنت تفهم قصدي».

شعرت بالاختناق. شغلّت محرك السيارة، واستدرت باتجاه مقديشو. قدت السيارة، لم أكد أعبأ بنقاط التفتيش، التي لم أكترث بأن أتوقف عندها. أنزلت آرباكو بعد أن شكرتها واعتذرت عن سلوكي الذي لم يكن مبرّراً. «سنتصل ببعضنا» قلت مطمئناً إياها. ثم عدت مباشرة إلى أفغوي، لأحزن برفقة نونو.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

جلست في الشرفة الغربية من منزل نونو، انتظر عودته ليجلب مبلغ المليوني شلن. فقد كان يجب تسديد هذا المبلغ نقداً، لقاء استلام الوثيقة، التي كانت في حوزة مبتز تشبه أصابعه ذيل العقرب. وبإدراكه العميق بالسرية، لم يضغط نونو عليّ لكي أعطيه تفاصيل أكثر مما كنت مستعداً لتقديمها. وبعد الكثير من الأخذ والرد، اتفقنا أنا ونونو على أن يكون هو أول من يتفحص الوثيقة. لقد أصرّ على ذلك، وأذعنت له. لا أظن أني أخفيت عنه أية معلومات هامة. لم يكن من طبعي أن أتصرف كما تصرفت، لم يكن من طبعي أن أخبره بكلّ ما جرى بيني وبين آرباكو. ثم أخبرته أين يمكنه أن يجد غاكم إكسم. وفيما كان يصغي إليّ وأنا أحدثه بكلّ هذا، خيّل إليّ أن نونو كان يجلس بهدوء واثقاً بنفسه، رجلاً يعرف تماماً ما يريد أن يفعله وكيف سيفعله.

قال: «إن امرأة مثل آرباكو لا تنتمي تماماً إلى العالم السفلي، مع أنها تعمل بالمبادئ نفسها التي يعمل بها غاكم إكسم. فهي غالباً تصطاد في المياه ذاتها التي يصطاد فيها، لأنها من حثالة المجتمع مثله. كنت أتمنّى أن تكون قد أخبرتني سابقاً بهذه الأشياء. لماذا لم تفعل؟ لكن لا تهتم بهذا!»

سألته إن كان يعرف بهذه الخدعة.

أجاب: «يصبح المرء دائماً أكثر حكمة بعد وقوع الشيء. فقد يدّعي

Twitter: @ketab_n

المرء، عندما يفكر بما حدث في السابق، بأنه كانت تأتيه إشارات، يمكن للمرء أن يشمها في الهواء. ويمكنني أن أذهب إلى درجة أن أعترف بأني كنت مرتاباً، نعم. لكن لا يوجد لديّ دليل قاطع. وإلا لكنت فعلت شيئاً حيال ذلك. لا فأنا لست من النوع الذي يجلس ولا يفعل شيئاً. كنت سأعالج الأمر».

«ما هي الإشارات التي شعرت بها اليوم؟»

قال: «كان يعتريني شعور بأنه يوجد سرّ يربط بين ياقوت وداماك، سرّ يحتفظان به معاً. ربما كان عهداً أقوى من كلمات قسم تردد من عقد قران. لم أعرف ماذا يمكن أن يكون. لكن بما أن أحدهما كان سعيداً بالآخر، تركتهما وشأنهما، وقلت في نفسي، وماذا يهم».

ثم تحدثنا عن الزواج الإسلامي ـ كيف أنه يجب أن يكون الزوج المقبل حاضراً، أما حضور العروس فليس ضرورياً على الإطلاق. ولكن يتعين حضورها شخصياً في ظروف معينة. وأن يمثّلها قريب ذكر، يكون وكيلها. يمكننا أن نخمّن كيف استطاع الشخص الذي كان يلاحق داماك أن يتدبر شاهديّ زور، فقد ادعىٰ أحدهما أنه أبوها والآخر بأنه أخوها. وقد لا يعرف الشيخ الذي يسجل الزواج بأمر هذه الخدعة. وعندها يطلق على هذا الزواج «خطبو سيريد».

قال نونو: «إن الزواج السري هو عندما ينتقل الزوجان إلى مكان بعيد لكي لا يكتشف أمرهما، تحدياً لسلطة أسرة العروس، التي تكون قد وعدت بتزويجها إلى شخص آخر، أو أنها تضرب اعتراضات الأسرة عرض الحائط، وتتزوج سراً خارج الحدود القضائية «للمنطقة». وهنا تحتاج إلى شاهدين ذكرين يمثلان أمام المأذون، ليسا من أقربائها. لقد شهدت الستينات الكثير من هذه الزيجات السرية، عندما بدأ يعاد النظر في أفكار سلطة الأسرة على الفرد، بعد أن أخذ المجتمع يتحوّل بسرعة من مجتمع بدوي وريفي إلى مجتمعي حضري».

Twitter: @ketab_n

سألته: «هلّ يمكننا أن نفترض أن الزواج المزعوم بين أمّي وذاك الشخص كان قد تم بينه، أو بين شخص آخر انتحل شخصيته، وعروس مزيفة؟» وأضفت، «فأجابته المرأة أنها داماك، وأقسم الشاهدان المشكوك فيهما بأنها هي داماك. ولم تكتشف أمّي هذه الخديعة إلا في وقت لاحق، عندما أصدرت البلدية شهادة زواج تفيد بأنها زوجة المدعو ي. م. إ».

قال نونو: «لقد عرفت مشايخ مشكوك في أمرهم أيضاً، لكن ليس هذا موضوعنا الرئيسي الآن». بدا مجهداً ومنهكاً. ربما كان منزعجاً من نفسه أيضاً، لأنه لم يكتشف هذه الخديعة.

«إذن عقد ذلك الشخص زواجاً زائفاً؟»

«كلّ شيء ممكن في عالم المجرمين وعالم غاكم إكسم والدجالين».

قلت: «أتصوّر أنه كان قد وضع سعر لكلّ شيء في غرفة عابقة بالدخان حيث كانوا يلعبون الورق. ويخيّل لي أنهم اتفقوا على سعر معين لشهادة الزواج، وقد ربح غاكم إكسم. جاء إلى أمّي، لكنها لم تستجب له. لكنه عاد ومعه عدد من رفاقه، واغتصبوها جماعياً. حملت بمولود، ولم يكن لها في كلّ ذلك حول ولا قوة. ثم دخلت آرباكو إلى الصورة كمّيسرة. جمعت داماك بياقوت. وخلال أسبوع أصبحا زوجاً وزوجة. وصل الخبر إلى رعاع القوم. فعادوا لابتزاز مبلغ من المال منها.

قال نونو: «حتى الآن كلّ شيء على ما يرام»، ثم أضاف مشجّعاً: «تابع!»

«جاء غاكم إكسم إلى ياقوت ليحصل على النقود» تابعت رسم الصورة التي كوّنتها. «بصق ياقوت في وجهه، وهدّده بالقتل. ولأنه كان يعمل في أكثر الزوايا ظلمة في التجربة الإنسانية، لم ييأس غاكم إكسم. فأبلغ داماك أنه أصيب بالاحباط، وأثار عن طريق الشبكات المجرمة غبار العاصفة.

Twitter: @ketab_n

«وكجزء من اللعبة الخسيسة، سُرق حذاء من أحد المساجد، وأُتهم ياقوت بالسرقة. أظن أن هذا كله كان بسبب لقبك ماتوكادة، الذي يضع ابنك في مكانة ضعيفة بين الحاضرين في المسجد. ثم، وربما لأن ياقوت لم يتزحزح عن موقفه، لم يحصل شيء لفترة طويلة من الزمن، ولم نسمع كلمة واحدة من الرعاع، وفي الواقع لم نعرف عن مكان وجوده حتى عادت شولونغو، التي جاءت للزيارة إلى هنا. هل كانت تبحث عنه، بمساعدة آرباكو؟ لا أستبعد ذلك. كنا مستعدين لدفع أي مبلغ لكي نعرف من هو المسؤول عن بؤس أمّي».

لذت بالصمت. اعتراني الحزن. كان بوسعي أن أمارس الكلام العلاجي، لكني خشيت أن أبدو سخيفاً إذا ما وعدت بأن أقتل كلّ رجل شارك في اغتصاب أمّي. لأني كنت هناك، أنا كالامان، قضية اغتصاب جماعي. ماذا يمكنني أن أقول؟ كنت أدرك مكانتي المبهمة، كنت رجلاً آخر. كنت واثقاً من هذا. ومع ذلك، لم أستطع أن أضع أصبعي على طبيعة هذه التغييرات، التي، لأنها كانت مبكّرة جداً، كانت لا تزال مبهمة، غير دقيقة.

لاحظت بحزن، الدموع تترقرق في عينيّ نونو، بعد أن أصبحت نظرته عائمة الآن، مثل مركب أوشك على الغرق. بدأ يرتعش. لم أعرف سبب ارتجافه، لكني عزوت الأمر إلى نوبة غضب متأخرة. لعلها كانت تتملكه كما تتملك الملاريا جسماً مجهداً، منهكاً. كان لغضبه رائحة نتنة. كان بوسعي أن أشمها من بعيد. كانت الرائحة التي يبثها غضبه تتغلغل في كل مكان، وأعادت ذاكرتي إلى عصر ذلك اليوم الذي أمضته شولونغو لأول مرة في شقتي. لم يكن من عادته أن يغضب هكذا، كلّ نفس من أنفاسه مشحون باللعنات، يتخلل كلامه إدانات غير مسموعة.

كنت أقف على بعد متر واحد من نونو. أشحت بعينيّ بعيداً عنه، لم

Twitter: @ketab_n

أر، ولم أكن أرى. كان من الممكن أن أكون شخصاً ذا عينين خاويتين من النور والبصر. واحسست أن سواد بؤبؤي عينيّ كان ظلاً شاحباً أكثر مما ينبغي، وأن عقلي قد فرغ من قوته، من عزيمته الإنسانية المميزة. بدا رأسي مأهولاً بالكائنات البشعة، بعضها نصف بشر، وبعضها ينتمي إلى عالم الحيوان.

قال نونو: «بصفتي مواطناً يقف عند تقاطع طرق يلتقي عدة عوالم، ستجد أن وزن الإشارات المتناقضة قد بدأ يظهر. ستصل إلى رصيف يتفرّع إلى جميع أنواع الاتجاهات، لافتات تعطيك اتجاهات مشوّشة إلى المكان الذي لا رجعة منه». كنت أرى شفتيه تتحركان، لكنني لم أكن أفهم ما يقوله. كان مضطرباً في وجودي، أو هكذا خيّل إليّ. كانت عيناه مراوغتين. بدا منعزلاً. كان يعرفني بأنني حفيده. أما الآن فلم أعد حفيده؟ ها أنا ذا: نسل اغتصاب جماعي. لم يكن ثمة يقين يربطني به، بأني أنتمي إلى دمه. ربما لأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل أو ماذا سيقول، غادر نونو الشرفة دون أي تفسير.

هبط الليل وأنا لا أزال أنتظره حتى يعود وقد جمع المبلغ. بدأت أفكّر برعب باليوم الذي لن يعود فيه العالم الذي كنت أعرفه حتى ذلك الحين، والذي كنت أعتبره أمراً بديهياً. فليس نونو جدّي. وليس ياقوت أبي. رحت أفكّر باللحظة التي ستحدثني فيها أمّي عن روايتها عما حدث. كيف ستكون ردة فعل الناس عندما يسمعون أني نسل اغتصاب جماعي؟ لم أكن أريد عطفاً أو شفقة من أحد، كنت أريد أن أرى غضباً واضحاً. من الطبيعي أن يذهل الكثيرون من البسطاء المهووسين بالعشيرة الذين قد يشعرون أنهم خدعوا في حقّهم في معرفة اسم المغتصب، أبي الحقيقي، لو كنت أنتسب فقط إلى فرد من العشيرة. فإذا اشفقوا عليّ، فذلك لأني ذلك الشخص الحقير المسكين الذي ليس له نسب ينتسب إليه ويكون موالياً له، ليقتل ويموت من أجله، في هذا العصر من

Twitter: @ketab_n

الاقتتال بين العشائر. تساءلت كيف ستكون ردة فعل شخص مثل كالين، مساعدتي في الشركة والتي كانت عشيقتي ذات يوم على هذا الأمر. كيف سيتلقى الموظفون الذين يعملون لديّ هذا الخبر؟ يمكنني أن أقارن تجربتي بشخص يعرف أنه مصاب بالإيدز. لم نكن نعرف ماذا نفعل، على الأقل لم أكن أعرف. لذلك ماذا تقول لشخص أصيب بأزمة شخصية مثلي، قريبة من الإيدز، تشير إلى نوع من الموت؟

في مرات كثيرة كمنت لي أفكاري وهاجمتني، وألقت بي خارج الدرب!

وقعت أفكاري الآن في كمين لدى رؤية شهاب يتجه نحو الأرض. ففي الأساطير الصومالية، ترتبط النيازك بالجن الذين، كما يُعتقد هنا، بأنهم خلقوا قبل أن يخلق آدم بألفي سنة. وثمة قصص كثيرة تعزوا إلى هذه الكائنات العبقرية أنها هي التي صمّمت الأهرامات خلال عهد ملكهم الذي يحمل أكثر الأسماء موسيقية، وهو الجني ابن جانون. وتدور قصص كثيرة أخرى تقول إن الجنّ يقيمون بالقرب من جداول المياه، ويقال إنهم يتواجدون عند تقاطع الطرق، وإن الناي هي الآلة الموسيقية الأثيرة لديهم. ويعد الغول فئة خاصة من الجنّ، الذي يعتقد أنه يظهر في أشكال إنسانية وحيوانية، ويعتبر من آكلي لحوم البشر، ويتردد على المناطق المحيطة بالقبور، لذلك فإنه يرتبط بالموت. ويعد الملك سليمان أكثر الملوك شهرة من غير الجنّ، الذي تشمل هيمنته امتلاك مفاتيح جميع الكهوف السرية في العالم. وحسب القرآن، تلقى النيازك على الجن الذين يسترقون السمع عند باب السماء لكي لا تسمع الأسرار الإلهية.

أضع عيني في ثقب الباب، وأرى ربع وجه نونو الجانبي، وقد ارتسم ظله إزاء الضوء الباهت. كان يكتب من اليمين إلى اليسار، على

Twitter: @ketab_n

الأرجح باللغة العربية. ومن النظرة إلى وجهه، يمكنني أن أقول إنه كان جاداً في مسعاه. ماذا كان ينوي؟

دون أن أكترث بآداب السلوك، دخلت الغرفة دون أن أقرع الباب. شعرت أن نونو كان في أرض الممكن، ربما كانت أرض مراهقته، مكان نُفي منه منذ أكثر من ستين عاماً. يا لهذا النور الذي تسلل من الباب وغمر الغرفة، من البهو ويضيئه مصباح. وعندما تقدمت بخطواتي أكثر، أزعجت دخان البخور المحترق الكثيف. لكن حتى هذا لم يصرف نونو عن اهتمامه الشديد بتسجيل ملاحظته.

وكالساحر، كانت جميع أغراضه حوله، كلّ شيء في متناول يده. إذ كانت كتبه مفتوحة على صفحات معيّنة. كانت في المتناول أيضاً ليعود إليها، وكانت هناك قطع من الأوراق الصغيرة جداً، حال لونها إلى الأصفرمع مرور السنوات، وقصاصات فيها خربشات مكومة فوق بعضها، مخلفّات تذكارية مضى عليها نصف قرن أو أكثر. لقد تجمّع المساء في عينيه. ومع أني كنت أراه، بدا أنه لم ينتبه لوجودي في الغرفة.

من مكاني وراءه مباشرة، رأيت أنه كان يكتب حرف الكاف باللغة العربية. وثم أتبع الكاف بحرف اللام، ثم وضع الحركة الصوتية الملائمة، حركة التشديد. كانت عيناه ساهمتين مثل رجل يتوقّع خراباً نهائياً. ها أنا ذا، نتاج اغتصاب جماعي، وها هو نونو، الذي لم يعد جدّي، يسعى جاهداً للعثور على فقه قرآني لتنفيذ العدالة في رجال ذوي بدايات مريبة. لقد فقدنا كلّ شيء ثمين. ربما كان يبذل ما بوسعه لتحاشي كارثة أخرى؟ بالتأكيد، كانت رائحة الموت تفوح في الهواء.

وفيما كنت أراقبه، رحت أتأمّل كيف يصل الناس على اختلافهم إلى الأعماق الكامنة في أرواحهم. فقد وجد البعض أسلحة نارية، ولجأ آخرون إلى أكثر البقاع هدوءاً من ضبط النفس، الصمت، وتتبّعوا

Twitter: @ketab_n

رحلات أرواحهم في أشكال مختلفة من الدراسة، تارة في أرقام، وتارة في صور، المفاتيح السرية لألغاز السحر الجنيني: الكهانة، ضرب المندل، الفال، ضرب الرمل، وأخيراً التقوى. وتعود كل طريقة من هذه الطرائق في أصولها إلى قراءة الكتاب المقدس الموحى، والأحاديث النبوية، وأقوال الفقهاء.

وضع نونو جدولاً بالقوائم، فيما كان يدوّنها في أعمدة: الأبجدية العربية، كلّ حرف وفق قيمته من الكهانة إزاء الأرقام، معاني الصفات أو أنواع الصفات، وإشارات البروج، والكواكب، والأحرف «المعطّرة». ونسخ كلمات مثل «قرفة»، وعبارة مثل «الصندل الأحمر». ووضع دائرة حول أسماء العناصر. وعدّد ألقاب الجن، واستغرق وقتاً طويلاً كي يكتب قايبوش، توايوش، دانوش، وباديوش. كان أكثر صبراً عندما أخذ يكتب قيمة الرقم ٢٠ إزاء الحرف كاف. وكتب تحتها الرقم ١١١. وأمام حرف اللام دوّن الرقم ٣٠، وإلى يمينه دوّن صفة الله تعالى «اللطيف» والرقم المرتبط به ١٢٩. والآن حرف الميم، الذي قيمته ٤٠، بجانب صفة الله تعالى «المالك». لكني فقدت الاهتمام في ما كان يفعله عندما لاحظت أنه بدا حزيناً للغاية، وكأن هناك شيئ يمتنع عنه، مثل غشاوة بعيدة تنحسر كلما اقترب منها المرء.

ورحت أنظر إلى ما كان يفعله. فقد رأيت أنه كتب كلمات «الكهف» (السورة ١٧)، وكاهين ولاكسد. ووضع خطاً تحت عبارة «الكنز الخفي»، (يقال إن الصوفيين يستخدمون عبارة الكنز الخفي كناية عن جوهر الله وشخصيته). وأخذ نونو ينسخ مجموعة من الأرقام والأحرف الغامضة، ثم بدأ يرتبها في جداول، تحت أعمدة، في أربعات، وخمسات، وستات، وتسعات. ورسم أيضاً مجموعة غريبة من الأشكال البيانية. ربما كانت هذه تعويذات، التي يقدرها عالياً الذين هم في مراتب دنيا؛ والتي يشكّ آخرون بأهميتها، ويسمونها هراء. لم أعرف كيف أفكّر. فغادرت الغرفة.

Twitter: @ketab_n

ورغم ذلك سمعت صوت نونو من المكان الذي كنت فيه، في البهو. لكني لم أكن واثقاً إن كان يستشهد باسم سليمان، أو يتضرع للحصول على المساعدة من أجل كالامان. فقد كان للملك سليمان مقام مبجل بين ممارسي السحر، سليمان الملك الذي ساعده الله في أن «يُخضع الريح التي تهب بشدة» لكي «تغوص الشياطين في البحر من أجله، وتجلب له الجواهر»، سليمان الذي منحه الله «المعرفة في الحكم على الرجال» والذي علّمه الله أن يتكلم «بلغة الطيور وأشياء أخرى».

عندما نظرت إليه فيما بعد، رأيت نونو يقلب البيت رأساً على عقب. بدأ يدخل إلى أماكن في البيت لم يدخلها منذ مدة بعيدة. راح يفتح ويغلق الخزائن، يفرغ أدراجاً ويترك الأشياء حيث سقطت. كان رجلاً هارباً لم يشأ أن يفعل شيئاً بالغرفة أو بالفوضى التي خلّفها وراءه أبداً. وكان يخرج بين الحين والآخر، يسحب صناديق معدنية، يكسر أقفالاً، لأنه لم يعد لديه مفاتيح لهذه الأقفال. لكن عما كان يبحث؟ ولماذا كان يبحث بهذه العجلة، وكأن العثور عليها مسألة حياة أو موت؟

أخرج المطرقة، طار صواب المطرقة، ضربات، ضربات، ضربات، صناديق تهوي على الأرض، يلتقطها ثانية، وكان يتردد صدى أطراف الصناديق المَعْدنية بعنف من هول الطرقات العنيفة. وعندما ضرب ضربة بأقصى قوته، ولم يصب هدفه: آخ! اللعنة، توقّف، وراح يمتص سبابته المصابة. كان يحدّق في ظفر إبهامه المجروح، نعم، لكنه لم يكن ينزف. فتح أحد الأقفال القديمة عنوة. أخذ يفتّش في داخل الصندوق. لم يعثر على شيء. فترة توقف دراماتيكية أخرى، قصيرة كالطبيعة الزائلة بسرعة الغضب الأبوي. ثم غزت أحاسيسي من جديد ضوضاء متفاوتة أخرى: خزائن نُقّبت، خزائن كُسرت، رُكلت. لأنها لم تتمكن من الإيفاء بالوعود التي استثمرتها الذاكرة؟ مزيد من اللعنات. هل فقد نونو

Twitter: @ketab_n

توازنه العقلي؟ هل كان يبحث عنه بين الأشياء في صندوقه المعدني؟ يقول الصوماليون إن المرء قد يبحث عن جمله في حاوية حليب بدافع اليأس، لعله يجدها هناك. «لعن الله هذا اليوم!»

ولكي يرتاح بالي سألته إن كان بوسعي أن أقدم له أيّ مساعدة. ولأني أعرفه جيداً، بذل ما بوسعه لكي لا أشاركه، وخاصة إذا كانت هذه المشاركة قد تؤدي إلى خطر محتمل.

عندما وقفنا صامتين وسط الفوضى التي أحدثها، تساءلت إن لم نكن نشهد، داخل حدود البيت، نسخة طبق الأصل من الفوضى المدنية التي تحدث في الخارج. لم يقل لي شيئاً. ربما كان رجلاً جعله سوء حظه أن يقف على حافة الجنون، يفكّر بالتغيير القادم من منعطف في نقطة مخفية، حيث يقبع ماضيه. تذكّرت أني عندما كنت شاباً، استبدل نونو الحرفين الصاد والباء في اسمه مصباح بحرفي الفاء والتاء، رحلة طويلة وقصيرة في الوقت نفسه، مصباح، والتي تعني «ضوء» بالعربية، ليصبح مفتاح.

«عم تبحث بكلّ هذا الغضب؟» سألته.

كان صوته يرتعش، أجاب: «أبحث عن أول بطاقة هوية أصدرتها لي السلطات الاستعمارية الإيطالية باسمي الحقيقي، اسمي واسم أبي واسم جدّي، بهذا الترتيب. اللعنة».

«أرجوك أن تقل لي لماذا تبحث عنها؟»

تجاهل سؤالي وقال: «المآسي تضحك أيضاً. في الواقع، كان الموظف الإيطالي جاهلاً إلى درجة أنه وصفني في بطاقة الهوية الأولى تلك «بالإنكليزي»، لأني أتيت على ما يبدو من المنطقة التي كانت تعرف آنذاك بمحمية أرض الصومال البريطانية. لكن رئيسه، شطب كلمة إنكليزي وهو يوقّع على بطاقة الهوية، وكتب مكانها بخط يده الأخرق، كلمة بريتانيكو. أما الصوماليون الآخرون الذين كنت أعرفهم فقد وضعوا أسماء عشيرتهم بينما أصبح اسمي بريتانيكو. هل تتصور ذلك».

Twitter: @ketab_n

«ولماذا تبحث عنها الآن؟»

فقال: «ظننت أني أستطيع أن أرتب أيضاً أمر حياتي، فيجب على الرجل في عمري، أن يكون مستعداً لجميع الاحتمالات». ونظر بشرود إلى ورقة كان يحملها على مسافة منه، على مسافة شاهدة قبر. راح يبحث عن نظارات للقراءة ووجدها، أسندها على أرنبة أنفه، ثم أخذ ورقة ثانية وثالثة، مكتوب عليها باللغة الإيطالية. ومن المكان الذي كنت أقف فيه، كان بوسعي أن أراها، سندات ملكية للبيت، لا يعلم أحد إلا الله متى أُشتري. كان رجلاً يقارن تفاصيل الماضي بدقائق الحاضر التي تحجبها طيات المستقبل المحتملة.

قال: «إلق نظرة فاحصة على هذه».

أخذ قلبي يخفق بقوة، ثم أخذ يتصاعد مع قلقي إلى أعلى، حتى وصل إلى حنجرتي ثم إلى فمي. وهناك تمكنت من إبقائه، ولأني كنت أتمتع ببصيرة، رحت أعضّ على لساني، الذي بدأ يؤلمني.

ما الذي كنت أحمله في يدي المرتعشة وأنظر إليه؟ ظهرت أمامي صفحة كانت السنوات قاسية تجاهها، نسخة كربونية عن الوثيقة التي كشف عنها بحث نونو الجنوني. وإذا كنت لم أستطع أن أقرأها، فلأني شعرت بالعاصفة القادمة التي بدأت تختمر في رأسي، في اللحظة التي ظهرت فيها الصفحة. كنت أحدّق في شكل من أشكال الموت. كان الموت آت من انعطافة عمياء، ولم يكن هناك شيء يمكنني أن أفعله للحيلولة دو حدوثه. فعلت ما بوسعي لتأجيل وصوله، وهذا ما جعلني أقرأ ببطء كما أقرأ أحرف الأبجدية، ألفظ حرفاً حرفاً. وقد دوّن اسم أمّي في خانة «الزوجة» في شهادة الزواج، وفي الخانة المخصصة «للزوج»، ذكر اسم يوسف محمود اسحق. وكانت الوثيقة مكتوبة بلغة إيطالية متحذلقة، مع ترجمة بلغة عربية منمقة. وكانت مؤرخة قبل ولادتي بستة عشر شهراً.

Twitter: @ketab_n

سألته: «كيف حصلت عليها؟»

قال: «لقد تركتها شولونغو في بطن الكركدن قبل سنوات»، وأضاف، «أذكر عندما استرجعتها. لم أشأ أن أقرأها آنذاك، ولأسباب لا أستطيع أن أفهمها الآن وضعتها جانباً، وكنت أنوي العودة إليها. هل يحتمل أني لم أكترث بتدقيق هذه الوثيقة لأني كنت أظن أنه لا يوجد فيها شيء مريب؟ كما ترى، فقد كنت أشكّ في أمّك. وفي رأيي هذا ما جعل شولونغو ضحية إفتراء أمّك».

قلت: «ماذا سنفعل بشولونغو الآن؟»

فقال: «اترك أمرها لي، فأنا سأتعامل معها».

وفجأة تهاويت على كرسي بين لحظة صفراوية وأخرى. وعندما التقت عيناي بعينيّ نونو، رأيت الموت يتسلل إلى البلد برمته، يطارده بعزيمة فيل هائج.

«هناك أساطير كثيرة»، قال نونو، «أساطير تمنح أهمية فريدة لفكرة الأمومة، حقيقة الأمهات». توقّف برهة، ثم تابع كلامه: «وأفضل مثال يخطر ببالي المثل الصومالي الذي يتحدث عن درب التبّانة. هل تعرفه؟»

«أسطورة درب التبّانة؟»

«ضرب ابن عاق أمّه حتى كادت تموت»، قال نونو، وهو يروي قصة المثل، «ثم، وكأنه كان يريد أن يقضي عليها، أخذ يجرها فوق سطح صخري تحت حرارة الظهر القائظة. وقد أصيبت المرأة إصابات شديدة، فقد امتلأ جسدها بالجروح وكانت تنزف، وكانت عظامها تؤلمها، وفقدت وعيها. وبقسوة شديدة، أخذ الشاب يجرها حتى ماتت. وطلبت أخت المرأة، خالته، أن يدعها تقيم للمرأة مراسم دفن لائقة. ورفعت الخالة بصرها إلى السماء، وتضرعت إلى الله بأن يظهر عدالته. ولم يسمع الابن ما طلبت منه، وقال إنها غذاء جيد للعقبان.

Twitter: @ketab_n

«ومرة أخرى راحت خالته تتوسل إليه، ومرة أخرى نظرت إلى السماء وراحت تتوسل إليها. فاكفهرت السماء وامتلأت بالغيوم، وأرعدت السماء وأبرقت في غير أوانها. وأصيب الابن بالصرع. ومات ميتة مؤلمة، في بؤس ووحدة شنيعتين، وُسحبت جثّته عبر السماوات. ونقول إن هذا الفعل محفور في جسم السماء في ذكرى تطهيرية لكلّ الأمهات اللواتي يعانين من القسوة التي ينزلها بهن أولادهن».

صمت، وطفرت الدموع من عينيه.

قلت الكلمات بتمهل مثل كاهن ينطق كلمته السحرية. «الآباء ليسوا مهمين. الأمهات أكثر أهمية. الآباء ليسوا مهمين. الأمهات أكثر أهمية».

أغمض نونو عينيه وفتحهما على إيقاع الكلمة السحرية المنطوقة. ولم تكن عيناه غارقتين بالحزن ومبللتين بالدموع فحسب، بل فقدتا البصر. وحبس أنفاسه الآن في ترقّب مرعب. وبحماس ليلفت انتباهي، لبث صامتاً، ليتأكّد من أنني سمعت كلّ كلمة. وجفف دموعه من خديه.

قال: «الأمومة هي النور الذي يشعل ويطفئ في ظلام الليل، ذبابة سراج الليل وهي تدور بسعادة وبهجة، الآن هنا، والآن هناك، وفي كل مكان. إن مشكلتنا كمجتمع هو أننا نمدح الأمهات بالكلام فقط، ولا شيء آخر. في الواقع فإن الأزمة التي ستبلغ أوجها في شكل صراع أهلي، لم تكن لتحل بنا لو كنا نمنح المرأة ـ كأم حقها الذي تستحقه، الاحترام والمودّة، بريق يحتفل بالأمومة، تمثال ينصب لعبادة المرأة».

ومثل ليلة استوائية خفتت عيناه فجأة. ثم وفجأة أيضاً، وكأن حجاب الظلام قد ارتفع، أشرق وجهه. واستوى واقفاً وراح يدور ويدور، ويكرر ويكرر، «الآباء ليسوا مهمين. الأمهات أكثر أهمية». رأى عمره الآن تماماً. ونمت ظلال العصر تحت عينيه بلون الصباح الرمادي. بدا لي وكأنه يخطط للموت، يزيل أدران الرعاع. طرفت عيناه بتوتّر عصبي يشبه توتر قطّة منهكة.

Twitter: @ketab_n

الشاي. مزيد من الشاي. وشيء مثير أيضاً.

في غضون ذلك، جال كلّ منا في مخيلته. طفنا في أرض أسطورية يسكنها آدم بدون أبوين، وحواء بدون أمّ، والمسيح بدون أب. تحدثنا عن أطفال معجزة أنجبتهم كائنات من عالم الحيوان. استحضرنا سلطة القمر، التي أشار إليها الكهنة المصريون القدماء باسم أمّ الكون. وتذكّرنا كيف أن الفتاة الطفلة في الهند، توصف بأنها تحمل زهرة عندما تأتيها الدورة الشهرية للمرة الأولى.

أخذني ولعي بالسفر بعيداً. وصادفت ياقوت، الذي يسمى باسم عالم ديني إسلامي موقر، الذي كان يبدى اهتماماً كبيراً بالأشياء الجامدة. وقادتني رحلاتي إلى داماك، امرأة ذات لسعة النحلة، وذات بصيرة وعزم طائر دليل العسل. كانت سعيدة، ورقتها الطبيعية رائعة، فضلاً عن أنها امرأة قانعة. حاولنا أن نتحاشى شولونغو، لكنها كانت تلّح علينا، تصرّ على أنها هي أيضاً امرأة، حتى لو لم تكن امرأة مكتملة. لم أعرف كيف أصفها، فهي لا تملك أياً من قوى الشفاء التي يتمتع بها الكهنة.

ثم ساد صمت طويل. لكنني كنت قلقاً، لم أستطع أن أتحمل هذا الهدوء، وخاصة بعد أن اكتشفت حزن نونو في نظرته الزائغة. ربما كنت أستشهد بأقوال شخص لأني قلت: «مثل الحياة، فلكلّ قصة منطق. وإني أتساءل، هل للموت سبب منطقي؟ حياة شاب عنيف، يجرّ أمّه حتى تموت عبر الممرات الصخرية، تتحوّل إلى مثل رمزي. وقد اتسم حاجب السماوات بخزيه وعاره».

قال: «قيل لنا إن الموتى لا يسمعون شيئاً».

سألته: «وهل يسمع الأحياء شيئاً؟»

«ينصت الأحياء إلى القصص التي يحكونها إلى آخرين بأمل أن ينسجوا خيوطاً من شخصياتهم في ألغاز الحكاية».

سألت نفسي إن كان عليّ أن أفسر قوله بأنه دلالة على استعداده

Twitter: @ketab_n

للمغادرة، بعد أن رتّب أمور حياته. أمسكت يده الكبيرة بيدي الصغيرة، ولفّ قبضتي حول أصابعه. قلت: «وماذا عن الأموات؟»

فقال: «إذا كانوا محظوظين، فإن الأموات يتناغمون مع ما يحدث إلى درجة أنهم يتمكنون من سماع صوت الجندب، أو طنين بعوضة في آذانهم. ومثل جدتك. كنا نستلقي جنباً إلى جنب طوال النهار، أنا وهي، وحدنا في غرفة نومنا. لم تكن تدرك أنها ستموت في ذلك اليوم فحسب، بل كان بإمكانها أن تحدد موعد وفاتها».

كنت سعيداً جداً بأني كنت لا أزال حفيده، وأثار شجوني عندما تحدث عن جدتي، أي زوجته الراحلة، أمّ ياقوت.

قلت: «هل تعرف متى ستموت، وهل ستفعل ذلك؟»

قال: «في اليوم الذي أنظّم فيه أفكاري سأغادر. لقد عشت دهراً من السنين. لذلك لديّ الكثير من الخيوط الطليقة كي أربطها معاً وأجعل منها شكلاً جميلاً. ولا أستطيع أن أقول لك كم يحتاج ذلك من الوقت».

ثم نظر حوله، ربما كان يتساءل عن سبب وجوده هنا. ففي لحظة، كانت ترتسم على وجهه تعابير رجل منهك لا يستطيع أن يوظف طاقته في هذه الحياة اليومية؛ وفي لحظة تالية كان يصبح زائراً يقول الوداع لكنه لا يذهب. فكلّ شيء كان يفعله يدل على نقيضه: وقفته، الطريقة التي يرفع فيها جسمه قليلاً عن كرسيه، وكأنه سينهض في أي لحظة ويغادر. كما استغرقت وقتاً طويلاً كي أتعود على فكرة نونو الذي لا يدخن، كيان شاذ كرجل عار في المسجد. وعلى نحو غريب، خطر لي أن أطلب منه أن يعاود التدخين، اشعل سيكارة ومجّها، وجعل الدخان يلتفّ في شكل دوائر، مدخنة ذات طرف فيه فلتر. يا للجحيم!

دخل رجلان قويان وذوي منكبين عريضين الغرفة بظليهما. كان ظلاهما يسبقانهما بقدر متساو لهمساتهما. رحبّ نونو بالرجلين.

Twitter: @ketab_n

كان أحدهما، يارو، ابن المرحوم فيدو، وقد منحه شعره شكلاً وكأنه دائماً في عجلة من أمره. أما الرجل الآخر، الذي لم أكن أعرف اسمه، فقد كان يرتدي بنطالاً قصيراً مهترئاً وقميصاً قذراً ذا شق كبير في الظهر. كان مفتول العضلات، وكانت عروقه تتلوى كالأفعى عندما كان يتحرك. لم أعرف من هو. ومع ذلك، فقد كانت تبدو عليه سيماء طبيعية لقاطع طريق. كان فظاً وقاسياً في أسلوبه، وفي لسانه جلافة. كان يبدو أنه سادي، عديم الرحمة، يضع مجموعة من الأسنان الأمامية الاصطناعية من أرخص أنواع المعادن: وكان يبتسم ابتسامة عريضة. وعندما كان يفعل ذلك، كان يبدو وكأن وجهه كله يرجع إلى الوراء ويتخلف عن باقي أجزائه. ثم اكتشفت مرارة في تجهمه. وعرفت أنهما جاءا من أجل مهمة خارجة عن القانون.

لم يتحدث أحد عن جريمة قتل. ومع ذلك فقد أحسست بكلمة «الموت» عالقة في الهواء. هل كلف رفيق يارو فيدو بقتل غاكم إكسم؟ كان الأمر واضحاً وبسيطاً. سدد له أجره مقدماً، نقداً، ولم تطرح أية أسئلة؟

كانت قسمات وجه يارو فيدو تشي بنظرة من التوقع القلق. راح ينصت إلى نونو العجوز وهو يشرح نقطة بالتفصيل. ثم اتجه إلى رفيقه وقدم له رواية مختصرة عما سمعه. ثم نظر ثانية إلى نونو، الذي تحدّث المزيد، هذه المرة كان يعطي تعليمات. ولأن معظم حديثهم كان همساً، اعتراني الشك في أنه كان يعطيهم تعليمات ليقودهم إلى المكان الذي تعيش فيه الضحية المفترضة. لربما ظننت، من الطريقة التي كان يومئ بها، بأنه كان يأخذهما من مشهد موت متوقّع إلى الجزء في الغابة حيث يمكن إخفاء الجثة بأمان. سمعت اسم الضحيّة ـ اسمه المستعار: هانغارول؟ ويعني آراتشمدا. هنا تأكدت الآن أنهم كانوا يتحدّثون عن غاكم إكسم.

Twitter: @ketab_n

اتفقنا على أن أكون بعيداً عن ترتيبات نونو ويارو فيدو، على أن انسحب إلى غرفتي بينما يعقدون هم اجتماعهم على بعد بضعة أمتار مني. ومن باب التظاهر، دفعت الباب إلى غرفتي وأغلقته لكي لا يشك أحد بأني أسمع كلامهم.

واعترت صوتي رعشة وأنا أقول إلى يارو، «تعازيّ يا يارو!» وتصافحنا. كان يكبرني بما لا يقل عن خمسة عشر سنة. كنت أحبّه. كنا على ما يرام، ربما لأننا كنا نادراً ما نلتقي. وبعد أن واسيته، لم أعرف ماذا سأقول له، بسبب التعابير الجامدة التي ارتسمت على وجهه.

غمغم كلمات الشكر وأضاف: «سنموت جميعنا إن آجلاً أم عاجلاً».

ثم تبادل نونو ويارو والرجل بدون اسم نظرة هادئة. كنت متأكّداً من أننا كنا جميعنا نفكّر بغاكم إكسم كلّ بطريقته المختلفة.

قال نونو ليارو: «أتعرف ماذا ينتظر منكما أن تفعلا؟ هز الرجلان رأسيهما.

ولكي أخلي الأجواء لهم، خرجت بضع دقائق، واثقاً من أن نونو والرجلين سيناقشان التفاصيل البارزة وأنا بعيد عنهم. عسى ولعل. كنّا نهيّئ أنفسنا لإمكانية تهمة قتل. وأشار الرجل العجوز همساً، بأنهما يجب ألا يدعاني أسمع من أي منهما اسم الضحيّة. كلّ شيء يتم بصمت. ثم تأتي الضربة، ويموت.

وفجأة، غادر يارو المتوتر ورفيقه.

لم يقل أي منهما شيئاً وهما يتجاوزاني عند باب غرفتي، مع أنهما كانا يعرفان أني كنت هناك. وعندما وضعت عينيّ أخيراً على أمّي، كانت هي أيضا تخطّط لقتل شخص. هل بدأت في الموت، في فكرة رجل يهرب منه، يأتي جنوباً ويغيّر اسمه؟ ثم قرر أن وقت موته قد أزف ويجب أن يذهب معه آخرون أيضاً؟ هل بدأت في الموت، في أمّي تخطّط لقتل كلّ مجرم من المجرمين الذين اغتصبوها جماعياً؟

Twitter: @ketab_n

قال يارو لنونو طابت ليلتك. أما الرجل الآخر فلم يقل شيئاً على الإطلاق. ثم سمعت وقع خطواتهما. راحت تبتعد ثم انحسرت تماماً. لم يشتغل محرك سيارة يارو.

قلت في نفسي إنه من الغريب أن رفيق يارو لم يكن يبدو صومالياً. كان أجنبياً جاء إلى هذه البلاد بعد موت فيدو بناء على تعليمات من أسياده الكينيين للبحث في موت والد يارو بواسطة فيل.

وبعد محاولات عديدة اشتغل محرك السيارة.

أغلق الباب. لقد أغلق على صمت نونو.

عاصفة غبارية: بشكل زوبعة قوية، تعرّض الحياة للخطر.

ثمة شيء يسقط، قطعة عملة معدنية تسقط في صحيفة من القصدير. وللحظة، يتحول العالم إلى وميض لطيف مؤلف من قطعتين معدنيتين. أرى بصمات أصابع مؤامرة، أرى دليلاً كافياً لجريمة ارتكبت، أرى آثار الإثبات. في ذعري، أتخيّل قضايا قضائية. أفكر في فضائح هاربة، اسمي في الصحف، ونونو أيضاً، ويذكر اسم أمّي. أحدّق في الأخاديد، في المنعطفات، المنحنيات في الجرائد.

حرصت على أن لا أحدث أيّ ضوضاء، قرعت باب نونو. لم يكن ثمة جواب. عندما دفعت الباب وفتحته قليلاً رأيته مستلقياً على السرير، مغطى بالملاءة. أطفأت الأضواء في الغرفة، مع أنني لم أعرف لماذا فعلت ذلك. فقد يكون الرجل العجوز قد قرّر أن يموت، الآن بعد أن أنقذ شرف عائلته. كان قلقاً ولم يكن قادراً على النوم، رحت أتحرّك في البيت بهدوء مثل قطة تبحث عن مكان لا يمكن لأحد آخر من فصيلتها أن يشاركها الطعام معها.

غططت في النوم عند الساعة الرابعة تقريباً على صياح بومة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

في حالة شبه يقظة، رحت أفرك عروق رسغي. كانت تؤلمني.

كانت الغرفة مظلمة بعض الشيء. تخيّلت إني كنت أرى أشكالاً مظلمة، كان وجه إحداها أسطوانياً كالبومة. رأيت صفاً طويلاً من النمل الأبيض يزحف خارج مخبأه الذي رش بمسحوق للقضاء عليه. أخذت أراقب هذا «النمل الأبيض» حيث كانت كلّ نملة تخطو بسرعة مثل محارب عائد إلى الوطن يحمل وسام غنيمته. رحت أنصت إلى همسات الموت الأبيض، وأفكّر كيف يمكن أن يكون المرء نملاً أبيض، منهمكاً إلى الأبد وهو يحفر في الأساسات التي أقامها الآخرون. ولدقيقتين جعلت عقلي ينشغل بأمور أخرى. كنت تحت إجهاد عقلي. أحسست بتلبك مفاجئ في أمعائي.

استلقيت على ظهري وأنا في غاية الضيق. لم أكن قادراً على تدليك التصلّب في كتفي الأيمن. لم يسكن الألم، ولم يتحلحل التشنج العضلي. كانت كلّ العروق المؤدية إلى رقبتي تؤلمني. ولأحدد مصدر معاناتي الجسدية، رحت أستكشف جسدي، ألمس هنا وهناك. كانت هناك كدمات على جلدي، ربما كانت لسعة حشرة. هل انضم النمل إليّ في سريري، وتغلغل تحت الشراشف؟ بدأت أحكّ جسدي، وألمس البقع في جسدي التي تعرضت للسعات كثيرة في الليلة الماضية. كانت عيناي مفتوحتين على وسعهما.

Twitter: @ketab_n

أشعلت الضوء. لم يكن نونو في السرير. رحت أتأمّل موكباً من النمل الأبيض الذي شكّل خطاً لا نهاية له. كان منهمكاً في حفر دعامات السرير الخشبية الذي كنت أستلقي عليه، يؤدي واجبه بجد واجتهاد. كنت أخشى أن يصل إليّ بعد فترة وجيزة. بدأت أحكّ في أنحاء جسدي، نملتان تسيران فوقي. تلسعانني في أكثر البقع الممكنة. جعلني النمل الأبيض في حالة من القلق الجسدي والعقلي: العقلي لأنه جعلني أفكّر بالخراب الطائش الذي يجري حالياً في الأمة. (قلت لنفسي إن كنت نملة، فإني لن أفعل ما يفعله النمل. لكني كنت سأتصرّف عندئذ بالطريقة ذاتها، وأرتكب أعمالاً وحشية لم يسمع عنها أحد من قبل واحتيال لا يغتفر، لو كنت أحد الحراس أو لو مُنحت القوة مثل راعي بقر السياسيين الطموحين؟ لحطّمت ما لم يسمح لي بأخذه مثل الحراس!) وترك النمل على جسمي علامات متعدّدة الأضلاع ورسائل لا يمكنني أن أفك رموزها.

بعد أن أخذت دوشاً، بحثت عن نونو. عندما لم أجده، بحثت عن زاريبا، مدبرة منزله. وبعد إلحاحي، أخبرتني أنه ذهب مع رجلين في سيارته قبل الفجر بفترة طويلة. لكنها لم تخبرني من هما هذان الرجلان، أو إلى أين ذهب الرجال الثلاثة. وتطوّعت بالقول إن أمراً هاماً دعاهم إلى المغادرة.

استقليت سيارتي، وقدت بأسرع ما يمكنني، ثم ركنت السيارة في أقرب نقطة من مجمّع غاكم إكسم، في بقعة أستطيع فيها أن أتجسس على حركة الناس وهم يدخلون ويخرجون من المجمّع. لكن «التجسس» هي الكلمة الخاطئة، وخاصة وأن سيارتي كانت السيارة الوحيدة على مرأى البصر، مثل فرسْ نهر يغطس في بركة ضحلة. كنت أحاول أن أتعرف على شكل الذين يدخلون إلى المجمّع أو الخارجين منه، كنت

Twitter: @ketab_n

واثقاً من أني سأعرف إن كان الموت قد زار هذا المكان في الليلة الفائتة. لكن لم يكن هناك شيء غير عادي، لا شيء يوحي بالموت، بينما رحت أشاهد نساء يوقدن ناراً، ورجالاً ينظفون أسنانهم وأجسامهم من بقايا الليلة السابقة: من لعاب لا يزال صمغياً بسبب النوم، من البلغم الذي يسد قنوات التنفس.

لم يكن قد مضى على مكوثي هنا وقت طويل حتى خطر لي أنه يوجد ثمة بطء جنائزي في حركات السكان، ثمة خمود في مشيتهم، في وضعية أجسادهم. وصلت الآن مجموعة جديدة من الناس: نساء أخفين جزءاً من وجوههن، ورجال يسيرون في صفوف من ثلاثة رجال، ينظرون إلى الأرض، يوحي صمتهم بحزن فقد شخص عزيز بشكل مفاجئ. رأيت رجلين يغذان الخطا. وهذا ما ساعدني على الاستنتاج بأنهما حفّارا قبور محترفين، يُحضران نقالة لوضع الجثة عليها. ودخل أحدهما المجمّع، وهو يحمل قطعة قماش subeeci xariir المعروفة التي يلف بها النعش.

لفت انتباه العديد من المارة وأنا جالس في سيارة أراقب حركات الناس. كان أحدهم يحمل بندقية. وبما أني أكره حاملي البنادق، الذين باستطاعتهم أن يوقعوا خراباً كبيراً، خيّل إليّ أنه نظر إليّ نظرة تشي بالتهديد. وتبادل بضع كلمات مع رفيقه الذي لم يكن مسلحاً، قبل أن يقررا أن يدعاني وشأني. وقلت في نفسي إنه من الأفضل أن أجد ذريعة جيدة إذا ما اقترب مني أحد وسألني ماذا أفعل هنا. لكني سرعان ما طردت من رأسي فكرة أن أسأل أحداً إن كان قد مات أحد، وكيف. كما خشيت أن يتذكر بعض الأطفال أنهم رأوني البارحة، بل والأسوأ من ذلك، قد يتعرف أحد الجيران على السيارة، أو على وجهي.

هل قتل غاكم إكسم؟ لماذا أشعر بعقدة الذنب، إن كنت أنا على استعداد لقتله بنفسي؟ كيف مات؟ هل طُعن بسكين؟ هل مات ميتة مؤلمة بطيئة؟ هل قُتل بمسدّس؟ أم أُخذ في سيارة وأُغرق في النهر، ثم انتشلت

Twitter: @ketab_n

جثّته وتركت في العراء في هذا الشارع؟ ليس من المحتمل أن تصرّ عائلته على إجراء تشريح لجثته. وسيدفنونه في اليوم ذاته، قبل أن تفعل الشمس الاستوائية فعلها. لن يسأل أحد عن سبب الموت ما لم يكن هناك دليل على وجود عبث، أو جروح بالسكين، أو علامات بشعة على الجثة. هل يمكن متابعة موت غاكم إكسم إلى عائلتنا، بطريقة أو بأخرى؛ ربما ارتبط بحادثة سرقة حذاء منذ ثلاثين عاماً؟ كنت أشكّ في ذلك.

بدأت المؤشرات الأولى لداء الشقيقة تطرق مقدمة جبهتي. ولكي أبعد الصداع عني أغمضت عيني. وعندما هدأ التهديد بالألم، فتحتهما. رأيت رجلاً يجري وراء صبي صغير يقارب السابعة من عمره. وكان الصبي، الذي عرفته من الليلة السابقة، يحمل حقيبة خيش متوسطة الحجم، الحقيبة التي حمل فيها يارو النقود. وقلت في نفسي يا له من أمر غريب. ربما كان الصبي المطارد واحداً من قنافذ البحر الذين رأيتهم البارحة (ربما كان أحد أولاد غاكم إكسم)، كان يتوسل وهو يجري هارباً من الرجل الذي كان يجري وراءه ويلوّح بعصاه. وكان الصبي ينادي الرجل بكلمة «عمّ». وعندما أمعنت النظر في الرجل اكتشفت أنه يشبه غاكم إكسم على نحو غريب. ووعده الصبي بأن يترك الحقيبة، ويرجوه أن لا يضربه. لكن ساقيه الرفيعتين علقتا في الأشواك في الطريق الترابي. وبينما كان يدور ويدور وهو يجري، أعاق الشوك سرعته. وانحنى الآن ليبعد ساقه عن شجيرة الأشواك. وفيما استغرق لحظة ليتفحص البقع النازفة من ساقه، ارتمى الرجل فوقه. ومدّ يده اليسرى، وأمسك الصبي من رسغه، وأخذ يوسعه ضرباً. كنت وكأنني أنا الذي كان يتلقى الضربات. أجفلت. وفي الواقع ارتفعت يدي اليمنى، وكأني أصدّ العصا. لكنني لم أبك. وكذلك الصبي الصغير. لأنه تمسك بشجاعة للحظة بشريط الحقيبة قبل أن يتركها أخيراً. ثم لبث ثابتاً فيما كان جسمه يتلقّى مزيداً من الضربات.

Twitter: @ketab_n

ثم راح الصبي يراقب الرجل وهو يفك سحاب الحقيبة، ونظر في داخلها، وأخرج النقود الملفوفة بأربطة مطاطية. كان «العمّ» قد استنفذ طاقته، لكنه لم يستنفذ طموحه، عندما توقف ليعطي الصبي رزمة شحيحة من النقود، وقال للصبي: «هذا كلّ ما ستحصل عليه أنت وأمّك مني!» ربما كانا سارقين يتقاسمان سرقة سيّئة!

ثم رآني العمّ، الذي كانت نظرته قاسية. التفت، وكان وجهه المتجهم مفعماً بالخطيئة، وكان يحفّ خداه شيء من التصلب والخشونة. وقد أحدثت رؤيتي له فيّ حزناً قبيحاً. وقلت في نفسي يا لنا من أناس حقيرين، ذوي أفق ضيق، نحن الصوماليين، يبيع أحدنا الآخر برزمة من العملات العديمة القيمة. ووضع العمّ الحقيبة على جانبه الأيسر وابتعد وسار على نحو أخرق متمايلاً كالبطة. رآني الصبي. وأدهشني أنه عرفني من يوم أمس. فهرع مبتعداً في إثر العمّ. لم أكن أعرف إن كان سيبلغ العمّ أو أي شخص آخر عنّي، أو إن كان يخشى أن أتعقبه من أجل غنيمته. هرب، وكانت كلّ خطوة من خطواته تكتسي بطاقة سلبية.

كان عليّ أن أغيّر أفكاري عن الموت. ولم أكن قادراً على الخروج من جسدي فحسب، بل أحسست بنذر عاصفة تعتمل في داخلي. كنت على وشك أن أشغّل محرّك سيارتي وأنطلق، عندما رأيت ما لا يقل عن سبع عنزات وقد تحلّقت حول نفسها. خرجت من المجمّع، ووجّهها إحساسها بالنورو مباشرة إلى حاوية نفايات إلى يساري. ودفعت إحداها الحاوية لإيقاعها، فلفتت الجلبة انتباه أحد المشاة. أخذت أتفرج على العنزات وهي تتناول القمامة المؤلفة من عظام خالية من اللحم، ومن قمصان قديمة بدون أزرار. كما كان فيها حذاء قديم. وبالإضافة إلى الحذاء، لفت انتباهي شيء آخر، حقيبة كتف صغيرة طبعت عليها كلمة أليطاليا. كنت أملك هذه الحقيبة ذات مرة. ولكي تغرز أسنانها فيها،

Twitter: @ketab_n

راحت العنزات تتناطح بقرونها، لكي تقضم الأحرف التي كتب فيها اسمي بخط واضح وبحبر بني لا يمحى. هل قُتل غاكم إكسم على يد أخيه من أجل المال في هذه الحقائب؟ هل كان للعمّ الذي أخذ الحقيبة من الصبي يد في موت هذا السافل؟ شيء يدعو للسخرية. يقول الصوماليون إن حذاء رجل ميت مفيد أكثر منه. ربما كان هذا حال رجل أقل فائدة وهو حيّ، من حثالة القوم، من حذاء قديم بال!

أردت الابتعاد عن هذا المكان. أدرت مفتاح السيارة. ومرة أخرى، هبت عليّ عاصفة مفاجئة. أُحطت على الفور بدفقة من الغبار المتصاعد. كان العالم كله يرتفع حولي ويتناثر حطامه على نحو مدوّ، زوبعة فيها مزيج صاخب من الرمل والعظام والورق.

جلست في السيارة. كنت رجلاً وحيداً حطمته العاصفة. كنت حزيناً. كنت كئيباً، لا لأن غاكم إكسم قد قُتل، أو لأن عائلته قايضت حياته العديمة القيمة بحفنة من النقود، وهو شيء يفعله الكثيرون من الصوماليين في عصر الطمع المادي وفقدان الروح.

حزنت على بلدي!

من موقعي المتميز، رأيت أن رأس أبي يشبه بذرة نبات التمر هندي، مضغوطاً، وبكراً تماماً. لقد كبر نظرتي إليه، حبّي له، في شجرة خيالي، معافى ومظلّلاً. كان نصف وجهه في الشمس، والنصف الآخر خارجها.

وكان يخيّل إليّ أيضاً أن تقاطيع وجهه تنم عن صلابة، أعجوبة شخص نجا من زلزال، هزّات أرضية متكررة، نوباتها المتقطعة، نيازكها التي تستهدف مسترقي السمع. بدلاً من الحيوان المنوي، كنت أظن أن نهر إنسانيته هو الذي كان يتدفق في دمي، شيء نفيس، يدوم في ذاكرتي إلى الأبد. ومع أنه لم يهبني قضيبه كما وهبه لنونو، كانت رقته لي،

Twitter: @ketab_n

ذكراي البهيجة بما كان يعنيه لي كطفل، تجعل للأشياء كينونة. لم أكن أريد أن أستبدله بأيّ رجل آخر، فأنا أشكر الله على أنه أبي. ولأن فمه كان يظل فاغراً، وشفتاه لا تتوقفان عن الحركة، جعلني أبي أشعر وكأني سمكة في ماء مالح يتغذى على ماء نبع. كم أحببته، نلك الحقيقة التي كانت ياقوت. فمعه كنت ألاحظ أن حتى الحمامات كانت مفعمة بالحيوية، مثل أطفال يحتفلون بالعيد. تنقر الحلوى وكأنها حبوب، تبتهج وهي تحتفل بوجودي في بيت أبويّ.

التفت على الفور. وعندما رآني أتقدّم، مدّ يده. كانت عيناه حمراوان، ربما من قلة النوم. صافحته. وبعد عناق سريع، تلامس كتفانا. قال أبي: «لم يأتني زوّار كما أتاني هذا الصباح». بدا أشبه بممثل سيئ، يردد كلمات نص عادي جداً.

سألته: «وهل زارك نونو أيضاً؟»

فقال أبي: «جاء نونو في الصباح الباكر، ونقل لي أخباراً جيدة وأخباراً سيئة. وانضم إليه هنا يارو وزميله، الذي لم أستطع أن أعرف اسمه. فله اسم أجنبي ولم يقل شيئاً».

كان منشرح الصدر، رجل لم يعد يحمل عبأ. لكنه أمسك نفسه لكي لا يترك لنفسه العنان، وبدا صوته أشبه بصدى قادم من بعيد. قال: «إلى أي درك غرقنا مؤخراً، أن نتلقى خبر موت رجل وأن نحتفل بموته».

عدت في ذاكرتي إلى حلم الجراد، والناس يتغذون دون تفكير على الحشرات التي التهمت محاصيلهم. «يا له من أمر مأساوي محزن».

لم أكترث بسؤاله من مات، وكنت واثقاً من أنني أعرف أكثر بكثير مما كان يعرف من خطط لعملية القتل. ففي أحسن الأحوال، تلقى أبي أخباراً غير مباشرة من نونو أو يارو. لم يكن يبدو سعيداً، بل كان يشعر بالارتياح لأنه أنقذ، لكي لا يهاجم هذا الشخص السافل بنفسه. وأصبحت عبارة «أبي» ثقيلة الآن، بما تحمله من مسؤولية أخلاقية

Twitter: @ketab_n

وسياسية، أفكار قد لا أكون قد ربطتها في العلاقة بين ابن وأب حقيقيين. ماذا يمكنني أن أناديه؟ لم أعرف أباً آخر، وكنت أقرب إلى ياقوت من قرب إبهامي لسبّابتي.

تبعته إلى الفناء حيث كانت تجثم الطاولة التي يعمل عليها. كان عليها بضع أدوات. أمعنت النظر ووجدت أن عينيه تشيان بالحزن، وكانت الشمس في عينيه منكّسة، تبرز من الظلام وتنتقل يمنة ويسرة بين صواري الانعكاس الشمسي. وخلصت إلى أن موت غاكم إكسم منحه شعوراً بالارتياح. وإلا لماذا كان يرتدي أفضل ثيابه التي يرتديها عادة يوم الجمعة التي تفوح منها رائحة كرات النفتالين؟ وكان شكله يوحي بقرويّ ذاهب إلى المدينة الكبيرة، حذاؤه يضغط على قدمه لأنه أصلح كعبي الحذاء مؤخراً.

طلبت من أبي أن يفسر لي ما حدث.

كان بوسعي أن أرى صفق جناح آرائه، صقر ينشر نظرته المخفية على الأرض وهو يحلّق عالياً ليجري مسحاً على المشهد، قال: «لقد رفعت حجرة...»، ثم توقف، وثبّت عينيه على قطع الحلوى التي كانت تنقرها الحمائم. انتظرت، وكأن السطر الأول من اللغز يقول، وكان يتوقع أن أزوّده بالنصف غير المحكي.

«... وهل قُتل العقرب؟»

«مات بسبب اللدغة...».

«... الجثة دُفنت».

«وأزيلت كلّ الأدلة....»

وبعد برهة، أضفت: «إنه نسل حكيم...»

«... من لديه إيمان في أبيه...»

«... الذين أسراره، بالنسبة له، كنز دفين».

Twitter: @ketab_n

لم تعد الفكرة عنه الآن دائمة الخضرة مثل شجرة التمر هندي، لم يعد شامخاً وعالياً، أو يقدم أحلى الظلال. بدا يشبه نبات الصبّار، على جانبيه أشواك أكثر مما فيه أزهار. ثم تغيّر شكله ثانية ليأخذ شكل شجرة بوباب، ثم أصبح حزيناً مثل رجل شاب شعره بين ليلة وضحاها، رجل مستسلم إلى مصيره الحزين.

«لعلك لا تعرف عن الرعاع»، قال، وبشرود التقط أداة تشبه الوتد، وأخذ يبرد أظافره، واحداً بعد الآخر.

سألته: «هل تعرف من قتله؟»

فقال: «ليس يارو».

«هل قتله رفيق يارو؟»

«لا».

«من إذن؟»

فقال: «أكد لي نونو أنه لم يلق حتفه على يد أحد ذي صلة بنا. بل إن الجشع هو الذي قتله، جشع الذين يشاركونه عرين العار ـ أخوه بمساعدة أبناء عمه».

أخبرته من أين جئت للتو.

«هل رشح أيّ شئ؟»

قلت له إني رأيت مجموعة من العنزات الأنيسة تأكل بحماس حقيبة كتف مكتوب عليها كلمة أليطاليا على جانبها. لكني لم أخبره عن الرقعة المدون عليها اسمي بالحبر، التي تناولتها العنزة بشراهة.

«يستحق الرجل أن يموت»، كان كلّ ما قاله أبي. صمت، أطرق مفكراً، فيما كان يحدّق في المسكن الواسع ـ بيت للحمائم وطعامها اليوم من الحلوى. «إن ما أفهمه»، تابع قوله، ومنح نفسه لحظة كي يرفع بصره إليّ، «أن غاكم إكسم قتل على يدي رجلين من أفراد

Twitter: @ketab_n

العصابات المسلحين اللذين أفلتا من العقاب وهربا بربع المال الذي ابتزه والذي أخذه بعد منتصف الليل مباشرة».

بصمت تناول علبة فضة بحجم علبة التزيين، وقد علق عليها قفل صغير جداً. من الواضح أن العلبة الفضية كانت فخر صناعته، وقد صنعت ببراعة بحيث لا يمكنك إلا أن تبدي إعجابك بهذا الإنجاز. وباحتفائية قدمها لي، وكأنه يأتمنني على سرّ يتوقف عليه وجودنا. تناولت العلبة أولاً، ثم المفتاح وكأنهما صكان يورثهما الأب إلى ابنه المحبوب. ثم نقلت عينيّ من المفتاح إلى كفي، أقارن الجروح المدموغة عليه مع أخاديد المفتاح. كانت الأخاديد متطابقة بدقة تثير الإعجاب. كانت وكأنها ظهرت وأنا أمسك هذا المفتاح في قبضتي في الليلة الفائتة.

لا تسألني عن السبب، لكني لم أجرؤ على أن أدير المفتاح في القفل، لم أجرؤ على أن أفتح العلبة الفضية، لأني كنت أخشى أني كنت أتعامل مع عالم أكبر من العالم الذي كنت أعرفه حتى الآن. لكن ما الأسرار التي تحتويها العلبة الفضية؟ قلت، «وماذا عن أمّي؟»

فيما انتظرت رده، أمعنت النظر في الجروح في كفي حيث جفّ الدم وأصبح الجلد المكدوم داكناً بعض الشيء. ارتسمت على وجه أبي نظرة الارتياب مثل نظرة سمكة علقت بين موجتين عاليتين. بدا غائر العينين، والشمس تلقي أشعة شابة عبر بؤبؤيه البنيين. وفيما رحت أنظر في عينيه، جاءتني صورة مدق من النور يقف معوجاً في هاون ظهيرة أبي.

قال: «من أين نبدأ!»

كان رقيقاً مثل نملة تغيّر مسارها، الآن إلى اليسار قليلاً، والآن إلى اليمين قليلاً، حتى تنحسر الأشكال المظلمة المخيفة، وتصبح النملة خارج مجال الخطر.

قلت: «لقد أصبحت بالغاً الآن». صمت يفكّر.

Twitter: @ketab_n

«يمكنني أن أسمع أيّ شئ»، قلت مطمئناً إياه.

قال: «ألا أعرف ذلك».

قلت: «ربما كنت أعرف أكثر بكثير مما تظن».

قال: «هناك أشياء كثيرة لا أعرفها أنا نفسي».

ثمة شيء آخر كان يحدث هنا أيضاً. حديثنا، مهما قال آخرون عنها، كانت أشبه بأحاديث شخصين على وشك التصادم، وجهاً لوجه في ممر ضيّق، كلّ واحد يحاول أن يبتعد عن طريق الآخر. أحدهما يبتسم، والآخرو يردّ بذات الشيء.

قال: «من صالح بعض الأسرار أنها تقال بعد أن تكون قد هيّأت متلقيها مقدماً. أعرف أنك تلقيت خبرين صاعقين، وسؤالي هو، كم بوسعك أن تتلقى المزيد؟»

قلت: «بقدر استعدادك لما ستقوله لي. فقد أخبرني نونو بعض الأشياء التي ستخبرني بها اليوم. فأنا أعرف مثلاً أني لست ابنك الحقيقي. وأعرف أن أمّي كانت ضحيّة اغتصاب جماعي. وأنها كانت تتعرض للابتزاز منذ سنوات لأن وغداً زوّر شهادة زواج جعلتها زوجة شخص آخر. أعرف أني نسل اغتصاب جماعي».

مدّ يده إليّ تعاطفاً. تلامسنا.

قال: «إذن فإنك تدرك الحقيقة بأن، كما شاء لنا الحظ أن آرباكو هي التي رتّبت لنا اللقاء، لأن أحد الحروف الأولى من اسم المغتصب تشبه حروف اسمي. فرصة سعيدة قدّمتها لي كبداية جيدة. أخبرتني أمك بما حدث. لم أتردد. قلت لها لنتزوج، وأصبحنا زوجاً وزوجة». صمت، وهو يراقب عقرباً يوازن بدنه الأنيق فوق خيط فضي رفيع. انتظرنا، ونحن نتساءل إن كان العقرب سيفقد توازنه، وإذا فقده، إلى أي مدى سيقع ثم يتمالك نفسه ثم يعاود الصعود بأمان.

Twitter: @ketab_n

«تزوجتما خلال أسبوع».

«من قال إننا تزوجنا خلال أسبوع؟»

«ألم تفعلا ذلك؟»

جلست أراقب. كانت نظرتي فجوة في جزر سراب آخذ بالانحسار.

رد معترفاً: «إننا لم نتزوج أبداً. أنا وأمك لم نعقد قراننا أبداً».

«أبداً؟»

أخذ لسانه العطش يلعق شفتيه الجافتين. «لا».

رأيت في عقلي صورة كذبة مغلفة بطبقات من السرّ. خيّل إليّ أن الأمر يحتاج إلى عمر كامل لتنظيف بقع الأكاذيب، المكدسة فوق بعضها البعض من التكتّم. سألته: «لكنك كنت دائماً سعيداً إلى درجة تثير الحسد؟»

قال: «لا أعرف شيئاً عن هذا».

تذكّرت نونو عندما قال لي منذ سنوات كيف أنه كان يشكّ بأن أبوايّ يخفيان شيئاً. لا أتذكّر من قال لي إنهما تزوجا خلال أسبوع. هل كان نونو؟ أم آرباكو؟

يا لها من شجاعة كبيرة من جانبهما، قلت في نفسي!

قلت: «لا يهمّ».

«ماذا؟»

قلت: «لا يهمّ إن تزوّجتما أم لا».

«حسناً»، هزّ كتفيه.

«إنك أبي، وأنا أحبّك»، قلت، ولمس أحدنا الآخر.

توّسع حجابه الحاجز وقال: «أحبك كثيراً أيضاً، وقد أحببت أمّك كلّ هذه السنوات أكثر مما قد أكون قد أحببتها لو كانت زوجتي».

Twitter: @ketab_n

واغرورقت عيناه بالدموع وهي تفيض حباً. ولم يجفف دموعه، بل تركها تسيل على خديه، كطفل لا يكترث بالمخاط الذي يلوث وجهه. ووجدت أنا كذلك من الصعوبة أن أحبس دموعي.

ولوهلة شعرت وكأن قلبي قد خرج من جسدي. لم تكن في يدي سوى أصابع إبهام، بدون أصابع، يد لا ترعى جيداً الأشياء التي أئتمنها قدرها بها. ثم برزت غشاوة أمام عينيّ، غشاوة ضخمة كالجدار، فيها فتحات، وسمعت أبي يقول: «لم نكن نثق بأحد، أنا وأمّك. إننا نأسف حقاً لأننا لم نطلع أحداً على أسرارنا. هل تتصور رجلاً وامرأة يعيشان في الخطيئة، كما يقولون في مجتمع مسلم تقليدي مثل مجتمعنا؟ كنا سُنرجم حتى الموت، بينما يُترك مرتكبو جريمة الاغتصاب الجماعي أحراراً».

في وسط عزلتي كانت تكمن حمّى!

قال: «ومع ذلك، كان من الممتع حقاً أن أحممّك».

كنت على وشك أن أقول إني كنت أجد متعة عندما كنت تحمّمني، لكني لم أقلها.

وتابع قائلاً: «وكنت أجد متعة كبيرة خلال وجودي معك. من المفهوم أن ينتاب أمّك شعور بالازدواجية تجاهك، لأنها لم تنس أبداً مهانة الاغتصاب، مما سببّ لها اضطراباً عصبياً كبيراً. كان شيئاً مأساوياً أن ترى النفور الذي كان يحفر في وجهها عندما تتذكر كيف أنجبتك. كنا نناقش الأمر. والحق أنها استغرقت وقتاً طويلاً جداً قبل أن تقبل بك. في البداية، لم تكن تحتمل فكرة أن تضمك حتى إلى صدرها. فقط بعد أن بدأت المزيد مني فيك، والقليل من أيّ من المغتصبين، حتى تمكنت من الشعور بالارتياح في حضورك».

قلت قبل أن يسود الصمت: «أتمنى أن أتمكن منهم وأقتلهم جميعهم. إنهم لا يستحقّون العيش، إنهم يستحقّون الموت».

Twitter: @ketab_n

فقال: «إن قتل وحوش مثلهم لا يفيد شيئاً، لأنهم لا يختلفون عن ملايين آخرين، مجرمون يشتركون معاً. كنت أركز اهتمامي على شفاء داماك، وعلى أن نبقى نحن الثلاثة معاً، وحدة واحدة من الحبّ والمودّة، الثقة والمحبّة، لا الانتقام. كانت أمّك معرضة دائماً للانهيار العصبي. كنت سعيداً بأننا نجونا من محاولات الانتحار. لقد مررنا في محن شديدة معاً، أنا وأمّك، نتقاسم الأرق لمدة سنة من الليالي المؤرقة، مزاجها قصير مثل ظلّ الظهيرة، كانت أرواحنا تغرق في بحيرة من الأصوات المرتفعة».

كان أبي يتكلّم بدون توقّف، ولذت أنا بالصمت، أستمع في محاولة لألتقط الفخاخ البيزنطية في حكايته: استحضرت صوراً من الأصوات والكلمات التي كانت تهدف لأن تمثّل إنسانيته، شفائه.

سألته: «ماذا في العلبة؟»

قال: «لماذا لا تفتحها وتكتشف بنفسك؟»

أدرت المفتاح في القفل، بالطريقة الصحيحة. فتح القفل. أخرجت قطعة مطوية من الورق، تكسوها طبقة من الدقيق، مما يدل على أنها كانت ورقة قديمة عندما طويت لأول مرة ووضعت هناك. كان عليّ أن أكون في غاية الحذر لكي لا أمزّقها، لأن الورقة تصلبت وقسيت وأصبحت مثل جثّة متصلبة. راح أبي يحدق فيّ. لا أعرف لماذا لم أخبره حتى الآن عن النسخة الكربونية للشهادة، التي تثبت أن أمّي كانت زوجة شخص يدعى يوسف محمود إسحاق، الشهادة التي وجدها نونو خلال بحثه المسعور عن بطاقة هويته الحقيقية من أمعاء الماضي السريّ.

قرأت الرسالة التي كنت ممسكاً بها في يدي عدّة مرات، ولاحظت أنها كانت مؤرخة بعد ستّة أشهر من شهادة الزواج المزيفة. وكان للكاتب، الذي كتبها بصيغة «نحن» نفس القدر من الفخر الذاتي كما

Twitter: @ketab_n

للنسر عندما يحلّق في السماء. تساءلت إن كان هذا سيعتبر دليلاً في المحكمة، وإذا كان بإمكاني أن أقاضي هؤلاء على جريمتهم.

لكن كيف يمكن للمرء أن يثبت جريمة ارتكبت منذ زمن بعيد؟ على أية حال، ها هو نصها:

الغالية داماك:

شئنا أم أبينا، فإن لجسد المرأة جدول محدد، وقبل أن يصبح الهلال بدراً، سنتقدم بطلبنا، حصتنا العادلة من كوننا زوجاً لك كما يرد في الوثيقة التي في حوزتي. إننا سعيدون بأن عملك في تجارة الخرز تسير على ما يرام. إننا لا نطلب الكثير، بل مجرد ثلث دخلك الشهري، هذا كلّ ما في الأمر. وسنرسل شخصاً، يعرّف عن نفسه لك. يده مصابة بعض الشيء اسمه غاكم إكسم. في واقع الأمر، فهو الشخص الذي سيسلمك هذه الرسالة شخصياً.

ماذا يحدث إذا لم تسددي ما طلبناه منك؟ لن يكون من الحكمة أن ترفضي هذا الالتماس الرحيم، لأننا سنكشّر عندها عن أنيابنا. إننا نعرف أين تعيشين، نعرف أين تديرين تجارتك في الخرز. سنعترضك وأنت في طريقك إلى بيتك أو إذا كنت بعيدة عنه، وسنذلّك جسدياً. نقترح أن تدفعي المبلغ. وقريباً. وإذا لم تدفعي المبلغ، ستصبح حياتك كابوساً طويلاً. تذكّري أنك امرأة! تذكّري أنك مسؤولة عما يحدث، إذا ما رفضت أن تتعاوني معنا.

ي.م.إ

خرجت من بئر الصدمة لأجد شفة أبي السفلى مدلاة في تركيز صامت. كان هناك خطّ طويل من اللعاب يتدلى من شفته، شفافاً كزلال بيضة في الجزء العلوي من البيضة.

أخذت أقود سيارتي. سمعت صوت طقطقة ناعمة، صوتاً قريباً من

Twitter: @ketab_n

صوت تصفيق معلّب. نقرت نقرات خفيفة على زمور سيارتي، مصدراً صوت إيقاع يخلو من أي نغمة. ولأكمل هذه الأصوات، رحت أردد هذه الكلمات وأنا أضغط على الزمور: الأمهات أكثر أهمية! ياقوت مهمّ أيضاً!

كنت في طريقي إلى وسط المدينة. كنت أنوي زيارة أمّي في محلها، لأؤكد لها بأني أحبها كثيراً، بأني ابن مخلص إلى الأبد للحبّ الذي يربطنا معاً كعائلة. كنت حزيناً أيضاً، حزيناً لأن عبارات «أبي» أو «جدّي» بدت اعتراضية عندما أخذت أنطقها. كان الأمر أشبه بتعلّم لغة جديدة تكون فيها كلمات مثل «أب» و«جدّ» كلمات مشحونة، فيها كلمة «أمّ» مشبعة بمعاني أخرى.

مرة أخرى سمعت تصفيقاً ناعماً، كان أحدهم يذكر اسم ياقوت، تجذير آخر بصوت عال تقديراً لعمل رائع. وانضم عدد آخر من الناس، وكان جميع من في القاعة يلتفتون لينظروا إليه، أبي، ياقوت. اعتقدت أنه أب حكيم يعرف متى يخبر ابنه بالأشياء. إنه والد حكيم يحفر الهياكل العظمية لسرّ ما في الوقت المناسب، يعرف متى يلمح إلى وجود عقرب باسمه.

تكتنفني شكوك الحياة، كان أبوايّ حكيمين عندما أحاطا نفسيهما بخيط لا يراه أحد سواهما، والذي يربطهما معاً، رجل وامرأة تعاهدا وعقدا حلفاً سرياً، أخذا على نفسيهما عهداً بحفظ السر إلى الأبد. «أدين بسلامة عقلي إلى الواقع بأني أتعامل مع الموت كل يوم»، قال أبي ذات يوم، «أحفر كلمات الحداد على الرخام، وأنسخ العبارات الجنائزية على شواهد القبور! لقد ساهم ذلك في تعديل مخاوفي من الموت، وساعد في تبلّد أعصابي تجاهها، وأبقى حياتي الحزينة تحت السيطرة».

ركنت سيارتي. نزلت منها. وجدت أمّي. كانت وحدها في المحل. أغلقت الباب ووضعت لوحة كتب عليها «مغلق»، ثم أشعلت الأضواء

Twitter: @ketab_n

في الداخل. ضممتها إليّ وقبلتها لفترة طويلة، أكثر القبل التي قبلتّها دفئاً. بكت. بكيت. تعانقنا لفترة طويلة. لم يشعر أحد بحبّ صاف في شكله البدائي الأصلي كما شعرنا الآن. ابن مفعم بالمودّة والحب البنوي الكامن. أمّ ترتعش كالورقة بقوة حبّها الأمومي.

تحدثنا طويلاً وبحرية، أنا وأمّي.

تطرقنا إلى المواضيع المحرّمة، المواضيع التي لا يمكن لكثيرين من الأبناء الصوماليين، أن يناقشوها مع أمّهم بصراحة. حرّكنا قِدر الذاكرة. ألقمنا المحرقة بوقودنا، قلنا كلمات الوداع. تخلصنا من مشاعر الضغينة التي كنا نحبسها في صدرينا. سعى كلّ منا لمسامحة الآخر. امتدحنا كرم ياقوت النموذجي لكلينا. ولكي لا يسيء أحدنا فهم الآخر، تذكرنا تقديرنا لتفهم نونو وعطفه أيضاً.

وفي لحظة قالت أمّي: «كان ياقوت نعمة من الله أرسلها إلى امرأة في حاجة شديدة. ربما كنت أناشده لو لم يكن موجوداً. لكنه كان هناك، أبرأ جروحي، وأصلح ذاتي الممزقة. كان يلملم أجزائي الممزّقة ويجمعها، في الليل وفي النهار. كنت شعاع شمعة، كان الضوء داخل ظله: كنت الغسق، وكان هو التقوى الرائعة. لا أظن أن يمكن لأحدنا أن يعيش بدون الآخر. مرة واحدة فقط، في السنوات الثلاثين ويزيد التي عشنا فيها أنا وياقوت، فقد أعصابه معي، مرّة واحدة فقط، المرّة الوحيدة».

قلت: «متى كان ذلك؟ أو بالأحرى لماذا؟»

«كانت قد وصلت شولونغو. وقد تزامن ذلك مع فترة كنا نمر فيها في أزمة»، قالت أمّي، «لأني كنت تعيسة وأعيش في معاناة ليلاً نهاراً بينما أفلت الرجال الذين اغتصبوني من العقاب. اشتريت مسدساً لهذه الغاية، قرّرت أن أنتقم منهم. لكن ياقوت لم يعرف بذلك، وقال إنه

Twitter: @ketab_n

الكراهية تحكم بشكل طائش. قال إنه يفضل أن أتماثل للشفاء من أن أحاسب هؤلاء الرجال. ما أهمية القيام بذلك في مكان لا تعني فيه كلمة 'عدالة' شيئاً للقاضي، أو للمحامي، أو لهيئة المحلفين، أو للمجرم؟ كنا نتشاجر بعنف. وبعد إحدى تلك الشجارات، لم أعد إلى البيت لمدة يومين لكي لا نتشاجر مرة أخرى. فقد كان يؤلمني أن أرى الألم يعتصر وجهه».

ساد صمت. انتابني شعور كبير بحب الظهور، فكّرت مسبقاً.

قالت: «لا أعرف كيف عرفت تلك الساحرة بأني لم أكن في البيت في عصر ذلك اليوم، ولم يعرف أبوك كيف شقت طريقها إلى سريره، وهو فيه. وكما قال لم يعرف إلا وهي هناك. بالطبع لم أصدقه. هل تظنني بلهاء؟ قلت له. ألم يكن يستطيع أن يعرف الفرق بين رائحة جسدي ورائحة جسدها؟ لكنها كانت تكمن هناك بين نوباتي وهذياني، أكثر هدوءاً من الحرف الصوتي. يا له من شيء شاعري!»

«هل صادفت تلك الفترة عندما أخذتني في ثقتها الأنثوية؟ «سألتها، وتذكّرت أنها، أمّي، كانت أول من استعمل عبارة «الثقة الأنثوية» في إشارة إلى ما كان يجري بيني وبين شولونغو.

«دعنا لا نتذكّر الجوانب القبيحة من ماضينا» قالت متوسلة، «لأنه في الحقيقة، كان من الرائع أني عندما كنت أعود إلى البيت، كنت أجد ياقوت يبدي لك حباً وكأنك ابنه، وكان يرعاك رعاية رائعة، لذلك لم أكن أرغب في مواصلة الشجار. لقد بقي ياقوت منارة مودتي، النور في ليالّي الصاخبة، يرعاني ويرعاك كما لو كنّا طفلاه».

من الناحية الأخرى، لو كان أبي وأنا طفلين رضيعين نتغذى من منافذ أمّي المتعدّدة، أنا من حلمتيها الكبيرتين، وأبي من الحلمة القزمية، فإن هذا يعني أننا كنا طفليها؟ لكن لماذا لم ينجبا طفلاً لهما؟

Twitter: @ketab_n

قالت: «أتذكر كم كنت تضايقنا وتلح على أن ننجب لك شقيقاً، حسناً، لم يكن الأمر لأننا لم نحاول».

الآن تعانقنا. قبّل أحدنا الآخر. قالت: «لدي مثلث من الولاءات الثابتة، أنت وياقوت ونونو، ويخيّل إليّ أن إيماني بهذه الولاءات الثلاثة سيزداد قوة إذا ما ختمناها بثقة مقدّسة ـ والحقيقة أننا لم نتزوج أبداً، أنا وياقوت، ولا نزمع أن نتزوج. الثقة المقدّسة لسرّ أسري».

وفي الصمت الذي تلا ذلك، دخل إلى عقلي جسم مفكّك من الأفكار. اعتراني برد شديد حتى العظم، ثم أصبحت دافئاً عندما بدأ الدم يتوزع في عروق عدم ثقتي بذاتي. فاجأت حتى نفسي عندما قلت: «أظن أنه حان الآوان لأن أتزوّج تالادو وأنجب لك حفيداً، وأجعل ياقوت نونو آخر».

صاحت أمّي ببهجة شديدة. وراحت تدور حول المحل وترقص. بكينا وبكينا، من فرط السعادة. ثم تعانقنا لفترة أطول بكثير هذه المرة.

وشولونغو؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

بين الأحبّة: توتّر سري.

يحدث هذا إلى درجة كبيرة لو كان هذا اليوم يوماً محظوظاً في حياتي وفي حياة نونو. لأني أنا، شولونغو، في يوم حظّي هذا، وأنا بكامل قدراتي العقلية، أعلن بأني انسللت إلى فراش رجل يدعى نونو، حتى لو كان الفراش فراش كالامان في الواقع، وهو الفراش الذي كان يرقد فيه الشابّ عندما يأتي لزيارة بيت جده نونو. وإن كنت قد ذكرت أن كالامان هو الذي كان ينام في هذا الفراش عادة، فلأن للفراش مكانة فقهية هامة في الإسلام عندما يتعلق الأمر بتحديد الأبوّة. ودون أن أحيد عن الموضوع، أريد أن أستشهد هنا بحديث نبوي. فلكي يحدد نسب طفل موضع نزاع بين شخصين يدعيان الأبوّة عليه، حدد النبي حكماً بارزاً قال فيه إن: «الابن للفراش». وإني أفهم هذا القول بأن أياً من الرجلين يمتلك الفراش فهو أب الطفل. أنا لست فقيهة، وحاشى لله أن أقول إن النبي أو فقهاء المسلمين يعيرون أي اهتمام لاستخدامي الآثم لحديث شريف. لكن النقطة التي أعنيها هي أني كنت أنا ونونو في فراش ينام فيه حفيده، الطفل، فإذا حملت، يكون عندها طفل كالامان، لا والده الحيوي المعروف، أي نونو.

وثمة شيء آخر دخلَ في حساباتي عندما تسللت إلى فراش نونو، عندما كان الرجل العجوز غافياً. كنت أدرك أن نونو سيفكّر مائة مرة قبل

Twitter: @ketab_n

أن يلقي بي خارج بيته، أو قبل أن يصدّ محاولاتي بفظاظة. خيّل إليّ أنه قد يتوسل إليّ، لكن لم يخطر لي أنه سيطلب مني بصراحة أن «أغرب عن وجهه»، كما قد يفعل كالامان إذا انسللت إلى فراشه. فقد كان نونو ينتمي إلى العالم القديم، ومبدأه أن يكون رجلاً محترماً، ويحترم التقاليد، وأن لا يتملكه غضب شديد. كنت واثقة وأنا أهمّ بالانسلال إلى فراش نونو بأني سأنال غايتي منه بشكل أو بآخر. فقد كنت أعرف أنه كان على علاقة بكائي، وأعرف تماماً أحاسيس عالمه القديم. وبغضب شديد طردني دون حتى أن يسمع وجهة نظري بإنصاف.

كيف انتصب لدى لمساتي المثيرة! يا إلهي: يا لهذا الانتصاب الجميل الرائع، انتصاب نونو. كنت أتمنّى أن يتمكن العالم من رؤية ما رأيته، قضيب أملس على نحو مذهل وكأنه مطلي بالزيت، منتفخ الأوداج، كتلة من العضلات الراسخة الجذور، كولاجين، وألياف لدنة تصعد وتمتد حتى تصبح قبّة في هيئة حبة فطر. ومن مجرد لمسي له، انتصب ليلقاني، متصلباً بضغط الإثارة، وبسبب تدفق الدم أيضاً. يا له من شيء مؤسف أيضاً، أنه في هذه الساعة من الأحداث الفظيعة، حيث يُقتل رجال ذوي أصابع كالعقرب، ومن نسب نونو بالكامل، أتابع بقعة لا يزيد حجمها على حجم ذبابة، بقعة نشيطة حيّة، كالهلام في اتساقها، صافية كأشعة الشمس عند القيلولة. وأطلب عفوك وأنا أتخذ موقفاً وأكشف أني مطلعة على سر الموت. لا، لست متواطئة بارتكاب جريمة القتل. وإن كنت قد أمسكت نعاماتك بلطف، فلم يمت أحد، ليس بعد. يمكنني أن أؤكّد هذا، لكن أحداً سيموت قريباً.

على أيّ حال!

كنت في فراش نونو، عارية. انتصبت جالسة، الشرشف يغطي جسد الرجل العجوز، ماعدا قضيبه، الذي واصلت مداعبته، والذي رحت ألمس فتحته مرات عديدة في حركة من الأعلى إلى الأسفل. لا أعرف

Twitter: @ketab_n

لماذا كان ينام في فراش كالامان. لعله كان قد بلّل فراشه، كما يفعل بعض الرجال في طفولتهم الثانية أو الثالثة، بسبب البروستات لديهم. وكنت أنا نفسي، أتمتّع بالإحساس بالخصوصية الذي كان يمنحني إياه بيت نونو: غرفة له، وغرف كثيرة أخرى للضيوف. كنت أفكر كيف كان لدى أشخاص مثل نونو مجموعة من الكراسي الموسيقية، كالامان ينام في فراشه، ونونو ينام في سريره، والرجل العجوز يأخذ قيلولته في فراش حفيده. كانت هذه وفرة رائعة، شيء في تصرف حفنة من الصوماليين.

بدأ نونو يفيق الآن ببطء سلحفاة تخرج رأسها من قوقعتها. أدهشني أنه لم يكن يعرف أين هو، ومن أنا، أو ما الذي كان يحدث له. ربما كان يحلم بكلّ هذا، يستحضر إلى الوجود شولونغو وهي تتسلل إلى فراشه وتمارس الدابا ـ غور. إذ تكثر القصص في الصومال عن رجال يتسللون إلى فراش امرأة ويضاجعونها وهي نائمة. وتوحي هذه العبارة بأن يقوم الرجل بجمع ثوب المرأة النائمة، ويلجها شيئاً فشيئاً من الخلف، بدون موافقتها. وهي تخشى إن صرخت مستنجدة أن تدان بأنها هي التي استدرجت الرجل، فتستسلم نساء كثيرات لهذا الضرب من الاغتصاب. إذ تحلّ عليهن اللعنة إن هن استنجدن بأحد وطلبن المساعدة، وتحلّ عليهن اللعنة إن هن اغتصبن ولبثن صامتات. وفي هذا الرباط، تنجح قلة من النساء اللاتي تمارس عليهن الدابا ـ غور في طرد المغتصب.

بالطبع، لم يكن ما فعلته دابا ـ غور، لأني لم آت نونو من الخلف، بل من الأمام. يجب أن يكون هذا هور ـ غور، يجب أن أسكّ هذا المصطلح بنفسي، بما أنه لا يوجد مثل هذا المفهوم باللغة الصومالية، مع أننا نعرف أنه يحدث. إن الحديث عن ظلم المرأة قد يؤكد لك أنه حتى لو لم تكن هناك كلمة، عندما تراود امرأة رجلاً عن نفسها، كما

Twitter: @ketab_n

أفعل أنا لنونو، فإن مرتكب الفعل والضحية يدخلان في عالم من التظاهر والإدعاء. ولكي تضع المرأة حداً لذلك، فإنها تثور، وتهدّد بأن تطلب النجدة. أما الرجل، ولكي يحقق أغراضه، يستخدم كلّ السبل، بما فيها الوعد بالزواج. لكننا لم نفعل ذلك، أنا ونونو.

عندما أفاق وأدرك حقيقة ما يجري، اشتكى من الضباب الذي يغشى بصره، متظاهراً بالعجز. طلبت منه أن يحدثني عما جرى لعينيه. فقال إنه، بسبب الألم في عينيه فإنه يشعر وكأن بصره قد انشطر إلى نصفين. ولم أكن قد سمعت بأن أحداً قد تعرض إلى كسوف جزئي مفاجئ في رؤيته. وسألته عن سبب ذلك. لم يجبني، بل كان مراوغاً كدأبه، وأخذ يقول كلاماً مليئاً بالألغاز. فقال: «إن الخلود لعنة باسم آخر».

كانت يدي إلى جانبي. كان رخواً.

قلت: «ماذا تعني؟»

قال: «أنا شمعة تحترق من طرفيها، ولا يطفئها إلا النسيم الذي يهب عليها مباشرة، بأوامر مباشرة من الظواهر الطبيعية الأخرى التي تعمل في جوارها. إن بصري شمعة أطفأتها إصبع سبّابة تتصل بإبهام!»

كان في مركز القيادة. كنت مأخوذة به، أصغي إليه. تحدّث عن الموت، تحدّث عنه وعن أبي. وألمح إلى إتان ركلت رجلاً وقتلته لأنه هو الذي انقض عليها ليمارس الدابا ـ غور معها. وأشار إلى ممارسة فيدو المزدوجة، طريق يقوده إلى الرجال، والآخر إلى النساء. الآن أصبح رخواً، وكان ثمة شيء غير جذاب فيه. حتى لو لم يكن مثاراً، كان كبيراً، قادراً على ملء يديّ المكورتين به. مهما فعلت، كان يرفض أن ينتصب لمداعباتي.

لقد ألهبتني الشهوة التي جعلتني أصاب بالدوار. كنت مبللة بين فخذي، متلهّفة لكي يلجني. لم أعد متأكّدة الآن من وضعي الجسدي،

Twitter: @ketab_n

إذ كان جسدي يقول شيئاً يرفضه عقلي. وأظن أني رأيت مجموعة متنوعة من الرجال والنساء خلال سنواتي الثلاثين ونيف من عمري، ورأيت عدداً منهم بدرجات متفاوتة من العري. لكني لم أر حتى الآن قضيباً رائع الشكل مثل قضيب نونو، أو قضيب ياقوت، أو جسم فيه ذلك العدد من المنافذ كجسد داماك كما لم أصادف في حياتي رجلاً له سرة عميقة مثل سرة كالامان. إني أعرف ما أقول. فأنا خريجة مدرسة هؤلاء الرجال الثلاثة، إن لم يكن من مدرسة داماك كذلك، التي لم أتعرّف عليها بهذه الطريقة.

تتطلب ممارسة الحبّ، في أوجها، أشياء من الآليات الجسمانية للأشخاص المشاركين فيها. لم يكن نونو مشاركاً نشطاً. كان يصل إلى حالة نصف انتصاب عندما كنت أداعبه، ويسترخي عندما أتركه. ثمة شيء كان يحزنني: مع أنه كان من الممكن أن أستمع إلى سكرات موت نونو، وأن أكون آخر شخص يراه على قيد الحياة، آخر شخص يمنحه المتعة وهو يعاني من ضعف بصره الجزئي. وفي لحظة شعرت بجسده يتفكك وينفصل أمام عينيّ، مثل الحليب عندما يفسد، عندما تتفكك الذرات البيضاء وتنفصل عن القطع المائية، وتتنقل إلى هنا وهناك. لا يهم.

أتذكّر الآن أني فاجأته في صباح أحد الأيام قبل شروق الشمس. مضى على هذا أكثر من عقدين بقليل. أمسكته من قضيبه. يؤلمني حنكي عندما أذكر ذلك، من شدة ركلته التي كانت أقوى من ركلة حمار شبق. وكما قلت، لا يهم. لأن هذا كان قد حدث منذ سنوات. أما اليوم فسأبذل جهدي لأحقق ما كنت أسعى إليه. عليّ فقط أن ألاحقه بذات الميول اللصوصية التي ساعدتني في نهاية الأمر في أن أقنع كالامان بأن يتناول ملء كشتبان من دم حيضي. لم يقل شيئاً، لكن إيقاع تنفّسه تغير كثيراً. لمسته. نهض، عيناه كانتا لا تزالان مغمضتين. كان ضخماً مثل جبل تغشاه السحب، وقد نُحت قضيبه نحتاً لمتعة عيون ناظره.

Twitter: @ketab_n

فتح فمه وأغلقه كما يفعل الثور وهو يمضغ الحلم المعتم لطعام اليوم الذي يجترّه. ربما كان الرجل يحتلم. عندما رفعت مؤخرتي، أتهيأ لإيلاجه في داخلي، حوّل موقعه قليلاً نحو اليسار، في محاولة ليساعدني. ظننت أني الهور ـ غور وهو يقوم بعمله. تركني أفعل ما أشاء. مواطنو أرض التظاهر، كنا نحن أيضاً من مواطني عالم جرد الموجودات.

وصل إلى مرحلة القذف. وكذلك أنا. كان متعباً، يتنفّس بصعوبة. انهارت قسماته كما لو كانت مبنية من الحطب الذي التهمته نار عظيمة. فجائية الأمر برمته. تخيّلت أنه فتح عينيه، لربما رأيت الفولاذ في عزيمته النبيلة، ومن الواضح أن عقله كان يسيطر على جسده، قادراً على أن يجعله يفعل ما يريد أن يفعله. لا مشكلة على الإطلاق.

بقيت منبطحة حيث كنت. وبعد لحظات كنت في الوضعية الملائمة، فوقه، نسر على استعداد للهبوط أو التحليق ليحفظ ذاته. كنت نهمة كطائر مفترس، وقد تكلل ذلك بالنجاح لأول مرة. هل سيمنحني فرصة ثانية؟ ماذا سأصبح، مغتصبة هور ـ غور للمرة الثانية؟ بحقّ الجحيم. كان قضيبه مسترخياً الآن، مهما داعبته ولاطفته فلم ينتصب، قلت لنفسي إنه استرخى بدافع النكاية. يا له من شيء ممل ومزعج.

كان يدير ظهره لي بطريقة كانت تجعله يراني جزئياً (ربع رؤية، حسب الظروف) أدخلته كلّه في فمي. وسرعان ما أضحى نونو في حالة من التضخم. اللعنة، كنت أنا الخاسرة. ولأعيد الأمور إليه، فعلت شيئاً لأثقب ضميره كرجل موقر. أخرجته من فمي، ورحت أستمني على الفور، ورحت أدخل سبّابتي وأخرجها بسرعة وحيوية في إيقاع يترافق مع تنهداتي وتأوهاتي، وازدادت وتيرة مداعبتي لنفسي، وبدأ صوتي يعلو ويعلو حتى لم يعد يحتمل هذا المشهد الحزين، ولم يعد يحتمل رؤية

Twitter: @ketab_n

شابّة تستمد متعتها الجنسية من لاشيء سوى مداعبتها لنفسها. قلت كم كان رجلاً نبيلاً. فلم تمض إلا برهة، حتى بدأ يضاجعني.

لكنه لم يقذف فيّ.

بأيّ أسلوب كان رجلاً نبيلاً؟ فما أن كان يقترب من نقطة الذروة ويصبح على وشك أن يقذف سيلاً جارفاً من سائله، حتى يمسك نفسه. لماذا هذه الدناءة؟ لماذا هذا الحقد؟ فقد كانت احتمالية أن أحمل بطفل منه منذ المرة الأولى ضعيفة. كان اهتمامي يتركز أكثر على ما قد يطلقه فيّ من مورثاته أو على تكوين حالته العقلية المتوتّرة. كنت أريد أن أحمل طفلاً، طفلاً من أي رجل. وكان نونو يعرف ذلك، كان يعرف أن كالامان لن يمنحني لحظة واحدة من وقته الجنسي. لماذا دخل إلى أعماقي، لماذا كان يقترب من لحظة القذف، ثم يمسك نفسه؟ كان هذا شيئاً فظيعاً.

قلت: «بإمكانك أن تقذف فيّ».

أحسست بجسده يتردد. انتابني شعور فظيع بالرهبة من الطريقة التي ابتعد فيها عني، وكاد نصفه يلمسني، وكأنه على وشك أن يضرط.

«أفضّل أن لا أقذف في داخلك»، قال، وقد بدا شديد الغموض. كان ثمة وميض من الحقد يحترق في عينيه. قال موضحاً: «إني أحوي نفاية، وكأنّ إحساس سائلي المنوي قد انحرف، إني مصاب بمبيد للجراثيم. في الحقيقة لا أنصحك بمضاجعتي».

«ماذا تعني؟» قلت أتساءل إن كان يشير بطريقة مقنّعة إلى شكل أو آخر إلى الأمراض الجنسية المعدية العديدة التي يسمع المرء عنها. فربما كان مصاباً بمرض لم يُسمع عنه من قبل، مرض من صنعه هو؟

قال: «إن أردت فسأقذف فيك».

Twitter: @ketab_n

لو كان يحمل فيروس الإيدز، وكذلك كان زوجي أكل النار المغربي! وكان من حظّي التعس أني أستمر في مراودة الرجال الذين هم على حافة الموت، وكنت أنا نفسي على شفا حفرة من الموت، فقد نجوت منه بفضل رحمة ذئب، الغريزة الأمومية للبوة، أمومة نعامة تحميني. «أرجوك، اقذف فيّ!» قلت متوسلة.

«قد تأسفين على ذلك»، قال محذراً، لا شكّ أنه كان منزعجاً قليلاً.

سألته: «لماذا تقول أني قد آسف على ذلك؟»

«أعرف أنك ستأسفين على ذلك فيما بعد»، قال مؤكداً.

لوهلة أخذ يحدّق في بقعة في السقف، كما يفعل فاقدو البصر عندما يثبّتون عيونهم في نقطة ما. هل كان يدخل سرّاً؟ هل كان يستحضر قدرة سحرية؟ لمسني الآن من حيث أُدغدغ، في وسط مكمن أنوثتي. كيف أثارني إصبعه بهذه الرقة الرائعة. إذ أخذ يداعب قمة منطقة قد تكون بظري لو لم أكن مختونة، حيث كان من الممكن أن أستثار بسهولة. إذ لا يضاهيه أحد في خبرته في أمور الجسد، عندما يقرر أن يثيرني. راح يفرك ظهري إلى الأعلى والأسفل، بطريقة رائعة جداً. كان وكأنه يعيد اختراع ماض مع امرأة أخرى، مرة أخرى يعيش من خلال لحظات ممتعة من المضاجعة. كان يدغدغني بيد، وباليد الأخرى يخفف من الإعياء في عمودي الفقري. تملكني دافع لا يمكن تفسيره. أحسست وكأني سلبت من قوة تعامله بجسدي. استسلمت لمداعبته لجسدي، هو الذي يعرف نقاطه السحرية أكثر من أي شخص آخر، بما في ذلك أنا نفسي. رغم البهجة المتصاعدة، اختارت ملكاتي اليقظة الآن صوتاً غريباً جداً، ناعماً، منوّماً. كنت تحت مفعول تعويذة النمل الأبيض، تتحرك بإخلاص لتهدم الهياكل المبنية. بلغت مرحلة الرعشة ورحت أرتعش بنقاء قدسي.

كنت في غاية الاستثارة والهياج.

استغرقنا فترة طويلة جداً بعد أن بلغنا الرعشة، أنا في البداية، ثم

Twitter: @ketab_n

هو. استلقينا جنباً إلى جنب، لم ينبس أحدنا بكلمة. كنت أستمع إلى إيقاع تنفّسه. أزعجني عدم انتظامه. ظننت أنه بسبب عمره، ربما يكون لبضع لحظات من الراحة مفعولها السحري. ولم أكد أقول كلمة اقترح فيها أن يستريح حتى أحسست بأنه لم يعد يتنفّس. وضعت راحتي المنبسطة قرب عينيه، ثم قرب أنفه لأتأكد إن كان يتنفس. لا شيء.

هل أرغم نفسه على الموت؟

ذعرت. قلت في نفسي، فليبارك الله الضالين. يا الله.

لكنني قرّرت أن هذا لا يمكن أن يكون. لأن حياة نونو، إذا كانت قوية مثل إرادته، لا يمكن أن تنتهي في نشيج خافت، هكذا. ما لم يكن يلعب لعبة التظاهر من أكثر الأنواع شراً، فليسامحني الله على طيشي. ألم أكن أضعه في حنايا جسدي المظلمة منذ دقائق قليلة فقط؟ ألم يولّد قضيبه هذه الطاقة العصبية الكافية داخل قوته الغضروفية والعضلية؟ ألم آخذه برمته، عضلته، نسيجه، انتصابه، وكله؟

تصوّر السخرية. فرغم أنه لم يستطع أن يترك عقله يموت فقد كان مستعداً لمغادرة هذا العالم إلى الأبد وهو لا يزال في حالة انتصابه وانتفاخ أوداجه. يا له من أمر سخيف. لن أدعه يغادرني بهذا الشكل، دون أن يودعني كما يجب أن يفعل، أنا رفيقة فراشه، أنا التي أشاطره أسراره. اسمح لي، لن أدعه يفعل ذلك. وفي غضون ذلك، فقد كان هدوءه يشكل قرناً من إنتظاري.

كان مستلقياً على ظهره، متمدداً مثل شبكة صيد تجفّف في ريح تهب على الأرض. أمسكت أصابعه ذات الجلد السميك، ورحت أدلّكها إصبعاً إصبعاً، وكأني أتمنّى أن يعيد ذلك الحياة إلى ما تبقى من الكتلة الهامدة من اللحم والعظام الثقيلة، كان هناك الكثير منه لكي آخذه في الوقت نفسه. مع ذلك لم أشعر بالخوف. لم أشعر بأدنى قلق بأني قد أتورّط في موته.

Twitter: @ketab_n

لم يصدر عنه صوت حتى الآن. ولا حتى أي محاولة. كان جسده أشبه بالطقس في بعض البلدان، ينتقل من طقس حار ومشمس في لحظة، ويهبط إلى أعماق الشتاء في لحظة أخرى. هل كان هناك أدنى أمل ولو واحد في ترليون بأن كلّ هذا لم يكن كما كنت أتصوره؟ لأنه كان يوجد جزء منه لا يزال ينهض، يرتفع، يتصلّب، يهزّ رأسه بإيماءة تدل على وجود قوة حياة فيه. كان قضيبه في حالته الممتلئة. هالوليا! لقد انتصب، برج بيزا قائماً. هل من الممكن أن يوقف الموت وظيفة أعضاء الرجل وأطرافه الأخرى جميعها ماعدا قضيبه؟ فتشت في ثنايا ذاكرتي التي زال عنها الغبار عن حالة قرأتها في قصة، أو في الحياة الحقيقية حيث عاش فيها قضيب رجل بعد أن سلّم الروح. في الفيلم الياباني، إمبراطورية الأحاسيس، ينهار الرجل وهو في غمرة المضاجعة. لكنه هل يفقد تصلّبه؟ أمسكت انتصاب نونو بيد، ورحت أفرك حشفته المنتفخة كالفطر باليد الأخرى، محوّلة لطخة وحله إليّ.

تخيلت المستقبل، ورأيت طفلة رضيعة، طفلتي. يمكنني أن أسمع نفسي في خيالي وأنا أحدّث صديقاتي كم ساعة نامت في الليلة السابقة، وكيف أني أرضعتها جيداً. أمتعهم بالحديث عنها، ابنتي الوحيدة والفريدة من نوعها في هذا الكون. أبهجني كثيراً أن أصاب بهذه الهلوسة الممتعة. والآن رحت أرقب نفسي وأنا أنزل من سلّم الطائرة بعد حوالي عشرين سنة، لأعيد ابنتي. في زيارتها الأولى إلى الأرض التي ولدت فيها. طفلة من بذرة نونو، التي صعدت في داخلي كالخميرة لتصبح معجزة حيّة. هل أعرّفها على نسبها بالدم، إلى نونو؟ لا. فأنا لا يهمني إن مات، أو ماذا سيحصل لياقوت وداماك. لقد حصلت من نونو على ما كنت أصبو إليه، سيكون للعدد الملائم من الحيوانات المنوية القوة الكافية. كم أشعر بالراحة وأنا أمشي في هذا العالم التخيّلي، أضيع في متاهة متعتي الكبيرة، أمومتي.

Twitter: @ketab_n

ثم جاءتني أفكار مظلمة كليلة خصبة، أطبقت عليّ، وتمكنت من أن أخلق في عقلي شيئاً يشبه الكسوف الجزئي. وفي لحظة تتغذّى الشمس على نفسها، مثل أمّ طير تأكل فرخها، وفي لحظة أخرى يتوهج القمر الذي لم يظهر وجهه على حكمته الأسطورية.

ثم أجفلت: لأن نونو تكلّم.

قال: «إلمسيني أكثر».

عندما لم أفعل ذلك، أخذ يدي ووجهها نحو العضو ذاته الذي لم يكن قادراً على ممارسة إرادته، القرار بأن يموت. وبإذعان تام، لا أعرف لماذا، التفت أصابعي حول انتصابه كعلم يلتف بقوة حول سارية. أمسكت برأس عناده الذي كان ينبض في قبضتي المترددة. تركت قلب قضيبه يصعد ويهبط. تركت طاقة نهمه الخام تتنفس فيّ، مثل حنجرة سحلية. وكما كان متوقعاً، بدأ ينبض بالحياة. إي هيا، كما يمكن أن يصيح إيطالي. إي هيا!

من الغرابة أن أبدو أقرب إلى نونو الآن أكثر من أي شخص آخر في أي وقت كان. ومع ذلك فقد كرهت الرجل، كرهته بشدة، ولم أكن لأتردد في أن أغرز سكيناً على ذنوبه كلها، في اللحظة التي أنهينا فيها هذه المضاجعة. بالتأكيد، كان هناك جزءاً مني وجلاً من قوة فصاحته. قال: «كلّ ما يفعله الموت هو أن يحرمك من الفرصة في إعادة اختراع حياتك كما تعيشينها. لأنك عندما تموتين تتوقّفين عن الحلم». لست متأكدة إن كنت قد أسأت اقتباس كلماته أم أني كنت أقتبس كلمات شخص آخر، لعله تيمير. «يجب أن تكوني راضية بأحلام الآخرين، برؤاهم التي لم تستمرّ فيك». هل سيجلب موته فجوة؟

متثائباً بالرغبات المخدّرة لرجل يأخذ حصته من القيلولة من أحلام اليقظة، طرح نونو سؤالاً. «هل العيش هو الحقيقة أم الموت؟»

Twitter: @ketab_n

لم يغمرني شعور بحزن فظيع. لكني لم أكن أعرف من سيسعدني أكثر، نونو الميت، أم نونو الحيّ.

ازداد انتصابه صلابة، تمدد وملأ جميع أطراف راحتي المفتوحة. أحسست بأني منتهكة، أحسست بأن جسدي كله أصبح محتلاً. شعرت بغصة، وكأني أتناوله في فمي. كان ثمة شيء يشبه صوت الحشرجة في حنجرتي، مجموعة من الأصوات، مخاوف تريد أن تلد.

لو كانت هناك استمرارية بالمعنى الذي فهمته الآن، لأمكن اكتشاف الحقيقة في انتصاب نونو. تذكرت التماثيل في الساحات التي تهب عليها الرياح، تماثيل أصبحت بنية اللون بسبب ذرق الطيور، ملطخة بالدم بمحاجر مفقوءة. تذكرت جميع خيانات التاريخ، كلّ أنواع الغدر. قلت لنفسي إنه لم تنصب لذكرى النساء سوى تماثيل حجرية أو منارات قليلة جداً، وإن معظم التماثيل تشبه القضبان. يا له من شيء سخيف: الاستمرار في حقيقة انتصاب نونو!

قال: «إني أتألم كثيراً!»

تركت انتصابه. وسألته: «أين تتألم؟»

قال: «تؤلمني عيناي. في لحظة يكون صيف، وفي لحظة تالية يصبح شتاء، فرصات جليد لم يعرفها العالم». كان قد ارتخى. هكذا إذن. بعد كلّ هذا الجهد الذي بذلته لأجعله منتصباً، ها هو يفقد الحياة الآن. تساءلت إن كان ثمة شئ يمكنني أن أفعله له.

«إلمسيني» قال.

«أين؟» سألته.

«أيقظيني».

أذعنت له. فتح عينيه مع أجمل ابتسامة. لكن لماذا لم تظهر لي عيناه وكأنهما المصدر الرئيسي لآلامه؟ كانت لدي هموم دنيوية أخرى،

Twitter: @ketab_n

وتمنيت أن أتمكن من الوقوف على قدميّ، وأرتدي ثيابي بسرعة وأغادر. لكني لم أستطع. أحسست بأني سأشهد حدثاً بالغ الأهمية.

ولما كنت صادقة مع نداء جسدي الأنثوي، كنت أحتاج إلى وقت كي أسترخي، مذكّرة نفسي بوجود رحم ينتظر. الرحم لعنة، المرأة رحم، المرأة لعنة، إحساس باقتراب حدوث أمر مشؤوم. أصبحت وجهاً لوجه أمام المعضلة المعتادة، قلبي يريد شيئاً، وعقلي يريد شيئاً آخر. أحسست وكأن المرأة فيّ لم تكن تعرف ما كنت أريده، وكأن الشخص فيّ لم يكن يرغب في أن تكون له علاقة مع نونو.

«كيف حدث وأن عينيك تؤلمانك؟» سألته.

«عدنا في طريق طويل، أنا وعينيّ»، قال.

«صحيح؟ كيف؟»

قال: «عدنا إلى أيام مراهقتي، عندما نشأت في مدينة بربرا في الشمال، وكنت أدرس لأصبح عالماً في القرآن. عدنا، أنا وعيناي، إلى يوم محدد خلال لحظات قاتمة وضع فيها قدري لعنة على نفسه».

«لعنة؟»

«لعنة مدمّرة بقوة اندفاع شبابي»، قال. «كان عليّ أن أهرب من غضب عام، فهربت جنوباً، وانتهى بي المقام هنا على ضفة نهر شابيل. كان هناك موت. كان عليّ أن آخذ على نفسي بعض العهود، التي إذا نقضت، فهذا يعني وقوع لعنات أخرى، ربما كان عمى جزئياً!»

ومع أني كنت قد انجذبت إلى الحكاية وراويها، لم أقدر على متابعتها. ونظراً لجدية المسألة، اعتبرت أن جزءاً من الشرف الذي التزم به هو أن أستر عريّ. لم أكن واثقة إن كانت الملائكة التي يقال إنها تتنصت على الكلمات الأخيرة للمحتضر ستراني بالطريقة التي كنت فيها، امرأة ذات جسد مترهل.

Twitter: @ketab_n

لا تهم الذنوب التي ارتكبناها أنا ونونو في نشوز فاضح للعقيدة الإسلامية.

فتح عينيه قليلاً عندما قال: «لقد هزمتني اللعنة، شعرت بالمهانة لأنه كان لدي الخيار في أن أهرب منها، شريطة أن أكون صادقاً مع العهد. بأن لا أشتغل في السحر مرة أخرى».

أدركت كم أني أجهل الكثير عن ماضي نونو. أدركت أن القليل الذي أعرفه عنه لم يكن مساعفاً كثيراً. وكان القرويون الذين يعيشون معه يقولون إنه كان قادراً على التأثير على الطيور، التي كان بإمكانه أن يجمعها حينما يشاء. وأشيع أنه كان يتكلّم مع الطيور بلغتها، كما كان يفعل الملك سليمان.

اعتدل في جلسته، وكانت عيناه لا تزالان نصف مغمضتين. لا أعرف ماذا حصل لي، لكني شعرت بالرغبة في المداعبة. ألقمته حلمة ثديي بفظاظة. لعله كان رجلاً في عقده الثامن يتذكّر أول رضاعة له، كان لسانه نشيطاً مثل حركة نبضه. حلمتي تدخل في فمه وتخرج منه وهكذا. ولم يكن ليتركها حتى بدأت تتدفق رطوبة شهوتي.

عندها انتصبت واقفة.

استلقيت فوقه بشكل عرضاني. شكّلنا صليباً، سبّابته في داخلي، ويدي تقبض عليه بقوة. ألقى برأسه إلى الوراء وكأنه يستمتع بذلك، وسأل: «هل يمكنك أن تضعي أذنيك بالقرب من صدري وتقولي لي ماذا تسمعين؟»

«يمكنني أن أسمع جداول ماء تنحدر من علٍ». قلت، «مثل قوة الماء التي ترغي في فمي في شكر لقوتها».

بانزعاج اتهمني بأني لا أقول الصدق.

«ماذا تتوقع أن أسمع؟» سألته.

Twitter: @ketab_n

كانت قسماته تلمع مثل حصى متفكك بعد أن هطلت أمطار في الصيف. قال: «كنت أتمنى أن تسمعي حكمة تقول إن الموت ما هو إلا تحوّل في التركيز!»

«في ماذا؟»

«تحوّل في التركيز!»

لم أفهم قصده. قلت له ذلك.

واصل قوله: «كنت أتمنى أن تؤكّدي أن الموت في دوّامة حطام متناثر ويندفع كشلال. أي أنها في بخار سراب مقطّر».

تساءلت إن كان يكرّر على نفسه خطابات من مشاهد عمله بالسحر. هل كان يتدرّب على دوره وفقاً لنمط معين من الكلام المتبادل، كجزء من أحد شعائر افتداء الذات؟

قال: «كان أحد معلميّ يقول، إن الموت ليس ناراً منبعثة، أو وهجاً يفقد بريقه. بل إنه يشبه قشرة ليمون، جفت الآن واصفرّت عند الحافات. وكان أحد المعلمين الموقرين يقول إن الموت بيضة فاسدة».

نهض على مرفقيه، ودفع رأسي بفظاظة نحو انتصابه، وقال: «الموت هو المتقشّف، إذا عصرت فاكهة ناضجة».

سألته: «هل يمكن أن يكون الموت منح قفل؟»

في الواقع انضممت إليه في لعبته، وأصبحت مستعدة للمشاركة في تعاريفه، مما أبهجه فأخذ رأسي بين يديه وأمسكه. قبّلني على جبهتي. مارسنا أكثر أنواع الحبّ نهماً وضراوة. قذف فيّ بدفقات هائلة، وكانت تصدر منه أصوات قبيحة تشبه الغرغرة التي يحدثها محرك ديزل عندما يشغّل لأول مرة في الصباح. أراد مرّة أخرى، ومرّة أخرى وأخرى. وفي لحظة ما نهض ليذهب إلى الحمّام. وخطر لي آنذاك أنه كان يتحرّك ببطء غير صحي لرجل يعاني من ارتفاع نسبة الشحوم في دمه.

Twitter: @ketab_n

سألته: «ماذا يعني كلّ هذا الكلام عن الموت؟»

قال: «عاصفة تعصف في داخلي منذ أن وصلت. رأسي يلفّ ويدور، ورئتايّ تعملان بجهد وغضب. وأرى منذ أيام زوبعة متصاعدة من الغبار، كالامان، الدرويش المجنون يرقص على أنغام ناي سرية. إنك من وضع سبّابته على الفتحة، أنت من حركت هذه الريح الشريرة، أنت من أحدث كلّ هذا الصخب».

بدا أن ألماً داخلياً كان يمزقه، تدفعه قوة ما سيقوله. كان ثمة قلق في صوته، «المرأة التي تُحذِّر، تسلم» ثم سمعت طنين ذبابة تخشى أن تجثم في أي مكان. أم أنها كانت نحلة، حُبست في كأس مقلوب رأساً على عقب؟

قلت، «في هذا الجوّ الذي ينز بالخوف والتوتّر، هل أنا من يحرّك الغائط؟ أم أنا ضحيّة لظرف ما؟ لماذا تتفوه بمثل هذه التهديدات؟»

قال: «أرجو أن لا تأخذي الأمور على نحو شخصي».

استلقى على ظهره، متخذاً يديه كوسادة. هل غطّ في النوم؟ ها قد حانت فرصتي. وعندما انسللت خارج الغرفة، تذكرت حكاية الراعي العربي ذات الحكمة الشعبية الإسبانية الساحرة: جثّة واحدة، ثلاثة أسرار حيّة. استعدت ثيابي الداخلية من بين الشراشف المجعدة، وأخذت حمالة صدري من تحت السرير. انحنيت لأستعيد فرشاة شعري، وأنا أكرّر القول المأثور لنفسي: جثّة واحدة، ثلاثة أسرار حيّة.

غادرت بهدوء مثلما جئت، وخشيت أن تلحق بي حقيقة انتصاب نونو، مع عدم ذكر موته، قبل أن أكون مستعدة لأن أقرّ بذلك.

بدأت أحكّ!

بدأت أحكّ في المكان الذي لم يكن من اللائق أن أحكّه، بين ساقيّ!

Twitter: @ketab_n

أخذت أحكّ في بقعة بين فخذيّ. كان من الصعوبة بمكان الوصول إليها. وكان من المستحيل تجاهل هذا الأمر وأنا أقود سيارتي المستأجرة في طريق ضيّق يدعى الطريق السريع الذي يتطلّب كلّ تركيزك، وإذا لم تكن تريد أن ينتهي بك الأمر في خندق على قارعة الطريق، أو بين الشجيرات المتناثرة على جانبي الطريق. كم كنت أتمنّى أن أتخلص من قلق الحكّ في أفكاري، أو أن أحك بين فخذي بأظافري المدببة.

قال: «هل تبقين قليلاً إذا طلبت منك ذلك؟»

كنت أعرف أنه كان ينبغي لي أن أفعل ذلك، لكني قلت له لا. فقد حصلت على ما أريده، بفضل الهور ـ غور الذي فعلته، بفضل الاغتصاب الذي استرته، امرأة لرجل.

اقترح نونو أن أستلقي بجانبه «لمصلحتي».

قلت: «بكل هذه الصفاقة».

قال: «أرجوك، من أجل الطفل».

قلت له: «إنك لقيط عقيم. إني ذاهبة. فقد حصلت على ما أتيت من أجله، لقد أوقعتك، ولم أعد أقتنع بكلامك».

قال: «ابق. . . من أجل الطفل».

قلت بتحد: «ألا تسمع؟ ألا تعرف المثل القائل إن جلد الضفدع، مهما بقي مغموراً في المياه، لن يصبح ناعماً؟ إنك لن تتغيّر. أنت وهواجسك، نزوعك نحو الأسرار، ميلك للاحتفاظ بها، تتظاهر بأن هذا لمصلحة المجتمع. إنك تعرف عيب شعبنا؟ عندما لا توجد عدالة فردية، لا توجد عدالة في المجتمع، وبالتأكيد لا توجد إمكانية للديمقراطية. إنك قاتل، هربت إلى الجنوب. أما أنا فمن أوغادين، جئت إلى الجنوب. إني آثمة، أُطعمت للذئاب. إكبر، أيها الرجل العجوز. خذ كلامي هذا كدرس أول لك».

Twitter: @ketab_n

لا تستطيعين أن تقنعيه بأن يتركك عندما يعزم على شيء. قال: «وسيكون من سوء طالعك إن ذهبت. أنصحك بأن تبقي في وضعية أفقية».

«لماذا؟»

«لكي لا تهدرينه كله».

قلت: «إنك تفقد أحاسيسك بشيخوختك».

«إني أعرف ما أتحدّث عنه».

ذكرّني بحكاية صومالية اتهم فيها زوج أحمق زوجته بأنها أجهضت العديد من أطفالهما لأن مهبلها يتجه نحو الأسفل.

قلت: «إلى اللقاء، يا دودو».

«ثقي بي أيتها الشابّة»، قال محذّراً، «إني أعرف ما أتحدّث عنه». عندما لم أعر نصيحته أي اهتمام، كرّرها بإسلوب مختلف قليلاً. «اسمعيني كرمى لما فعلناه».

امتدت يده لتلامس يدي، لكني تجنبت ملامسته وابتعدت. لم أكن أعرف ما أدخله الشيطان في رأسي، لماذا لم أشأ أن أستمع إليه. فقط أردت أن أبتعد.

«إلى اللقاء، أيها الضرطة العجوز»، قلت باستهزاء.

ثم بدأت أقطر!

بدأت أقطر مثل حنفية يتسرب منها الماء ببطء. ثم أخذت أحكّ أكثر بكثير من قبل وبشراسة، خدش ذو شعر بين فخذيّ، وكأن حشرة تسللت إلى ثيابي. لم أعرف كيف أضع قدماً قبل الآخر. وفي محاولة مني لاحتواء التدفق أطبقت فخذيّ معاً. تهاديت خارج الغرفة، وباطن فخذي يحتكان ببعضهما. كان فخذاي وهما يتلامسان يصدران صوتاً يشبه صوت بطّة وهي تمضغ كرة مطاطية. تمنيت أن أكون قد أصغيت إلى نصيحته.

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى سيارتي وقدتها لفترة من الزمن. أحسست بالضيق وعدم الراحة مثل شخص ينام على سرير بال فيه شخص آخر. شممت رائحة كريهة جداً تنبعث من بين فخذي، وتساءلت إن كنت سأسيل كما تسيل حنفية الماء، إن كان سائلي الأنثوي سيتدفّق ويصبح شيئاً ميتاً.

ما أن دخلت شقة كالامان حتى هرعت إلى الحمّام مباشرة. لحسن الحظ كان خالياً. وقفت تحت الدوش بكامل ثيابي. كان الماء يغلي، وأخذت دفقات من الماء تتدفق عليّ من كلّ اتجاه. رحت أفرك الأجزاء التي تحكّني من مكمن أنوثتي بليفة يرجح أنها تخص كالامان. أغلقت الدوش، ودهنت كلّ شقّ وثنية في جسدي بالزيت، ودهنت الفازيلين على أقل الفتحات المكسوة بالشعر. وعندما لم أرتح من هذه المحاولات، فكّرت بأن أرش جسدي بمبيد الحشرات. لكني قرّرت أن لا أفعل ذلك، ورحت اغتسل واغتسل، وكرّرت العملية ذاتها ستّ مرات. جفّفت نفسي، وأخذت أغسل بقايا البقع التي خلفّها نونو أكثر فأكثر. كنت أنزّ. ضممت ساقيّ معاً كما تفعل فتاة صغيرة أجريت عليها عملية ختان قاسية مؤخراً. لم ينفع أيّ من هذا. واعترتني الآن شكوك كثيرة بالفكرة بأنه لا يزال الجنين في داخلي، وانسلت مني الفكرة كمادة مسروقة أعيدت إلى صاحبها الشرعي. ودخلت في روعي فكرة مخيفة وهي أن كراهية نونو لي كانت كبيرة إلى درجة أنه أفرغ فيّ حيوانات منوية تغصّ بالحشرات. يا لها من عدالة مبتذلة.

ساد الشقة صمت. استمر السائل اللعين ينزّ مني بدون توقّف. كدت أجنّ وأنا مفعمة بكره ذاتي. كنت على مسافة مترين تقريباً من باب غرفتي عندما بدأ الهاتف يرن، لم أتمكن من أن أبعد عني الإحساس بالوجل.

وصلت إلى غرفتي أخيراً. كان كل شيء هناك يفوح برائحة البلغم الذي ينزف مني. ولزيادة الأمور تعقيداً، كانت هناك لسعة كالفلفل ترافق

Twitter: @ketab_n

عملية الحكّ. تعريت تماماً، ورحت أتدحرج وأتدحرج مثل بقرة تتمرغ على الرمل الحار بعد أن ارتوت من عطشها. لكن التمرغ في حرارة الرمل لم تجد نفعاً. كنت الآن مفعمة ببغض الذات. التقطت الأجسام ذات الحافات الحادة، أقلام رصاص، أقلام حبر، أيّ شيء على شكل قضيب. ورحت أخدش وأهرش.

ولكي لا ينتابني شعور بالدوار، قرفصت قليلاً ورحت أمزّق بجنون داخلي وأخربش بمخالبي داخل جدران فرجي. ثم شممت رائحة غريبة ذكّرتني بدم الحيض. وأخيراً سمعت صوتاً قبيحاً واهياً مبللاً، مثل حذاء صمغي يلتصق بقاع مستنقع.

هل ملأني نونو ببغض ذاتي؟ هل كان جسدي يرفض أن يبقيه؟ إن الفكرة بأن جسدي كان يقاوم سمّ نونو منحني إحساساً قصير الأجل بالراحة، لحظة من الراحة. وسرعان ما رأيت شكل السائل الذي ينز مني: نسيج عنكبوت محفور في باطن فخذي. خطرت لي بعض الأفكار السيئة وأخذت تقرع بقوة باب رأسي. لا يهم، لن أتحدث عن هذه الأمور!

شغلت نفسي بحزم أمتعتي حالما توقّف النزيف الغامض. بدأ ظهري يؤلمني، وكان فخذاي ملتصقين معاً بمادة غروية، وكان رأسي يخفق بألم التفكير. فقد وجدت صعوبة في التحرك، ووجدت التجربة كلها مزعجة للغاية. قلت في نفسي، كم كنت حمقاء عندما لم أعر أي اهتمام لما كان سيقوله نونو!

ثم سمعت صوت المفتاح في الباب الخارجي. وكانت هناك خطوات ثابتة أولاً، ثم مترددة. كان كالامان يتساءل إن كنت موجودة. انتظرت قليلاً وتركت فترة من الزمن بين الفترة التي دخل فيها، والوقت الذي أعلمته بأني في غرفة الضيوف. وبعد قليل، انضممت إليه هو وتالادو في المطبخ.

Twitter: @ketab_n

كانت ساقا وذراعا كلّ منهما متشابكة في الآخر، كلّ منهما يداعب الآخر. أحدثت شيئاً من الجلبة قبل أن أدخل إلى المطبخ. لم ينفصلا إلا بعد أن أصبحت فوقهما.

«هل هناك مشكلة؟» قال كالامان.

قلت: «إني أحكّ».

لم يكن متأكداً إن كان سمع ما قلته.

«أنتِ ماذا؟»

«أحكّ»، كرّرت.

بدا مضطرباً. نظر حول نفسه بحزن. بدا قلقاً للحظة أو لحظتين، ثم هزّ رأسه وكأنه ينظف سدادات عدم الفهم، الأشياء التي تسد الممرات المفضية إلى مركز دماغه. كان حفيد نونو بالتربية. قال: «هل يمكنني أن أسأل سؤالاً غبياً؟»

قلت: «أرجو أن لا تسألني في أي مكان أحكّ».

لم يسّره سماع ذلك على الإطلاق. أما تالادو فبدت غير مهتمة. جلست وراحت تنظر من باب المطبخ، غير مكترثة. إني أكره النساء الغيورات بهذه الطريقة المغناجة. شعرت بالحقد وقررت أن لا أدعهما يتمتعان بمداعبة بعضهما، وأنا بائسة. قلت: «وتفوح مني رائحة كريهة».

«هل من الوقاحة أن أسأل أين يوجد القمل؟»

قلت: «إنك حمار مغرور، وأنت تعرف ذلك».

سأل: «لكن أين القمل؟ هل يمكن أن يكون سبب حكّتك؟» بدا مسروراً كثيراً بنفسه.

غيّرت الموضوع وقلت: «ألن تقدم لنا شيئاً من الشراب؟»

أصبح المطبخ صغيراً جداً بالنسبة له وهو يتحرك فيه، فتح الثلاجة، وأفرغ الرفوف من نصف محتوياتها، ووضع كلّ القناني على الطاولة أمامي مباشرة. «ماذا تحبين؟»

Twitter: @ketab_n

قلت: «أريد ان أحتفل».

فقال: «هذا رائع». ومدّ يده إلى زجاجة النبيذ الإيطالي، التي لا بدّ وأنها كلّفته مبلغاً كبيراً إذا كان قد اشتراها من مقديشو، حيث المشروبات الكحولية باهظة الثمن. أخذ يد تالادو بيده الخالية وقبّلها.

«لماذا لا تسأل بماذا أحتفل؟»

أخذت أنظر إليه وهو يبحث عن مفتاح لفتح القنينة.

كانت الأشياء تتفاقم إلى درجة أني أحسست بأنها ستنفجر إن آجلاً أم عاجلاً. لكني قرّرت أن لا أتركه يحدد هو متى ستهب العاصفة وعلى رأس من ستقع.

قال: «في الروح فقط، يسعدني أن أشاركك الاحتفال مهما كان الشيء الذي تحتفلين به»، وأضاف: «ولن أبخل عليك بزجاجة من النبيذ الإيطالي، التي كان يجب أن أقدمها لك في اليوم الذي تسللت فيه إلى شقّتي وشؤوني الخاصة».

نظرت نحو تالادو، ولم أكن متأكدة إن كانت ستشاركنا، وتساءلت إن كانت تحتسي نبيذاً أم أنها لا تلمس مشروباً كحولياً على الإطلاق. لكني يجب أن أقول إني فوجئت عندما سمعته يقول: «أخشى أنه لا يوجد لديّ نبيذ».

قلت: «إنك مزعج».

قال: «أريد أن أنام مبكراً، والنبيذ الأحمر يصيبني بصداع ويزعجني في صباح اليوم التالي».

«لماذا، ماذا سيحدث غداً صباحاً؟»

فقال: «لعلك نسيتِ أن تيمير سيتزوج غداً صباحاً؟» إن كالامان رجل لطيف، ولن يضع مزيداً من الملح على الجرح الذي ساعد في نكئه.

قلت: «لا أعرف إن كان قد عثر على امرأة».

Twitter: @ketab_n

فقالت تالادو بسخرية: «الأشياء التي تنسيها عادة».

قلت: «لكني لم أنس مثلاً أن أبويّ هذا الشابّ ليسا متزوجين، وأنه ليس ابن ياقوت الحقيقي».

لم يصدر أي رد.

كان في مزاج مرح للغاية. سأل: «بماذا تحتفلين؟»

لم يكن حديثي معه موفقاً.

قلت: «لقد عدت لتوي من بيت نونو».

«كيف حاله؟»

قلت: «لقد استمتعنا كثيراً».

ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا، وقال: «مشكلة نونو أن كلّ من يلتقي به يستمتع، سواء كان الجو مشرقاً أو ممطراً. إني سعيد بأنه جعلك تتسلين».

هنا فكّرت بأن ألعب هذه الورقة الرابحة ذات الشفرة السرية الراسخة منذ زمن في عائلة نونو. بمعنى آخر، لن أبيح بالسرّ لكي لا تلكه الألسن في المجالس الخاصة، حتى لو تحدثنا عن أشياء أخرى قد يكون أو لا يكون لها علاقة وثيقة بالموضوع الذي نتحدث عنه.

«لقد أمضينا وقتاً رائعاً، أنا ونونو».

بدا مندهشاً. «صحيح؟»

قلت: «فعلنا ذلك إلى أن حدث عائق من نوع أو آخر حجب رؤية الرجل»، وأضفت، «ويمكنني أن أقول أن العوائق لم تكن مؤاتية. إنه لشيء فظيع أن يكون المرء عجوزاً وأعمى أيضاً».

ثم أخذ السائل يقطر بشدة.

في هذه الأثناء طاردت كاالامان فكرة مثيرة للقلق. أشكّ بأنه فهم ما كنت أتحدث عنه، لأنه استوى واقفاً على قدميه على الفور، واستعد للذهاب إلى أفغوي في الحال.

Twitter: @ketab_n

«كان وسيماً أيضاً، وثقيلاً في الأسفل». قلت ذلك بتهكم لأزيد من عذابه، ولأجعله يدرك بأني ضاجعت نونو، عندما لم يرضخ كالامان لطلبي في أن يمنحني طفلاً.

من الواضح أن القلق كان قد بدأ يتملكه. جلس كالامان على الكرسي الذي جلست عليه أمّه عندما انحلت ركبتيها فجأة.

ذكّرني بأمّه، كان جسمه مائلاً إلى أحد الجانبين. كان خائفاً على نحو رائع. ثم نهض فجأة بحيث قلب الطاولة التي كنا نجلس إليها، ومالت زجاجة النبيذ إلى الأمام. لكني أمسكتها في الوقت المناسب.

«كالامان؟» قالت تالادو.

«نعم؟»

«لقد نسيت أن تذكر الإشاعة حول تيمير»، قالت، وهي تنقل بصرها منه إليّ مثل فتاة صغيرة ترفض أن تشي بسرّ بناتي.

«ماذا عنه؟»سألت بقلق.

«رجل يطابق وصفه وصف تيمير»، قال كالامان، «تفجّر وهو يقود سيارته المستأجرة. وتقول الإشاعة إنه مات».

جلست صامتة لوهلة، ثم رحت أتحدث بمرارة عن أخي غير الشقيق. «لماذا عليه أن يموت اليوم؟ لماذا لم ينتظرني حتى أغادر؟» «ليتكِ لم تأتِ»، قال كالامان متلعثماً أخيراً ومال بفظاظة إلى الأمام وكأنه يريد أن يلطمني على وجهي. خرج من المطبخ، ربما كان يتمنى أن يخرج من حياتي إلى الأبد.

تبعته تالادو كما تتبع امرأة حمقاء عاشقة الرجل الذي تحبه.

«ربما لا أكون هنا عندما تعودان»، قلت لهما. «سأغادر صباح الغد، تذكرا. شكراً لأنك استضفتني، واشكر نونو من طرفي أيضاً».

Twitter: @ketab_n

عاد كالامان ووقف عند باب المطبخ. جعل فواصل متباعدة بين كلماته لكي لا يتلعثم. «ربما كنت تريدين أن تخبريني بشيء».

«ماذا؟» قلت، متلهّفة لأن أخبرهما بأني ضاجعت العجوز.

صُدمت عندما سمعت كالامان يقول: «كيف دخلت إلى شقّتي في اليوم الأول، بدون مفتاح، ولم يسمح لك أحد بالدخول؟»

«إنك رجل مزعج»، قلت.

غادر هو وتالادو دون أن يودعاني.

أخذت أحكّ. أصبحت وحدي.

Twitter: @ketab_n

الخاتمة

وقف نونو وهو يرتدي عباءة حريرية واسعة، ميمماً صوب مكة المكرمة.

كان يصلّي. كانت المرة الأولى في حياتي التي أراه فيها يؤدّي أهم شعيرة من شعائر الإسلام. كان يغمر الغرفة نور متقد، وكأن نونو يريد أن يثبت أنه جدير بكلمات التقوى التي تنبعث من شفتيه، للاتصال بالخالق الأعلى.

عندما يصلّي، كانت قسماته تصبح رحبة، وكان يذكّرني برجل أعمى يتعرف من جديد على ما يحيط به، في ظروفه الجديدة. وقفت خارج الباب، أرى دون أن أُرى، فلم أكن سوى ذبابة تقف على الجدار. رحت أراقبه مسحوراً.

وفيما أخذت أستوعب أهمية ما يحدث، تذكّرت نونو عندما قال منذ عهد قريب إنه من طبيعة العقد أن تنحلّ وتنفكّ، ومن طبيعة الأشياء المدفونة أن تُكشف مع الزمن. هل نخلص من هذه الأقوال إلى أن من طبيعة البشر قبول التواضع في التعبير عن الذات في العبادة في لحظات الأزمات الشخصية والوطنية، وعندما نصبح على حافة الموت، وعندما تصبح أمتنا على شفير الهاوية، وعندما تكون البلاد في حالة من الاضطراب والقلاقل، وعندما تصبح القارة أرضاً خراباً، أرضاً بدون ذكريات؟ هل نسجد لخالقنا نرجو منه العفو والخلاص، وأن حياتنا قد

Twitter: @ketab_n

أصبحت على الطريق القويم، بينما كنا، ولسنوات طويلة، نتقعر في حديثنا عن خداع الذات، ونتحدث عن الولاءات العائلية ونقدّم عليها مصالحنا الشخصية؟

غمرتني هذه الروعة والخشوع من النور الذي هبط على نونو وهو في مرحلة الوداع إلى حد أن توازني بدأ يختل. اعترتني رغبة جامحة في الانضمام إليه. لكني ترددت، مستعيداً صوت شولونغو الشيطاني في ذاكرتي. تساءلت إن كانت رؤيته وهو يتعبد تعكر صفو شخصيتها العفريتية. قد لا أعرف حقيقة ما حدث بينهما، بسبب ميل نونو إلى كتمان السرّ، وميل شولونغو إلى تسريب الأكاذيب والفضائح.

انتظرته حتى يحلّ نفسه من جميع ذنوب السنوات التي عاشها. خرجت إلى الليل. رحت أصغي إلى الليل وهو يتحدث إلى نفسه بلغات الطبيعة المتعددة: الأشجار ترقص في روعة الأعشاب الخضراء، عواء الحيوانات الثديية باللغة التي تتزاوج فيها، النهر يبذل كلّ ما بوسعه، يذهب حيث يأخذه المدّ؛ والقمر يراقب انعكاسه في سكون الماء. وحسب ما رأيته، وما سمعته، وما أحسست به، عرفت أن مومو كان على ما يرام، وليس ثمة داع للقلق.

سمعت الريح الليلية تنادي اسمي. كان واضحاً وضوح صوت قرع الجرس الذي يحمله جمل. نونو يناديني. دمدمت ردّي. تساءلت إن كان ثمة شيء. فقد أقلقتني طبقة صوته. كان جافاً، يتكسّر كالخشب بين فكيّ النار. قلت لنفسي إن صوته فقد مزيّته كطائر نقّار الخشب. دخلت مجدداً، ووجدته ينتظرني. كان يقف بانتصاب. لم يكن يصلّي. وكانت حصيرة الصلاة مسندة إلى الحائط.

تحرّك باتجاهي بهدوء. ومن الطريقة التي كان يمشي فيها، عرفت أن ثمة شيئاً ليس طبيعياً، فقد كان يميل إلى الجانب قليلاً. تعانقنا. وبينما كنا نفعل ذلك، أمعنت النظر فيه: كانت عيناه تؤلمانه. فقد كان يميل

Twitter: @ketab_n

بجسمه مثل شخص يعاني من رقبته المتصلّبة. أيقنت ذلك، لكني أمعنت النظر فيه. نعم، فمن الزاوية التي كان يميل فيها رأسه، كان وكأنه يريدني أن أبقى في مجال رؤيته.

جلسنا.

بعد أن بدأ يصلي، أضحت الغرفة تبدو مختلفة الآن. استغرقت بعض الوقت لأعرف السبب. لقد غيّر أماكن الأثاث لكي تتلائم مع وضع نونو في العبادة. ولاحظت أيضاً كيف كان يقف بعيداً عن الأثاث حوله، كما ينحو الذين لا يبصرون، لمنح الغرفة حيزاً أوسع.

قلت: «تعال». قدته إلى الزاوية حيث يقبع سريره. دفع يدي جانباً في اللحظة التي لامست فيها ركبته إطار السرير. أدركت من حركاته سرّ يقظة المبصرين جزئياً. كان فمه يصدر أصوات مضغ بعصبية مثل طفل. بأسلوبه الأخرق وقعت سبحته. استعدتها له. أخبرته أنه دارت بيني وبين أبويّ أحاديث لطيفة. قلت له أن لا يقلق، فكلّ شيء يسير على ما يرام.

سألني: «هل رأيت شولونغو؟»

قلت: «نعم».

هز نونو رأسه، ثم قال: «فليبارك الله هذا اليوم!» أظن أن هذا أمراً جديداً. لم يكن في مزاج «فليلعن الله هذا اليوم». فقد بدأ يصلّي الآن، ولم يعد يرغب في أن يسيء إلى أحاسيس الملاكين، الواقفين على كلّ كتف من كتفي المرء، والمكلفين بتسجيل أعمال الفرد. فليبارك الله هذا اليوم، بالفعل!

سألته: «هل حدث شيء؟»

قال: «عيناي!»

سحبت كرسياً، وجلست بالقرب من سريره. بدأ يتكلّم، وأنا أصغي

Twitter: @ketab_n

إليه. لم تكن في صوته تلك النبرة الحيوية، بل كان أشبه بلوح خشبي بقي تحت المطر طوال النهار. لم يكن فيه جرس، بل مجرد صوت مكتوم منبسط. وكانت نظرته ضعيفة مثل نشارة الخشب. وكأن بربرا، المدينة الساحلية الصومالية، مسقط رأسه، تغلغلت فيه بطريقة ما، أعادت إليه الذوق الطبيعي للجنوبيّ، الذي التقطه ليتلاشى في رفض ونكران ضبابي. فقد تباطأ أسلوبه في الكلام كثيراً. وقد منعني الضغط الذي مارسه عليّ قلقي الداخلي من توجيه أسئلة إليه، أو طلب إيضاحات منه. كان وجهه متورماً، وتنفّسه غير منتظم. وكانت العروق البارزة على ظهر يده ترتعش. كانت بارزة مثل حبات عرق تتفصد من جبين عدّاء يشارك في مباراة ماراثونية.

قال: «عيناي تؤلماني كثيراً».

أمسكت يده اليمنى الكبيرة بيدي. لمست ألماً في الندوب في راحة يده التي تهيمن على الحدود اللحيمة في راحته، التي كانت ناعمة ذات يوم، ورحت أتفحصها بدقة، وخلصت إلى أنه لم تكن توجد ألغاز متعرّجة يمكن أن تطلق عليها خطوط الحياة والقلب والرأس. ولم تكن توجد كذلك أرقام قدسية يبلغ مجموعها تسعة وتسعين، أسماء الله الحسنى.

قلت أطمأنه: «ستصبح على ما يرام».

قال: «فليبارك الله اليوم، فأنا لست طفلاً».

«بالطبع لا».

همس أسراراً لله، أمطر اليوم ببركاته، ولم يكفّ إبهامه عن الصعود والهبوط، وكان يتوقف وهو يعدّ حبات السبحة على مفاصل السبّابة. الظلال تنتشر على خديه بشكل أفقي. سلّم يقوده إلى الأعلى نحو سماوات تقييم الذاتِ الأخيرة. لم يعد الآن ينقطع عن الصلاة. قال: «كنت رجلاً طيباً، إن كنت قد نسيت».

Twitter: @ketab_n

وفي ذاكرتي عن طيبته، تذكرت أبي وهو يحدثني عن زوجة نونو المرحومة، التي كانت تصر على أن لا يغيّر اسمه. وكيف أنها طلبت منه أن لا يرّد على لقبه ما ـ توكاده، وهو وصف استفزازي يعني الشخص الذي لا يؤدي الصلاة. وكانت تتساءل، ماذا لو جاء الملاكان، أنكر ونكير، اللذان ينتظران الميت في ظلام القبر يحملان قائمة بالأسئلة، وسألاه عن اسمه، فماذا سيكون رده ما ـ توكاده؟ بل والأسوأ من ذلك، ماذا لو سألاه عن سبب تسميته ما ـ توكاده؟ ماذا سيكون ردّه؟ وبسخرية، أجابها نونو أنه سيخبر الملاكين الجيدين بأنه مبارك رغماً عنه.

سألته: «كيف حدث وكان سلوكك جيداً؟»

«يدثر الرعد والبرق أعمالي»، قال، وبدا هو نفسه، لا كالأصوليين المسلمين المذعنين، الذين يحرصون على عدم ارتكاب إثم بأي شكل من الأشكال. وتابع قوله: «كنت أحرص طوال عمري على أن تكتنف أعمالي سرية استثنائية في تبجيل احتفالي للقوى العليا».

تذكرت شيئاً آخر، شيئاً كان نونو يقول إنه يشعر بأنه لم يكن مباركاً. وكان يشير بذلك إلى الفترة التي أمضى فيها نصف سنة في سجن في أحد مراكز الأمن القومي حيث تعرض للتعذيب. لم ينكسر رغم معاملته القاسية في وجود مسؤولين كبار. (وذكرت إشاعة نسبت إلى آرباكو بأن نونو كان قد سيق إلى السجن لأنه فاز في مسابقة للفحولة جرت بينه وبين مسؤول رفيع المستوى في هيئة الأمن القومي. وقد فاز نونو «القضيب الرخو» حسب قول آرباكو). وعندما أُطلق سراح الرجل العجوز، سُئل عن السبب الذي لم تكسر الصدمة الكهربائية إرادته، فيما كسرت إرادة الآخرين جميعهم. فأجابهم نونو أنه قاوم أساليب الأمن لأنه كان مباركاً.

قال: «آجلاً أم عاجلاً لن أعود أتمتع بصحة جيدة».

Twitter: @ketab_n

من الغريب كيف أن أحاديثنا بدأت تبدو لي وكأنها تخرج عن مسارها. قلت لنفسي: إذا كانت عيناه مركز ألمه، فإن ذلك يمكن معالجته. لكن من أي شيء كان يعاني تماماً، من أزمة هوية، علماً أنه أضاع بطاقة هويته الوحيدة التي صدرت باسمه؟

ضم عباءته الحريرية حوله. استوى واقفاً ببطء وبجهد كبير. كان يلوح بقامته الضخمة، انحنى قليلاً على الجانب، برج بيزا المائل. أشاح بنظره عني بطريقة فظة للغاية. تساءلت هل أسأت إليه؟ أم أنه كان يستجيب إلى أمر لا يستطيع أن يحدد مصدره. هل كان منبعثاً من داخله، أو من خارجه، هل كان أمراً يرتبط على نحو شيطاني بشولونغو، أم كان أمراً مباركاً بدعم إلهي؟ يبتعد، يتمايل مثل حبل غسيل تهب عليه الريح. خطا خطوة إلى الأمام، ثم أخرى، وكان يبذل في كلّ خطوة جهداً أكثر من الخطوة التي سبقتها. سألته إن كان بوسعي أن أساعده. قال لا. نهضت ومددت يدي إليه رغم ما قاله لي. في هذه المرة لم يطلب مني أن أدعه. أمسكته كما تمسك طفلاً لعوباً، كي لا يفلت مني.

قال: «أكره فكرة الألم».

بقيت صامتاً وانتابني إحساس بالتعاطف معه.

قال: «أكره الألم في العينين»، وأضاف: «فليبارك الله اليوم».

ابتعد ببطء كما يفعل رجل يخوض في مياه مستنقع. كان يرفع قدماً عن الأرض في كلّ مرة، ثم ينزلها وكأنه لن يستطيع أن يرفعها مرة أخرى. رافقته إلى المرحاض. وفيما كان يتهيأ بجهد كبير ليجلس، دفع يدي جانباً، وطلب مني أن أدعه. امتثلت لطلبه. دفعني جانباً. تساءلت إن كان يتعين عليّ أن أنتظره. أصرّ على أن أتركه وحده في المرحاض. فعلت ذلك، وتركت الباب مواربا، عسى ولعل. عدت إلى غرفة الجلوس، منتظراً إشارة أو صوتاً منه. عاد بعد عشر دقائق. صلى لمدة طويلة. راح يتلو أدعيته. توقف عن صلاته، ورحنا نتحدث.

Twitter: @ketab_n

قال: «لقد أصيبت عيناي! فليبارك الله هذا اليوم».

«أصيبت عيناك؟ كيف؟»

«بسبب قطعة ورق بيضاء مسطّرة، أصفرّت مع الزمن، ورقة جعلت الرطوبة أطرافها تتجعد. احتفظت بها قرابة ستين سنة، لا أعرف ماذا ستكون قيمتها ذات يوم. أخذتها عندما هربت إلى الجنوب، وأتيت إلى هنا. في البدء، كانت جافة كالعظمة. فتحتها بحرص شديد، لم أكن أريد أن تتفتت. هناك كنت أتذكّر الرسائل التي نسختها منذ سنوات كثيرة. هناك كنت أحنث بوعد. هناك كنت أسمع أمر شيخي الذي علمني القرآن في ذاكرتي، أسمع لعنته، «جعل الله ذاكرة جريمتك تقبع في أن تفقد بصرك جزئياً».

«ماذا فعلت ليلعنك بهذه اللعنة؟»

قال: «ظن شيخي أني كنت أعبث بكتابات سحرية، لكني لا أتذكر كثيراً بماذا أدانني». لاذ بالصمت، حزيناً.

سألته: «هل عبثت بنصّ سحري؟»

تجاهل سؤالي. «لا أتذكر كثيراً. سوى أنه حدث فجأة انفجار في رأسي، شظايا سطعت بعد حدوث انفجار. ثم هبط ظلام كليّ. مثل مصباح انفجر، وتحطم فبرزت أسلاكه في جميع الاتجاهات. أو مثل الظلام الذي يهبط بعد أن تطفئ ضوء كشّاف. ثم...»

لمست يده. رثيت لحاله.

تابع قوله: «كنت متأكّداً. رأيت يداً في الطرف الذي أرى فيه جيداً، بعد أن اطفئ ضوء في داخل رأسي. ثم زحف رتل من النمل الأبيض ليعيث خراباً. وحلّ محل هذا لغط وضجيج وأزيز نحل. ثم أعقب الأزيز ألماً شديداً انبثق من مكان ما في دماغي. وكأن عرقاً انفجر في رأسي، وحدث نزيف، وفي ثوان معدودة، تغلغل في جميع الأعصاب التي تؤدي إلى محاجر عيني وخرجت منها. بدأ نفق من الظلام يحفر في

Twitter: @ketab_n

رأسي. وقد أثّر ذلك على بصري بشكل كبير قبل أن يحدث انفجار آخر من السطوع ليهزّ الأرض. انتشر النور في كلّ مكان، كان الكون يشبه النور. ثم حلّ ظلام دامس. أفقت أخيراً على حقائق كثيرة في الحال. كدت أفقدت بصري، تماماً كما توقّع شيخي بأنه سيحدث. لقد استنزل اللعنة على عينيّ».

قلت: «أتمنّى لو كنت هنا!»

تابع قوله: «مزّق البرد لحمي».

«هل كان هذا قبل زيارة شولونغو أم بعدها؟»

أجاب: «بعد زيارتها».

انتظرت كي ينهي كلامه. واصل، عاد إلى روايته السابقة، فقال: «كان ثمة قرع للطبول في صدري، وكان رأسي يدور كما يدور أحد الدراويش وهو يرقص بانتشاء حول نفسه. ولم يكن قلبي يضخّ دماً بل ماء، روافد من القلق، شرايين من الماء المتجمّد، فيض من اللعنات سرت في جسمي كله. اصطكت ركبتاي ببعضهما من البرد المنبعث من داخلي، وتورمت قدماي بالسائل المستقر فيهما. انهرت، خيمة انهارت دعائمها، تيبست ساقاي مثل عموديّ بيت بدوي مفكّك. ثم نمت».

ارتسمت الآن على وجهه نظرة مبجلة. ذكرتني محاجر عينيه بأجاص مجفّف في الشمس. كانت كآبتهما عميقتين جداً. كانت التجاعيد عريضة وغير منتظمة كدرب في وادٍ. سألته: «كيف تشعر الآن؟»

قال: «فليبارك الله اليوم، لأن الربيع في مشيتي بدأ يعود. أريد أن أنهض وأتمشى قليلاً عندما أستطيع». لكنه لم ينهض. عندما حاولت أن أساعده، دفعني جانباً. بدا لي أنه يتصرف مثل طفل يطلب شيئاً ثم سرعان ما ينسى ما كان قد طلبه. لاحظت تغييراً في تنفسه، أيضاً مثل طفل ينام وهو يلعب دون سابق إنذار.

Twitter: @ketab_n

أفاق بهزّة مفاجئة في ركبته. أجفل. ابتسم أحدنا للآخر على مضض. تلامست أيدينا كما يتلامس أفراد بعض المجتمعات الأفريقية بأنوفهم عندما يحيّ أحدهم الآخر. سألته: «وماذا عن شولونغو؟»

ارتعش لسانه برعب متوقع. تذكّرت ما حدث بينه وبين شولونغو. قلت لنفسي إنها امرأة جعلت كلّ منا يستفسر عن معنى الحقيقة، وكيف نميّز ما نجده من أصناف الحقيقة الأخرى. قلت إنها كاهنة أتت لا لتشفي، بل لتطرد نوايانا السرية السيئة. قارنتها بفكرة العشيرة: فكرة يصعب تحديدها، فكرة مزاجية، متناقضة، غامضة، تختبر قدرة المرء على أن يظل يتمتع بالصبر في أوقاته العصيبة.

قال: «من الأفضل أن نترك بعض الألغاز جانباً».

نظرت إلى نونو نظرة جادّة. لكني أشكّ في أنه رآها. بدا عليه تعبير غريب، وكأن أحد جانبي وجهه أصيب بالشلل، وبقي الطرف الآخر سليماً. لمست الخدّ الذي أصيب بهذا الشلل المفاجئ، محاولاً أن أتذكّر من شبّه نونو بإمرأة. لأنه صلب في المركز، ولطيف عند الأطراف.

أتقصّى أكثر. «ماذا عن شولونغو؟»

بناء على طلبه، ساعدته في جمع أطراف عباءته حول الجزء الأسفل من جسمه، كي ينتصب في جلسته دون أن ينكشف كثيراً. لكن يديه كانتا تعبثان في منطقة جسمه، التي جعلته يصبح حذراً في أغلب الأحيان.

قال: «تسللت إلى فراشي، وتركتها تفعل ذلك. قلت في نفسي إننا في عالم مقلوب رأساً على عقب، حيث يجمع الأخوة أسلحة فتاكة لقتل أحدهم الآخر، عالم خال من أي إحساس بالمبادىء الأخلاقية، مجتمع لا يعرف الحرام، لا نعرف أين سننتهي وماذا سيحصل لنا ـ سألت نفسي، هل يجدر بي أن أبقى صادقاً مع إحساسي الأخلاقي، بينما لم يعد هناك أحد صادقاً؟»

Twitter: @ketab_n

انبعث صوت طشيش في الخلف، ضوضاء خفاقة، مثل الماء المقطّر في بطارية سيارة تصل إلى درجة الغليان.

واصل كلامه: «عقدنا عهداً يربطنا، أنا وشولونغو، منذ فترة طويلة قبل أن تذهب إلى أمريكا. يعود تاريخ العهد إلى الفترة التي كانت فيها صغيرة، حقاً».

هدأ قليلاً، وظهر الجزء البني في عينيه أكثر من الجزء الأبيض، لكن بؤبؤيه اختفيا عن نظري. قال: «كانت قد وصلت بعد أن غشى بصري الضباب بفترة قليلة. قرّرت أن أكون شهماً. قرّرت أن لا أكترث بهوسها المتركز حول إنجابها طفلاً. فعلت ما يتوجب عليّ فعله. التقينا ومارسنا الجنس في عالم من التظاهر، عالم من الادعاء بالاغتصاب. فقد اتجهت المرأة إلى فراش لا أنام فيه عادة. لماذا لم أطردها؟ لأني كنت أرغب في أن أعفي أسرتنا من أيّ نابسي يتعلّق بالنحس».

وبالكاد كان هناك نور ينبثق من عينيه. بدا صوته نشازاً، مثل جهاز تسجيل ذي بطاريات ضعيفة. لقد آلمني أن أستمع إليه وهو في هذه الحالة.

قلت: «جنون شولونغو لا يعرف حدوداً».

سأل: «أين هي الآن؟»

«في بيتي، تحزم أمتعتها».

«كيف بدت عندما رأيتها آخر مرة؟»

قلت: «كانت تبدو في حالة سيئة».

قال: «كنت أتمنى أن تكون قد سمعت نصيحتي».

قلت أني لم أفهم.

قال: «ربما كان من الأفضل أن نترك الأمور كما هي».

«نونو عما تتحدث؟»

Twitter: @ketab_n

قال: «على أي حال، يجب على المرء أن يكون رؤوفاً بمن هم أقل حظاً منه، فإذا أراد المرء أن يستمتع بثمار الصدفة التي يلاقيها». هل أحسست ببريق في ابتسامته، ابتسامة شيطانية؟

«تساءلت إن كان منشأ روائح جسدها ليس من أصل أسلافها البشر بل من أصل حيواني»، قلت متذكراً حدتها، «كانت تنبعث منها رائحة كرائحة الذئب عندما تسوء طباعها».

هنا أصبحت عيناه بقعاً شاحبة، كالموت نفسه. وبدأ جزء مني يتساءل إن كان نونو يعرف متى سيموت، وإذا كان الأمر كذلك فهل سيخبرني؟ لكن ما الهدف من معرفة ذلك؟ شعرت باليأس، لكني لم أتحدث عنه. لذا بالصمت. رحت أنتظر بقلق.

أصيب بالفواق. فكّرت بالنذر التي لم تكن سيئة. هيمن القلق على هدوئي. كان نونو يصاب بالفواق عادة. تحركت بعصبية، لم أكن أعرف ماذا أفعل. استويت واقفاً، جلست، رحت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

«هل تريد كأساً من شراب التمر هندي البارد؟»

هزّ رأسه.

أحضرت له كأساً بارداً من عصير التمر هندي. وعلى نحو أخرق، ومثل امرأة قروية تنتعل حذاء ذا كعب عال لأول مرة في حياتها، ترنحت في مشيتي، وأخذ كاحليّ يلتويان في كلّ اتجاه، وراحا يؤلماني أيضاً. مددت يدي بالشراب إليه. أشار إليّ نونو بأن أدعه وشأنه. تركته. انتصب في جلسته، تنشق في صدره قدراً من الهواء أكثر مما يستطيع طرده. ظل في ذلك الوضع المنتفخ دون زفير، ثم وفجأة تحرك بقوة، ثم لبث ساكناً مرة أخرى لفترة طويلة.

هل أشهد جناح طير يصفق في الريح إلى نهايته؟

تكلّم!

Twitter: @ketab_n

قال: «عن أبويك».

«ماذا عنهما؟»

بصمت، أخذ رشفة من عصير التمر هندي البارد. أمال رأسه قليلاً إلى زاوية ليتمكن من رؤيتي جانبياً وهو يشرب. جعلني موقع رأسه أرى رمل صحراء بربرا في عينيه.

قال «قلت لهما إنه رغم كلّ شيء، فأنا أحبهما كثيراً، كثيراً جداً، وأحبّك كثيراً جداً أيضاً. قلت لهما إنك حفيدي ووريثي، الشخص الذي سيرث أملاكي كلها».

صمت ليرتاح قليلاً، ورفع يديه وكأنه يقلد طيراً، طائر لا يعرف إن كان عليه أن يمتطي الريح أو أن يجعل طلباته المفرطة متواضعة بأن يرسخ قدميه بقوة على الأرض.

نويت أن أقول يا لك من جدّ رائع، لكني لم أستطع.

تكلّم ببطء شديد، وكان طوال الوقت يميل برأسه إلى الوراء قليلاً ويهزّه، ثم وبحركة سبّاح يفرغ الماء المتبقي من أذنيه. قال: «عندما أصيب بصري بالضعف، بدأت آمل أن تنجو الصومال من الكوارث المحدقة بها. فقد ولتّ، مثلي ـ وأنا على فراش موتي ـ إنها لمأساة أن تُدمر البلاد التي جاهدت أجيال كثيرة في أن تجعلها هامة شيئاً فشيئاً أمام عيوننا الغافلة تماماً. اللعنة، لقد عميت، لأني لم أقرأ التحذيرات. ولم يعر شعبنا اهتماماً للإشارات التي تتنبّأ بحدوث كوارث قادمة. إني ذاهب. بلادنا ذاهبة. نصيحتي لك أن تصنع من حياتك ما تريد أن تصبو إليه».

قلت: «نحن نحبّك أيضاً»، أحسست بالكلمات تخذلني.

«خذ»، قال، وأعطاني مفتاحاً.

«ماذا يفتح هذا المفتاح؟»

Twitter: @ketab_n

قال: «صكوكاً، وصايا، وثائق، كلّ ثروتي».

كان المفتاح يتطابق مع الأخاديد المحفورة على راحة يدي.

تدلّى صمت شديد الغرابة من السقف، راح نونو يحدّق فيه ببصره المتبقي. قلت بعد فترة طويلة من الصمت: «سنشتاق إليك كثيراً». قلت هذه الكلمات لأن الصمت الذي ساد بيننا أخافني. ولم أكن أعرف إن كان عليّ أن أقول شيئاً أم ألوذ بالصمت.

هزّ رأسه بقوة. ثم نشر يديه، راحتاه إلى الأعلى: سحلية ذات بطن مكشوفة باتجاه الشمس. سمعت حفيف أشجار ناعسة في الخارج. جعلني هذا أتقبل موته بموقف رجل تقيّ مخلص شهم يحتضر، واثق من أنه سيعيش فيّ، في أبويّ، في ذاكرة الذين أحبّوه، في الأشجار، في غابته، في رقعة النهر لديه، في هانو، في جميع الذين كان من دواعي حظهم أن يعرفوه.

بدت في عينيه ملامح ذلك الصبي الشقي.

«قرأت شيئاً؟» قال ثم صمت.

«وبعد ذلك، ماذا حدث؟»

لم يجعل الأمر سهلاً عليّ. ولم أستطع أن أتتبع ما يقصده. هل سأعرف ما حدث، متى، ولماذا، ولمن؟ سُيدفن مع الكثير من أسراره، إنذاراته، أحكامه. من أي عشيرة، سيسأل، ويهز كتفيه استهجاناً ويلجأ إلى هذر في الكلام. «لا أستطيع أن أتحمل فكرة التعميم. فأنا شخص، والعشيرة مجموعة من الغوغاء. إني رجل عاقل. أما العشائر فلا». تمنيت أن يحظى الكثير من المقاتلين الذين يعيثون فساداً ويوقعون الخراب في حياة الناس بفرصة أن يسمعوه. «لو كان لدينا الكثير من أمثاله، لما نشب صراع أهلي»، قالت تالادو في وقت مبكر من ذلك اليوم.

Twitter: @ketab_n

«نونو المحبوب، الصادق المجّد في عمله. قرن من الزمن سيموت معه، أفكاره المتعلقة بالتسامح، بالشهامة، ستموت معه أيضاً».

تخليت عن أفكاري المشتّتة، وسألته: «حدثني ماذا حدث يا نونو؟»

حكى لي القصة ذاتها. لكن الكلمات التي استخدمها الآن لم تكن ذاتها. قال: «سمعت انفجاراً خفيفاً في عينيّ، انفجاراً لا يختلف عن انفجار مصباح بعد أن أضاء قرابة ألف ساعة».

«وبعد ذلك؟ »

قال: «وبعد ذلك جاءت شولونغو لزيارتي»، وأضاف بنبرة تشي بالحكمة، «ودخلت أنت عليّ، وكنت جاثياً على ركبتي، أصليّ، يملؤني الإيمان. بعد آثام كثيرة، بعد تذبذبات كثيرة، بعد أن تذوقت من كلّ شيء تقدمه الحياة للأحياء: جثوت على ركبتيّ، سجدت خاشعاً للقوى فوقي».

قلت: «ماذا أفهم من كلّ هذا؟»

فكّر بسؤالي. أجاب: «أظن أن كلّ شيء مرتبط بالسلطة، السبل للتلاعب بأقدار الناس الآخرين. في سنين مراهقتي، لم أكن متواضعاً، كنت مجبولاً من الطين الذي جبل عليه عالم طائش، ذلك النوع المألوف في الأفلام أو القصص. إنك تعرف ذلك النوع؟ عالم متهور، يعرف أكثر من اللازم لمصلحته، وقليل من الإحساس، يدفعه حافز بأن يعيد صنع الكون بصيغته الصارمة. كنت متعطشاً للقوة، ظننت أني إذا استبدلت مجموعة من الرموز السحرية ببعض الرموز التي وضعتها أنا، فقد أتمكن من حكم الرياح والطيور التي تركبها».

أخذ جسده ينشج. علق شيء في حنجرته؟ هل يخنقه قدر مفاجئ من الهواء؟ وجد صعوبة في التنفّس، وثمة اندفاع من التوتّر في الجزء الأعلى من جسده، مثل مياه تفيض في حنجرة نهر. نهضت وانحنيت فوقه. مسكت رسغه. قست نبضه بقدر ما يمكنني. بدا كلّ شيء منتظماً.

Twitter: @ketab_n

سألته: «هل أستدعي طبيباً؟»

«لا داعي».

سألته: «هل أستدعي كاهناً؟ هل أحضر أبويّ؟»

«لا داعي».

همست: «هل لا زلت تحسّ؟»

رأيت ضوءاً خافتاً يجري في عينيه ثم ينطفئ. أمسكت بنبضه في قبضتي، أخذت دقات قلبه تتسارع، وكأن قلب رياضي تمكن من اجتياز شريط النصر.

قال: «أحس بشيء غريب، وكأن طرف ريشة في داخلي يمرر فوق قلبي ويحدث خربشة. ومع ذلك فإني لا أشعر بالألم، الحمد لله. أحكّ أيضاً. لكن بعد ذلك، شولونغو أيضاً. يا له من شيء غريب».

سألته: «هل تريدني أن أفعل شيئاً؟»

«فليبارك الله اليوم»، قال، «لا، شكراً!»

تحرك رأسه، وكأنه يحاول أن يهزّه غير مصدق. أخذ يرتعش. أحدث زاوية قاسية. لكنه قبل أن يكمل الدائرة، كان ثمة شيء في نونو ينهار. يموت. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، وقلبه في سباق ليتجاوز قلباً آخر، قلب الحياة.

جثة واحدة. ثلاثة أسرار.

Twitter: @ketab_n

الفهرس

استهلال ٧
الجزء الأول ٢٩
الفصل الأول ٣١
الفصل الثاني ٥٦
الفصل الثالث ٨٥
الفصل الرابع ١١٢
الفصل الخامس ١٣٩
الفصل السادس ١٦٠
الفصل السابع ١٨٣
الفصل الثامن ٢٠٦
الجزء الثاني ٢٢٧
فاصل ٢٢٩
الجزء الثالث ٢٥٣
الفصل التاسع ٢٥٥
الفصل العاشر ٢٨٢
الفصل الحادي عشر ٣٠٠
الفصل الثاني عشر ٣١٩
الخاتمة ٣٤٤

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

قال: «أحس بشيء غريب، وكأن طرف ريشة في داخلي يمرر فوق قلبي ويحدث خربشة. ومع ذلك فإني لا أشعر بالألم، الحمد لله. أحكّ أيضاً. لكن بعد ذلك، شولونغو أيضاً. يا له من شيء غريب».

سألته: «هل تريدني أن أفعل شيئاً؟».

«فليبارك الله اليوم»، قال، «لا، شكراً!».

تحرك رأسه، وكأنه يحاول أن يهزّه غير مصدق. أخذ يرتعش. أحدث زاوية قاسية. لكنه قبل أن يكمل الدائرة، كان ثمة شيء في نونو ينهار. يموت. كانت عيناه لا تزالان مفتوحتين، وقلبه في سباق ليتجاوز قلباً آخر، قلب الحياة.